رسولنا في حياتنا(٢)

شعاع من السيرة النبوية في العهد المدني

الدعوة والدولة والجهاد

الدكتور راجح عبد الحميد كردي

أستاذ العقيدة والفلسفة والدعوة والسيرة في كلية الشريعة

الجامعة الاردنية – عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

شعاع من السيرة النبوية

في العهد المدني

الدعوة والدولة والجهاد

شعاع من السيرة النبوية

في العهد المدني

الدعوة والدولة والجهاد

تأليف الدكتور راجح عبد الحميد كردي

أستاذ العقيدة والفلسفة والدعوة والسيرة

كلية الشريعة/ الجامعة الأردنية

من مواليد عام ١٩٤٧م

حصل على درجة الليسانس من كلية الشريعة – الاردن عام ١٩٧٠

وحصل على درجة الماجستير في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين/ جامعة الأزهر عام١٩٧٥ .

والدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى في نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة تخصص العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين / جامعة الازهر ١٩٧٩.

يعمل أستاذاً للعقيدة والدعوة والفلسفة والسيرة النبوية في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية

شارك في تأسيس كثير من برامج الدراسات الإسلامية في جامعات العالم العربي

وشارك في التدريس في الجامعات في الأردن والعالم العربي

ورئيسا لقسمي أصول الدين والعقيدة والدعوة، وعميدا لكلية الدعوة وأصول الدين في الأردن

وله عديد من المشاركات في المؤتمرات العلمية والبحثية والأشراف على الرسائل الجامعية ومناقشتها

والمشاركات في العمل الدعوي والخيري

كما أن له مايزيد عن سبعة وعشرين كتابا وبحثا علميا متخصصا.

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ-٢٠١٣م

الإهداء

إلى حبيبي رسول الله ﷺ الذي نالت منه زوجاته رضوان الله عليهنّ؛ أكرم معاملة، وأحنّ صدر، وأرقّ قلب، وأعذب كلمة، وأوسع رحمة، وأعلى تقدير واحترام: أهدي عملي هذا سائلاً الله عز وجل أن يجمعني به في عِلّيين

واقتداءً به ﷺ أهدي كتابي هذا لزوجتي الفاضلة أم عبد الحميد طالبتي في علوم الشريعة، وشيختي في إجازة التلاوة في قراءة حفص عن عاصم من طريق الشاطبية، ورفيقة دربي، ومربية أولادي خير تربية ومهذبتهم أحسن تأديب .

المحتويـــــات

الموضوع الصفحة

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، و أفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين وبعد ؛

فقد عايشت سيرة الحبيب ﷺ ما يزيد عن أربعين عاماً؛ تدريساً وتحليلاً وتدقيقاً وتربيةً، ودعوتُ إلى التأليف فيها بمنهجٍ تحليلي إشعاعي يعيش فيه المسلم الأحداث ويجمع الحديث النبوي من أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته و أوصافه وإشاراته ومراميه مع أحداث السيرة النبوية ليشعَّ فيهما نورُ الحديث مع نبض الحدث فتتأصل حياته ﷺ وتعبق في مفردات حياتنا؛ إيماناً ويقيناً، وأفعالاً وسلوكاً، وقيماً وعاداتٍ وتقاليد، وهداية تهدينا السبيل، وتذيقنا حلاوة الإيمان بنور حُبِّ ربنا وحبِّ رسولنا ﷺ ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ آل عمران: ٣١.ولنبتعد به عن منهج التكرار ومجرد سرد الأحداث، وعن منهج الإسقاط في تحليلها؛ كي نبث حياته وسيرته ﷺ في الأذهان والأعيان ﷺ؛ فإنها حياة هذا الدين في صورته العملية، وكي نجدها عميقة في قلوبنا تنبض بها حياتنا في كل تفاصيلها .

وطبقاً لهذا المنهج جعلت عنوان تأليفي في السيرة تحت عنوان سلسلة رسولنا في حياتنا. وقد أكرمني الله تعالى بإخراج الكتاب الأول من هذه السلسلة بعنوان : شعاع من السيرة في العهد المكي عام خمسة وأربعمائة وألف للهجرة (١٤٠٥هـ)، الموافق لخمسة وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد (١٩٨٥م). وكان من فضل الله تعالى عليَّ أن نال ذلك الكتاب جائزة دولية، وهي جائزة رئيس الجمهورية الباكستانية ضياء الحق رحمه الله تعالى لأحسن كتاب في السيرة النبوية وذلك عام ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف للميلاد. وكنتُ قد وعدتُ بالاستمرار في الكتابة في السيرة بنفس المنهج وتحت عنوان:رسولنا في حياتنا، شعاع من السيرة. وشاءت حكمة الله عز وجل أن يتأخر الجزء الثاني من هذه السلسلة

حيث جمعت مادته عام تسعين وتسعمائة وألف للميلاد، (١٩٩٠م) وفُقدت مَلازمها، وكنت قد كتبت مختصرات من التحليل آنذاك، وانشغلت بعدها بأبحاث الترقية الجامعية حتى منَّ الله تعالى عليَّ فعدت إلى الوفاء بما وعدت به طلابي، وزملائي- ممن كانوا يقترحون عليَّ بإلحاح ضرورة إكمال الجهد بكتابة العهد المدني- فأنجزت الكتاب الثاني من سلسلة رسولنا في حياتنا شعاع من السيرة في العهد المدني الدعوة والدولة والجهاد. وأنا قاصدٌ ما أَعنيه في هذا العنوان؛ لأن قارئ كتب السيرة النبوية في العهد المدني -قديمها وحديثها- غالب ما يتبادر لذهنه أن سيرة الحبيب ﷺ في المدينة ليس فيها إلا الغزوات، وأن القتال هو ديدنها، مع أن هذا العهد في حقيقة الأمر إنما هو عهد أكبر وأوسع وأشمل من مجرد الغزوات؛ حيث أنزل الله تعالى فيه تشريعات الحياة كلها؛ سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية وعبادية، أقام بها دولة مسلمة، وأحيا بها، بل أوجد بها أمة ذات رسالة عالمية خالدة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء: ١٠، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ البقرة: ١٤٣.وأسس فيها فلسفة حضارة، ورسم فيها معالم إدارة؛ إدارة الفرد، وإدارة المؤسسة، وإدارة الدولة، وإدارة العالم، وثبَّت فيها معالم المعرفة بأعلى موضوعاتها وأنواعها؛ معرفة الله تعالى، وأعلى فيها أصول القيم والأخلاق. وبهذا أكمل الله تعالى في هذه السنوات العشر من حياة رسوله ﷺ الدين، وأتم النعمة قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المائدة: ٣ولا بد من التنويه إلى إن واقع مانجده في كتب السيرة -قديماً وحديثاً- من حيث اهتمامها بالغزوات هو لأن

حياة النبي ﷺ فيما سوى غزواته قد صُنِّفت فيها كتب الحديث النبوي وموسوعاته بحسب حاجة الأمة إلى أحكام الإسلام، وأن ما بقي من حياته ﷺ أصبح يطلق عليه علم المغازي والسِّيَر أو السيرة النبوية، -وإن وقعت المغازي والسير كتباً و أبواباً داخل مصنفات الحديث النبوي- حتى أصبح علم المغازي والسير عَلَماً على الكتب المصنفة في السيرة النبوية .

وحقيقة الأمر؛ أننا اليوم بحاجة ماسَّة إلى أن نعرف أن رسول الله ﷺ قد غزا وقاتل ليس من أجل القتال، وإنما من أجل الدعوة إلى الله تعالى، وأن الدعوة إلى الإسلام سبقت القتال أربعة عشر عاماً، وأن مشروعية القتال تأخرت إلى ما بعد الهجرة النبوية، وأن الدعوة إلى الله عز وجل استمرت كذلك ورافقت العهد المدني؛ فالإسلام دعوة، والقتال وسيلة وليس هدفاً. وكل ما في الأمر أن هذه الدعوة بدأت في مكة، وكانت تحملها جماعة داعية إلى الله عز وجل وحركة مضطهدة؛ صبرت وصابرت ثلاثة عشر عاماً حتى فتح الله تعالى عليها بالهجرة إلى المدينة، والانتقال إلى هيئة دولة تحكم بشريعة الإسلام، وتحمله دعوته لتحرر به شعوب الأرض من الجاهلية إلى الإسلام، ومن عبادة غير الله إلى عبادة الله وحده لا شريك له،-من الشرك إلى التوحيد- ومن جَوْر الأديان الى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعة الدنيا والآخرة. وأصبح لهذه الدعوة وضع مكافئ لأعدائها من؛ جيش صاحب رسالة، وقوة في حدود الاستطاعة؛ لِتُرْهِبَ بها أعداء الله عز وجل، وتذود عن حماها، وتدفع الشر عن أهلها. فأصبح الجهاد بمعنى القتال ضرورة لتثبيت أركان الدين، والدفاع عن الأمة، ونشر الدعوة، وتبليغ كلمة الله إلى خَلْق الله تعالى.

ولهذا كله جاء عنوان هذا الكتاب الثاني من سلسلة {رسولنا في حياتنا (٢) شعاع من السيرة في العهد المدني الدعوة والدولة والجهاد} على أمل أن نستكمل السلسلة إن شاء الله تحت عناوين قادمة من شعاع من السيرة النبوية في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والحياة التربوية وفي مختلف شؤون الحياة؛ باعتبار أن حياة رسولنا ﷺ وسيرته

العامة هي: سيرة الدين، وحياة الأمة ؛فهو عليه الصلاة والسلام قدوة للمسلمين الذي يجب أن يستقر يقينها في قلوبهم ويشع نورها من خلجات وجداناهم، وتُرى تطبيقاها في أفعال جوارحهم، وفي علاقاهم مع ربهم ورسولهم وأنفسهم وشعوبهم والعالم كله من حولهم؛ طبقاً لمفهوم عالمية السيرة الممثلة لعالمية الرسالة؛ فمحمد ﷺ ليس للمسلمين وحدهم، وإنما بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، فكل إنسان مؤمن وغير مؤمن–منذ بعثته ﷺ إلى قيام الساعة– له في حياة رسول الله ﷺ نصيب من وحي رباني، وحكم شرعي وهَدْي نبوي، في المعاملة والسلوك والواجبات والحقوق؛ له أو عليه.

وطبقاً لفلسفة التأليف في السيرة التي نهجتها في هذا الكتاب جعلت الدعوة إلى الله تعالى هي سياسة رسول الله ﷺ في الصراع مع الآخرين؛ فهي القصد الحقيقي، والهدف الظاهر البَيِّن في غزواته وقتاله للمشركين والقبائل العربية في الجزيرة العربية واليهود والروم ودول العالم والمنافقين؛ قبل القتال ومعه وبعده؛ حتى تقوم الحجة عليهم، كما قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب حين أمَّره على جيش المسلمين إلى خيبر:" يا علي! ادعهم إلى الإسلام؛ فَلَأَن يهدي الله بك امرءاً خير لك من حُمُر النَّعم".

وجعلت تنظيم هذا الكتاب في فصول ثمانية عالجت فيها:

- في الفصل الأول: الهجرة النبوية وبناء الدولة المسلمة.
- وفي الفصل الثاني: الدعوة والجهاد والسرايا.
- وفي الفصل الثالث: الدعوة وجهاد المشركين في الجزيرة العربية من غزوات رسول الله ﷺ للمشركين العرب: قريش والأحزاب وسائر القبائل العربية، وذلك في غزوات بدرٍ، وأُحُد، وبني المصطلق، والخندق، والحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين.
- وفي الفصل الرابع: دعوة اليهود إلى الإسلام، والصراع معهم في غزوات: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وغزوة خيبر.

– وفي الفصل الخامس: دعوة الدول الكبرى إلى الإسلام والصراع معها؛ طبقاً لمفهوم عالمية الرسالة. وعالجت فيه كذلك دعوة الناس خارج الجزيرة العربية بكتب النبي ﷺ ورسائله إلى عظماء زمانه. وبعث أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما.

– وفي الفصل السادس: الدعوة وجهاد القوة العميقة؛ بالصراع مع المنافقين. وسميت ظاهرة النفاق في المدينة القوة العميقة لخطورتها؛ عدواً داخلياً يتدسس في ثنايا المجتمع المسلم.

– وفي الفصل السابع: خواتيم العهد المدني. وفيه عام الوفود والقبائل، ودخول الناس في دين الله أفوجاً، وحج أبي بكر رضي الله عنه، وإعلان تطهير مكة والجزيرة العربية من الشرك اعتقاداً، ومن مظاهره عبادة وحجّاً. وعالجت في هذا الفصل أيضاً حجة الوداع لرسول الله ﷺ، وقد أعلن الله فيها اكتمال الدين وإتمام النعمة، بما هيأ المسلمين نفسيّاً لوداع رسول الله ﷺ قبل وفاته ﷺ.

– وفي الفصل الثامن: عالجت ما أحزن أصحابَ النبي ﷺ ويُحْزِن أحبابه وأمته، وهو بعنوان في الرفيق الأعلى؛ حيث عنونت لهذا الفصل بالعبارة التي كررها النبي ﷺ وهو يحتضر حين خُيِّرَ بين الخير الدائم في الدنيا والموت ولقاء ربه، فاختار لقاء الله تعالى قائلاً : في الرفيق الأعلى . وكان في هذا الفصل مبحث في مرضه ﷺ ، وتحليل وصاياه، وفجيعة الأمة بوفاته ﷺ، وختمت هذا الفصل والكتاب بمبحث أخير نصّيّ في روايات مرضه ووفاته ﷺ من صحيح البخاري؛ إذ وجدته أبلغ في توصيل المراد. والله تعالى من وراء القصد.

أما منهجي في الكتابة فكان منهجاً تحليلياً لأحداث السيرة النبوية في العهد المدني، بعد جمع هذه الأحداث من كتب السيرة النبوية، ولقد كان أكثر اعتمادي على كتاب السيرة النبوية لابن هشام، وفي غالبها تلك التي صرح فيها ابن اسحق بالتحديث بناءً على قاعدة أن ابن اسحق إذا صرح بالسماع أو التحديث قبلت روايته وإذا عنن دلس، ولقد وَثّقتُ

هذه الروايات أيضاً مما صح من روايات السيرة النبوية، كما اعتمدت الأحاديث الواردة في صحيحي البخاري ومسلم، ولقد اعتمدت تصحيح الشيخ المرحوم ابننا وطالبنا ابراهيم العلي في كتابه صحيح السيرة النبوية، وأفدت كذلك من روايات صحيحة ذكرها الأستاذ الكريم الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه السيرة النبوية الصحيحة. وبهذا فأنا راض ولله الحمد عن هذا الكتاب من حيث دقة مصادره وتوثيقاته وصحة رواياته، مما جعله بعيداً عن روايات السيرة الضعيفة والروايات الواهية.

ولقد أسعدني في آخر يوم أنهيت فيه تأليف هذا الكتاب اتصالان هاتفيان مفاجئان، وبقدر من الله تعالى في يوم واحد، وبينهما ساعات؛ أحدهما: من أخت مسلمة في أحد مراكز تحفيظ القرآن تقول: أنهينا في تدريسنا شعاع من السيرة في العهد المكي، فمتى نرى شعاع السيرة في العهد المدني ؟ فبشرتها أنني الآن في آخر ساعة من الفراغ من تأليفه. وبعد ساعات يردني الاتصال الثاني من ولدنا وطالبنا فضيلة القاضي الشيخ زيد إبراهيم الكيلاني وهو ابن شيخنا وأستاذنا المبارك الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني رحمه الله رحمةً واسعة يبلغني رؤيا رآها في ليلة ذلك اليوم مفادها: أنه يسألني أين ما كُنتَ وعدتَنا به قبل سنوات – وأنت تدرسنا مادة السيرة النبوية في الجامعة الأردنية– من شعاع السيرة في العهد المدني ؟ فبكيتُ وبشرتُه أنني قدأتمَّ الله تعالى عليّ النعمة بالوفاء بالوعد؛ فقبل ساعات يا شيخ زيد، فاتصالك بي ورؤياك ما رايت أفرحني وأسعدني كما كانت اتصالات والدك الحبيب رحمه الله دائماً تُسعدني وتفرِّحني.

وفعلاً فإني سعيد بهذا الإنجاز وأقول : يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك؛ فقد أتممتَ عليَّ نعمة الوفاء لحبيبك ﷺ ومن وعدتهم، وطالما دعوتك في رحلات حجي وعمرتي أن تعينني على إنجاز هذا العمل وقد مننت علي وأكرمتني به، فأَكْرِمْني

اللهم بصحبة حبيبك ﷺ واسقني من حوضه شربة هنيئة مريئة لا أظمأ بعدها أبداً واجمعني به في علّيّين فهو القائل ﷺ : " المرء مع من أحب"(١).

وإني في نهاية هذه المقدمة لأشكر لولدي سعيد-أبي راجح- جهده المبارك ،ومساعدته لي في طباعة هذا الكتاب، فأسأل الله عز وجل أن يكرمه في الدنيا والآخرة، ويحفظ عليه صحته وعافيته، وأن يرضى عنه وعن سائر إخوانه وأخواته فإني عنهم راضٍ .

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه

وكتبه راجح عبد الحميد سعيد كردي

عمان – الأردن

١٥/صفر/١٤٣٥هـ

١٧/١٢/٢٠١٣م

الفصل الأول

(١) مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم الحديث ٢٦٤٠

الهجرة النبوية وبناء الدولة المسلمة

المبحث الأول: مقدمات الهجرة وخطتها.

المبحث الثاني: طريق الهجرة وأحداثها.

المبحث الثالث: نهاية الرحلة والوصول إلى المدينة.

المبحث الرابع: دعائم الدولة المسلمة.

المبحث الخامس: من دروس الهجرة وعبرها.

الفصل الأول

الهجرة النبوية وبناء الدولة المسلمة

المبحث الأول: مُقدِّماتُ الهجرة وخُطَّتُها

أولاً: قَلَقُ الزعامة في قريش ومؤامُرتها:

قلقت قريش كثيراً مما آلت إليه العلاقة مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودعوته، بعد أن بذلت كل جهودها عبر ثلاث عشرة سنة، رغم ما بذلته من محاولات الاحتواء والإغراء، والتعذيب والإيذاء، والتهجير إلى الحبشة، واليأس من استعادة المهاجرين ، وها هو ذا محمد ﷺ ومن معه يكادون يخرجون تماماً من قبضتها، فيُقيمون لأنفسهم وجوداً، ويجدون لهم سنداً في بيئة جديدة، وقبائل جديدة؛ من الأوس والخزرج، مما لا سلطان لأهل مكة عليهم، ويتمكن محمد ﷺ من إيجاد قاعدة صلبة، وأرض يقيم فيها دينه، وينشر فيها دعوته، وقد تصبح مصدر تهديد لقريش في طريق تجارتها إلى الشام، وبما لا يمكنها السيطرة عليه، ولا التفكير في طريقة كبح حركته، أو التحكم في مسيرته. فعمدت إلى لقاءٍ تَشاوري على مستوى زعماء قبائلها لتَدارُك أمرها في دار النّدوة[1]؛ وذلك يوم الخميس في السادس والعشرين من صفر في بداية السنة الرابعة للبعثة، الموافق للثاني عشر من سبتمبر–أيلول– سنة ستمائة واثنتين وعشرين ميلادية (٦٢٢م)[2]. وقد تداول زعماء قريش الآراء المطروحة في حَسْم المسألة؛ فرأى بعضهم سجن ﷺ وتقييده بالحديد، ورأى آخرون طرده

(١) وهي دار قصي بن كلاب في مكة، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها .انظر، ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري،(ت ٢١٣هـ)، السيرة النبوية ، مطبوعة مع الروض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي، (٥٠٨-٥٨١هـ)، طبعة مؤسسة نبع الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٣م، ٢٢١/٢. (وسيُشار الى هذا المرجع فيما بعد ب: ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض).

(٢) انظر، التحقق من التاريخ، المباركفوري،صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ط٤، توزيع مركز الدعوة، نشر مركز دار الذخائر، الدمام ،١٤١٤هـ =١٩٩٤م معتمداً تحقيقات محمد سليمان المنصورفوري في كتابه رحمة العالمين، ٩٥/١ ، ٩٧، ١٠٢، ٤٧١/٢.

وإخراجه ونفيه من البلاد، ولا يبالون به أين يذهب. وكان الرأي الغالب في ذلك الاجتماع الرأي الثالث لأبي جهل؛ وهو قتلُه بتصفية جماعية تشترك فيها قبائل مكة مجتمعة؛ باختيار شابٍ جَلْدٍ قويٍّ من كل قبيلة، ومع كل شابٍّ سيفُه؛ فيضربونه ضربة رجل واحد فيضيع، دمه بين القبائل، ولا يملك بنو عبد مناف – قومه– الثأر له في مواجهة القبائل جميعاً، فيقبلون الدِّيَة، فتستريح مكة من محمد ودعوته.[1] واتفقوا على الإعداد للمؤامرة من أجل تنفيذها. ويبدو أنهم تواعدوا بعد الإعداد والتجهيز أن تكون ليلةُ الإثنين من الثاني عشر من ربيع الأول هي الليلةَ الحاسمةَ للتنفيذ. حيث روى الحاكم أنها:" تواترت الأخبار أن خروجَه ﷺ كان يوم الإثنين، ودخولَه المدينة كان يوم الإثنين."[2]

ثانياً: رسول الله ﷺ ينتظرُ الإِذن بالهجرة:

هاجر كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة إلى يثرب،.[3] وكان لذلك أثر كبير في المجتمع الجاهلي؛ حيث أن هجرة الوطن والأهل والعشيرة في مجتمع قَبَلِيٍّ متماسك في علاقة الدم ليس أمراً هيناً لديهم، ولا يكون في الأحوال العادية. شعر النبي ﷺ أن الخطوة القادمة هي استكمال ما أخبره به ربُّه سبحانه ليلة الإسراء، وأخبر به أصحابَه بأن يثرب هي الدار القادمة لهجرته ودعوته، وقد نفّذ أمر ربِّه؛ فهاجر أكثر أصحابه إليها، ولم يبق في مكة إلا من أخَّرهما النبي عن الهجرة؛ وهما وأبو بكر وعليٌّ رضي الله عنهما، وها هما وإخوانهما من المسلمين المهاجرين والأنصار ينتظرون الخطوة القادمة، وهي هجرة نبيِّهم وقائدهم لِيَنْضَمَّ إليهم، وقد سبق أن أخبرهم ذلك بقوله:" أُريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابَتَيْن."[4] ولما كان أبو بكر رضي الله عنه يستأذن النبي

(١)انظر الرواية بتفاصيلها في ابن هشام السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٢٢/٢.

(٢)ابن حجر،فتح الباري٢٣٦/٧.

(٣) والتي أصبح اسمها المدينة كما سماها القرآن بقوله تعالى ﴿ مَاكَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ التوبة: ١٢٠، وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طابة وطيبة، ولها أسماء أخرى. انظر، السهيلي، الروض الأنف،٢٥١/٢.

(٤) واللابتان: هما سلسلتا الجبال المحيطتان بالمدينة، والرواية في صحيح البخاري، برقم ٣٩٠٥.

ﷺ في الهجرة كان يسْتَمْهِلُه ويقول له: لا تعجلْ، لعلّ الله يجعل لك صاحباً. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله لِيَصْحَبَه، وعَلَف راحلتين عنده أربعة أشهر؛[1] ينتظر الإِذن؛ واحدة لرسول اللهﷺ ، والأخرى له.

وبينما كان ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذن ربه له بالهجرة، وإذا بجبريل عليه السلام يأتيه بالوحي بأمره تعالى له بها بقوله:﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ الإسراء ٨٠[2] وقد أخبر اللهُ رسولَه ﷺ بما تآمرت به قريش عليه في دار الندوة، بما أشار إليه تعالى بقوله:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ الأنفال: ٣٠.

ثالثاً: رسول الله ﷺ يَشْرَع في الهجرة ويُحْكِم التخطيط لها:

أسرع النبي ﷺ بعد علمه بما تُعِدُّ له قريش فوضع خُطَّته على النحو الآتي:

١- ذهب ليخبر أبا بكر، وأشركه في التخطيط للخروج: إذ ذهب إليه في وقت الظهيرة، وهو وقت يَقيل الناس فيه، وكان مُتَقَنِّعاً-يلبس قناعاً للتخفّي حتى لا يعرفه أحد- ليخبر أبا بكر بالاستعداد. وقد رَوت السيدة عائشة رضي الله عنها تفاصيل الأحداث في هذه الاستعدادات إذ قالت:" فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نَحْر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتقَنِّعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر:فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ! قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن، فأذن له، فدخل. فقال النبي ﷺ لأبي بكر:أَخرِج مَن عِنْدَك.

(١) انظر الرواية بتمامها في صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ٢١٣/٧.

(٢) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب التفسير، وفي سورة بني اسرائيل، رقم٣١٣٩، وقال:حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي على تصحيحه، انظر، الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ٣/٣.

فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك[١] بأبي أنت يا رسول الله. قال: فإني قد أُذن لي في الخروج. فقال أبو بكر: الصحابَةَ[٢] بأبي أنت يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ : نعم. فقال أبو بكر –فخذ بأبي أنت وأمي– يا رسول الله إحدى راحلتَيَّ هاتين. فقال رسول الله ﷺ: بالثَّمن. قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ الجهاز،[٣] ووضعنا لهم سفرة في جِراب،[٤] فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها[٥] فربطت به الجراب؛ وبذلك سُمِّيت ذات النطاق، أو ذات النِّطاقين؛ لأنها ربطت الجراب بقطعة من نطاقها، وربطت وسطها بالنصف الآخر".[٦]

٢- رسم النبي ﷺ الخُطة الأمنية الأولى للهجرة مع أبي بكر على تحديد مكان اللقاء وطريق المسير ومكان الاختفاء ومدته؛ حيث اتفق رسول الله ﷺ مع أبي بكر على أن يكون جاهزاً عند المجيء إليه ليخرجا إلى غار ثور في تخفِيَة لطريق الخروج من مكة على غير الطريق المعروف، وليختبئا في الغار ثلاثة أيام؛ لأن قريشاً ستَجِدُّ في طلبهما خلال الأيام الثلاثة الأولى، فلمّا لا تجدهما ستيأس فيخرجان في مسيرهما بعد ذلك. وهذه خطة أمنية رائعة. واتفقا كذلك على استئجار عبد الله بن أُريقط الدَّيْلي دليلاً من المشركين،– وكان الرجل خبيراً بالطرق وأميناً– ليأتي اليهما بعد ثلاثة أيام ليسلك بهما طريقاً غير معتاد إلى المدينة، وإن كان فيه وعورة، وأن يصطحبا معهما عبد الله بن أبي بكر ليبيت عندهما في الغار، ثم يخرج عند الفجر في الظلام ليجمع لهما أخبار القوم، ويأتي إليهما في الظلام.

---

(١) أي أن الأمر في أمان؛ فإن عائشة هي الموجودة، وهو زوجتك؛ إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عقد زواجها على نفسه وهي في سن السادسة من عمرها، وبالتالي فهي أمينة على سِرِّك.

(٢) أي: ائذن لي بصحبتك ومرافقتك في الهجرة.

(٣) أي: أحسنه وأكمله.

(٤) أي: طعاماً في وعاء من الجلد.

(٥) حزامها.

(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري،باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ٢٣١/٧-٢٣٢، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)، ٢٢٣/٢-٢٢٤

واتفقا مع عامر بن فهيرة– وهو مولى وراعٍ لغنم أبي بكر، ومسلمٌ أيضاً–[1] ليعُفِيَ بآثار أقدام غنمه على آثار الأقدام في طريق الغار، وليحلب لهما لبن[2] العشاء.

٣– خطَّط النبي ﷺ في الليلة التي عرف أنهم سيهاجمون فيها بيته ليقتلوه؛ بأن اتفق مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يوهِم الكفار أن النبي ﷺ نائم في فراشه في البيت؛ بأن ينام في فراشه، ويتسجّى بِبُردِه الأخضر المعروف لديهم، وطمْأن علياً أنه سوف لا يصل منهم إليه أذى بإذن الله. كل ذلك حتى يوهمهم رسول الله أنه نائم في الفراش، ويخرج من البيت دون أن يشعروا به. وأن يقوم عليٌّ في الصباح؛ فيؤَدّي إليهم أماناتهم وودائعهم التي كانوا يأتمنون النبي ﷺ عليها.

٤– خرج النبي ﷺ بعد أن بات علي في فراشه، وزعماء القوم والقَتَلة المتجهزون يحيطون بالبيت ينتظرون ساعة الصفر لاقتراف تنفيذ جريمتهم بقتل النبيﷺ، خرج وهم لا يشعرون؛ إذ أنهم مطمئنون أن محمداً نائم في الفراش. وقد روت كتب السيرة خروجه ﷺ ،وأنه رمى قبضة من التراب فأصابتهم على رؤوسهم، وقرأ عليهم من أوائل سورة يس... إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يس: ٩[3] ،وجاءهم بعد ذلك –وهم ينتظرون– مَن يخبرهم أن محمداً قد خرج، وأنه حثا التراب على رؤوسهم، ووجدوا أثر ذلك التراب، ومع ذلك لم يُصَدِّقوه؛ لأن الله أعمى بصائرهم؛ فهم من شدة حرصهم على قتله لم يريدوا أن يصدِّقوا بخروجه ونجاته، ويتعلَّلون بأنه ما زال يتقلَّب في فراشه أمام أعينهم، ولم يكونوا يفكرون أن الخُطة في التمويه عليهم بأن علياً هو البائت في الفراش. وكان ذلك من حكمة الله عز وجل حتى يتمكن

(١) انظر، إسلام عامر قبل الهجرة في السيرة النبوية، (مع الروض)،١/٢٩٢.

(٢) انظر الروايات الصحيحة في صحيح البخاري، شرح فتح الباري، ٧/٢٣١-٢٣٢.

(٣) وردت روايات مرسلة في هذه القصة، ورواها ابن اسحق بسند صحيح إلى محمد بن كعب القرظي بصيغة التحديث، انظر السيرة النبوية (مع الروض)، ٢١/٢٢٢-٢٢٣ ،والرواية لها شاهد وهي حسنة. انظر، ابراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ط١، دار النفائس، عمان، ١٤١٥هـ=١٩٩٥م، ص١٢٠-١٢١.

رسول الله ﷺ من اللقاء بأبي بكر ليخرجا من مكة قبل انتباه القوم، وقبل البدء بالبحث عنهما بمدة كافية.

المبحث الثاني: طريق الهجرة وأحداثُها

أولاً: إلى غار ثور:

تمكن النبي ﷺ بفضل الله تعالى من الخروج آمناً سالماً ليلتقي أبا بكر ويخرجا معاً إلى غار ثور. وتشير الرواية الصحيحة أن رسول الله ﷺ جاء إلى بيت أبي بكر وخرجا معاً من خوخة–فتحة– في دار أبي بكر، وأنهما انطلقا معاً حتى أتيا الغار. ويشير العمري في كتابه السيرة النبوية الصحيحة إلى رواية أخرى حسنة تفيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى الغار من بيته، وأن أبا بكر انطلق فدخل معه الغار، أي أنهما لم يلتقيا معاً في بيت أبي بكر، ولم ينطلقا معاً من بيت أبي بكر. ويوفِّق العمري بين الروايتين أنهما اصطحبا معاً من بئر ميمون في الطريق إلى الغار، ثم انطلقا من هناك.(1)ومن الجدير بالذكر أن أبا بكر قد حمل جميع ماله معه في الهجرة، ولم يترك لأهل بيته وأولاده شيئاً منها، ولما جاء أبوه أبوقحافة، وقد كان أعمى، فسأل أولاد أبي بكر إن كان أبوهم قد ترك لهم شيئاً، أم أنه قد فجعهم بماله كما قد فجعهم بنفسه؟ فوضعوا له أحجاراً في كيس وفي فتحة في البيت، وقالوا له: لقد ترك لنا خيراً كثيراً، ووضعوا يده على المكان يوهمونه أنه المال، فقال: لابأس، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ.(2)

ولما كان رسول الله ﷺ في الطريق الى الغار رأى أبابكر يسبقه تارة، ويمشي خلفه تارة أخرى، فسأله: "يا أبا يكر! مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟ فقال: يا رسول الله! أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك.(...) والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من مُلِمَّة (مصيبة) إلا أن تكون بي دونك. فلما انتهيا إلى الغار قال

---

(1) انظر العمري ، أكرم ضياء الدين، السيرة النبوية الصحيحة، ط٥، مكتبة العلوم والحكم،المدينة المنورة،١٤١٣هـ=١٩٩٣م،٢٠٩/١-٢١١، وانظر الرواية الصحيحة في البخاري بشرح فتح الباري، ٣٨٩/٧، وتوثيقات الرواية الحسنة في مسند أحمد،طبعة أحمد شاكر، ٢٦/٥ – ٢٧ .

(2)الحاكم، المستدرك، ٥/٣-٦، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر مسند أحمد، الفتح الرباني للساعاتي، ٢٨٢/٢٠، وانظر، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٢٥/٢

أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ (أي أُفتش وأفحص) لك الغار. فدخل واستبرأ حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجُحْرَة، فقال: مكانك با رسول الله حتى أستبرئ لك الجُحْرة، فدخل واستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل.

ثانياً:رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ في الغار:

بقي النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ في الغار ثلاث ليالٍ هي: ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد[١] مختَفِيَيْن مع إحكامٍ في تنفيذ الخطة، وقريشٌ تبحث عنهما حتى وصلت أقدام الباحثين عنهما باب الغار، وكانت الخُطَّة عصيبة، تخوّف منها أبو بكر، وهو يقول لرسول اللهﷺ : يا رسول الله! لو نظر أحدهم إلى مكان قدمه لرآنا. فيُطَمْئنُه النبي ﷺ بقوله: يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما.[٢] وقد شاءت حكمة الله عز وجل أن تطيش أبصار المتَعَقِّبين، وأن يحمي الله رسوله وصاحبه بأضعف وسيلة للحماية، بل هي ليس فيها أية قوة للحماية؛ وذلك بأن سخّر الله عنكبوتاً نسج على باب الغار نسيجاً جعل الكفار يقولون: لو كان في الغار أحد لشُقّ هذا النسيج للعنكبوت، فتراجعوا ولم يبحثوا في الغار، ولم يدخلوه. ففي رواية ابن عباس"... فاقتصّوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعَدوا في الجبل فمرّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل ها هنالم يكن نسج العنكبوت على بابه."[٣]

ثالثاً:في الطريق إلى يثرب –المدينة–:

خرج رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر ومعهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، ودليلهما عبد الله بن أرَيْقِط صباح ليلة الإثنين بعد ثلاثة أيام في الغار، وسلك بهم الدليل

---

(١) انظر، ابن حجر، فتح الباري، ٣٣٦/٧.

(٢) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢٥٧/٧.

(٣) خرج الرواية ابراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية، ص١٢٢ من حديث أحمد في المسند ٣٤٨/١، وعبد الرزاق في المصنف٣٨٩/٥، وابن حجر في الفتح٢٣٦/٧ ، وقال: سنده حسن وانتهى إلى أن الحديث حسن.

الخبير في اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غرباً إلى الساحل حتى إذا وصل طريقاًلم يألفه المشركون اتجه شمالاً إلى طريق على شاطىء البحر الأحمر. وهذا الطريق الذي سلكه كان نادراً ما يُسلَك، وفيه وعورة، وذلك حتى يُعمّي على المشركين الذين أعلنوا جائزة مقدارها مائة ناقة لمن يُلقي القبض على رسول اللهﷺ .[1]

وفي طريق الهجرة وقعت أحداث تستأهل أن تُسجَّل لما فيها من عصمة رسول الله ﷺ بحِفْظ الله له من الأذى، ولما فيها من دلائل نبوَّته عليه الصلاة والسلام؛ أهمها:

١- قصة سُراقة:

ما أعلنت قريش جائزهّا ، سمع سُراقة بن مالك الجعشمي ذلك، فلما سمع في أحد المجالس كلام رجل من قومه أنه رأى سواداً بالساحل، وأنه ربَّما يكون محمداً وأصحابه، فأسْكَتَه سُراقة حتى لا يسمعه أحد فيسبقه إلى كسب الجائزة، فقال: ليسوا هم، ولكنهم فلان وفلان وفلان قد انطلقوا، ثم أمر زوجته بتجهيز فرسه، وخرج متخفِّيا ليلحق بالرسول ومن معه ليفوز بالجائزة، وأسرع حتى يدركهم، وأخذ قِداحه ليستقسم بها على عادة الجاهلية، فخرج لهم سهم أن يضرَّهم أم لا؟ فخرج له: لا، وهو يكره ذلك، فعصى أزلامه، فخرّت به فرسه، وساخت يداها في الرمل حتى بلغت ركبتيْها، ثم عاود الاستقسام مرة أخرى، وخروج له ما يكره، فركب وأسرع، فحصل لفرسه ما حصل لها أول مرة، ثم استقسم ثالثة، وخرج له ما يكره، فلما كاد يلحق بالرسول وأصحابه ساخت أيدي فرسه في الرمال، فعلم أن النبي ﷺ ومَن معه محفوظون وممنوعون من ايذائه لهم، ويقول في تتمَّة قصته التي يرويها هو"... فناديتُهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتُهم، ووقع في نفسي ما لقيتُ من الحبس عنهم أن الله سيظهر أمر رسول اللهﷺ ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدِّيَة،[2] وأخبرهّم ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزّاد والمتاع، فلم

(١)انظر تفاصيل الرحلة ووصف الطريق في السيرة النبوية لابن هشام (مع الروض)، ٢٣٦/٢.

(٢)يقصد الجائزة من الإبل وهي مائة، وهي الدية عند العرب يومئذ، وقد اعتمدها الإسلام بعد ذلك.

يرزآني،[1] ولم يسألاني إلا أن قال: اخْفِ عنا، فسألتُه (أي النبي) أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم،[2] ثم مضى رسول اللهﷺ ."[3] وفعلاً عاد سراقة وخرج يقول لقريش: استبرأت لكم الخبر، وقد كُفيتُموه، ما ها هنا، –أي لا يعثر عليه– وجعلهم يائسين من البحث عنه. فسبحان ربي! كيف غيّر حال هذا الرجل، وقد أسلم، فقد قيل فيه:"كان أول النهار جاهداً عليه (أي طالباً قتله) وفي آخر النهار مَسْلَمَةً له (أي حارساً له بإخفاء أخباره عن الكفار)".[4] ويروي السهيلي أن عمر بن الخطاب ألبس سُراقة سواريْ كسرى حين فتح المسلمون بلاد فارس، وقال :الحمد لله الذي سلب هذا كسرى، وكسا به سراقة حين أسلم.[5]

٢– قصة شاة أم مَعْبَد ودلائل النبوة:

مرَّ رسول الله ﷺ ومن معه في طريق هجرته بخيمة فيها امرأة كريمة وقوية، "فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وقالت لهم: والله لو كان عندي شيْءٌ ما أُعْوِزُكم القِرى،(أي طعام الضيف) فنظر رسول الله ﷺ إلى شاةٍ، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلَّفها الجَهْد(أي الهزال والضعف) عن الغنم. قال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجْهَدُ(أي أضعف) من ذلك. قال: أتأذنين لي أن أحلُبها؟ قالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيتَ بها حَلْباً فاحلُبها. فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضَرعها، وسمّى الله تعالى، ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت عليه (أي فرجت رجلها ورفعتها للحلب) فاجترّت، فدعا بإناء يربض الرهط، (أي كبير يروي جماعة كثيرة) فحلب فيه ثجّاً (بغزارة) حتى

---

(١)أي استغنيا عن الحاجة لي.

(٢)أي جِلْد.

(٣)الرواية بتمامها أخرجها البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٣٩٠٦ ، انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ٢٣٨/٧، واستكمل تخريجه في مسلم، باب الزهد، رقم ٢٠٠٩ ، وابن سعد في الطبقات، ٢٣٢/١ ، والحاكم في المستدرك٦/٣-٧، وابن هشام في السيرة (مع الروض)،٢٢٦/٢.

(٤)أخرجه البخاري في صحيحه في مناقب الانصار، باب هجرة النبي، رقم٣٩١١،البخاري بشرح فتح البلري ، ٢٤٩/٧.

(٥)انظر السيرة النبوية (مع الروض)،٢٢٦/٢ ، والسهلي، الروض الأنف،٢٣٣/٢.

علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا، وشرب آخرهم حتى أراضوا ،(أي كرروا الشرب حتى بالغوا في الرّيّ)، ثم حلب فيه الثانية على بدْءٍ حتى ملأ الإناء، ثم غادرها عندها، ثم بايعها، (أي على الإسلام) ثم ارتحلوا عنها."[1] ولما جاء زوجها وصفت له ما جرى، ووصفت له جمالَ إشراقة الرجل الذي حلّ بخيمتها، وحُسنَ خَلْقه وخُلُقِه، ووقارَه وكثافةَ لحيته، وحلاوةَ منطقه، وأنه أنْضَرُ الثلاثة الذين كانوا معه منظراً، وأحسنهم قَدْرا، ومدى حفاوتهم به، وإنصاتهم لقوله. فقال أبو معبد(أي زوجها):"هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِرَ لنا من أمره ما ذُكِر، ولقد همَمْت أن أصاحبه."[2] وهذه القصة في أن تحلب الشاةُ هذا اللبن الغزير وهي لا لبن فيها، وهي أضعف من أن يكون فيها لبن؛ إنما كان ببركة دعاء النبي ﷺ لها عند مسحه ضرعها، وإنه لمن من دلائل صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

٣- ذكاء أبي بكر رضي الله عنه:

ومن طريف القصص في أمْن الرحلة ما كان من ذكاء أبي بكر رضي الله عنه حين لقيهم رجل في الطريق، وكان يعرف أبا بكر، ولا يعرف النبيﷺ ، فسأل أبا بكر: من هذا الرجل الذي بين يديْك؟ فأجابه أبو بكر: رجل يهديني السبيل. فسكت الرجل واكتفى بالإجابة. وجوابُ أبي بكر فيه ذكاء إذ أجاب بالتورية، وهو صادق فيما قال؛ لأن النبي ﷺ يهديه طريق الخير، ولم يصرح باسمه حتى لا يُشيع الرجل الخبر فينكشف سرُّ الرحلة، تأميناً لرسول اللهﷺ .[3]

(١)انظر الرواية بتمامها في صحيح السيرة النبوية، ص١٢٧-١٢٩ ،وخرج الحديث عن الحاكم في المستدرك ٩/٣ – ١٠ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وقال: صحيح.

(٢)انظر تتمة الرواية في المرجع السابق

(٣)انظر الرواية في صحيح السيرة ص٢٧ ،مخرجة من صحيح البخاري بفتح الباري،٢٤٩/٧، باب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم رقم٣٩١١، ومسند أحمد في الفتح الرباني للساعاتي٢٨٨/٢.

كما أن بريدة الأسلمي كان رئيس قومه، وقد سمع بالجائزة، وكان في طريق الهجرة قبل المدينة، ولما لقي النبي صلى الله عليه وسلم طمع في الجائزة، فلما كلمه النبيﷺ ، وتكلم معه تحوّلت نِيَّتُه، وبادر إلى الدخول في الإسلام، وأسلم معه ثمانون من قومه، ثم خلع عمامته، وجعلها رايةً على رُمْحه ترفرف ببيانها، وتبشر بقدوم ملك الأمن وحامي السلام وناشر العدل[1] رسول اللهﷺ .

كما لقي النبي ﷺ بين يدَيْ دخوله المدينة كذلك في الطريق الزبير بن العوام في ركب من المسلمين، وكانوا تجاراً قافلين–أي عائدين– من الشام ،فكسا الزبير رسولَ الله ﷺ ثياب بياض.[2]

(١)انظر المنصورفوري،رحمة العالمين،٩٦/١.

(٢)انظر رواية البخاري بفتح الباري رقم٣٩٠٦. وصورة الرواية مرسلة كما قال الحافظ بن حجر، لكن وصلها الحاكم عند الزهري١/٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.انظر، العلي، صحيح السيرة ص١٢٩، ورحمة العالمين ص١٩٠.

المبحث الثالث: نهاية الرحلة والوصول إلى المدينة

أولاً: الوصول إلى قباء، وبناء مسجد قباء:

وصل النبي ﷺ ومن معه في أول محطة وصل فيها إلى قباء يوم الإثنين في الثامن من ربيع الأول، عام الثالث عشر من البعثة، والموافق للثالث والعشرين من أيلول سنة ستمائة واثنتين وعشرين للميلاد.[١] ومما رواه عاصم بن عدي قال:" قدم رسول الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، فأقام بالمدينة عشر سنين"[٢] ،لا يتعارض مع المعلومة الأولى؛ لأن قباء تابعة للمدينة، وهذه الرواية محمولة على أول وصوله بداية المدينة. وأما دخوله صلى الله عليه وسلم داخل المدينة فكان بعد أن أقام في قباء أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس. وأقام فيها مسجد قباء، وهو أول مسجد أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النبوة، كما يرى ابن هشام، وأنه هو المشار إليه في قوله تعالى[٣]: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ التوبة: ١٠٨[٤] .

ولما كان يوم الجمعة في الثاني عشر من ربيع الأول توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في ديار بني سالم بن عوف، فصلى بهم صلاة الجمعة في

---

(١)انظر المنصورفوري، رحمة العالمين، ص٩٦، وهذه الرواية عند غير ابن اسحق كما في رواية عند الروض الأنف للسهيلي،٢/٢٤٥.

(٢) العلي، صحيح السيرة، ص١٣٥، مخرجاً من الهيثمي في المجمع٦/٩٣ ورواية الطبراني في المعجم الكبير١٧/١٧٢ ورجاله ثقات.

(٣) انظر الرواية في ابن هشام السيرة النبوية (مع الروض) ،٢/٢٣٧ .

(٤) صرح ابن القيم في زاد المعاد في هدي خير العباد، أن نزوله صلى الله عليه وسلم كان بقباء يوم الإثنين وخروجه يوم الجمعة، انظر ابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي(٦٩١-٧٥١هـ)،تحقيق عرفان عبد القادر العشا حسونة، ط١،ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧ ،١٩٩٨م، ٣ /٤٩ ، والخبر صحيح كما أقره الذهبي في المستدرك عند الحاكم، باب الهجرة، ٣/٤٢٧٧.

المسجد الذي في بطن وادي رانوناء في مائة رجل، فكانت أول صلاة جمعة صلاهاعليه الصلاة والسلام في المدينة(1).

ثانياً: دخوله ﷺ المدينة وبناؤه المسجد النبوي:

وكان المسلمون في المدينة ينتظرون وصول رسول الله ﷺ إليهم، وكان قد أرسل وهو في قباء إلى أخوال جدِّه عبد المطلب– أي بني النجار– عن خبر وصوله، فتقلَّدوا سيوفهم لاستقباله وحمايته.(2)

ولما قدم رسول الله ﷺ ومن معه المدينة يحيط به أخوال أبيه اصطفت قبائل المدينة تستقبله، وكلَّما مرَّ على أهل دار اعترضوه ليترل ضيفاً عليهم، وحين يمسكون بخُطام ناقته يقول لهم ﷺ: خلّوا سبيلها؛ فإنها مأمورة، حتى إذا وصلت إلى دار أخواله بني عدي بن النجار، قالوا:"يا رسول الله، هَلُمَّ إلى أخوالك، إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والْمَنَعَة. قال: خَلّوا سبيلها؛ فإنها مأمورة، فانطلقت ناقته حتى إذا جاء دار مالك بن النجار بركت على مربَدٍ (أي مهجع للغنم) لغلامين يتيمين هما: سهل وسهيل ابنا عمرو من بني النجار، وكانا في رعاية معاذ بن عفراء. فلمّا بركت لم يترل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فوثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت وبركت مرة أخرى في مبركها الأول، وتحلّلت واستراحت، فعرف أنها استقرت في هذا المكان. فترل عنها رسول اللهﷺ ، وحمل أبو أيوب بن خالد بن زيد الأنصاري رَحْل النبيﷺ ، ووضعه في بيته، ونزل عليه رسول اللهﷺ ، فأصرّ النبي أن يدفع ثمن المكان، (أي المربد) وأمر أن يبنى فيه المسجد النبوي فوراً، فقام المسلمون يجمعون اللَّبِن والحجارة والطين والخشب وجريد النخل، ورسول الله ﷺ يشاركهم في البناء، فكان

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام، (مع الروض)٢٣٧/٢،وابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد،٥٠/٣ ،والعلي، صحيح السيرة النبوية، ص١٣٥ مخرجة من الهيثمي في المجمع٦٢/٦-٦٣، والطبراني ورجاله ثقات، والسيرة النبوية بتعليق الخشني١٥٩/٢.

(2) انظرصحيح البخاري بفتح الباري ٢٦٥/٧، وقد كانت أم سلمى بنت عمرو بن عدي بن النجار.

أول ما فعله الرسول ﷺ حين دخول المدينة بين الأوس والخزرج بناء مسجده عليه الصلاة والسلام".[١] وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في مترل أبي أيوب الأنصاري حتى اكتمل بناء حجرات أزواجه والمسجد النبوي. وبعث زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرَيْن وخمسمائة درهم ليأتياه بأهله من مكة؛ بِنْتَيْه: فاطمة وأم كلثوم، وزوجته سودة بنت زمعة، وأسامة بن زيد، وحاضنته أم أيمن. وأما ابنته زينب؛ فمنعها زوجها المشرك أبو العاص بن الربيع من الخروج والهجرة. وخرج عبد الله بن أبي بكر ليأتي بعيال أبي بكر ؛ والد أبي بكر ووالدته، وعائشة وسائر أهله، وحلّوا جميعاً ضيوفاً على بيت حارثة بن النعمان رضي الله عنهم جميعاً.[٢]

ثالثاً:وصف المسجد النبوي وتحوُّل القبلة:

وقد وصف ابن عمر رضي الله عنهما مسجد رسول الله ﷺ فقال: "كان المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنياً باللَّبِن، وسقفُه الجريد، وعُمُدُه خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر، وزاد فيه عمر، وبناه على بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم باللَّبِن والجريد، وأعاد عُمُده خشباً."[٣].

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم قبلته باتجاه بيت المقدس؛ لأنه كان مأموراً بالصلاة قبل الهجرة وبعدها إلى بيت المقدس، خلافاً لقبلة العرب إلى البيت العتيق منذ ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وذلك بأمر من الله له؛ ويبدو أن ذلك كان في فترة متأخرة قبل

---

(١)رواية ابن اسحق بالتحديث،انظر، ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض) ،٢٣٧/٢-٢٣٨ بإسناد رجاله ثقات. وقد جاء بعضه في البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة رقم٣٩٣٢ فتح الباري٢٦٥/٧ ، انظر تمام تخريجه بالتفصيل العلي، صحيح السيرة النبوية، هامش١٣٢ -١٣٣.

(٢)انظرابن القيم، زاد المعاد٥٢/٣ من حديث أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى، ٢٣٧/١ – ٢٣٨.

(٣) البخاري(فتح الباري) رقم٤٤٦، ٥٤٠/١. وقد ورد في بعض الروايات أن طوله كان أربعين ذراعاً، وكذلك كان عرضه أربعين ذراعاً، وهو مشار اليه الآن داخل المسجد النبوي بتوسعاته الكبيرة بإشارات مكتوب عليها: هنا حدود مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن يكرمه الله بزيارة المسجد النبوي يمكنه أن يعرفه تماماً.

الهجرة. ولم يكن عليه الصلاة والسلام يجد هو وأصحابه مشكلة في التَّوَجُّه الى بيت المقدس في مكة؛ إذ كانوا يضعون الكعبة بينهم وبين قبلة بيت المقدس في صلاتهم، ولكن لما هاجروا إلى المدينة صعُب ذلك على نفوس المؤمنين؛ إذ أن قبلتهم الأولى منذ ابراهيم وإسماعيل قبل الإسلام كانت إلى الكعبة المشرفة. وأخذ اليهود والمنافقون في المدينة يُرْجِفون ويثيرون الشبهات حول الإسلام، ويقولون للمؤمنين: إن دينكم نابع من ديننا، فنحن قبلتنا بيت المقدس، وأنتم اتبعتمونا في ذلك؛ مما أحدث بلبلة في صفوف المسلمين وشقَّ ذلك عليهم، وراجعوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيراً، وكان عليه الصلاة والسلام يقلِّب وجهه في السماء؛ وكأنه يطلب من الله –دون أن يصرح بذلك– أن يعيدهم الى قبلتهم الأولى، إلى الكعبة، وبقي النبي ﷺ والمسلمون على هذا الحال سبعة عشر شهراً بعد الهجرة حتى استجاب للمسلمين رغبتهم في التحوُّل إلى البيت العتيق.

وكان من حكمة الله تعالى في جعل قبلة المسلمين الأولى إلى بيت المقدس في تلك الفترة المحدودة: أن يختبر إيمان المسلمين ليثبتوا على أمره، ولكي يَفْصِلَهم في تدينهم وعبادهم عن قبلتهم الأولى كي لا تكون القبلة موروثاً عربياً، وإنما لتصبح قبلة جديدة، قائمة على الإيمان بدين التوحيد الجديد، وليحقق لهم التميّز في التوحيد عقيدة، والتميّز في العبادة شريعة، وليمتحن قلوبهم، وليملِّك الأمة المسلمة ثاني مسجد بُني على وجه الأرض وهو المسجد الأقصى، بعد أول بيت وضع للناس ليكون قبلتهم في عبادة ربهم سبحانه. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القضية من القبلة ورغبة المسلمين في تحويلها؛ أنه لما سمع المسلمون في أعالي المدينة بتحَوُّل القبلة الى الكعبة في أحد المساجد تحوَّلوا وهم في ركوعهم في الصلاة بصفوفهم كما هي إلى القبلة المحبوبة – الكعبة– تاركين التوجه إلى بيت المقدس، وما زال المسجد الذي حصلت فيه الحادثة معروفاً في المدينة المنورة بمسجد القبلتيْن. وأما ما أنزل الله في هذه القضية فهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا

لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٤٣ – ١٥٠

رابعاً: يثرب تطيب ببركة دعاء رسول الله ﷺ لها:

أخذت يثرب بعد الهجرة اسم المدينة، واشتكى فيها أصحاب النبي ﷺ من الحُمّى؛ لأن جوَّ مكة حارٌ وجافٌ قاتلٌ للميكروبات ومعقّم، بينما يثرب زراعية، وفيها سبخات ماء قابلة لتكاثر الجراثيم والميكروبات، وكانت مشهورة بالحُمّى، قالت عائشة رضي الله

عنها:"قدمنا المدينة وهي وبيئة،(أي فيها أمراض وبائية) فاشتكى أبو بكر، واشتكى بلال، فلما رأى رسول الله ﷺ شكوى أصحابه قال:" اللهم حبِّب إلينا المدينة كما حبَّبْت مكة أو أشَدَّ وصَحِّحْها، وبارِك لنا في صاعها ومُدِّها، وحوِّل حُمّاها إلى الجُحفة."[١]

ولقد كان فراق مكة عزيزاً على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، ولكن الذي صبَّرهم على فراقها التضحية من أجل الله سبحانه، ومن أجل دينهم، ومن أجل إقامة دولة الإسلام، والعمل على قوَّته ومَنَعته، ونشر دعوته.

(١)البخاري بشرح فتح الباري، باب بنيان المسجد، رقم٤٤٦، ١/ ٥٤٠ ، وباب مقام النبي وأصحابه بالمدينة، رقم٧،٣٩٢٦ /٢٦٢، ومسلم باب الترغيب في سكنى المدينة، رقم١٣٧٦ . ومعنى وبيئة أي ذات مرض وبائي ومنتشر. ومعنى صحِّحْها:اجعلها خالية من المرض. والصاع والمدّ: أدوات كيْل للحبوب والتمر. والجُحفَة:مكان بعيد عن المدينة في الطريق إلى مكة.

المبحث الرابع: دعائم الدولة المسلمة

أقام النبي ﷺ الدولة على ثلاث دعائم هي:

أولاً:دعامةُ المسجد ودورُه في بناء الأمة:

هكذا كانت الهجرة استكمالاً لوجود رسالة الإسلام، وبناء الأمة المسلمة، وانتقالها من حالة الضعف والحركة في مكة إلى حالة القوة والتمكين في المدينة، قُوامُها من البشر؛ المهاجرون من مكة، وإخوانهم الأنصار من الأوس والخزرج في المدينة. ويقيم رسول الله ﷺ لهذا المجتمع الذي يمثل نواة الأمة المسلمة دولة لها مرجعية في القيادة، ولها وحاكم، وهو رسول الله ﷺ ، ولها مرجعية عليا في التلقي والتوجيه ، والأمر والنهي والتشريع هو الله تعالى. وبدأ النبي يربي أصحابه، ويُنَفِّذ اجرائياً وعملياً دعائم هذا المجتمع الجديد الوليد عقيدة وشريعة، وغاية ،وجماعة، وقِيَماً وخلُقاً وسلوكاً، وارتباطات ومؤسسات؛ فبنى المسجد النبوي وهو المكان الذي تقوم فيه مدرسة التربية على الكتاب والسنة، واتخذه دارَ الدولة الذي يجتمع فيها النبي ﷺ مع أصحابه؛ يربيهم، ويستشيرهم، ويخطط معهم للمستقبل، ودارَ مقابلة الوفود القادمة إلى المدينة من الخارج على رسول الله ﷺ ، فضلاً عن كونه مسجداً لأداء الصلاة.

ثانياً: دعامة المؤاخاة ودورها في بناء الأمة:

أقام النبي عليه الصلاة والسلام المؤاخاة، وهي معنى زائد على مفهوم الأخوة الإسلامية والحب في الله بين المؤمنين، فقد أنشأت ارتباطات عضوية زائدة على الأُخوة؛ فهي قرار اجتماعي فرضت واجب النصرة بين المؤمنين المتآخين،كما أوجبت التشارك في المال والميراث في الفترة الأولى؛– قبل نزول نسخ التوارث بينهم– فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان المهاجرون لما قَدِموا على النبي ﷺ المدينة يرث المهاجرُ الأنصاري دون ذوي رَحِمِه؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلمّا نزل قوله سبحانه وتعالى:﴿

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ النساء: ٣٣ نسخت، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ النساء: ٣٣. إلا النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له."[١] وقد وصل صدق هذه الأخوة ووهَجها الإيماني أن الصحابي من الأنصار سعد بن الربيع رضي الله عنه عرض على أخيه في الله من المهاجرين عبد الرحمن بن عوف"أن يناصفه في أهله وماله. فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلَّني على السوق، فربح شيئاً من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضَرٌ(أي أثر) من صفرة، فقال النبيﷺ : مَهْيَمْ يا عبد الرحمن؟!(أي ماهذا ؟) قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: فما سُقْتَ فيها؟ (أي ما مهرها؟) فقال: وزن نواة من ذهب. فقال النبي ﷺ :أولِمْ (أي اصنع دعوة للطعام احتفالاً بزواجك) ولو بشاة."[٢] وهنالك أحاديث كثيرة وصحيحة في تفاصيل هذه المؤاخاة، وأسماء المتآخين، وكانت أشبه بقرار سياسي واجتماعي لرصِّ صفِّ الأمة على خير ما يُوَحِّدُ قلوبها وحياتها لصناعة وحدة الأمة المسلمة التي منّ الله عليها بهذه النعمة، وهي ميزتها على سائر الأمم، وأنه لا تآلف بينها ولا وحدة لها بدونها؛ كما قال سبحانه :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٣ وقال سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قوله تعالى:" والذين عقدت أيمانكم"، رقم٢٢٩٢ ، ٤٥٨٠ ، ٦٤٤٧.

(٢) خرج رواياته إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية، ص١٣٩، وانظر البخاري ، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي من المهاجرين والأنصار رقم٣٧٨١، ورقم٣٩٣٧، وباب النكاح رقم١٤٢٧، واستكمل ابراهيم العلي سائر التخريجات للقصة في هامش ص١١٣. ومعنى الأقط: الجميد وهو اللبنة المجففة .ومعنى وضَر من صفرة: أثر من دهن أصفر تتجمل به المرأة. ومعنى مهْيَم: ما هذا؟ ومعنى أولم: اصنع طعاماً وادع الناس إليه احتفالاً بزواجك.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٣"

كما وهبت الأنصار لرسول الله ﷺ كل فضل في خُططها(أي في أراضيها)، وقالوا له: إن شئت فَخُذ منا منازلنا. فقال لهم خيراً. وابتنى لأصحابه في أراضٍ وهَبَتْها لهم الأنصار، وأراضٍ ليست ملكاً لأحد."(١)

وقد امتدح المهاجرون إخوانهم الأنصار عند رسول الله ﷺ لِحُسْن معاملاتهم لهم، وصِدق أُخُوتهم، وكرم نفوسهم، ففي حديث أنس رضي الله عنه قال:"قالت المهاجرون: يا رسول الله. ما رأينا مثل قوم قَدِمنا عليهم أحسنَ بذلاً من كثير، ولا أحسنَ مواساة في قليل، قد كَفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، فقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: فقال رسول الله ﷺ : كلاّ، ما أثنيتم عليهم به، ودعوتم الله عز وجل."(٢)

ثالثاً:دعامةُ النظام الأساسي ودورُه في بناء الأمة:

الدولة أُمَّة وقيادة، أي؛ شعب، وأرض، ونظام يؤسس لإقامة العلاقة بين مكونات الدولة. وبالهجرة تحققت الأرض والشعب والقيادة ونواة الأمة، وأُحكمت العلاقة بين أفراد الشعب بالأخوة. وهذه الدولة الوليدة متميزة؛ لأنها دولة الدعوة العالمية والرسالة الخالدة، ولا ينتهي المطاف بها بإقامة الكيان السياسي للدولة المسلمة فحسب، بل إنها تريد أن تستكمل وظيفتها بالدعوة إلى الإسلام ونشره في ربوع العالم، وتطهير الجزيرة العربية ومركزها وعاصمتها الكبرى مكة أوّلاً من الشرك. ولذلك لا بد لهذه الدولة من نظامٍ

---

(١) العمري، السيرة النبوية الصحيحة،١/٢٤٢ ، ووثقه من البلاذري، أنساب الأشراف،١/٢٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٤ /٦٥٣ ، حديث رقم ٢٤٨٧ وقال عنه: حديث صحيح حسن غريب. وأحمد في المسند، ٣/ ٢٠٠ ، ٢٠٤ وسنده صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه أبو داود في سننه، رقم ٤٨١٢، والبيهقي في السنن، ٦/ ١٨٣. وانظر تخريجه في صحيح السيرة لإبراهيم العلي، ص١٣٩ ، والسيرة النبوية الصحيحة للعمري،١ /٢٤٣.

أساسيٍّ، وقوانين تحكم علاقات الشعب بالدولة والقيادة. والمدينة الآن فيها قبائل أسلمت؛ مهاجرون وأنصار، وبقي مشركون فيها لم يسلموا، وقبائل مشركة من حول المدينة، وفيها سكان متمكّنون وقدماء، وأغنياء، ولهم ارتباطاتهم وأحلافهم السابقة لدخول الرسول ﷺ المدينة، وهم يهود؛ وأكبر قبائلهم بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة. ولا شك أنه في ظلّ الأوضاع الجديدة بالهجرة النبوية، وائتلاف المهاجرين والأنصار أمةً مسلمةً لا بد أن يُعاد ترتيب الأوضاع والارتباطات والعلاقات في عاصمة الدولة الجديدة على أُسُس واضحة من هَدْي هذا الدين الجديد. ولقد عرّفتنا كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب وثيقة تُنَظِّم شؤون أهل المدينة وارتباطاتهم فيما بينهم، وارتباطاتهم بالدولة المسلمة، وقد عرفت بالحِلف أوالوثيقة أوالصحيفة. "ومن أقدَم مَنْ أورد نص هذه الوثيقة كاملاً محمد بن إسحق دون إسناد، ونقلها عنه ابن كثير وابن سيد الناس. وقد ذكر البيهقي إسناد ابن إسحق للوثيقة التي تُحَدِّد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون البنود التي تتعلق باليهود.(...) كذلك وردت الوثيقة في كتاب الأحوال لأبي عبد القاسم بن سلّام بإسناد آخر."[(١)] وقد أجرى أكرم العمري جزاه الله خيراً دراسة طيبة ذات تحقيق دقيق لمدى صحة الوثيقة، وعارض من يقول بأنها موضوعة، وأثبت أنها وردت من طريق الزُّهري مستقلة، وأن ابن إسحق تلميذ للزهري، وأثبت أن نصوصاً من الوثيقة وردت في كتب الأحاديث بأسانيد متصلة، وبعضها في البخاري ومسلم، وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وسنن أبي داوود وسنن ابن ماجة، وأنها بمجموع طُرُقِها تصلح للدراسة التاريخية لا لبناء الأحكام عليها. ولكنه يرى أن نصوص الوثيقة –كما هي في كتب السيرة– هي مجموع وثيقتين منفصلتين؛ إحداهما كتبها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار وهي التي وردت في

(١) العمري،السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٢٧٤، والعلي، صحيح السيرة النبوية، ١٤١.

رواية ابن إسحق، والأُخرى كانت أسبق منها، وكانت بينه وبين اليهود.[1]وقد وردت نصوص منهما في الأحاديث الصحيحة؛ منها:[2]

- قال رسول اللهﷺ :"المدينة حرامٌ ما بين عائر إلى كذا، من أحدث منها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عَدْل. وقال: ذِمَّة المسلمين واحدة، فمن أَخْفَر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدْل. ومن تولى قوماً بغير إذنِ مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدْل."[3]

- في حديث عن علي قال فيها(أي في الصحيفة): "العَقَلُ، وفِكاك الأسير، ولا يُقتل مسلم بكافر."[4]

- وفي حديث:" المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذِمَّتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم، ألا لا يُقْتَل مؤمن بكافر، ولا ذو عَهْد بعهده."[5]

- حديث أبي الطفيل: "لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى مُحدِثاً."[6]

وبالتحقيق أيضاً؛ فإن الوثيقة مع اليهود كانت منفصلة، وفي وقت آخر عن الوثيقة بين المهاجرين والأنصار. وكما رجَّح وجود الوثيقتين، وأنهما منفصلتان الباحث المحقق

---

(١) انظر العمري السيرة النبوية ٢٧٥/١، ٢٧٦.

(٢)ذكرها ابراهيم العلي في صحيح السيرة١٤٤-١٤٥.

(٣)صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، رقم١٨٧٠ ، ٣١٧٢ ، ٣١٧٦ ، ٦٧٥٥ ، ٧٣٠٠، وصحيح مسلم كتاب الحج، باب فضائل المدينة، رقم ١٣٧٠، وانظر سائر التخريج في العلي، صحيح السيرة، ص ١٤٤ .ومعنى من عائر الى كذا هي حدود حرم المدينة.

(٤)انظر تخريج المرجع السابق من البخاري. والعقَل: معناه دِيَة المقتول.

(٥)أحمد في المسند، ١١٩/١، وسنن النسائي، ٨ /٢٠ كتاب القسامة، باب العقود بين المماليك والأحرار.

(٦)مسلم في كتاب الاضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله، حديث ١٩٧٨، ومعنى منار الأرض : علامة الحدّ الفاصل فيها بينه وبين جاره. والمُحْدِث:هو الخارج عن الإسلام.

أكرم ضياءالعمري مستنداً إلى ورود نصوص مقبولة، وأنه ثبت أن النبي ﷺ كتب لليهود كتاب مُوادعة؛ كما عند البلاذري والطبري والمقدسي وابن حزم والمقريزي وابن كثير نقلاً عن موسى بن عُقْبَة، وأن مجموعة هذه الآثار تُقبل إلى درجة الحسَن لغيره، وأن دراسة أسلوب الوثيقة يَنمُّ عن أصالتها.[١]

كما استند العمري إلى ترجيح المؤرخ صالح العلي حيث قال:" فنصوصها مُكَوَّنة من جُمل قصيرة وبسيطة وغير معقدة التركيب، ويكثر فيها التكرار، وتَستعمل كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ، ثم قَلَّ استعمالها فيما بعد،(...) وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذمّ. لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة. ثم ذكر أن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقاً آخر."[٢] وجزم البلاذري بأن مُوادعة اليهود- أي وثيقتهم- كانت قبل بدر، وقبل السرايا. وهكذا يرى أبو عبيد القاسم بن سلّام أن الوثيقة كتبت حَدْثان(أي عند حدوث) مَقْدَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر الإسلام ويقوى. وقد صرّح الطبري بأنها كانت حين قدم رسول الله ﷺ المدينة. ورجح العمري بناء على هذه الروايات أن الوثيقة مع اليهود كانت أسبق من الوثيقة بين المهاجرين والأنصار.[٣]إذ أن الوثيقة بين المهاجرين والأنصار قد كتبت بعد موادعة اليهود، وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة، وهي كذلك عند الطبري وابن سعد.[٤] وبالتالي فما ذكر عند المؤرخين من ذكر للوثيقة وبنودها شاملة للوثيقتين إنما كان

(١) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١ /٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢)انظر المرجع السابق، ص٢٧٦ نقلاً عن صالح العلي، تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، ص٤ ، ٥ ، ٦ .

(٣)انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة ١٠ / ٢٧٦ ـ ٢٧٧ وتخريجه للروايات التي رجحها.

(٤)انظر، المرجع السابق وتخريجه للروايات من أحمد في المسند، ١ /٢٧١، وابن سعد في الطبقات، ج٢ قسم ١ /١٧١ ، ١٧٢، والطبري، ٢/ ٤٧٨ ، والذهبي تاريخ الإسلام، ١/ ٢٩٠، والبخاري ٩/ ١٤ والترمذي، ٦ /١٨٢،وابن ماجه في السنن، ٢/ ٨٨٧ ، وأحمد في المسند، ١ / ٧٩

بسبب جمعهم بينهما، وقد وردت الوثيقتان على أنهما وثيقة واحدة تحت عنوان: كتابُه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود، وهي مكونة من سبعٍ وأربعين مادة.(١)

رابعاً: نص الوثيقة كما وردت في كتب السيرة:(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم :

١- هذا كتاب من محمد النبي -رسول الله- بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣- المهاجرون من قريش على رِبْعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدون عانِيَهم (أي أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤- وبنو عوف على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥- وبنو الحارث (بن الخزرج) على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف.

٦- وبنو ساعدة على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧- وبنو جُشَم على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨- وبنو النجار على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) انظر محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ط٢، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٩هـ= ١٩٥٦م ،ص ٤١-٤٧

(٢) كما نقلها العمري في السيرة النبوية الصحيحة، ١ /٢٨٢ – ٢٨٥ من كتاب محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية ص ٤١ – ٤٧.

٩- وبنو عمرو بن عوف على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠- بنو النبيت على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١- وبنو الأوس على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً (أي مصاباً بمصيبة) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عَقَل، وأن لا يُحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وإن المؤمنين المتقين ؛أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دَسيعَةَ ظُلْمٍ أو اثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولَد أحدهم.

١٤- ولا يَقتُلُ مؤمن مؤمناً في كافر، ولا يَنصُر كافراً على مؤمن.

١٥- وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

١٦- وإنه من تَبعنا من يهود؛ فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم.

١٧- وإن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

١٩- وإن المؤمنين يَبِيءُ[(١)] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

---

(١) أي يمنع ويكف.

٢١- وإنه من اعتبط[1] مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول بالعَقَل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٢- وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثاً أو يُؤْويه، وإن من نصره أو آواه؛ فإن عليه لعنة الله وغضبَه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْف ولا عَدْل.

٢٣- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد.

٢٤- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

٢٥- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم؛ فإنه لا يوتِغُ -أي لا يُحَمِّل التبعات الترتبة غلى ذلك- إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦- وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧- وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨- وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩- وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠- وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١- وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم؛ فإنه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٢- وإن جَفْنَة بطن من ثَعلبَة كأنفسهم.

٣٣- وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البِرَّ دون الإثم.

٣٤- وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥- وإن بطانة يهود كأنفسهم.

---

(١) أي قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله، كما في لسان العرب.٧ /٣٤٨.

٣٦- وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك؛ فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم. وإن الله على أبرِّ هذا.

٣٧- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرَّ دون الإثم، وإنه لا يأثم أمرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

٣٨- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

٣٩- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠- وإن الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم.

٤١- وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢- وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث، أو اشتجار يُخاف فساده؛ فإن مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ . وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه.

٤٣- وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.

٤٤- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٤٥- وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دَعَوْا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، وعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

٤٦- وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم؛ لا يكسب كاسب إلا على نفسه. وإن الله على أصْدَقِ ما في هذه الصحيفة وأَبَرِّه.

٤٧- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه مَن خرج آمِنٌ، ومَن قعد آمنٌ بالمدينة، إلا من ظَلَم وأَثِم. وإن الله جارٌ لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

خامساً: تحليل الوثيقة:

أما إذا عدنا إلى نصوص الوثيقة وموادها السبع والأربعين؛ فهي تُعَدُّ مما يمكن تسميته في النظم السياسية المعاصرة القانون الأساسي الذي يُعَدُّ دستوراً ومنظِّماً للعلاقات في المجتمع. ويمكننا أن نشتق من نصوصها المبادئ والقوانين الأساسية الآتية:

١- حددت الوثيقة مفهوم المواطنة الصالحة بين أطراف المجتمع وسكان المدينة؛ إذ أنشأت العلاقات المجتمعية بين المواطنين في المدينة والذين لهم حق المواطنة، فحددت حقوق المواطنة وواجباتها، وأنها حقوق تقابلها واجبات. فأطرافها هم: القيادة وهو رسول الله ﷺ، والشعب وهم: المؤمنون من قريش والمؤمنون من أهل يثرب -أوس وخزرج- ومن تبعهم ولحق بهم من يهود وغيرهم. وطرف آخر هم اليهود بقبائلهم المعروفة وهم: بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة، وبنو عمرو بن عوف.

٢- المؤمنون من مختلف مشاربهم أمة واحدة من دون الناس فلا يدخل اليهود في الأمة المسلمة.

٣- القبائل العربية في المدينة من الأوس والخزرج باختلاف أسمائها وتجمعاتها يبقون على اتفاقاتهم السابقة في الديّات، والتحالفات، وفداء الأسرى بالعدل والقسط. وقد فصلت الوثيقة تلك القبائل بأسمائها.

٤- ذمة المؤمنين واحدة، والمؤمنون مجتمعون على إنصاف مظلومهم، وإغناء فقيرهم من الحاجة، وفي الفداء وفي الدِّيات. وهم يد واحدة على الظالم والمفسد والمعتدي على المؤمنين، حتى لو كان من أبنائهم.

٥- دم المؤمنين معصوم ولا يُقْتَل المؤمن بدم الكافر، ولا يُناصَرُ كافر على مؤمن. وذمة المؤمنين واحدة؛ فَسِلْمُهُم واحدة، وحربهم واحدة.

٦- يمنع إجارة نفوس المشركين، ولا إجارة أموال قريش، وإن أموال قريش مستباحة لكل مؤمن.

٧- حرمة دم المؤمن، وأن من ثبت عليه قتل مسلم وجب قتله إلا إذا عفا عنه ولي المقتول، وعليه الدية، وأن المؤمنين جميعاً مطالبون بالقيام على هذا الحكم وتطبيقه.

٨- لا يجوز إيواء المرتدين والمحْدِثين في الدين والمشركين لأيٍّ من الذين أقرّوا بهذه الوثيقة.

٩- المرجعية العليا في الاختلاف هو الله تعالى ورسولهﷺ.

١٠- إن لليهود في المدينة: يهود بني عوف وسائر يهود القبائل العربية كما فصلت الوثيقة أسماءها حقوق الموطنة الكاملة في المدينة، مع كون المسلمين لهم دينهم، ولليهود دينهم. وهي بالتالي تُقِرُّ بالمواطنة؛ حقوقاً وواجبات لأهل الكتاب، كما تُقِرُّ الحرية الدينية لأهل الكتاب وكفلها وتحميها.

١١- الظالم والمعتدي من اليهود -كقبائل يهودية- وأحلاف اليهود من القبائل العربية يتحمل مسؤوليته بنفسه وأهل بيته، ولا تتحمل قبيلتُه ولا حليفُه جريمته.

١٢- حرية التنقل داخل المدينة مكفولة للمؤمنين بأمان، أمّا الخروج من المدينة فيحتاج إلى إذن الدولة ممثلة برسول اللهﷺ.

١٣- نظام النفقة في المدينة يتحملها كل طرف من مواطني المدينة بنفسه؛ فعلى المسلمين نفقتهم، وعلى اليهود نفقتهم، وعلى الجميع مسؤولية مشتركة في الإنفاق على حماية المدينة، وعلى الجميع المناصرة المشتركة في محاربة من حارب أهل الوثيقة والأطراف المشتركين فيها. وهذا ما يمكن تسميته بنظام النفقات الحربية.

١٤- إعلان العداء لقريش ومن ناصرها؛ نفوساً وأموالاً، ومنعُ إجارتها وإجارة من ناصرها من المشركين.

١٥- اليهود مطالبون بمسالمة من سالمهم المؤمنون، ومحاربة من حاربوهم إذا دُعوا إلى ذلك. ولليهود كذلك نفس الحق على المؤمنين إلا إذا كان المعتدي عليهم محارباً للإسلام. وهذا ما يمكن تسميته بالدفاع المشترك.

١٦- تنطبق بنود هذه الوثيقة بالنسبة لليهود على من يعيش داخل حدود المدينة. فالمدينة حرام؛ فمن دخلها كان آمناً وفق بنود هذه الاتفاقية، ومن خرج منها خرج آمناً، وله الحرية المطلقة في البقاء أو الخروج.

سادساً:إعمار المدينة وتحرير الاقتصاد:

بعد بناء المسجد النبوي أمر النبي ﷺ بإقامة شبكة طرق لتسهيل وصول المسلمين إلى المسجد؛ وامتد البناء والسكن على طول الشوارع الموصلة إلى المسجد وعلى جنباتها مما زاد في اتساع المدينة وزاد في عمرانها، وصار المسجد في مركز المدينة مليئاً بالنشاط، ونابضاً بالحياة. كما وزّع النبي ﷺ أراضي زراعية على المهاجرين، وطلب من الأنصار إحياء أراضيهم الزراعية، وأعلن للمسلمين أن من زرع أرضاً وأحياها فهو مالكها. وكان لهذا أثره البالغ في بناء الاقتصاد للمسلمين؛ مما حقق لهم الاكتفاء الذاتي، ومماشجعهم على فتح الأسواق التجارية، ومما حرر الاقتصاد من جشع اليهود وتحكمهم في السوق وسيطرتهم السابقة عليه.[1]

---

(١) انظر،سعيد، همام عبد الرحيم والكيلاني وأبوفارس والكردي، السيرة النبوية، ط١،سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ١٩٦-١٩٧.

المبحث الخامس: من دروس الهجرة النبوية وعبرها

ويمكننا مما مضى أن نستنبط أهم الدروس والعبر لهذا الحدث العظيم في حياته ﷺ وحياة أصحابه مهاجرين وأنصاراً، وهي:

أولاً: كانت الهجرة هي الفصل الأخير في المرحلة المكية ، وكانت أول حَدَث سياسي في الإسلام؛ إذ كانت نقطة الإنطلاق إلى مرحلة الدولة بعد مرحلة الحركة، وإلى التمكين بعد الاضطهاد، وإلى القوة بعد الضعف. ولأهميتها جعلها المسلمون بدايةً لتأريخهم، متميزين عن غيرهم من الأمم الأخرى التي اتخذت من ميلاد أنبيائها تأريخاً لها. وإن التمهيد للهجرة بإيجاد الملجأ الحصين والوطن الآمن في المدينة المنورة حيثُ القوة والمنعة، كان أعظم كسب حصل عليه الرسول ﷺ والمسلمون منذ بداية الدعوة، ولذلك فإن الهجرة كما يقول الغزالي لم تكن مَخْلَصاً من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاوناً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

ثانياً: لِحكمة أرادها الله تمَّ اختيار المدينة لتكون دار الهجرة؛ فأهلها أهل الحلقة والسلاح والحرب، ورثوا الحروب كابراً عن كابر، وهم فرسانها وأهلها، وهم أول من بايع النبي ﷺ على الحماية والتضحية والفداء، فاستحقوا تشريفهم بهجرة الرسول ﷺ إلى بلدهم وحصنهم. ثم إن المدينة حصن طبيعي؛ فهي محاطة بحرّتين تعرفان الآن بالحرّة الشرقية واالحرة الغربية، والحرة هي المكان المملوء بالصخور والحجارة بحيث لا تستطيع الجيوش السير فيها، وأما من الجنوب فكانت ثمّة أشجار كثيفة تخترقها ممرات ضيقة لا تصلح لمرور جيش مهاجم، فهي إذن ليست مكشوفة إلا من جهة الشمال، تلك الجهة التي حَفَر فيها رسول الله ﷺ الخندق في غزوة الأحزاب.

ثالثاً: إن المطالع لهجرة الرسول ﷺ يدرك تماماً جانب التخطيط والتنظيم، وهذا يفيدنا في: أن أي عمل مهم لا يمكن أن يتحقق له النجاح إذا لم يتوفر فيه هذان العنصران؛ التخطيط

والتنظيم. أما العفَويّة والارتجال فلا يولِّدان إلا تَعَثُّراً في جميع الأحيان؛ فالمهاجرون كانوا يتواعدون فيما بينهم، ويهاجرون سراً، ويستعينون على ذلك بالكتمان.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتخذ من غار ثور مكاناً يلجأ إليه، ويقيم فيه ريثما يسكن الطَّلَب، ولو تابع السير على الفور لانكشف أمره، ولظفرت به قريش وحققت حُلُمَها بإلقاء القبض عليه، وقد خرج من بيته وهي تحاصره لتقتله.

ويطلب أبو بكر من ابنه أن يأتيه بخبر المشركين، وعلى ضوء الخبر يكون التخطيط، كما ويطلب من مولاه أن يمشي بغنمه حتى لا تستبين أقدام عبد الله وأسماء وهما يأتيان الغار فيكشف المكان.

ويسير رسول الله ﷺ في طريق باتجاه الساحل، وهو طريق لم تعهد قريش السير من خلاله إلى المدينة بعد أن استأجر الدليل الماهر، صاحب الخبرة في الطرقات.

رابعاً: إن في الهجرة رداً على من يزعم أن محمداً ﷺ يبغي مغنماً مادياً، وأن الجهاد إنما شرع لتحقيق مزيد من الكسب المادي. فأي مَغْنَم يبتغيه الرسول ﷺ ومن معه، وهم الذين هجرتهم من مكة الى المدينة تركوا المال والأهل والديار فراراً إلى الله بدينهم؟! وعلى أي وجه تُحْمَل بشرى رسول الله ﷺ لصهيب الرومي المهاجر في سبيل الله، حينما أعطى قريشاً كل مالِه في مكة حتى سمحوا له بالهجرة ليبشره النبي ﷺ بقوله: رَبِح البيع أبا يحيى.

خامساً: في بقاء علي رضي الله عنه في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرُدُّ الودائع إلى أصحابها دليل على مكابرة المشركين وعنادهم، رغم إدراكهم الحقيقة؛ فها هم أولاء يعادون رسول الله ﷺ ، ويؤذونه ويتهمونه بالسحر والجنون، فإذا جَدَّ الجد وبحثوا عن مكان يحفظون فيه المال والمتاع ،ويأمنون عليه لا يجدونه إلا في بيت رسول الله ﷺ ؛ فعجباً لهم؛ يعترفون بأمانته ويكذبون برسالته!

سادساً: في خروجه ﷺ سالماً من بيته وفي نجاته من مطاردة المشركين، وما جرى لسراقة بن مالك أدلة ظاهرة على العناية الربانية التي حفظت هذا الدين بحفظ رسول الله ﷺ ؛ حتى يؤدي الرسالة ويبلغ الأمانة. فُرْسانٌ مُدَجَّجون بالسلاح يحيطون ببيت رسول اللهﷺ ، ويخرج من بينهم سالماً! ورجل مُتَقَلِّدٌ سيفه طامع في جائزة عظمى يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصداً قتلَه، وعلى بعد أمتار يُمنعُ منه ؛ فلا يَمسُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء! في الحساب المادي والتخطيط البشري الماكر جريمة القتل واقعة في الحالتين، لكن الأمر عند الله غير هذا. ألا إنها العناية الربانية الباهرة، والدلالة البيِّنة الظاهرة على صدق نبوة محمد ﷺ التي لا تقبل التفسير المادي، ولا يقف في وجهها المكر البشري.

سابعاً: لأول مرة بعد الهجرة النبوية يلتئم شمل أهل المدينة من الأوس والخزرج بالأخوة في الله، ليصبحوا إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وينشأ مجتمع جديد موحَّد من العرب المعروفين بقَبَلِيَّتِهم وعشائريَّتِهم ، من مهاجرين من قبائل مكة المتعددة، ومن إخوانهم الأوس والخزرج، ولِيُصنَعَ نسيج اجتماعي جديد له رسالة عالمية، يهدف إلى تحقيقها، وله عقيدة توحيد لله وحده لا شريك له، وله قيادة واحدة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله مرجعية واحدة هي الإسلام، وتجمعه علاقة واحدة تتجاوز نسب الدم والمصالح لتحل محلها رابطة الأخوة في الله.

وقد رأى المسلمون هذه النعمة عليهم بالإسلام، وكيف أخرجهم الله من مرارة الشرك والفرقة، والحروب والتطاحن إلى نعمة التوحيد، والتوحُّد بالإسلام والأُخوة،في الله. وقد عبّرت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أثر مرارة الحروب والمنازعات في سرعة إقبال أهل المدينة من الأوس والخزرج على الإسلام بقولها:" كان يوم بعاث[١] يوماً قَدّمه

(١) معركة طاحنة بين الأوس والخزرج، حصلت قبل دخول أهل المدينة الإسلام بفترة قصيرة.

الله لرسوله ﷺ ؛ فقَدِم رسول الله ﷺ وقد افترق مَلأُهم، وقُتلت سَرَواتهم،(أي ساداتهم) وجُرحوا، قدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام."[1]

ثامناً: ونلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهاجر قبل المسلمين من مكة إلى يثرب، بل هاجر أصحابه جميعاً إلا قلة يسيرة جداً، وما ذلك إلّا ليضمن النبي ﷺ سلامة أصحابه، ثم يتبعهم، رغم أن بقاءه بعدهم يُعَرِّضه للخطر ببقائه وصاحبيه أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما؛ إذ كاد له المشركون ليقتلوه. وهكذا فإن القائد لا يترك جنوده ليُؤَمِّن نفسه أولاً.

تاسعاً: ولأهمية الهجرة في بناء الأمة وإقامة الدولة والتمكين للإسلام؛ فقد استمر حَثُّ رسول الله ﷺ للمسلمين في مكة على الهجرة إلى المدينة كلما آمن فيها واحد، لأن الدولة المسلمة في المدينة بحاجة إلى كثرة سكانية مؤمنة ليصبح المؤمنون أغلبية سكانية فيها، ولأن فيها يهوداً بقبائل ثلاث، ونشأت ظاهرة نفاق من بعض أهل المدينة، لم يستطيعوا رفض الإسلام وقد ظهر، فأعلنوا الإسلام ظاهر وأخفَوا الكفر باطناً، وثمة أعراب مشركون كثيرون يحيطون بالمدينة، "ويترصده كفار قريش الذين أقضّت الهجرة مضاجعهم، فمضوا يخططون للإجهاز على كيان الإسلام الفتيّ ودولته الناشئة."[2] ولذا فقد رفع الله تعالى أجر المهاجرين، وأعظم من شأن الهجرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء: ١٠٠ وهدَّد الله المتخلفين عن الهجرة بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧

---

(١) العمري ، السيرة النبوية الصحيحة، ٢٣١/١ ، وخرَّج الحديث من صحيح البخاري٥ / ٤٤ ، ٥ /٦٧ ، ومعنى ملؤهم أي جمعُهم، وسراتهم: أي قادتهم وأسيادهم وزعماؤهم.

(٢) المرجع السابق ١ /٢٣٦ – ٢٣٧ .

وقد منع الله نصرة المسلمين المنفردين الذين لم يهاجروا، وقدّم احترام العهد مع المشركين على نصرهم، وبقي حكم فرضية الهجرة من مكة إلى المدينة حتى قويت الدولة المسلمة، ولم تَعُدْ بحاجة إلى مسلمين يُكَثِّرون سوادها، حيث قال رسول اللهﷺ : "لا هجرة بعد الفتح، ولكنْ جهادٌ ونِيَّة. وإذا استُنْفِرْتُمْ فانفروا."(١) فأصبحت الهجرة نيَّةَ الجهاد والجهادَ في سبيل الله إن احتاجت الأمة إليه بحُجَّة نيل ثواب الهجرة، فلم تَعُد بشكلها المكاني مطلوبة ولا مفروضة، وأما الهجرة الواجبة الباقية فهي الثبات على الدين، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، وهجرة ما نهى الله عنه من المعاصي، والعمل على تثبيت دعائم الإسلام في البلد الذي يعيش فيه المسلم، إلا إذا استحالت الحياة على الفرد في ذلك البلد، وأطبق فيه الكفر، ولم يَعُدْ المسلم يستطيع أن يعبد ربه فيه؛ فتجب عليه الهجرة أمناً للفتنة، وفراراً بالدين إلى بلدٍ يأمن فيه على دينه، وفي حال ما إذا كان ثَمَّة بلد مسلم يتعرض لفتنة تُزَعْزِع أركان الدين فيه، وعليه خطر كبير، وكانت هجرة المؤمنين إليه ضرورية للإبقاء عليه وعلى الإسلام فيه؛ فتتحقق حينئذ حكمة الهجرة المكانية إليه، وتصبح فريضة كما كانت على أهل مكة بعد هجرة النبي منها إلى المدينة. وأما الهجرة المكانية من أي بلد مسلم إلى المدينة لمجرد أنها مهاجر رسول الله ﷺ فليست مشروعة، ولا مطلوبة، بل أبطلها رسول الله ﷺ بنص الحديث الصريح: لا هجرة بعد الفتح. ولا تصلح الهجرة إلى المدينة اليوم وحال المسلمين على ما هي عليه من الاضطهاد والمعاناة من الكفار وطغاة الأرض، واحتلال مقدساتهم، وتهويد قدسهم ومسرى نبيهم بزعم حب رسول الله ﷺ ونيل بركة الهجرة الى مدينته لقضاء باقي العمر بعد التقاعد من العمل، أو زعماً بالفرار من الفتن.

ولقد أعجبني تعليق للشيخ محمد الغزالي–رحمه الله– قرأته له قبل سبعة أربعين عاماً؛ يذكر فيه أنه قابل في المدينة المنورة نفراً من أهل المغرب يزعمون أنهم قدموا مهاجرين إلى المدينة حباً لرسول الله ﷺ، وفراراً بدينهم من الفتن، فأفهم الشيخ أنهم فارون من الهجرة

(١) صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، ٢٠٠/٣، صحيح مسلم ٣ / ١٤٨٣.

الحقيقية المفروضة عليهم وهي جهاد المستعمر الفرنسي –يومها –لبلادهم، وأنهم فارّون من الزحف، وأنهم تاركون إخوانهم المجاهدين يحملون وحدهم عبء الكفاح، وأن هذا الحب لرسول الله غير مفهوم، وأن هذه الهجرة غير متقبلة،وقال رحمه الله: "ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً، وأغلاه عندما يكون قدوة وذماماً!!"[(١)]وأنا بدوري أكمل وأقول: وما أصعبه على النفس حين يكون التزاماً، وبذلاً وجهاداً، وتضحية وعطاء. فالحب ليس بقرب المكان والزمان، وإنما الحب بتوهج القلب بالإيمان، وحسن التأسي وكثرة الطاعة، ودقة الالتزام؛ فكم من قريب بعيد، وكم من بعيد قريب.

عاشراً: نعم جاء الإسلام ولليهود وجود في المدينة فنظم صلة الأمة بالأجانب الذين لا يدينون دينها؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم –كما رأينا في نصوص الوثيقة– بيَّن لنا قوانين التسامح وحسن التجاور مع أهل الكتاب، والتي لم تُعهَد في عالمنا اليوم المليء بالتعصب والتعالي، والتمييز العنصري والطائفي، والظلم وإلغاء الآخر. والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلُّط هو رجل مخطيء بل متحامل جريء."[(٢)] .

كما جعلت الوثيقة حماية المبادئ التي أسستها قائمة على قوتين كما ذكر السباعي؛" قوة معنوية وهي إيمان الشعب بالله ومراقبته له ورعاية الله لمن بَرّ ووفّى، وقوة مادية وهي رئاسة الدولة التي يمثلها محمدﷺ."[(٣)]

وكما نظَّمت الوثيقة الأولى حقوق المواطنة وواجباتها لليهود باعتبارهم من سكان المدينة؛ فقد نظَّمت الوثيقة الثانية مفاهيم الولاء والبراء بين المسلمين باعتبارهم أمة مؤمنة،

---

(١) الغزالي، محمحد، فقه السيرة، ط٤، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٤م،ص ٨.

(٢) الغزالي،الرجع السابق، ص ١٩٥.

(٣)السباعي ، مصطفى، السيرة النبوية دروس وعبر، ط٥، دار المكتب الإسلامي، دمشق وبيروت،،١٤٠٠ هـ=١٩٨٠م، ص٦٩.

كما نظمت الحقوق والواجبات الأساسية للمواطنة المؤمنة الصالحة، والعلاقات بين المؤمنين على اختلاف أصولهم السكانية، مهاجرين وأنصاراً، وعلى اختلاف قبائلهم من أهل مكة ومن أهل المدينة أوساً وخزرجاً وتابعيهم، وأن علاقاتهم تقوم على العقيدة والإيمان، وعلى الأخوة والحب في الله في علاقاتهم الإجتماعية، وعلى ضرورة حماية منجزات الإسلام ودولته، ووجوب الدفاع عنه وعن عاصمته، والجهاد في سبيل الله لنشر دعوته، وحماية ساحات الأُمَّة المسلمة وشعوبها وأوطانها.

الفصل الثاني

الدعوة والجهاد والسرايا

المبحث الأول: فرض الجهاد وأسبابه وأهدافه.

المبحث الثاني: السرايا والبعوث المبكرة.

المبحث الثالث: الدعوة والجهاد.

المبحث الأول

فرض الجهاد وأسبابه وأهدافه

أولاً: بين يدي مشروعية القتال:

كانت الهجرة فيْصلاً بين عهدين. عهد حركة الإسلام المضطهدة، وعهد الدولة الناشئة. أو عهد الدعوة والصبر عليها والاضطهاد في سبيلها، وعهد الاستقرار والتمكين لدولة الدعوة، وتثبيت أركانها، والدفاع عن منجزاتها.

وقد مر بنا كيف دعا رسول الله ﷺ قريشاً بالحسنى والموعظة الحسنة، وكيف واجهته قريش بالإعراض عنه والصد عن دين الله، وبالسخرية والاستهزاء، ثم بالتكذيب له، والافتراء عليه، وكيْل التُّهم له بالجنون والسحر والكهانة، ثم بالمساومة ومحاولة الاحتواء؛ فلما يئست من هذا كله، سلكت طريق الفتنة والاضطهاد والأذى، والمقاطعة والتجويع حتى هيأ الله لرسوله ﷺ وللجماعة المسلمة دار الهجرة ونصرة الأنصار، وقامت دولة الإسلام في المدينة، وأرسى رسول الله ﷺ قواعدها على الأخوة، ونظَّم علاقات المواطنين القاطنين فيها، وأصبح المسجد منطلق الدولة ومدرسة التربية، وحرر اقتصادها من قبضة يهود. ولكن هل تتركه قريش التي أزعجتها هجرته ودولته؟ وهل سَيَسْكُتُ اليهود الذين يسكنون المدينة عن هذا الوضع الجديد الذي يُهَدِّد مصالحهم، ويكشف ألاعيبهم، ويوقف جشعهم واستغلالهم وتَحَكُّمَهُم باقتصاد العرب؟ بطبيعة الحال لم تستسلم هذه القوى لهذا التحدي الجديد.

وبهذا وجد الرسول ﷺ دولته مُهَدَّدة بعدويْن؛ قريش واليهود ، ووجد أن الدعوة إلى الله أصبحت بحاجة إلى حماية المقاتلين، وأن الصبر على الأذى والاضطهاد والفتنة قد أصبح لا يكافئ المرحلة القادمة.

ثانياً:مشروعية القتال:

ولهذا فقد أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال فقال سبحانه:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ الحج: ٣٩ – ٤١ وقد رأى الزهري أن هذه الآية أول ما نزلت في القتال،[١] وصح من حديث ابن عباس أنه:" لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: أخرَجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون لَيَهْلكُنَّ، فأنزل الله عز وجل الآية."[٢]. وبهذا فقد شرع الله للمسلمين القتال، وقد كانوا يتمنَّونه من قبل، وهو بمثابة ردٍّ للعدوان، ووقف للإضطهاد الذي كانوا يتعرضون له، وإنهاءٍ لمرحلة من الظلم لهم والإجحاف بحقوقهم، وهو كذلك حماية لمستقبل دعوتهم وحرية نشرها، وحماية الدولة التي تحملها. كما أنه تأمين لحرية الاعتقاد، يختار في ظلِّه الناس العقيدة التي يؤمنون بها حتى ولو كانوا يهوداً أو نصارى؛ فهو تحقيق للمبدأ الثابت في قوله تعالى:(لا إكراه في الدين). وقد وضحت الآية الكريمة مشروعية الجهاد وأهدافه ونتائجه.

(١) انظر، ابن جحر، فتح الباري، ٧ / ٢٨٠ وأخرجه النسائي بإسناد صحيح في السنن الكبرى في كتاب التفسير، باب قوله تعالى:"إذن للذين يقاتلون...) رقم ١١٣٤٦

(٢) الترمذي في كتاب التفسير، باب الحج، رقم ٣١٧٠، والنسائي في سننه، ٦/٢ ، والسنن الكبرى، رقم ١١٣٤٥، وصححه الذهبي عند الحاكم في المستدرك.

ثالثاً: أهداف الجهاد:

١- نشر السمو الروحي في العالم، وعبادة الله وحده لا شريك له وذلك واضح من قوله تعالى: (الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة).

٢- أن ترتفع الفتنة من الأرض، وأن تكون الدينونة والحكم لله وحده، كما ورد قي فوله تعالى: (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)، وقوله سبحانه: (إن الحكم إلّا لله أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاه ذلك الدين القيِّم)، وأن تنشر العدالة الإجتماعية بين الناس، وأن يُطبَّق النظام الاقتصادي العادل فيما بينهم، وذلك واضح من قوله تعالى: (وآتوا الزكاة).

٣- الدعوة إلى الله سبحانه وتحقيق التعاون لخير المجتمع بنشر القيم الخلقية الفاضلة، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطهير النفوس وتزكيتها، ومحاربة الرذيلة والجريمة والفساد بجميع أشكاله وألوانه، وذلك واضح من قوله تعالى: (وأمروا بالعروف ونهوْا عن المنكر ولله عاقبة الأُمور).

٤- دفع الظلم وردُّ العدوان عن الإسلام والمسلمين، وحماية بيضة الأُمّة المسلمة، والدفاع عن سيادتها وأراضيها، والمحافظة على دماء المسلمبن فيها ومواردهم وأموالهم وأعراضهم.

رابعاً:مفهوم الجهاد وفضله:

وبهذا فمفهوم الجهاد، هو بذل الوسع والطاقة والجهد في سبيل تحقيق كلمة الله تعالى في الأرض بإعلاء سلطانه، والدفاع عن حرية الإنسان، وتحريره من طواغيت الأرض ومناهج البشر؛ فالإيمان بالتوحيد جهاد، والعمل الصالح جهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد، وكلمة حقٍّ عند سلطان جائر من أعظم الجهاد، والصبر على أذى العدو جهاد، والقتال في سبيل إقرار مبادئ الإسلام وحماية دولته صورة من صُوَر الجهاد، والجهاد ليس مُقتصِراً على صورة القتال وحدها فقط. ولذا فقد كان للجهاد مفهومان:

١– مفهوم عام يشمل كل جهد لإقامة دين الله تعالى.

٢– ومفهوم خاص وهو حمل السلاح والقتال للأعداء في سبيل إقرار مبادئ الإسلام، وتأمين حرية انتشاره والدعوة إليه ، والدفاع عن الأمة المسلمة، ورفع الظلم الواقع عليها.

ويقع هذا الجهاد على هذه الصورة في أعلى مراتب الإسلام ، فهو كما قال عنه عليه الصلاة والسلام:" الجهاد عمود الإسلام وذروة سنامه."[١] وقد بين الله تعالى فضله فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ التوبة: ١١١.

وحرَّض الله عليه المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ التوبة: ٤١

وحذر رسول الله ﷺ من ترك الأمة له، لخطورة ما يحيط بها من تآمر الأعداء عليها، فقال:" إذا تركتم الجهاد في سبيل الله سلَّط الله عليكم ذُلّاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينه."[٢]

---

(١) مسند الإمام أحمد ، الفتح الرباني، للساعاتي، ١٣ /٨

(٢) رواه أبو داود في السنن.

خامساً: أسباب القتال في سبيل الله ومُسَوِّغاته:

ومن هذا يتضح أن الجهاد–في صورته القتالية– ليس استعماراً للشعوب ولا نهباً لخيراتها، ولا استباحة لدمائها؛ فإن الإسلام لايسرُّه أن يرى الناس قتلى، بل يسرُّه أن تصل إليهم كلمته لتحررهم من ربقة الطغيان الى حرية الإسلام وعدله وسعادتهم بالعيش في ظل نظامه فى الدنيا، ولإسعادهم إن هم آمنوا به في بالفوز بالجنة والنجاة من النار في الآخرة. وبالتالي فللقتال أسبابٌ ومسوغاتٌ أهمها:

١– دفع العدوان والظلم عن المسلمين كما قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الحج: ٣٩. وأعداء الأمة الذين يكفرون بالله ورسوله، ويحاربون المسلمين لأنهم أصحاب عقيدة توحيد، فكيف السبيل إلى ردِّ أذى هؤلاء الأعداء إن لم نقابلهم بالقتال كما يقاتلوننا؟!

٢– تحرير ديار المسلمين والعودة إليها؛ لأن الأعداء يغتصبون أرض المسلمين وديارهم. ويُخرجونهم منها بالطرد والإهانة والتشريد، ولا حيلة لاسترداد الأرض وعودة أصحابها إليها، وتطهيرها من الفساد والإفساد، وإقامة شرع الله فيها إلا بالقتال.

٣– تحرير البشر من الطاغوت؛ فالإسلام دين الله تعالى للناس كافة، ولا بد أن يحمل دعوته المسلمون للناس. وقوى الشر والبغي والعدوان من حكام البشر وطواغيتهم يقفون سداً منيعاً في وجه كلمة الخير لشعوبهم. ولا سبيل إلى وصول كلمة الله إلى خَلْق الله إلا بالقتال الذي يكسر شوكة الطاغوت، ويبيد جيوش الكفر والظلام، ويحرر العباد من عبادة البشر وطغيانهم إلى حرية الاعتقاد وعبادة الله وحده لا شريك له. ولهذه الأسباب والمسوغات كلها شرع القتال.

المبحث الثاني

السرايا والبعوث المبكرة

أولاً: بين يدي السرايا:

أكمل النبي ﷺ بناء دولة الإسلام، وظهر واضحاً أن قريشاً قد أصبحت العدو اللدود للإسلام وأهله، وأنها لن تترك عداءها للإسلام ودولته؛ فأخذت تُهَدِّد أهل المدينة- الأنصار- لإيوائهم الرسول ﷺ والمهاجرين ومناصرتهم لهم. كما حاول زعماء قريش إذكاء نار العداوة بين المهاجرين والأنصار فكتبوا إلى رأس النفاق عبد الله بن أُبَيّ بن سلول يُحَرِّضونه على إثارة الفتنة بين المسلمين. ولذا لما بلغ النبي ﷺ خبرُ فتنة بين المسلمين حذَّرهم من الاستجابة لسياسة قريش، فقال: "لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريديون أن تكيدوا أنفسكم؛ تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا بذلك تفرَّقوا."(١)

كما كانت المدينة تضم مشركين مازالوا على شِرْكهم، وهؤلاء يتربصون بالإسلام وأهله الفرصة السانحة. ومن هؤلاء من أظهر الإسلام وأبطن الكفر وشكل ظاهرة خطيرة في المجتمع الإسلامي في المدينة، وهي ظاهر النفاق. والمنافقون أعداء داخل الصف المسلم ولهم خطورة عظيمة. أما خارج المدينة فكان يقيم أعراب مشركون، وقبائل متناثرة، تعيش على النهب والسلب، والإفادة من طرق التجارة وقوافل التجار، كل ما يهمُّها مصالحها وأرزاقها.

وهناك خطر حقيقي على الإسلام والمسلمين، وهو الخطر اليهودي في المدينة من قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. وقد أُسقط في أيديهم بالهجرة النبوية وقيام الدولة الإسلامية، فحسدوا الإسلام، وحقدوا على الرسول والمسلمين، وكانت لهم صِلات

(١)سنن أبي داود. خبر بني النضير

وثيقة مع المنافقين، كما كانوا يتحيَّنون الفرص لإثارة الفتن بين الأوس والخزرج، بإثارة النعرات بينهم، وتذكيرهم بما كان بينهم من حروب طاحنة.

كل هذه التحديات جعلت المسلمين في وضع يتمنَّون فيه أن يأذن الله تعالى لهم بالقتال؛ إذ كانوا ممنوعين منه في مكة. فنزل قول الله تعالى على رسول الله ﷺ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الحج: ٣٩ فشرع النبي ﷺ بعدها بتجهيز السرايا.

ثانياً: مفهوم السرايا:

السرايا جمع سَرِيَّة، وهي دوريَّة مؤلفة من مجموعة من المقاتلين، لها أهداف استطلاعية او قتالية محدودة. وتختلف عن الغزوة في أمرين:

أولهما: السرية أقل عدداً وعُدَّة من الغزوة؛ لأنها دورية استطلاعية أو قتالية محدودة الهدف، بينما الغزوة أكثر عدداً وعُدَّة؛ لأنها تنتهي إلى معركة، وهي أساساً قد أُعِدَّت لذلك.

ثانيهما: اصطلح كُتّاب المغازي والسير من علمائنا أن كل بَعْث خرج فيه النبي ﷺ غالباً ما يسمى غزوة، وأن كل بَعْث لم يخرج فيه رسول الله ﷺ فغالباً ما يُسمّى سرية.

ثالثاً: أهداف السرايا:

للسرايا أهداف عامة؛ فهي جزء من الحياة الجهادية للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ فهي تسهم في نشر الدعوة الإسلامية، كما أنها جزء من التحضير للمعارك الكبرى، كما أن لكل سرية أهدافاً مُحَدَّدة خاصَّة بها. ونقتصر على ذكر بعض أهداف السرايا الأولى قبل غز وة بدر ، رغم أن السرايا في السيرة النبوية كثيرة جداً، وقد

استمرت الى آخر حياة النبي عليه الصلاة والسلام . وأهمُّ الأهداف العامّة لهذه السرايا هي:

١- تهديد قريش في تجارتها، وقطع الطريق عليها إلى الشام. وقريش تعتمد على التجارة في حياتها، فضَرْب اقتصادها يضعفها. كما وأن أخذ أموالها حق مشروع للمسلمين الذين أُخرجوا مُكْرَهين من ديارهم، فاستعادة أموالهم يعين المسلمين ويقوّيهم، ويُضعف أعداءهم المشركين من قريش.

٢- تخويف قريش باستعراض المسلمين لقوتهم وتَحَدّيهم لعدوهم مما يرفع من معنويات المسلمين، ويَحول دون تفكير قريش في ملاحقة المسلمين في المدينة، أو التفكير بغزوها.

٣- إظهار قوة المسلمين وإشعار أعدائهم أن مرحلة الضعف للمسلمين قد انتهت.

٤- تهديد المشركين داخل المدينة وإرهاب المنافقين واليهود، بحيث يُحْبَط كيدهم وتفكيرهم في إثارة الفتن بين المسلمين.

٥- تأمين حدود المدينة وما حولها من تهديد القبائل والأعراب، وتأديبُ هذه الفئات المرتزقة كي لا تفكر في غزو المدينة ونهب خيراتها.

٦- ربط القبائل والأعراب في طريق التجارة بمعاهدات أمان وعدم اعتداء لتكون محايدة في موقفها بين قريش والمسلمين.

٧- إفهام قريش بضرورة التوقف عن إيذاء من يدخل الإسلام من أهل مكة، وهي لا تطيق أن يصبح لهذا الدين دولة ولا لأهله قرار، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه السرايا أن يرسل رسالة إلى قريش مُفادُها أن هذه الخطة الظالمة لقريش في إيذاء الإسلام وأهله ستُلْحِق بها أضراراً فادحة، وسيُكَلِّفُها عَصَب حياتها وهو اقتصادها[١] وتجارتها إلى الشام، وأنها الآن مهددة من قِبَل المسلمين.

---

(١) انظر الغزالي ، فقه السيرة، ٢٣٩.

رابعاً:سرايا قبل غزوة بدر الكبرى:

وأهم تلك السرايا قبل غزوة بدر الكبرى هي:

١- سرية حمزة بن عبد المطلب[(١)] : كانت أول سرية عقدها النبي ﷺ بقيادة عمِّه حمزة بن عبد المطلب ﷺ في رمضان من السنة الأولى للهجرة على رأس سبعة أشهر منها، كما يرى المدائني.[(٢)] وقد شارك فيها ثلاثون مسلماً من المهاجرين. وكان هدفها: تهديد قافلة قريش القادمة من الشام وفيها ثلاثمائة رجل. ولما وصلت السرية سيف البحر في مكان يسمى العيص- بين يَنْبُع والبحر الأحمر- اصطف االفريقان للقتال، فحجز بينهما مَخْشِيٌّ بن عمرو الجهني، فلم يقتتلا، وعادت السرية إلى المدينة ونجت القافلة.

٢- سرية عبيدة بن الحارث: وهي مُشَكَّلَة من ستين أو ثمانين مهاجراً، وكان هدفها أيضاً تهديد تجارة لقريش على رأسها عكرمة بن أبي جهل وصلت وادي رابغ. وانتهت دون قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى فيها بأول سهم في الإسلام. ويرى ابن إسحق أنها كانت أول سرية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)].

٣- غزوة وَدّان: وهي أيضاً سرية إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قائدها؛ فسميت غزوة. وهي أول غزوة غزاها رسول اللهﷺ، وكانت في آخر صفر وبداية شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة.[(٤)]وكان عدد قواتها مائتي مقاتل، وكان وهدفها تهديد طريق قريش، والتحالفَ مع بني ضمرة في وَدّان.

٤- غزوة العُشَيْرة: وهي أيضاً دورية قتال بقيادة الرسول ﷺ في مائتي مقاتل. وكان هدفها تأديب بني مُدلج وأحلافهم من بني ضمرة، وتهديد قافلة لقريش بقيادة أبي سفيان.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام(مع الروض) ، ٣ / ٢٠، وابن سعد في الطبقات، ٢ /٦.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي،٣ /١٠، وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣ / ٢٠

(٣) انظر المرجعين السابقين.

(٤)انظر ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٨/٣.

وقد نجحت هذه الدورية فأَظهرت قوة المسلمين أمام هذه القبائل في طريق التجارة، وعقدت موادعة بينها وبين بني مُدلج وحلفائهم من بني ضَمرة، وأرهبت قريشاً في طريق تجارتها.[١]

٥- غزوة بدر الأولى: وهي دورية قُوامُها مائتا رجل، وهي أيضاً بقيادة رسول الله ﷺ ، خرجت لمطاردة كُرْزِ بن جابر الفِهْري وقواته التي أغارت على مراعي المدينة، ونهبت بعض إبِلها وأغنامها.

٦- سرية عبد الله بن جحش: وهي دورية استطلاعية مكونة من ثمانية مهاجرين بقيادة عبد الله ابن جحش، ومع قائدها رسالة مكتومة أمره النبي ﷺ ألّا يفتحها إلا بعد يومين من مسيره، ثم يفتحها بعد ذلك وينفذ ما فيها من أوامر، وكان مضمونها:"إذا نظرت في كتابي هذا فامْضِ حتى تنزل نخلة- بين مكة والطائف- فتَرَصَّدْ بها قريشاً وتعَلَّم لنا من أخبارهم."[٢] وقد التزم أمير السرية عبد الله بن جحش الأوامر، ففتح الرسالة في موعدها إلا أنه لما رأى المشركين أخذته الحماسة للقتال هو ومن معه فهاجموا القافلة، فقتلوا من المشركين عمرو بن الحضرمي، وأسَروا مشركين من قريش، وكان ذلك في شهر رجب وهو من الأشهر الحُرُم. فأخذ المشركون واليهود والمنافقون يُرَوِّجون الفتن والإشاعات، ويعيبون على المسلمين كيف يقاتلون في الأشهر الحُرُم التي يَحْرُم فيها القتال حتى في الجاهلية قبل الإسلام، فنزل قول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾البقرة: ٢١٧

(١) انظر ابن هشام، الشيرة النبوية، (مع الروض)،٣ /٢١ – ٢٢، والبخاري، كتاب المغازي، رقم ٣٩٤٩ ، ومسلم، رقم ١٢٥٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام(مع الروض)، ٣ / ٢٢ – ٢٤ والبيهقي في السنن، ٩/ ١١ بسند صحيح ، ومسند أحمد ، (الفتح الرباني للساعاتي)، ٢١/ ٢٥ – ٢٦.

خامساً: المهاجرون دون الأنصار في السرايا الأولى:

نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يطلب من الأنصار الخروج في هذه السرايا المتقدمة قبل بدر، وجعلها مقتصرة على المهاجرين فقط. وما ذلك إلّا لِحِكَمٍ، منها:

١- لَمْ يُرِد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُكَلِّف الأنصار تبعات القتال من أول لحظة خارج حدود المدينة؛ لأن شرط نصرهم له كما في بَيْعَة العقبة الكبرى أن يحموه داخل المدينة مما يحمون منه أنفسهم وأهليهم.

٢- رفع الروح المعنوية للمهاجرين؛ حتى لا يشعروا أنهم لاجئون في حالة ضعف، وإنما هم مجاهدون يتحرشون لقتال قريش التي أخرجتهم من ديارهم.

٣- حتى يتعَرَّف المهاجرون على طرق المدينة وأعرابها وقبائلها؛ لأن هذه المناطق ستكون ميادين العمليات العسكرية القادمة. أما الأنصار فهم أهل المنطقة ولهم بها معرفة سابقة.

٤- حتى يعرف الأنصار أن إخوانهم ليسوا عبئاً أمنياً عليهم، وإنما هم رجال؛ يدافعون عن المدينة ويطاردون مَن يعتدي عليها من الأعراب والمشركين والمرتزقة والطامعين.

٥- حتى يُمَكِّن النبي ﷺ روح حب المدينة في قلوب المهاجرين، وليُشعِرهم أنها أصبحت وطناً لهم، وأنهم ليسوا لاجئين، وأن عليهم واجب الدفاع عنها وعن أهلها، وهم وإخوانهم الأنصار في هذا الأمر سواء.

سادساً: تهيئة المسلمين للقتال نفسياً وتشريعياً:

لقد عقب القرآن على استهجان قريش لوقوع قتل ابن الحضرمي وأسْر رجلين من الكفار في أواخر شهر رجب وهو شهر حُرِّم فيه القتال، ومع إنكار النبي ﷺ لوقوع القتل فيه مما أسقط في أيدي قريش حين اعترضت وعابت على المسلمين انتهاكهم الشهر الحرام، إلّا أن الله تعالى تكفَّل بجوابهم، وعقَّب على ذلك بقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ

فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢١٧.

وهذا التعقيب أراح المسلمين بالقتال، وتأكَّدت لديهم مشروعيته، "وطمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله أتطمع أن تكون لنا غزوة فنُعطى فيها أجر المجاهدين، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ البقرة: ٢١٨ **فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء."[(١)]وقال بعضهم في سبب نزول هذه الآية عن الذين كانوا في سرية عبدالله بن جحش ممن قاتلوا في الأشهر الحرم:"إن لم يكونوا أصابوا وِزراً فليس لهم أجر؛ فأنزل الله عز وجل الآية"[(٢)].**

وهنا نجد أن تعقيب القرآن على الحادثة في السّرية وإن كان لا يقر بمشروعية القتال في الأشهر الحُرُم قبل الإسلام وبعد الإسلام، إلا أنه يُوَجِّه الأنظار إلى أن "حرب الإبادة التي يشنها العدو على المسلمين هي أكبر من أية خطيئة أو مخالفة تذكر."[(٣)]

---

(١) والحديث مروى عن الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، انظر السيرة النبوية لابن هشام **(مع الروض)،٣ / ٢٤**

(٢) انظر تخريج الرواية في صحيح السيرة ص**١٥٥** عند البيهقي**٩ /١١ ــ ١٢** والطبري في التفسير، **٢ / ٣٥٠** ، والطبراني في الكبير،١٦٧٠ ، وحكم على سند البيهقي بأنه صحيح وأن رجال الطبراني رجال الصحيح.

(٣) الغضبان، منير، المنهج التربوي للسيرة النبوية ــالتربية الجهادية، ط**٤**. دار الوفاء، المنصورة بمصر،**١٤٢٢هـ=٢٠٠٢**م، **١ / ٤١** ، وانظر تعليق المرحوم سيد قطب على هذه الآية في ظلال القرآن،**٢٢٦/١ - ٢٢٧**

وبهذا تهيأ المسلمون نفسياً للإذن بالقتال، وقَويَت نفوسهم طلباً له من أجل الرحمة والمغفرة، والدفاع عن دين الله عز وجل، وانتقاماً ممن أخرجوهم من ديارهم وفتنوا المؤمنين، "فلم يمرّ شهر واحد حتى تعبأ المسلمون للقتال ونزل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة: ١٩٠ ــ ١٩٥ وإذا كانت الآيات تتحدث بالإشارة عن القتال في حادثة معينة، وعن مبرراته[١] فهي الآن من الوضوح والبيان والناصعة بحيث تحرق كل دَخَلٍ أولَبْسٍ."[٢]

وبهذا استكمل المسلمون التهيئة التشريعية من حيث حُكْمُ القتال بعد التهيئة النفسية لمشروعيته، مما كان له الأثر الكبير في بيان الإذن بالقتال والأمر به، وبيان أسبابه ومسوغاته؛ دفاعاً عن النفس، ودفاعاً عن الدين، ودرءاً للفتنة، وتمكيناً للدعوة بوصول كلمة الحق والتوحيد بالبيان، ومقارعة الذين يقفون في طريق وصولها بفتنة الناس عن الإيمان، بالسِّنان والسلاح. ومما كان له الأثر البالغ في تهيئة المسلمين للقتال عملياً ابتداءً من أول معركة قادمة في الصراع مع الشرك وأهله في مكة؛ في غزوة بدر الكبرى القادمة.

---

(١) والصواب لغة مسوغاته؛ حيث لا وجود لكلمة مبررات للدلالة على المعنى المراد هنا.

(٢)الغضبان،المنهج التربوي١/٤٣-٤٤.

المبحث الثالث

الدعوة والجهاد

أولاً: أطراف الصراع مع دعوة الإسلام:

هكذا أخذ رسول الله ﷺ يبني المجتمع المسلم؛ لينسج أمة مسلمة تحمل حضارة التوحيد فكراً واعتقاداً، تشريعاً وعملاً، قِيَماً وسلوكاً. تتزل عليه آيات الله عز وجل ليبني تشريعاً ضخماً، وتربية للأمة المسلمة في شؤون حياها كافة؛ إيمانية ونفسيةً وتربوية، فردية وجماعية، اقتصادية وسياسية واجتماعية. ولكن هذا المجتمع وهذه التربية تحتاج إلى حماية ودفاع، وإلى صراع مع قوى البغي والعدوان؛ سواءٌ منه ماكان داخلياً؛ في صراعٍ خَفِيٍّ مع النفس وهواها وشهواها ومألوفاها في جاهليتها، وفي صراعٍ مع النفاق والمنافقين، أو ما كان خارجياً قي صراع ظاهر مُعلَنٍ وصريح مع الكفر المحيط المتمثل بكفر العرب في الجزية العربية وقيادهم قريش في مكة، وصراع مع حقدٍ يهودي خبيث في المدينة، وإن أعلن يهود أنهم محالفون، وكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وثيقة، ولكن طبيعتهم الموروثة، وجيناهم الوراثية تأبى عليهم الوفاء بالعهود، والصدق في الوعود. وهناك صراع أيضاً مع كفر عالمي وجاهلية عالمية؛ مع أكبر دولتين عالميتين في ذلك الزمان: وهما دولة الروم ودولة الفرس.

ومن هنا فيمكننا الحديث في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى عن دعوة الأمة المسلمة وجهادها وقتالها بقيادة رسولها ﷺ في السيرة النبوية بتقسيمه إلى أربعة أنواع من الصراع؛ بحسب الأعداء:

أولها: جهاد قريش والمشركين في الجزيرة العربية العربية.

وثانيها: جهاد اليهود والصراع معهم.

وثالثها: جهاد الدول الكبرى للإسلام والصراع معها.

ورابعها: جهاد القوة العميقة والصراع مع النفاق والمنافقين.

ثانياً: الدعوة تسبق القتال:

ولقد سبقت الدعوة للإسلام بالبيان والكلمة جميع أطراف هذا الصراع، وكانت الكتب والرسائل لزعماء القبائل والدول العالمية تصلهم من رسول اللهﷺ، بل لا بد من التأكيد على قضية مهمة وهي أن القتال والصراع مع قوى الشرك ليس هدفاً في حد ذاته، ولا يسبقُ الدعوة إلى الإسلام، وليس طريقاً لدخول الناس في الإسلام؛ فإمّا أن يسلموا أو يقاتَلوا، بل إن دعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام لهذه القوى من الأعداء قد سبقت مقاتَلَتهم والاشتباك معهم في المعارك والقتال. وعلى سبيل المثال؛ فقد سبقت دعوة رسول الله ﷺ لقريش زعيمة الشرك في مكة وفي جزيرة العرب قاطبة ثلاثة عشر عاماً، وكانت دعوةً بالبيان والحكمة، والموعظة الحسنة، وبالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن. ولكن إجابة قريش كانت سيئة وسلبية؛ وذلك بتكذيب للرسول ﷺ، واتهامه بالسحر والجنون والشعوذة والكهانة، ومحاولات الاحتواء له بعرض الزعامة عليه والملك والسيادة والمال. وحين يئست من ذلك كله اتجهت إلى الفتنة والتعذيب لأصحابه، وإلى الإيذاء النفسي والجسدي لرسول الله وللمؤمنين، حتى استكملت حلقة عدائها بالمؤامرة الكبرى لقتل رسول الله ﷺ ليلة هجرته، فكان الرد على كل هذه الأساليب الملتوية والعدائية من قبل رسول الله ﷺ وجماعته بالصبرَ والتحَمُّل، والهجرة من بعض الصحابة إلى الحبشة بحثاً عن الأمان، وتفادياً للصدام. واتسمت سياسة المسلمين في مكة رغم كل هذا الاضطهاد بالانضباط التنظيمي، وعدم الرد على الاستفزاز، وعدم التجاوب مع الابتزاز، وبالصمود على الفتنة والتجويع رغم المقاطعة العامّة الشاملة للمسلمين اجتماعياً واقتصادياً، وبالابقاء على الكلمة والبيان سلاحاً وحيداً في وجه هذا الباطل. ولما قوي المسلمون، وأصبحت

لهم دولة ومنَعة أصبحت دولة الدعوة في المدينة محتاجة ومضطرة من أجل البقاء والبناء إلى حسم المعركة مع قريش إذ لا وسيلة غيرها.

وأما اليهود فقد أصبحوا مُطَّلِعين تماماً على طبيعة هذه الدعوة الإسلامية التي تخاطبهم بلغة القرآن في المدينة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤ وبيَّن الله لهم وبالحجج القاطعة ومن كتبهم صدق نبوة محمدﷺ وعالمية رسالته، وأنه مُبَشَّر به وبرسالته في كتبهم. وما ترك حجة لهم إلا وأجاب عليها بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وببيان الحقائق الواضحة البيِّنة، وبالجدال بالتي أحسن. وكتب لهم النبي ﷺ وثيقة تُقِرُّهم على دينهم وحرياتهم العقدية والعبادية، ولم يُكْرِههم على الإسلام، وأشركهم في حقوق المواطنة في المدينة، وأقرَّهم على تحالفاتهم، وأمّنهم على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم. ومع ذلك فقد كانت لهم مواقف واضحة السوء، وعميقة العداوة في نفوسهم، لم يستطيعوا إخفاءها وذلك بالتآمر على رسول اللهﷺ، وفي العداوة لدين الله، وفي العمالة الجبانة بالتآمر مع المشركين على المسلمين في المدينة وعلى رسول الله ﷺ – كما سنبين ذلك في موضعه؛– ممّا أصبح قتالهم ضرورة من ضرورات الدعوة الإسلامية لبقائها، وديمومتها، وعافيتها ونقاء عاصمتها–المدينة– من مكرهم. وبالتالي فلم يسبق قتالُهم دعوتَهم إلى الخير ، بل كانت الدعوة لهم إلى الخير أسبق من مقاتلتهم، وكانت مسالمتُهم قبل معاداتهم وطردهم؛ لكنهم لم يحسنوا الصحبة، ولم يرْعَوا الذمة، ولم يوفوا بالعهود والمواثيق.

وأما الشرك العالمي والدول الكبرى، فارس والروم وسائر ممالك الأرض يومها، فقد سبقت كتبُ رسول الله ﷺ ورسلُه إليهم بكتبه ﷺ إليهم، لبيان الإسلام، ودعوتهم إلى الخير بدخوله، وبيان علاقته بالأديان الإلهية السابقة التي يدينون بها، وأنه استكمال لحلقات

تلك الرسالات الكريمة، وأنه ﷺ خاتَم النبيين –مما سنرى ذلك في موضعه–وكل ذلك كان دعوة لهم لدخول الإسلام. ومع ذلك أيضاً كانت إجاباتهم سلبية، إما بعدم الاتباع، وإمّا بقتل سفراء النبي وحمَلَة كتبه إليهم، وإما بإعداد الجيوش لاقتحام الجزيرة للقضاء على دعوة الإسلام، والاشتباك مع جيوشهم مع قلة عدد جيشه وعُدَده، وكثرة عدد جيوشهم وعُدَدهم. وبهذا فقد سبقت دعوتُه ﷺ بالبيان قتالَهم وغزوهم؛ مما يؤكد فلسفة رسالة الإسلام؛ من أنها دعوة إلى الله ، هدفها إخراج البشرية من ضنك الشرك وظلمته، إلى واحة التوحيد ونوره، ومن ظلمات الجاهلية وقهرها وجورها وظُلمها إلى نور شريعة الإسلام وحريتها وعدلها، ومن سوء نهايته البشرية في جهنم إلى سعادة أبدية في جنَّة عرضها السموات والأرض . فإذا ما وقفت قوى الجاهلية وقوى البغي والعدوان في وجه كلمة الله إلى خلْق الله، وأشهرت سيوفها على الإسلام ودولته وعلى الأمة وحضارتها ورسالتها؛ اضطرت الأمة للدفاع عن دينها ورسالتها، وعن نفسها وشريعتها، ودولتها وأرضها، وعن هذا الإنسان المقهور من الطغيان في الأرض؛ وذلك بالقتال لتحطيم قوى الشرك للوصول إلى خلق الله المظلومين بطواغيتهم ومناهجهم الفاسدة، وليعيش الناس جميعاً مؤمنُهم ومواطنهم ممن بقوا على أديانهم في ظلِّ قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٥٦ وفي ظل نظام سعيد للبشرية تنفيذاً لأمره تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ الأنفال: ٣٩ والمقصود بالدين هنا الدينونة والنظام، فمن رضيه نظاماً عاماً ولم يؤمن بعقيدته فقد سعد في الاستظلال بمظلته في الدنيا، ومن آمن بعقيدته وعبد ربه بشريعته فقد سعد دنيا وآخرة.

الفصل الثالث

الدعوة وجهاد المشركين في الجزيرة العربية

المبحث الأول: غزوة بدر الكبرى.

المبحث الثاني: غزوة أُحُد.

المبحث الثالث: غزوة بني المصطلق.

المبحث الرابع: غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق.

المبحث لخامس:غزوة الحديبية أو صلح الحديبية.

المبحث السادس: فتح مكة أو الفتح الأعظم.

المبحث السابع: غزوة حُنين أو هوازن أو أوطاس.

المبحث الأول

غزوة بدر الكبرى

أولاً: تاريخ الغزوة:

يرى ابن اسحق أن النبي ﷺ خرج من المدينة بمن معه من المسلمين يوم الإثنين في الثامن من رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت المعركة بينه وبين مشركي قريش في بدر يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان.[١] وبعد التحقيق ذكر ابراهيم العلي مستنداً إلى قول ابن حجر، وجامعاً بين الروايات أن الخروج كان في الثاني عشر من شهر رمضان، وأن اليوم السابع عشر كان يوم الوقفة،-أي يوم القتال- وأن اليوم التاسع عشر-وهي إحدى روايات ابن مسعود- كان يوم انتهاء الغزوة، وأن رسول الله ﷺ كان يقيم في أرض مَن غزاهم ثلاثة أيام بعد نهاية المعركة.[٢]

ثانياً:هدف الغزوة وأسبابها:

١- علم رسول الله ﷺ أن أبا سفيان خرج في تجارة إلى الشام، وقد ظنت قريش أن طريقها آمنة ، وكانت تلك القافلة التجارية تُقَدَّر بخمسة آلاف مثقال ذهب، ويقال إن قيمتها كانت خمسين ألف ديناراً ذهبياً على ألف بعير، وعليها ثلاثون أو أربعون حارساً،.[٣] فأراد النبي ﷺ أن يضرب قريشاً ضربة اقتصادية قاصمة، وأن يقطع عليها مصدراً كبيراً من مصادر رزقها وتمويلها وقوتها، وقد أرسل عَدِيَّ بن الزغباء وبَسْبَس بن عمرو إلى طريق

(١) انظر السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٢/٣ ،وأكدّ هذا أبو داود في كتاب الصلاة، باب من روى أنها ليلة سبع عشرة، رقم١٣٨٤ ، والبيهقي،٣١٠/٤ ، والحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي على تصحيحه، ٢٠/٢ -٢١ ، انظر تخريجه كاملاً في العلي، هامش صحيح السيرة النبوية، ص١٥٨

(٢) انظر العلي، صحيح السيرة، ص١٥٨

(٣) انظر ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)،٢٩/٢ ، جوامع السيرة لابن حزم، ص١٠٧

التجارة، فرجعا إليه بخبرها،[1] فأسرع رسول الله ﷺ بنَدْبِه من كان جاهزاً من أصحابه في المدينة للخروج من أجل أخذ أموال قريش، التي هي روح اقتصادها، وفيه أموال المسلمين المهاجرين التي حرمتهم قريش من إخراجها عندما هاجروا إلى مكة، وقال عليه الصلاة والسلام:"هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا لعل الله أن ينفلكموها"[2].

٢- أما سببها من جهة قريش أن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين بعث إلى قريش ضمضم بن عمرو الغفاري يستنجد بها لحماية القافلة، فما كان من زعيمها أبي جهل إلا أن أعلن النفير العامَّ في مكة، وحرَّض جميع قبائلها على الخروج لقتال محمد ﷺ، واستئصال شأفة المسلمين في المدينة حمايةً لأموالهم، ولطريق تجارتهم. وحتى مع علمه بنجاة القافلة إلا أنه أصرّ على ذلك، لا سيّما أن دم عمرو بن الحضرمي الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش قبل شهرين ما زال ماثلاً أمامهم يريدون الثأر له. وقد ظهرت أهدافه الجاهلية الواضحة للخروج حين حاول أن يَثْنِيَهُ بعضهم عن الخروج بعد نجاة القافلة، وبعد استماعهم لرؤيا رأتها عاتكة بنت عبد المطلب -عمة رسول الله ﷺ- فيما رواه ابن اسحق عن عكرمة عن ابن عباس ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، -ومختصر الرواية-: أنها رأت راكباً على بعير وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا لمصارعكم ثلاث مرات، فاجتمع الناس له، ثم صرخ بمثلها بعد أن دخل المسجد، ثم صرخ بمثلها وقد على ظهر الكعبة، ثم صرخ على جبل أبي قبيس بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي وتكسّرت بأسفل الجبل؛ فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها فلقة منها. وقد سمع أبو جهل بالرؤيا فاستدعى العباس يتوثق منها ويسهزي بها قائلاً: أما رضيتم يا بني المطلب أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، فإنها إن مضت ثلاثة أيام ولم يحصل ما قالت

---

(١) أخرج الرواية العمري من ابن سعد في الطبقات، عن عكرمة، وحكم بصحتها، انظر أكرم العمرب، السيرة النبوية الصحيحة،٣٥٤/٢، وفي صحيح مسلم، رقم ١١٥٧، وابن هشام، السيرة النبوية،' (مع الروض)، ٣/ ٣٠٥

(٢) السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٢/٣ من طريق ابن اسحق بسند صحيح صرح فيه بالتحديث.

عاتكة فسنكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب.[1] هكذا كانت عنجهية أبي جهل، ليعلن بعدها إصراره على الخروج معلناً أهدافه بقوله:"والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، ننحر الجزور، ونُطعِم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجَمْعِنا فلا يهابوننا، أبداً بعدها؛ فامضوا. (وفي رواية: فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر.)"[2] وكان من شدة تأليبه وضغوطه على أهل مكة أنه لم يبْقَ بَطْنٌ من بطون قريش إلا وخرج فيهم من يُمَثِّلُهم في هذا الجيش المشرك؛ إلا ما كان من بني عَدِيٍّ بن كعب ومن بني زهرة إذ رجعوا مع الأخنس بن شُرَيْق، حتى إن العباس بن عبد المطلب -عم رسول الله ﷺ- أحرجوه وأخرجوه معهم؛ هو وعقيل بن أبي طالب - ابن عم رسول الله ﷺ-[3].

ثالثاً: قوات المسلمين واستعداداتهم وتعبئتهم:

١- تجهيزات الخروج: بلغ عدد من خرج مع النبي ﷺ ممن كانوا جاهزين للخروج ثلاثمائة صحابي، فيما اختلفت الروايات بين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وأن هذه البضعة حددها بعض الرواة بأنها ثلاثة عشر أو أربعة عشر أو تسعة عشر، وفي بعض المصادر أربعون صحابياً. وكان منهم مائة من المهاجرين، والباقي من الأنصار. ويبدوا أن هذا الإختلاف بين الرواة بسبب الاختلاف في شهود بعضهم الغزوة.[4] أما عدد الإبل التي تحمل الجيش المسلم فلم تتجاوز سبعين بعيراً يتعاقب عليها المسلمون.

وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم الرايات للمجموعات المقاتلة ؛كلَّ راية بحسب قبيلتها من أجل إذكاء روح القتال لتتبارى القبائل في بلائها، وتتنافس في شجاعتها؛ فجعل

(١) المرجع السابق ٣/ ٣٠ بسند صحيح مرسل وهو حسن.

(٢) المرجع السابق٣، /٣٥، وكتاب المغازي للواقدي١/ ٤٤.

(٣) انظر ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣/٣٥.

(٤) انظر شرح النووي على صحيح مسلم، ٨٤/١٢ ورواية البخاري أنهم بضعة عشر وثلاثمائة كما في فتح الباري،٢٩٠/٧ – ٢٩٢، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، والتعليل للاختلاف انظر، العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٣٥٥/٢.

رايتين سوداوَيْن؛ إحداهما للمهاجرين مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى للأنصار مع سعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة، ودفع اللواء العام إلى مصعب بن عمير بن هشام من بني عبد مناف، وكان لونه أبيضاً.[١] وكل ذلك يدل على تنظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحركة جيشه وتشكيلاته المعنوية والعسكرية.

٢- المفاجأة والتحوُّل في الهدف: سلك النبي صلى الله عليه وسلم طريقاً إلى بدر بخبرة خبراء الطريق، وبعث أعيانه واستخباراته لتحصيل خبر القافلة، ثم لما تأكد من عدم وجودها ومن نجاتها تفاجأ بأخبار خروج جيش قريش. ومن خلال تحليلاته للمعلومات الاستخبارية من غلامين يسقيان الماء لقريش؛ وهما أسْلَمُ غلام بني الحجاج، وعريض بن يسار غلام بني العاص بن سعيد وقد أُلقي القبض عليه من جيش المشركين؛ فأخبرا أن جيش قريش يذبحون يومياً من تسعة إبل إلى عشرة، فقدَّر النبي أن قُوام جيش المشركين من تسعمائة إلى ألف مقاتل،[٢]وعرف منهما أسماء مَن خرج من أشراف قريش، وأنهم خمسة عشر رجلاً من صناديدها هم: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البُختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، ونبيه بن الحجاج، وأخوه مُنبِّه بن الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدوُدٍّ، وعلى رأسهم زعيم الكفر في مكة أبو جهل بن هشام.[٣] حينها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين ليُنبِّهَهم ويُقوي عزائمهم للمعركة القادمة الفاصلة:"هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها."[٤]

وقد وقع خبر نجاة القافلة على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موقعاً صعباً؛ فإنهم لم يخرجوا لقتال، ولم يستعدوا لذلك، ولم يخرج معهم عدد كبير من المسلمين، ولم يُمْهِل النبي

(١) انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٢/٣

(٢) الخبر في ذلك صحيح عند الحاكم في المستدرك،٣ /١٨٧-١٨٨، وأحمد في المسند١١١/١، وانظر، ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، ٣٤/٣

(٣)المرجع السابق٣ /٣٤

(٤) المرجع السابق، والواقد،كتاب المغازي،١٧٥/١

ﷺ الصحابة للاستعداد بل قال: "ألا مَن كان ظهره حاضراً،"[1] وأنه قد ذكر لهم الهدف من الخروج مُسْبَقاً، وهو غنيمة القافلة التجارية، وأن الموقف صعب؛ فقريش قد خرجت بألف مقاتل مع استعدادات كاملة للحرب، والمسلمون خرجوا لغنيمة قافلة، ومن غير استعدادات قتال لمواجهة عدو! وقد صور القرآن الكريم وقع هذا الخبر بعد نهاية الغزوة على نفوس أصحاب رسول الله ﷺ، وكيف أن الله تعالى أراد لهم خيراً مما أرادوا لأنفسهم، إذ جعل النصر حليفهم في أول معركة بين الحق والباطل، وأنه سماها يوم الفرقان، حيث قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ الأنفال: ٥ ــ ٨ .

٣- استشارة النبي ﷺ أصحابه: لما تأكد رسول الله ﷺ من أن الهدف الذي أراده من الخروج قد فات، وأن مُستجدات قد حصلت، وذلك بخروج قريش بجيشها وزعمائها للقتال، ولم يكن في خُطَّته عليه الصلاة والسلام أن يقاتل، ولا في استعداداته ما يكفي لمثل هذه المعركة غير المتكافئة مع قريش؛ عدداً ولا عُدَّةً، جمع أصحابه في جلسة للتشاور مع حضور جميع مدخلات الواقع الجديد والمفروض عليه وضروراته وما يلزمه من اتخاذ قرار مصيري، وطلب من أصحابه أن: "أشيروا عليّ أيها الناس. فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول الله امض لِما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك

(١) مسلم،رقم١٩٠١، ومعنى ظهره أي ركوبته أو دابّته.

فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك مَن دونَه حتى تَبْلُغه. فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به."[1] وما زال النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أشيروا عليّ أيها الناس، يريد أن يسمع رأي كبار الأنصار بعد سماعه رأي كبار المهاجرين، وكان حريصاً جدًّا على أن يسمع رأيهم؛ فالمعركة خارج المدينة، ولربّما فهموا من بيعة العقبة الكبرى أن نُصرته واجبة عليهم إذا كان العدوان عليهم في داخل المدينة فقط، وهو الآن خارجها. فقام سعد بن معاذ ﷺ، وهو أحد كبار الأنصار، فقال: "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: لقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردتَ؛ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضْت بنا هذا البحر فخُضْتَه لَخُضناه معك، ما تخلّف منا رجل، وما نَكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً؛ إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق عن اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تَقَرُّ به عينُك، فَسِرْ على بركة الله."[2]

وبهذه الشورى أيقن رسول الله ﷺ أن جنوده قد تحولت نيّاتهم من غنيمة القافلة إلى المواجهة والقتال، وأنهم تجاوبوا مع التحدي الجديد، وأنهم تهيأوا نفسياً للقتال، وأنهم استوعبوا المستجدات، وقبلوا الخطة الطارئة، وتحولوا إلى الأهداف الجديدة، فبشّرهم رسول الله ﷺ بما يرفع معنوياتهم نحو النصر، وقال: "سيروا وأبشروا؛ فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم."[3] –يقصد مقتل جيش المشركين.

٤– ترتيبات الجيش المسلم القتالية:أخذ النبي ﷺ والمسلمون مواقعهم في بدر قرب مائها. فسأل الحباب بن المنذر رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أهذا المترل أنزلَكَهُ الله أم هو الرأي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٣٣.

(٢) المرجع السابق٣ /٣٣ – ٣٤، باسناد صحيح وشواهد من رواية البخاري والنسائي ومسند أحمد.

(٣) المرجع السابق، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ٣ / ٢٦٢-٢٦٣

والحرب والمكيدة؟ فقال رسول اللهﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل! فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءً من القوم، فنُعَسْكِر، ثم نُغَوِّر(أي ندفن) ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل فنشرب ولا يشربون. فسُّر النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الرأي العسكري الذي أشار به الحباب، وأمر الجيش بتنفيذ الخطة[(١)].

٥- اتخاذ مقر القيادة: ثم أشار سعد بن معاذ بأن يُبنى للنبي ﷺ عريشٌ وعليه حماية وحراسة ومعه ركائب، بحيث يُصدر النبي ﷺ أوامره من هذا المقر للقيادة، وحتى إذا ما أصيب المسلمون- لاسمح الله – نجا النبي ﷺ وعاد إلى المدينة، لينضم إليه المسلمون من هناك؛ وبهذا الأسلوب العسكري لا تتعرض القيادة للخطر، فصنع الجيش العريش لرسول اللهﷺ، وهيأ له الحماية[(٢)].

٦- التعبئة المعنوية: وقف النبي ﷺ في العريش، وأخذ يدعو على قريش، ويدعو الله تعالى لدينه ولجيشه بالنصر، ويقول: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تحادُّك وتُكَذِّب رسولك، اللهم فنصرَك الذي وعدتني، اللهم أَحِنْهُم(أي أهلكهم) الغداة."[(٣)] "اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعْبَد في الأرض."[(٤)] وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يُبَشِّرُ أصحابه بالنصر، ويشير إلى مصارع قادة قريش موضعاً موضعاً. ووقع لَغَط بين زعماء القبائل؛ بين مُشكِّك بالانتصار على محمد وبين مُصِرٍّ على قتاله. إذ كان بعضهم يقول: "فلعمري لَئن كُنّا إنما نقاتل الناس_ يعني المسلمين- فما بنا من ضعف عنهم، ولَئِن كُنّا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد؛ فما لأحد بالله من طاقة."[(٥)]. ولما حاول

---

(١) نظر،ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)، ٣/ ٣٦ صرّح فيه ابن اسحق بالسماع، واسناده صحيح، وله شواهد من وجوه كثيرة من ذلك: رواية البخاري والنسائي وأحمد، انظر العمري، صحيح السيرة هامش ص١٦٨.

(٢)انظر الرواية بالتفصيل، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)،٣٦/٣ صرح فيها ابن اسحق بالتحديث وهي صحيحه.

(٣) المرجع السابق.٣٦/٣.صرَّح فيه ابن إسحق بصيغة التحديث.

(٤)أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة رقم١٧٦٣ ، واحمد في مسنده١/٣٠-٣٢.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٦/٣. رواه ابن إسحق بصيغة التحديث،

بعضهم تقدير قوات الجيش المسلم وقع في نفسه الرعب؛ رغم تقديره الدقيق لعددهم، فعاد لِيُحَذِّرَهم قائلاً: "يامعشر قريش! البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت، قوم ليس معهم منَعَة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقْتَلَ رجلٌ منهم حتى يَقْتُلَ رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟! فَرَوْا رأيكم."[١]. وجاء حكيم بن حزام إلى عتبة بت ربيعة أحد كبار قريش وساداقم ليقنعه بالتراجع عن القتال، وأن يتحمّل دِيَة حليفه عمرو بن الحضرمي فوافق.واصطحب حكيمٌ عتبةَ ومشيا إلى الناس ،وقام عتبة خطيباً في الجيش المشرك قائلاً: "يا معشر قريش! إنكم والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمداً وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه؛ قتلَ ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخَلّوا بين محمد وسائر العرب؛ فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون."[٢]. وأرسل عتبةُ حكيم بن حزام إلى أبي جهل يخبره رأيه، فقال حكيم لأبي جهل: "يا أبا الحكم! إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخَ والله سَحَرُه[٣] حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ماقال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فقد تخوَّفكم عليه. ثم بعث إلى عامر ابن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك؛ فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك."[٤] وهكذا أصرَّ أبوجهل على القتال، ولو يأخذ بنصيحة عقلاء قومه. ولم يكن لأولئك القادة إلا انغماس في القتال.

٧- النبي يَصُفُّ الجيش:ثم صفَّ النبي ﷺ جيشه صفوفاً، وأخذ يُعَدِّلُهَا ويُسَوِّيها، وقد طعن بأُصبعه في بطن أحد أصحابه وهو سَواد بن غُزَيَّة، ليسوّي الصف، فقال سواد: يا

(١)المرجع السابق ٣٧/٣،وهي رواية عن ابن إسحق بصيغة التحديث.

(٢)المرجع السابق

(٣)فسر ابن هشام السَّحَر بالرئة وما حولها مما يعلق بالحلقوم من فوق السُّرَّة.انظر المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

رسول الله! قد أوجعتني. فلما انتهى الرسول من تسوية الصفوف، قال: يا سواد استَقِدْ منِّي، (أي خذ ثأرك مني لأنني أوجعتك) وكشف عن بطنه، فقام سَواد، فأخذ يُقبِّل بطنَ النبيﷺ. فلما سأله رسول الله ﷺ عن سبب فعله ذاك؛ قال: يا رسول الله حضر ما ترى،(يقصد القتال وربما الموت) فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك، فدعا له النبي ﷺ بالخير[1]. وهكذا يكون حُبُّ الأصحاب لرسولهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام. ثم عاد النبي ﷺ إلى العريش يدعو ربه، ويقول: "اللهم أَنْجِز لي ما وعدتني. اللهم إن تَهْلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض."[2]وما زال يهتف بربِّه رافعاً يديه، مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكِبَيْه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأعاده على منْكِبَيْه، وقال له: "يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربَّك ؛فإنه مُنْجِزٌ لك ما وعدك. ثم خفق النبي ﷺ خفقة ثم انتبه، فقال: أبشِر يا أبا بكر، هذا جبريل مُعْتَجِر بعمامته، آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع، أتاك نصر الله الذي وُعدتُّه."[3]

٨- نُعاسٌ وطمأنينة وغيث بشرى لجيش المسلمين: وكان جيش المسلمين في حالة من التعب شديدة، فأكرمهم الله تعالى بنعاس أو نوم خفيف أزال الله به التعب عنهم، وأنزل غيثاً هدَّأ به الرمال،وثَبَّتها تحت أرجلهم استعداداً للمعركة، وهذا ما عناه الله تعالى بقوله:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ الأنفال: ١١

---

(١) انظر الرجع االسابق، ٣٨/٣ من رواية ابن إسحق بصيغة التحديث، وهو رواية أيضاً عند الطبراني، ورجاله ثقات، والحديث: حسن. انظر الإصابة،٩٥/٢،ومجمعه الزوائد٢٨٩/٦

(٢)أخرجه مسلم في كتاب الجهاد،غزوة بدر ، رقم١٧٦٣، واب هشام، السيرة النبوية (مع الروض) ٣٨/٣، وأحمد في المسند٣٠/١ -٣٢ .

(٣)البيهقي، دلائل النبوة،٧٤/٣. وأحمد في المسند٤٣١/٥،والحاكم في المستدك٣٢١/٢ وصححه، ووافقه الذهبي، وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٨/٣. ومعنى معتجرٌ بعمامته أي موثِقٌ عمامته على رأسه مستعد للقتال. وعنان فرسه: زِمامها أي الحبل الذي يقودها به. والنقع: هو الغبار.

رابعاً: المشركون والمعركة:

١- موقع جيش المشركين: عسكر المشركون بالعُدْوَة القُصوى-أي الأبعد- من ماء بدر. ويبدو أن موقعهم الذي اختاروه قد أسهم في هزيمتهم، حيث سبقهم المسلمون لاتخاذ الموقع الأسلم للقتال في العدوة الدنيا القريبة من ماء بدر؛ مما مكَّنهم من التَّحَكُّم فيه، وحِرمان المشركين منه.

٢- استطلاعات قريش والانشقاق في صفوفها: بعثت قواتُ المشركين عُمَيْرَ بن وهب الجُمَحِيّ، في عمل استطلاعي حول معسكر المسلمين، فعاد إليهم بأخبار لا تَسُرُّهم حيث قال لهم: "يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم مَنَعة. ولا ملجأ إلاّ سيوفهم، والله ما أرى أن يُقْتَل رجل منهم حتى يَقْتُل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادَهم فما خير العيش بعد ذلك؟"[١] فأُصيب جيش المشركين بالذُّعر. وكما ذكرنا قبل قليل فقد سبق وأن قامت معارضة واضحة لأبي جهل لمحاولة إقناعه بالعودة دون قتال، فأصر القائد العُتْجُهِيُّ على عدائه للإسلام، ودخل المعركة بجيشٍ خائر الأعصاب، ومُحَطَّم المعنويات، وبقيادات غير مقتنعة بجدوى القتال.

خامساً: سير المعركة:

١- تحرُّش المشركين بالمسلمين: خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي من جيش المشركين يعاهد الله أن يشرب من حوض المسلمين أو يهدمه أو يموت دونه، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقتله في الحوض. ثم عاد عتبة ومعه أخوه شيبة وابنه الوليد يتحدون المسلمين للمبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فلم يقبل عتبة إلاّ ثلاثة من المهاجرين، فأمر النبي ﷺ عمّه حمزة بن عبد المطلب وعلياً وعبيدة بن الحارث ، وكلهم من أهله

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٧/٣

وأقاربه، أن يخرجوا لمبارزة عتبة ومن معه، أما حمزة فلم يمهل شيبة حتى قتله، وقتل علي الوليد، وتبارز عبيدة وعتبة فجرح كل منهما الآخر، وكَرَّ حمزةُ فأجهز على عتبة، وحُمل عبيدة جريحاً، ثم استشهد بعد عودته بالمدينة رضي الله عنه[١].

٢- المسلمون يدخلون المعركة: اختار النبي ﷺ الوقت المناسب لدخول المعركة، وذلك بعد صلاة الفجر؛ لما لهذا الوقت من البركة والنشاط والعزيمة، وبعد صلاة الفجر بخيرها وبركتها ونورها، ونظَّم الجيش المسلم على هيئة صفوف؛ ليَسْنِد كلُّ صفٍّ الصفَّ الذي أمامه، وهي طريقة جديدة رائعة في القتال. وأمر النبي ﷺ جيشه بالهجوم على المشركين هجمة رجل واحد، وجَهِد النبي ﷺ في الدعاء إلى الله تعالى. وأوحى الله تعالى إلى ملائكته أن تُثَبِّتَ المؤمنين، وأن تتراءَى للمشركين، فيُكَثِّر الله عدد المؤمنين في أعينهم المشركين فيرهبونهم، ويُقَلِّل من عدد المشركين في أعين المسلمين فيُقدِمون على قتالهم. وقام المشركون بهجوم شرس مضادٍّ لهجوم المسلمين: "وقال رسول الله ﷺ لعليٍّ: "ناوِلْني كفّاً من حصى. فناوله، فرمى بها وجوه القوم،"[٢] وقال النبي آمراً المسلمين: "شُدُّوا عليهم، والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابراً محتسباً، مُقبِلاً غير مُدبِر، إلا أدخله الله الجنة. قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض."[٣] فشدد المسلمون هجومهم، وجعلوا يخترقون صفوف المشركين؛ يقطعون أيديهم وأعناقهم، ونزل النبي ﷺ يقاتل مع المسلمين بنفسه، ويرفع من عزائم الجيش، ويقول: سيهزم الجمع ويولّون الدُّبُر.

---

(١) المرجع السابق، ٣٧/٣-٣٨، بإسناد حسن لكنه مرسل، وانظر ابن حجر، فتح الباري، ٢٩٨/٧، وأخرجه أحمد في المسند، ١٩٣/٢، وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٢) الهيثمي، المجمع، ٨٤/٦، قال: أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٩/٣.

سادساً:من بطولات جيش المسلمين:

وقد ظهر من جيش المسلمين في غزوة بدر بطولات كثيرة؛ منها:

١- بطولة عمير بن الحمام حينما سمع تبشير النبي بدخول الجنة، فرمي تمرات كانت في يده ، وكان يأكل منها، وأخذ يقول: "بخ بخ، لئن أنا بقيت حتى آكل هذه إنها لحياة طويلة طويلة."[١] واستعجل في القتال حتى قاتل فقَتَل عدداً من المشركين، واستشهد رضي الله تعالى عنه.

٢- وهذا عوف بن الحارث يسأل رسول الله ﷺ عما يرضي الرب من عبده، فيجيبه ﷺ:أن يغمِس يده في عدوه حاسر الرأس. فيترع درعه ويرميها، ويقاتل قتالاً شديداً حتى استشهد رضي الله عنه.[٢]

٣- وينقطع يومئذ سيف عكاشة بن مُحصن الأسدي، فيأتي للرسول يخبره، فيعطيه عوداً من الحطب ليقاتل به؛ فإذا به ينقلب في يده سيفاً طويل القامة، شديد القوة يلمع، فقاتل به سائر يومه في بدر، ولم يزل عنده حتى استُشْهِد رضي الله عنه في حروب الردة، وكان سيفه ذاك يسمى العَون؛[٣] لأنه من إكرام الله تعالى وعونه لرسوله ﷺ ولعكاشة رضي الله عنه.

٤- وأقبل غلامان هما مُعاذ ومُعَوَّذ ابنا عفراء، فمشى أحدهما عن يمين عبد الرحمن بن عوف، ومشى الآخر عن يساره، وأخذ كل منهما يسأله خِفيةً عن صاحبه: أن يدلَّه على أبي جهل، يريد كل منهما أن يقتله، فدلَّهما عبد الرحمن عليه، فانطلقا عليه كالصقرين فقتلاه، ثم عادا إلى النبي ﷺ يُبَشِّرانه، ويدّعي كل واحد منهما أنه هو الذي قتله، فقال لهما النبيُّ ﷺ:"هل مسحتم سيفيكما؟ قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: كلاكما قتله."[٤]

---

(١) ابن هشام، السرة ٣٩/٣، مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهداء رقم١٩٠١، وانظر تخريجاته في صحيح السيرة ص١٧٦

(٢) انظر ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، بالتحديث وسنده حسن، ٣٩/٣، والبيهقي في السنن٩٩/٦-١٠٠

(٣) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٥٠/٣

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجهاد رقم،١٧٥٢، وصحيح البخاري، كتاب المغازي،رقم٣٩٨٨، وابن هشاه، السيرة النبوية ٤٢/٣.

٥- وجاء عبد الله بن مسعود، وَصَعَدَ على صدر أبي جهل وبه رَمق أخير -أي نفَس وحياة- فقال: أي عدوَّ الله! قد أخزاك الله؟! فقال أبو جهل: وبم أخزاني، أعمًد من رجل قتلتموه. أخبِرني لمن الدائرة اليوم؟ فقال ابن مسعود: لله ولرسوله ياعدو الله. فقال أبو جهل: لقد ارتقيت مُرتقىً صعباً يا رُوَيْعيَّ الغنم! فقطع ابن مسعود رأسه، وحمله إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ فلما رآه قال: "الله الذي لا اله إلا هو(...) هذا هو فرعون هذه الأمة."[1] وكذلك قتل بلال بن رباح سيده في الجاهلية أميةَ بن خلف، وكان يحتمي بعبد الرحمن بن عوف.[2] وهكذا تفرقت صفوف المشركين وقتل من صناديدهم قريش وزعمائهم عدد كبير.

سابعاً:من دروس غزوة بدر وعبرها:

١- يُشرع للمسلمين محاربة أعدائهم اقتصادياً، كما ندب النبي ﷺ أصحابه للتعرض لقافلة قريش.

٢- المسلمون يجاهدون لمرضاة الله تعالى، ويقاتلون عدو الإسلام الذي يقف في وجه نشر دعوة الإسلام، بينما يقاتل المشركون بطَراً ومفاخرة ورياءً، وطمعاً في حب الزعامة، وكسب السمعة ؛كما رأينا موقف أبي جهل عند إصراره على القتال، وقولته الجاهلية: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم عليها ثلاثاً؛ ننحر الجزور، ونشرب الخمور، وتعزف علينا القيان، وما يزال العرب يسمعون بنا إلى آخر الدهر.

٣- كان عدد المشركين ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، وكانت عُدَّة المشركين في الإبل تعادل عشرة أضعاف عُدَّة المسلمين، كما كانت عُدَّهم من الفرسان تعادل خمسين ضعفاً من عُدَّة المسلمين. وكانوا مستعدين عسكرياً؛ إذ كان معهم من الدروع والأسلحة الشيء

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، السابق، والحديث صحيح رواه الطبراني، والبيهقي في الدلائل، ٢٦١/٢ – ٢٦٢، وانظر تخريجاته ومواضعها في العلي، صحيح السيرة، ص١٧٧.

(٢) انظر المرجع السابق، ابن هشام، السيرة، ٣ /٤١.

الكثير، كما مُزَوَّدين بكثير من التموين؛ لأهم خرجوا متجهزين تماماً للحرب، بينما لم يكن المسلمون حين خرجوا يعتقدون أهم سيحاربون، وإنما كان عددهم وعدهم واستعدادهم مناسباً لهدفهم من الخروج؛ إذ كان لمجَرَّد أخذ القافلة التجارية لقريش فحسب.

٤- كانت معنويات المسلمين عالية؛ يتَّضِح هذا من كلام أبي بكر وعمر وسعد بن عبادة وسعد ابن معاذ رضي الله عنهم جميعاً عند الخروج من المدينة، ومن دعاء النبي ﷺ للمسلمين. بينما كانت معنويات المشركين رغم كثرة عددهم وعُدَّهم هابطة وضعيفة، وكانت قياداهم متصدعة؛ فقد خرج كثير من زعمائهم خجلاً من العار، أو مُحْرَجاً من البقاء في مكة عند النساء.

٥- كان رسول الله ﷺ يأخذ بالأسباب، كما كانت له عناية عسكرية رائعة؛ فهو يبعث عيونَه لجمع الأخبار، ويعتمد السِّرِّيَّة، وينظم الجيش، ويُحَلِّل المعلومات الاستخبارية؛ فيعرف عدد القوم من عدد ما يذبحون من الإبل يومياً، وكانت له استخباراته العسكرية، في متابعة القافلة ومعرفة أخبارها، وفي التحقيق مع المشرك الذي ألقى المسلمون القبض عليه. وكان أيضاً في غاية الذكاء حين لقيه رجل الأعراب في الطريق، ولما سألهم عن المشركين أجاب، فأخذوا منه معلومات عنهم، وحين سألهم المشرك من أي قوم أنتم؟ أجابه النبيﷺ: نحن من ماء،[1] فسكت الرجل، واحتار من القوم: هؤلاء من ماء! وهو لم يسمع سابقاً بقوم بهذا الإسم، وقد ورّى عليه النبي عليه الصلاة والسلام في الكلام، وهوﷺ صادق في الإجابة، إنهم في حقيقة خلقهم من ماء، يقصد أن الله خلقهم من ماء، وهذه حقيقة وليست كذباً، وهذا أُسلوب من التورية سلكه رسول الله ﷺ ؛ لتَعْمِيَة الأخبار على السائل، وحتى لا يكشف النبي ﷺ أمر المسلمين فيعرف السائل مَن هم. وهذا الأسلوب من ضرورات المعركة، وهو يُبعد المتكلم عن الوقوع في الكذب الصريح.

---

(١)انظر الرواية بصيغة التحديث عن ابن إسحق، انظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الوض)، ٣٤/٣

٦- إذا علم الله صدق المسلمين وحسن توكلهم عليه أكرمهم بنصر دينه على أيديهم. ولذلك لما أخذوا بأسباب القوة والاستعداد، ودَعَوا الله تعالى في بدر هيّأ لهم أسباب النصر؛ فأنزل ملائكته تقاتل معهم، وأكرمهم بالغيث ثبَّت به أقدامهم، وجعله وبالاً على المشركين فانساحت الأرض من تحت أقدامهم، وكثّر المسلمين في أعين المشركين، فخاف المشركون وذُعِروا، وقلّل المشركين في أعين المسلمين، فأقدم المسلمون وثبتوا وهجموا. كما أعمى الله تعالى أعين الكفار بما وقع في عيونهم من قبضة الرمل التي رمى بها رسول الله ﷺ في وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فأصابتهم جميعاً؛ كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال: ١٧.كما أراح الله أعصاب المسلمين؛ إذ أنزل عليهم السكينة، وغشّاهم النعاس أمنةً منه؛ فاستراحوا، ودبَّ فيهم النشاط للقتال.

٧- تجلت قدرات الرسول القائد العسكرية في هذه الغزوة، بصفِّ الصفوف للقتال، ورفع الروح المعنوية للجند، وأشار عليهم بأُسلوب الكَرِّ والفَرِّ، واختراق صفوف العدو، والمواصلة في الشَّدِّ على الكفار، والصبر حتى القضاء على الأعداء. كما انتظر النبي صلى الله عليه وسلم العدو حتى يتحرش بالمسلمين ليُقوِّي دافع التحدي لدى جيشه.

٨- كما كانت كلمة السر والشعار في القتال أَحَدٌ أحَد، وهي شعار التوحيد للمسلمين.[1] وكانت قيادة المسلمين مُوَحَّدَة في حين كانت قيادة المشركين ممزقة، ولا يثق بعضها ببعضها الآخر.

٩- كان للتربية الإيمانية أثرها الواضح في المقاتلين المسلمين، إذ كانوا يتسابقون للقتال والشهادة في سبيل الله؛ إيماناً منهم بالإسلام، وإسراعاً لدخول الجنة. بينما ظهر أثر الشرك

(١) انظر،السيرة النبوية ، (مع الروض)، ٤٢/٣

في جيش الكفار الذين كانوا يبتغون السُّمعة،وكانوا يتباهون بشرب الخمر ونحر الجزور، وعزف القيان.

١٠- التقى في هذه الغزوة الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، والأقارب بالأقارب، جمعت بينهم القرابة، وخالفت بينهم العقيدة والمبادئ، ففصلت بينهم السيوف. فأبو بكر كان يبحث عن ابنه ليقتله، وأبو عبيدة عامر بن الجراح قتل والده، ومصعب بن عمير رأى أخاه أبا عزيز أسيراً يقيِّده مسلم، فطلب من أخيه المسلم أن يَشُدَّ قيده ووثاقه، وحين استغاث به أخوه في النسب أبو عزيز باسم الأخوة النسبية، وقال له: أهذه وصاتك وأنا أخوك؟ أجابه مصعب: إنه اليوم أخي دونك، وأنت مشرك نجس.(١)

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقترح على النبي ﷺ أن يُقتَل الأسرى جميعاً، وأن يبدأ هو بقتل أقاربه، ويبدأ علي بقتل أخيه عقيل بن أبي طالب، وأن يقتل حمزة أخاه العباس بن عبد المطلب ...وهكذا.(٢)

١١- أعطى النبي ﷺ في هذه الغزوة مثلاً أعلى في الشورى؛ فقد استشار القائد- رغم أنه رسول يوحى إليه- أصحابه في كثير من المواقع، من بداية الغزوة ، وفي وسطها، وفي اختيار الموقع وعيون الماء في بدر، وفي نتائجها؛ في الموقف من الأسرى، هل يُقتلون أو تُقْبَل منهم الفدية؟ حتى انتهى إلى الأخذ برأي أبي بكر ومن معه في قبول الفداء منهم، وغلب هذا الرأي رأي عمر ﷺ ومن كان معه من القائلين بقتلهم، ولما أنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ الأنفال: ٦٧قال رسول الله ﷺ معلّقاً على تلك النتيجة، ومتخوّفاً من تهديد الله للمسلمين في الآية الكريمة الأخرى: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ

(١)انظر المرجع السابق ٥٤/٣ من رواية ابن إسحق بالتحديث.

(٢)انظر التفصيل في المرجع السابق، وفي روايات مسلم، رقم١٧٦٣، وأحمد في المسند، ٣٠/١-٣١

﴿ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٨، فقال: لو نزل عذاب اليوم ما نجا منه إلا عمر[١].

١٢- أظهر النبي ﷺ خلقاً كريماً، في احترام الإنسان؛ فحين اقترح عليه عمر أن ينزع ثَنِيّتِيْ سُهَيْل بن عمرو حين أُسر -إذ كان خطيب المشركين ويؤذي رسول الله والمسلمين بلسانه- حتى يَدْلَع لسانُه ولا يقوم خطيباً بعدها، رفض النبي ﷺ هذا الاقتراح، وقال: "إني لا أُمَثِّلُ به فيُمَثِّلُ الله بي، وإن كنت نبيّاً".[٢] كما أطلق النبي ﷺ سراح بعض الأسرى الفقراء، كما ومَنَّ بإطلاق سراح صهره؛ زوج ابنته زينب وهو أبو العاص، شريطة أن يُخْلِيَ سبيل ابنته، فتهاجر إلى المدينة. وأرجع إلى ابنته قلادة كانت أهدتها إليها أمُّها خديجة رضي الله عنها عند زواجها، وقد كانت أرسلتها فداءً لزوجها،[٣] من الأسر. كما أمر النبي ﷺ بإكرام الأسرى حيث وزَّعهم على بيوت المسلمين، وكانوا يطعمونهم أحسن مما ياكلون كما حدَّث بعض الأسرى، بذلك فقال: إن المسلم كان ياكل التمر، ويطعم الأسير الخبز، ويحرِم أولاده وعياله الخبز؛ إكراما للأسير.[٤]

١٣- جعل النبي ﷺ فدية بعض الأسرى ممن لا مال لهم تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة.[٥]وهذا درس بالغ الأهمية في اهتمام رسول الله ﷺ بالعلم والتعلم.

١٤- أمر النبي ﷺ فوراً بقتل عدوّين لدودين من أسرى بدر، كانا طالما آذياه وهما: الشقي عقبة بن أبي مُعَيْط، والنضر بن الحارث، حامل راية المشركين، وذلك قبل أن يعود إلى

---

(١) انظر، الواقدي، المغازي، ١٠٦/١

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ،(مع الروض) **٥٩/٣**، ورواه ابن إسحق بالتحديث. والثنايا: الأسنان الأمامية.

(٣) المرجع السابق، **٥٧/٣-٥٨** بسند صحيح عند ابن إسحق صرح فيه بالتحديث، والرواية أخرجها أحمد في المسند، **٣٧٦/٦** وقال الساعاتي في الفتح الرباني: **١٠٠/١٤** أخرجه ابن إسحق في سيرته وإسناده جيد، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب فداء الأسير، رقم **٢٦٩٢**، والحاكم في المستدرك، **٣٣٦/٣** وسكت عليها الذهبي.

(٤) انظر الرواية في ابن هشام، السيرة النبوية ،(مع الروض)،**٥٤/٣**

(٥) انظر حديث ابن عباس في ذلك أخرجه أحمد في المسند، **٤٧/٤** ، وقال أحمد شاكر فيه: إسناده صحيح، وانظر تخريجه في العلي، صحيح السيرة، ص**١٩٣**

المدينة، لأنه عاملهما معاملة مجرمي الحرب؛ لشدة إيذائهم الإسلام والمسلمين والرسول ﷺ قبل المعركة في مكة، ومنذ بدايات الدعوة، وحتى آخر لحظة لقاءٍ بهما[1].

١٥- أفشل المسلمون خُطَّة قريش في إزالة الإسلام، وقتل النبي ﷺ والمسلمين، كما وأفشل هدفها في تعزيز هيبتها بين العرب، بل مرَّغ كرامتها بالتراب؛ فقتل ساداتها وقادا‌تها، وقتل من جيشا سبعين رجلاً، وأسر سبعين، وجرح سبعين آخرين. وعادت قريش بخيبة الأمل مهزومة، وقد رفع الله به هيبة الإسلام والمسلمين، وأكرم رسوله ﷺ والأمة المسلمة معه بالنصر والتمكين.

١٦- لقد كان من الدروس الكبرى المستفادة من نهاية هذه الغزوة ما لحق بيهود والمشركين والمنافقين من الغيظ والحقد والحسد؛ بسبب انتصار المسلمين، فضلاً عن تأمين المدينة من مشركي الأعراب حولها، وبما أقام النبي ﷺ بينه وبينهم من اتفاقيات عدم الاعتداء.

ثامناً:من نتائج غزوة بدر وآثارها:

١- انجلت المعركة عن هزيمة ساحقة في صفوف المشركين، حيث قُتِل منهم سبعون قتيلاً؛ وفيهم خمسة عشر رجلاً من ساداتهم، على رأسهم قائدُ معركتهم أبو جهل بن هشام، كما أُسر منهم سبعون رجلاً، وهرب الباقون، واندحرت قوات الشرك بسمعة هزيلة، وخيبة أمل، أفقدت قريشاً هيبتها بين العرب. ودَفَن المسلمون قتلى المشركين في البئر المعروف بقَليب بدر. وكلٌّ واحد من زعمائهم قد صُرِع وقُتل في المكان الذي أشار فيه النبي ﷺ إلى مصارعهم. وصرح ابن إسحق بالتحديث عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها؛ أن المشركين لما ألقاهم المسلمون في القَليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال:" يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت

(١) انظر العلي، المرجع السابق، ٥٣/٣، وأخرجه البيهقي في المجمع، ٨٩/٦، والطبراني في المعجم الكبير، رقم١٢١٥٢ ورجاله رجال الصحيح.

ما وعدني ربي حقاً. قالت: فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتُكلّم قوماً موتى؟فقال لهم: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقّاً. قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلتَ لهم؟ وإنما قال لهم رسول الله ﷺ: لقد علموا. قال ابن إسحق: وحدثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل وهو يقول: يا أهل القَليب؛ يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف، ويا أبا جهل ين هشام –فعدَّد من كان منهم في القليب–: هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقّاً. فقال المسلمون: يا رسول الله: أتُنادي قوماً قد جيّفوا. قال: ما أنتم بأسْمَع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني(كما قال لهم): ياأهل القليب: بئس عشيرة النبي كنتم لنبيِّكم، كذَّبتموني وصدَّقنيَ الناس، وأخرجتموني وآوانيَ الناس، وقاتلتموني ونصرَنيَ الناس"[1].

٢– انتصر المسلمون نصراً مؤزراً، وكانت أول معركة بين الحق والباطل في ميادين القتال، رغم قلة عدد جيش المسلمين وقلة عُدَّتهم، ولم يكونوا قد خرجوا للقتال، في حين أن قريشاً كانت كثيرة العدد والعُدَّة، متجهزة للقتال، مستعدة أضعاف استعداد المسلمين؛ ولهذا سمى الله تعالى هذه الغزوة في القرآن لأهميتها يوم الفُرقان، فقال تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾الأنفال: ٤١ فهي أهم معركة كانت في الإسلام، وأول فُرقان بين الإيمان والكفر، وبين التوحيد والشرك، وبين الحق والباطل، وبين الجاهلية والإسلام.

٣– إذا فاتت المسلمين تجارةُ قريش وأموالها، فقد عوَّضهم الله تعالى ماليّاً فدية أسرى بدر، وهذه الأموال التي دفعها المشركون فدية الأسرى أدت إلى إضعاف اقتصاد قريش،

(١)ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض) ا، ٥١/٣ وفيه تصريح بالسماع وهو صحيح وله روايات في صحيح البخاري من حديث انس بن مالك في كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم٣٩٧٦، وفي مسلم، رقم٢٨٧٤-٢٨٧٥ ورقم٣٩٨٠-٣٩٨١انظر تخريج رواياته في العلي، صحيح السيرة ، ص١٨٣

وتقوية اقتصاد المسلمين. كما أن طريق تجارة قريش باتت مهددة بهذه النتيجة للمعركة بشكل مُحَقَّق. كما حصل المؤمنون كذلك على الغنائم الكثيرة التي خلَّفها جيش المشركين. وقد وصل الحال بين المسلمين أول الأمر إلى الاختلاف فيها؛ إذ كلٌّ يدَّعي أنه أبلى في المعركة أكثر من الآخر، حتى قال بعضهم حينما نزلت سورة الأنفال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ١ :هذه السورة نزلت على أصحاب رسول الله؛ أهل بدر حينما ساءت أخلاقنا في الغنائم.

٤- استشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً. والشهادة ليست خسارة للشهيد ، ولا للأمة المسلمة؛ فهي للشهيد درجة عند الله عالية في الجنة، وللأمة المسلمة جسر متين تَعْبُرُ عليه الأجيال؛ لتنشر رسالة الأسلام، وترفع رايته عالية بين الأمم، وتقيم بها حكم الله تعالى في الأرض، وحتى لا تكون فتنة، وتكون الدينونة فيها كلها لله.

٥- من نتائجها أيضاً إسلام عمير بن وهب بعد محاولته اغتيال رسول الله ﷺ؛ فقد ذكر ابن هشام من حديث ابن اسحق عن محمد بن جعفر عن عروة بن الزبير قصة طريفة عن تحريض أحد زعماء الشرك في مكة، وهو صفوان بن أُميّة، لعمير بن وهب، وكان صفوان هذا من أشد المشركين إيذاءً للرسول ﷺ في مكة، وقد وقع ابنه أسيراً في غزوة بدر، ولما تذاكر في زعماء قريش الذين هلَكوا ورُموا في القليب، أقنع صفوانُ عميرَ بن وهب أن يذهب بحجة زيارته لإبنه الأسير، فيغتالَ رسول الله ﷺ. ووعده صفوان بسداد دينه، وإعالة عياله إن حصل له مكروه، فشحذ عميرٌ سيفه، وتقلَّده، وركب ناقته، ووصل المدينة، وأناخ ناقته على باب المسجد النبوي، فاكتشفه عمر رضي الله عنه، وقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب! والله ما جاء إلا لشَرٍّ، ونبَّه أصحاب النبي ﷺ إلى الاحتياط منه عند دخوله على رسول الله ﷺ، وأخذ عمر بحَمالة سيفه في عنقه، فطلب النبي ﷺ من عمر أن يُطْلِقه، وقال له: ادْنُ يا عمير! ما جاء بك؟ قال: جئت لهذا الأسير فأحْسِنوا فيه. قال

النبيﷺ: فما بالُ السيف في عنقك؟ قال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنَتْ عنا شيئاً؟ قال: اصْدُقْني، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك.-أي اعترف أنه جاء لقتل النبي ﷺ- فقال النبي: بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحجْر، فذكرتما أصحاب القَليب من قريش، ثم قلتَ : لولا دَيْن عليَّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتَحَمَّل لك صفوان بدَيْنك وعيالك على أن تقتلني. والله حائلٌ بينك وبين ذلك. وحينها تأكد عمير وأيقن أن محمداً نبي صادق، وأن الله أخبره بالسرِّ الذي بينه وبين صفوان، ولا يعلمه أحد من الناس، فأسلم الرجل، وقال: أشهد أنك رسول الله، فالحمد الله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فأقرأوه القرآن، وأطلقوا سراحه، وعاد مسلماً يدعو في مكة إلى الإسلام، ودخل عن طريقه كثير من المشركين في الإسلام.[١] وهكذا يشاء الله أن يهدي من خرج معادياً رسول الله يريد قتله.

٦- استمرت إرادة القتال واستدامة الجهاد لدى رسول الله ﷺ؛ حتى لا يشعر المسلمون أنهم قد انتهوا من عدوهم بالانتصار عليه، ذلك أن الكفر لا ينام عن كيده بالمسلمين، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُقِم بالمدينة بعد غزوة بدر إلا سبع ليالٍ حتى غزا بنفسه، يريد بني سُلَيْم بالكدَر -وهي ماء لبني سُلَيْم- فأقام عليه ثلاث ليالٍ؛ وذلك إشعاراً لهؤلاء الأعراب بقوة المسلمين، وأن المنطقة حول المدينة تحت سيطرتهم الأمنية.

٧- ثم غزى غزوة السّويق في ذي الحجة بعد غزوة بدر ملاحقاً أبا سفيان، ومعه مائتا رجل من قريش، وقد نذر أبو سفيان بعد هزيمتهم في بدر أن لا يَمسّ رأسَه ماءٌ-أي لا يغتسل- حتى يغزو محمداً صلى الله عليه وسلم، وجاء إلى زعماء يهود بني النضير، يستطلع أخبار النبي ﷺ، فضيّفوه وأكرموه، وأتى ناحية من المدينة فحَرَّق بعض نخلها، وقتل رجلاً من الأنصار وحليفاً له في مزرعتهما، ثم انصرف راجعاً إلى مكة، فلاحقهم النبي ﷺ ومَن

(١)انظر الرواية بتفاصيلها من حديث رواه ابن اسحق بصيغة التحديث مرسلاً بسند صحيح ، انظر المرجع السابق ٣/٧٠-٧٢ ، ووصله ابن مندة، وإسناده عنده حسن.انظر تخريجه عند، العلي، صحيح السيرة النبوية،ص١٩١

معه من المسلمين فلم يدركوهم، وغنموا ما تركوا من طعام تركوه؛ أغلبُه سويق–أي قمح مجروش ومطبوخ تموينا لهم– فسُمِّيت غزوة السويق.

٨– ثم غزا ومعه بعض نفر من المسلمين غزوة ذي أَمْرٍ يريد غطَفان في نجد، وغزوة الفَرْع حتى بلغ بحران، وأقام في تلك المناطق فترة معينة ليتأكد من كونها مناطق يُؤْمَن جانبها[١].

٩– فرح المسلمون في المدينة فرحاً شديداً بنصر الله لرسوله ﷺ في غزوة بدر، لكن الذين أكل قلوبهم الغيظُ المنافقون واليهود. ولعل من أخطر نتائج غزوة بدر على المستوى العسكري والاجتماعي في المدينة ظهور عداوة يهود واضحة في المدينة، حيث حذّرهم النبي صلى الله عليه وسلم من الكيد، وذكَّرهم باحترام الوثيقة والعهد الذي كتبه لهم، فكانت إجابتهم وقحة دالة على حسدهم وغيظهم ، وحقدهم، فإنهم قد أصيبوا في أعماقهم من نصر الله لرسوله وللمسلمين في غزوة بدر فقالوا:" يا محمد إنك ترى أنا قومك ؟ لا يَغُرَّنَّك أنك لاقيت قوماً لا عِلْم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعْلَمَنَّ أنا نحن الناس."[٢] فأنزل الله قوله:﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ آل عمران: ١٢ – ١٣ ولعل هذا الكلام كان بداية صراع الدعوة الإسلامية مع يهود في المدينة المنورة.– مما سنبينه في موضوعه إن شاء الله–

١٠– ولعل هذا الحقد قد بلغ أوجه عند كعب بن الأشرف، وهو من كبار زعمائهم – مع أنه رجل في أصله من قبيلة طيء العربية، ثم من بني نبهان، لكن أُمَّه كانت من يهود

---

(١)انظر التفاصيل، ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٣٥/٣-١٣٧.

(٢)المرجع السابق،١٣٧/٣ وحسّن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ٣٣٢/٧

بني النضير- فغاظه انتصار المسلمين في بدر. وقال: فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس- عن زعماء قريش- والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرض خير من ظهرها. وخرج إلى مكة يرثي بشعره قتلى قريش في القَليب، ويحرض المشركين على قتال محمدﷺ، ويُقسم لهم أن دينهم -وهو الشرك- أحسن وأهدى من دين - وهو التوحيد-. وعاد إلى المدينة ينظم شعراً قبيحاً يُشَبِّبُ به ويَتَغَزَّل بنساء رسول اللهﷺ. فلما بلغ أذاه عِرْض رسول الله ﷺ قال رسول الله: مَن لي بِكعب بن الأشرف؛ فقد قد آذى الله ورسوله؟ فقال محمد بن مسلمة رضي الله عنه: أنا لك به يا رسول الله،وأخذ ذلك على عاتقه. واتفق مع أبي نائلة، وقد كان أخاً لكعب بن الأشرف في الرضاعة، ومع عباد بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبي عبس بن جبر، ورسموا خطة محكمة لاغتيال كعب. فجاؤا يشتكون إليه ما وصلوا اليه من الحاجة والفقر بسبب ما أرهقهم محمد من تكاليف، وأنهم يريدون منه دَيْناً وطعاماً. فطلب منهم توثيقاً يَرهَنْ نسائهم عنده حتى يُسَدِّدوا الدين، فرَجَوْه أن لا يكون ذلك؛ لِما يتَخَوَّفون عليهن من جماله، وما يلحقه بهم من عارٍ عند العرب، فطلب أبناءهم رهائن على ذلك، فاعتذروا؛ حتى لا يقول العرب: باعوا أولادهم بطعام. وعرضوا عليه أن يرهَنوه سلاحهم،-وهي خطة مُحْكَمَة منهم؛ حتى لا يشك فيهم إذا جاءوا إليه مرة أخرى ومعهم أسلحتهم- فوافق. وفي ليلة مُقمِرة ليلة الرابع عشر من ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة خرجوا إليه بعد استئذان النبيﷺ، ودعائه لهم بأن يوفقهم الله في قتله، فناداه أخوه في الرضاعة أبو نائلة، وكانت تلك الليلة ليلة عُرسه، فنَهَتْهُ زوجته عن الخروج، لكنه أصر على الخروج ليقابل أخاه في الرضاعة، ولم يحمل معه سلاحه، فلقيهم، ثم استدرجوه ومعهم أسلحتهم التي طلبها رهناً، وأخذ أبو نائلة يُدخل يده في رأسه يوهمه أنه ما شَمَّ طيباً أزكى في رائحته من طيبه، مرة بعد أخرى حتى إذا اطمئن كعب لهم؛ وضع ابو نائلة يده في رأسه، ولما استمكن منه هجم من كانوا معه على كعبٍ بأسيافهم، ولم يتمكنوا من قتله، فطعنه محمد بن مسلمة في ثُنَّتِه-مثانته- حتى شقَّ أسفلَ بطنه، فقتلوه،

وصاح اللعين صيحة عظيمة أفزعت حصون اليهود، فأشعلوا النيران فيها ليستطلعوا الأخبار، ولكنهم جبناءلم يفعلوا شيئاً، وأخذ الصحابة الذين اغتالوه رأسه إلى رسول الله ﷺ يبشرونه بقتله، وهو قائم يصلي في الليل، فكبَّر رسول الله ﷺ، وقال: أفلحت الوجوه.[١]

(١)انظر تفاصيل القصة في ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣/١٣٩-١٤٣، والبخاري بشرح فتح الباري، ٧/٣٣٦-٣٣٧، ومسلم في صحيحه، رقم ١٨٠١، وانظر سائر روايات القصة في صحيح السيرة لابراهيم العلي، هوامش ص١٩٩ -٢٠١

المبحث الثاني

غزوة أُحُد

أولاً: تاريخ الغزوة:

وقعت غزوة أُحد يوم السبت في منتصف شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، أي بعد غزوة بدر بسنةٍ وشهر. وهذا هو أشهر الأقوال(١)في وقوعها.

ثانياً: سبب الغزوة وأهدافها:

أ- من جهة المسلمين:

كان سبب الغزوة خروج قريش بجيشها لمحاربة المسلمين في المدينة، واستئصال شأفتهم. وهدفها الدفاع عن الإسلام والمسلمين والمدينة، والإبقاء على روح النصر التي تحققت من غزوة بدر.

ب- أما من جهة المشركين فأسباب الغزوة وأهدافها فكانت:

١- إن أول سبب وأول هدف لقريش كان هو الثار لقتلاهم وهزيمتهم في غزوة بدر؛ فقد حدث ابن إسحق عن الزهري وغيره أنه:"لما رجع أبو سفيان بن حرب بعيرِه مشى عبد الله بين أبي ربيعة وعكرمة ابن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة، فقالوا لهم: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَرَكم(أي أنقصكم بالقتل

(١) انظر العمري،السيرة النبوية الصحيحة،٢/ ٣٧٨، أوردها برواية ضعيفة إسنادها حسن عن الزهري ويزيد بن رومان، والطبري في تفسيره، ١٩٩/٧، وعلق عليها بأن هذا هو أصح ما في الباب على ضعفه، وأخرج ابراهيم العلي من الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٢٤/٦ رواية من طريق ابن إسحق أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم الجمعة حين صلى الجمعة، فأصبح بالشِّعب من أُحد فالتقوا يوم السبت في النصف من شوال، ورواه الطبراني ورجاله ثقات ، انظر، العلي، صحيح السيرة، ص٢٠٢، وانظر ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٤٧/٣

منكم) وقتل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حَرْبه، فلَعَلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، ففعلوا."[1] وقد أقسم أبو سفيان ألاّ يغتسل حتى يثأر من محمد وأصحابه.

٢- والهدف الثاني: هو إعادة تأمين طريق تجارتهم إلى الشام؛ فإنها عصب اقتصادهم. ولذلك شعروا بعد هزيمتهم في بدر وانتصار المسلمين عليهم، وما آلت إليه النتائج على الأرض وفي طريق المدينة؛ شعروا بضعف موقفهم، والشلل في قدرتهم على الحركة التجارية؛ لأن في طريقها محمداً وأصحابه. ويعبّر هذا القلق الذي عاشه أهل مكة بعد أن تعطلت طرق قوافلهم التجارية إلى الشام صفوان بن أمية إذ يقول: إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا مَتْجَرَنا–أي خرَّبوه ودمَّروه– فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون(أي لا يتركون ولا يغادرون) الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم،(أي حالفوهم وواثقوهم على الأمان) ودخل عامتهم معهم، فما ندري أين نسلك. وإن أقمنا(أي تركنا التجارة) نأْكُلْ رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء. وبهذا فقد تأكد لصفوان ومن معه أن يعمَدوا إلى فك هذا الحصار الاقتصادي بالقوة، فصمموا على الخروج للقتال[2].

٣- كما هدفت قريش أيضاً إلى استعادة هيبتها التي تمرَّغَت في التراب بعد هزيمتها في بدر، وفشلت في تأكيد هيبتها وسمعتها التي تَفاخَر بها أبو جهل حينما خرج إلى غزوة بدر.

كل هذه أسباب وأهداف أرادها المشركون من الخروج إلى غزوة أُحد.

(١ ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٤٧/٣، جمع فيه ابن إسحق بين شيوخه ومنهم الثقات والضعفاء، ولم يميزه، ورغم الإرسال في الرواية وهو علامة ضعف، لكنه مقبول في مثل هذه الضايا في السيرة ،كما يرى أيضاً العمري في السيرة النبوية صحيحة، انظر تعليقه على هامش الرواية،٣٧٨/٢

(٢) انظر بتصرف، همام سعيد وراجح الكردي وابراهيم زيد الكيلاني ومحمد ابو فارس، السيرة النبوية، ، ص٢٦٥

ثالثاً: قوات الطرفين واستعداداهما وتعبئتهما:

أ- قوات قريش:

١- عددعا وعدّهّا:

رصدت قريش خمسين ألف ديناراً ذهبياً ـهي أرباح قافلة أبي سفيان التي نجت في بدر- لتغطية المعركة مع الرسولﷺ،[١] كما نجح قادة قريش في جمع أهل مكة للخروج ومن تَبِعَهُم من العرب الأحابيش حتى بلغوا ثقيفاً. خرج من هذه القبائل جميعها جيش قوامُه ثلاثة آلاف مقاتل؛ فيهم سبعمائة دارع، ومائتا فارس، ومائة رامٍ، وألفان من المشاة، ومحمولون على مائتي فرس، وثلاثة آلاف بعير، ومعهم سلاح كثير. وكان الجيش موزعاً على ثلاثة ألوية؛ أولها: بقيادة سفيان بن عوف، وآخر: بقيادة طلحة بن أبي طلحة، وثالثها: بقيادة رجل من الأحابيش -وهم من انضم إلى قريش من العرب-. وخرج معهم القائد العام لجميع هذه القوات أبو سفيان، وجعلوا المْيَمَنَة بقيادة خالد بن الوليد، والميسرة بقيادة عكرمة بن أبي جهل.[٢] كما حرص أبو سفيان وزوجته هند بنت عتبة بن ربيعة، -والتي قتل والدها عتبة وعمُّها شيبة، وأخوها الوليد- على ضرورة خروج النساء مع الجيش لِيَحْفِزْنَهم على القتال، ويضربن عليهم بالدفوف لتحميسهم، وتشجيعهم. فخرج زعماء مكة ونساؤهم، وشَنَّت قريش حملة إعلامية بشعرائها وشعراء بني ثقيف لتأليب المشركين ورفع معنوياهم في قتالهم المسلمين، وتحركت بجُموعها ومن سار معها إلى المدينة.

٢- تنظيم قوات المشركين وتعبِئَتُهم:

تمركزت قوات المشركين وأخذت مواقعها عند بعض السفوح من جبل أُحد، ونظَّمت قواهًا صفوفاً، وكان لها ميمنة بقيادة خالد بن الوليد، وميسرة بقيادة عكرمة بن أبي جهل.

---

(١) انظر، أبو فارس، محمد، غزوة أحد، ص١٧

(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية ، **(مع الوض)**، من رواية ابن إسحق قال**:**خرجت قريش بحَدِّها وجَدِّها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من كنانة وأهل تهامة**...**، **١٤٨/٣** والطبري في التاريخ٣ / ٥٠٤ ، من رواية الواقدي، **٢٠٣ ــ ٢٠٤**، وهي أخبار ليست صحيحة كما ذكر العمري في السيرة النبوية الصحيحة، **٣٧٩/٢**، وانظر زاد المعاد، **٩٢/٢**، وفتح الباري، **٧ /٣٤٦**

وأَمَّنوا الحماية بالفرسان. كما كانت النساء تقوم بدور التعبئة المعنوية لهم بضرب الدفوف والتشجيع على القتال، والنشيد الذي يُذَكِّرُهم بضرورة الثأر لقتلى بدر من المشركين على أيدي المسلمين.

ب- قوات المسلمين واستعداداتهم:

١- الاستخبارات النبوية:

كان العباس بن عبد المطلب عَمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً بالسِّر في مكة، وكان قد خرج مع المشركين في بدر مُخْفِياً إسلامه، ووقع في الأسر، وافتدى نفسه. ولعل من حكمة قبول الرسول ﷺ افتداء الأسرى وعدم قتلهم يومها حتى لا يقتل العباس مسلماً، ذلك أن رسول الله ﷺ قد أشار عليه أن يبقى في مكة مسلماً متخفياً؛ حتى "يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ. وكان المسلمون (سرّاً) يتقوَّوْن به بمكة. وكان يحب أن يقدم على رسول الله، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن مُقامَك في مكة خيرٌ."[١] ولهذا فقد بعث العباس سراً للرسول ﷺ برسالة يخبره فيها بخروج جيش المشركين واستعداداتهم وقواتهم؛ حتى لا يأخذوه على حين غِرَّة؛ يقول له فيها:" اصنع ما كنت صانعاً؛ إذ وَردوا عليك، وتقدَّم في استعداد التأهب."[٢] وقد وصل مبعوث العباس إلى النبي ﷺ بسرعة كبيرة، حيث اشترط عليه العباس أن يوصل الكتاب المختوم في ثلاثة أيام، أي في مدة تقترب من نصف المدة التي يحتملها السفر بين مكة والمدينة؛ حتى يَسْبِقَ وصولُه وصولَ جيش المشركين. واستلم النبي ﷺ منه الرسالة وهو في مسجد قباء،[٣] يستطلع أخبار المشركين، وبدأت استعدادات الرسول ﷺ والمسلمين للمواجهة المحتومة مع قريش.

---

(١)ابن حجر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٨١٢/٢

(٢) المقريزي، إمتاع الأسماع،١١٤/١ والواقدي، المغازي، ٢٠٤/٣

(٣) انظر، الواقدي،ا لمرجع السابق.

٢- استشارة النبي ﷺ المسلمين:

جمع رسول الله ﷺ المسلمين، وشكَّل المسلمون دورياتِ حراسةٍ تحمي الرسول ﷺ، ودورياتِ حراسةٍ أخرى للمدينة؛ حتى لا تدخل دوريات المشركين فتفاجئَهم. وذكر النبي ﷺلأصحابه رؤيا رآها في منامه ليلة الجمعة؛ ومفادُها أنه رأى كأنه في درع حصينة، وأن سيفه قد انقضَم من عند طرَفِه، وأن بقَراً تذبح، وأنه يحمل كبشاً. وأوَّل لهم النبي ﷺ هذه الرؤيا؛ بأن الدرع الحصينة هي المدينة فامكُثوا فيها. وأما انقضام سيفه فمصيبةٌ في نفسه وأهل بيته، وأما البقر المذبوح فقتلى في أصحابه، وحمْلُ الكبش فيعني كبشَ الكتيبة، يُقْتَل إن شاء الله. (١) وقال: أشيروا علي أيها الناس. فكان المسلمون على رأيين:

أحدهما: أنّ القتال داخل المدينة أولى؛ لأن المشركين مهاجمون، والمهاجمُ داخل المدينة غالباً ما يكون خاسراً؛ لأنه خائف لا يدري من أين يُضْرَب. والمسلمون يقاتِلون قتالَ شوارع، ولهم ظَهْر يحيمهم وهي بيوتهم، ويمكن للنساء والأولاد المشاركة في ضرب العدو بالحجارة من داخل الأزقَّة والبيوت. وإنما تقتضي الرجولة أيضاً الخروج للعدو، وأن لا يُسمح له باقتحام المدينة على أهلها. وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مال إلى هذا الرأي. والغريب أن عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول -رأس النفاق في المدينة- كان يرى هذا الرأي أيضاً! ولكن لا غرابة؛ فإن القتال داخل المدينة يستطيع من خلاله أن يُخفيَ به هو ومن معه من المنافقين نفاقهم وجُبْنهم وخيانتهم دون أن يُكْشَفوا، أما القتال خارجها

(١) رواه الواقدي في المغازي، ٢٠٨/١-٢٠٩، ووردت أحاديث متقاربة بنفس المعنى عند أحمد في مسنده، ٢٧١/١، وقال الساعاتي في الفتح الرباني، ٢٢١/٧ شنده صحيح، والدارمي وعلق البخاري بعضه ، انظ البخاري بشرح فتح الباري،٢٨٤/١٣، وقال الهيثمي في المجمع، ١٠٧/٦:رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وحسنه الترمذي، وأخرج الترمذي جزءاً من الحديث في كتاب السير في النفل ضمن حديث١٥٦١، وقال: حسن غريب، وابن ماجة في كتاب الجهاد، باب السلاح، رقم٢٨٠٨، والحاكم في المستدرك، ١٢٨/٢، ٢٢١، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي، دلائل النبوة، ٣ /٢٠٨، كما ورد في البداية والنهاية، ١١/٤، بسند حسن.انظر توثيقات العلي،صحيح السيرة، ص٢٠٣،والعمري، السيرة النبوية الصحيحة،٣٧٩/٢

فسيكشفهم. ولربما لأنه كان يمكنه في داخل المدينة أن يتَّفق مع أعوانه وحلفائه من يهود على خيانة رسول الله ﷺ والمسلمين.(١)

أما الرأي الآخر: فكان يرى أن في دخول الكفار للمدينة إهداراً لكرامتها ولهيبة المسلمين، وهذا مما يُطْمِع قريشاً والمشركين والأعراب واليهود في المسلمين. وتحمَّسَ لهذا الرأي بعض كبار الصحابة والشَّباب، ومَنْ لم يشهدوا بدراً؛ إذ كانوا مُتَشَوِّقين لقتال المشركين. ولما رأى النبي ﷺ غلبة هذا الرأي، -وإن كان لا يراه- دخل بيته، وتجهز للخروج، ولبس لباس الحرب، وخرج، فظنَّ أصحابه أنهم قد أحرجوه بالأخذ برأيهم، فقالوا: يا رسول الله! نَدمنا على مخالفتك، والأمرُ لك. فقال لهم بصرامة القائد وحزمه: "إنه ليس لنبي إذا لبس لأْمَتَه (أي عُدَّة القتال) أن يضعها حتى يقاتل أو حتى يحكم الله بينه وبين عدوه."(٢)

٣- قوات المسلمين؛ عَدَدُها وعُدَّتُها:

عقد النبي ﷺ ثلاثة ألوية بألف جندي. إلا أن عبد الله بن أُبَيٍّ زعيم المنافقين أقنع ثُلُث الجيش بالعودة من الطريق إلى أُحد، مُدَّعِياً أن المسلمين خالفوا رسول الله ﷺ، وأنه خرج معهم مُكْرَهاً، فانْطَلَت حيلته على ثُلُث الجيش،(٣) ولم يَبْقَ مع النبي ﷺ سوى ستمائة وخمسين رجلاً، وخمسين فارساً، ومائة دارع. وقد لحق أهل النفاق المنسحبين المتخاذلين عن رسول الله ﷺ ومن معهم من الجيش المسلم عبدُ الله بن عمرو بن جرام رضي الله عنه يذَكِّرهم بالله، ويحاول إقناعهم بالعودة إلى الجيش، ويقول لهم:"يا قوم أذَكِّرُكم الله ألاَّ تخذلوا قومكم ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم! فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما

---

(١) انظر، أبو زهرة، محمد، خاتم النبيين، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٧م، ١٩٣/٢.

(٢) الواقدي، المغازي،١ /٢١٤ والسيرة النبوية لابن هشام ، (مع الروض)، ١٤٩/٣، وانظر مسند أحمد، ٣٥١/٣، وعلّق البخاري بعضه، انظر البخاري بشرح فتح الباري، ٢٨٤/١٣ وقال البيهقي في رواية أحمد رجاله رجال الصحيح انظر، المجمع،١٠٧/٦ وحكم الألباني بحته، انظر الغزالي، محمد، فقه السيرة،ط٤،دار الكتب الحديثة،القاهرة،١٣٨٤هـ=١٩٦٤م، ص٢٦٩

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٤٩/٣

أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال.قال: فلما استعصَوْا عليه وأَبَوْا إلا الانصراف عنهم؛ قال: أبعَدَكُم اللهُ أعداءَ الله، فسَيُغني الله عنكم نبيَّه."[1] ولحق بالنبي ﷺ في الطريق كتيبة سمع لها زَجَلاً فاستغربها، وسأل عنها، فقيل له: هؤلاء حلفاء إبن أُبَيٍّ من يهود بني قَيْنُقاع، وهم قوم عبد الله بن سلام، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فردَّهم النبيﷺ، وقال: لاحاجة لنا بهم. وفي رواية أخرى :"لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك، أو لا نستعين بالمشركين على المشركين"[2].

٤- تخذيل المنافقين لبعض الطيبين من المسلمين:

أثَّر موقف المنافقين في طائفتين من المسلمين هما بنو سلمة وبنو حارثة، وهم قبيلتان مسلمتان طيبتان، وليستا من المنافقين؛ فحدَّثَتْهُما نفوسهما على الرجوع تخوفاً من عدم النصر، وتَحَسُّباً من اضطراب الصحابة في الشورى، لكن الله تعالى ثَبَّتَهُما وأنزل فيهما قرآناً، فقد صح من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية:﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ آل عمران: ١٢٢ فينا بني سلمة، وبني الحارثة. وما أُحِبُّ أنها لم تنزل والله يقول:﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ ﴾[3].

٥- حركة القوات المسلمة:

وصلت قوات المشركين إلى البساتين في شمال المدينة قرب جبال أُحد. وخرج المسلمون من المدينة من ديار بني النجار، ووصلوا فيها بين المغرب والعشاء، وشدّدوا الحراسة في الليل حتى السَحَر،[4] واستعان النبي ﷺ بالأدِلّاء، وسار الجيش المسلم حتى الفجر، وصلى النبي ﷺ بهم الفجر، وكان المسلمون قد وصلوا مع طلوع الشمس، وكانت الشمس في

(١) المرجع السابق، ١٤٩/٣، وسنده حسن، وهو مرسل، والواقدي، المغازي، ٢١٩/١

(٢) المغازي،الواقدي٢١٦/١، وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٤٩/٣، رواه ابن اسحق بإسناد حسن.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي،باب (إذ همت طائفتان)، غزوة أحد رقم٤٠٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الأنصار، حديث رقم ٢٥٠٥.

(٤) انظر التفاصيل في الواقدي، المغازي،٢١٧/١ -٢١٨

ظهورهم، واستدبروا جبل أُحد، وكانت الشمس في وجوه المشركين. وبدأ تنظيم الطرفين للقوات انتظاراً لساعة الصفر لبدء المعركة.

٦- تنظيم الجيش الإسلامي:

صفَّ النبي ﷺ أصحابه، وجعل ظهر جيشه إلى جبل أُحد، وجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وعلى الميسرة الزبير بن العوام، وفرز قوة من شجعان المسلمين في مقدمة الجيش. وكان على بُعْد من الجيش المسلم إلى الجنوب الشرقي جبل صغير، وهو ما عُرِف بعد غزوة أُحد بجبل الرُّماة، وفرز له النبي ﷺ خمسين رامياً، حتى يَحموا الجيش الإسلامي من حركة التفاف خطيرة للمشركين لو نجحوا فيها. ولذلك شدَّد النبي ﷺ أوامره للرماة بقيادة عبد الله بن جُبَيْر، وقال له:"انضح الخيل عنا بالنَّبْل، لا يأتونا من خَلْفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبتْ مكانك؛ لا نُؤْتَيَنَّ من قِبَلك. وقال للرماة: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنِمْنا فلا تَشْرَكونا، وإن رأيتمونا تَخْطَفُنا الطير فلا تَبْرَحوا مكانكم هذا حتى أُرْسِلَ إليكم."[١]

٧- تعبئة الجيش المسلم:

وخطب النبي ﷺ في المسلمين خطبة يحُضُّهم فيها على الجهاد والصبر والطاعة لله ورسوله، ووَحدة الصف وعدم الاختلاف. وأخذ يُحَمِّسُهم، ويستجيش روح البطولة فيهم[٢]وينادي في أصحابه :" من يأخذ هذا السيف بحَقِّه، فقام بعض أصحابه يتنافسون حتى قام أبو دجانة، وقال: ما حقُّه يا رسول الله؟ فقال:أن تضرب به وجوه العدو حتى يَنحَنِيَ، وفي رواية: ألاّ تقتل به مسلماً، ولا تفرَّ به عن كافر، فقال أبو دُجانة وهو متعصب بعصابته الحمراء (دلالة الفتوة والقوة والرجولة) : أنا آخذه بحَقِّه يا رسول الله. فأعطاه إياه، وأخذ أبو دُجانة يتبختر بين الصفوف، حتى قال النبيﷺ : إنها لَمِشْيَة يبغَضُها الله

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، رقم٤٠٤٣، وانظر الواقدي، المغازي،٢٢٤/١

(٢) انظر الواقدي، المغازي، ١/ ٢٢١-٢٢٢

ورسوله إلا في مثل هذا الموطن".(١) ومن طريف ما روي أن أبا دجانة قد انتهى وهو يقاتل إلى امرأة مشركة تُنْشِد للمشركين، ومعها نساء يضربن بالدفوف، فأهوى بالسيف إليها ليضر بها، ثم كفّ عنها ولم يضربها، فلما سئل عن ذلك بعد انجلاء المعركة، قال:" أيْ والله، أكرمتُ سيف رسول الله أن أقتُل به امرأة."(٢) وهكذا تكون مروءة المسلم الذي تدفعه رجولته ومروءته ألّا يضرب امرأة، رغم أنها كافرة، خرجت مع أعدائه المشركين تشجعهم على القتال.

وأما استعدادات رسول الله ﷺ شخصياً؛ فكان قد لبس عُدَّة القتال من بيته، ولبس درعه، ثم لما وصل أرض المعركة لبس دِرعاً آخر رغم أنه محفوظ من الله عز وجل، وذلك أخذاً بالأسباب. وقد ورد في الحديث : "أن النبي ﷺ يوم أُحد أخذ درعين كأنه ظاهَرَ بينهما."(٣)

رابعاً:مجريات القتال في أرض المعركة:

١- الجولة الأولى في القتال:

برز من جيش المشركين خائن من الأوس هو أبو عامر الفاسق، وقد سبق أن خرج إلى المشركين ومعه خمسون مقاتلاً من قومه مع عبيد من قريش من المشركين في المدينة، والتحق بجيش المشركين، وأخذ ينادي الأوس ويقول لهم: استجيبوا لي، واتركوا محمداً،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي دجانة، حديث رقم٢٤٧٠، وابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٥٠/٣، وفيها تصريح بالتحديث عن ابن إسحق.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، ٢٣٣/٣، والبزار في كشف الأستار، رقم ١٧٨٧. وقال الهيثمي عنه في المجمع١٠٩/٦: رواه البزار ورجاله ثقات، انظر صحيح السيرة، ص٢٠٦

(٣) هذه الواية في: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب لبس الدرع، رقم ٢٥٩٠، وابن ماجه، كتاب الجهاد. باب في السلاح، رقم ٢٨٠٦ ، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح على شرط البخاري، قال ابراهيم العلي: قلت: ورجال ابن ماجه كلهم ثقات. وانظر رويات أخرى مقاربة في الحاكم، المستدرك، ٢٥/٣، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه٤٦/٩. وفال الهيثمي في المجمع،١٠٨/٦ : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح. انظر، العلي، صحيح السيرة، ص ٢٠٣ .ومعنى ظاهر بينها :أي لبسهما؛ أحدهما فوق الآخر.

وانحازوا إلى قريش. فقام له الأوس، وقالوا له: لا أنعم الله بك عيناً، يا فاسق. وهاجموه حتى ولّى هارباً هو وأصحابه.[١] وتقدم الجيش المسلم إلى ميدان أُحد.

وأحكم النبي ﷺ خُطَّته فصفَّ المسلمين صفوفاً بعد أن أمر الرماة بالاستحكام على التَّلة، أو ما سُمِّيَ بجبل الرماة، لحماية ظهر الجيش المسلم. وجعل ظهر الجيش للشمس حتى يَفْرِض على المشركين أن يقاتلوا والشمسُ في وجوههم؛ إذ اختاروا الهجوم بعد صلاة الفجر. وبذلك سيطر المسلمون على أرض المعركة، وفرضوها على جيش المشركين، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي بين الصفوف، ويُهَيِّئُ المسلمين للقتال، ويُسَوّي صفوفهم ويقوّي معنوياتهم.[٢] وأَذِن النبي ﷺ للمسلمين ببدء القتال، وهتف حمزة بكلمة التعارف، أو كلمة السر بين المسلمين، وهي أَمِتْ، أَمِتْ،[٣] ثم اندفع إلى قلب جيش المشركين، وانقضَّ عليٌّ رضي ﷺ على حامل رايتهم طلحة بن أبي طلحة الذي طلب المبارزة فقتله. واندفع أبو دُجانة وفي يده سيف رسول الله ﷺ، وعلى رأسه عصابته الحمراء، عصابةُ الموت، وشقَّ صفوف المشركين، وأعْمَل فيهم سيفَه حتى قَتَل منهم عدداً كبيراً. واشتد القتال بين الطرفين. وكانت هند بنت عتبة –زوجة قائد المشركين أبي سفيان– حاقدة على حمزة، تريد الثأر لأبيها عتبة، ولعمِّها شيبة، ولأخيها الوليد، وقد قُتلوا في غزوة بدر، وقد وعدت مولى جُبَيْر بن مُطعم ، وهو وحشي: إن قتل حمزة أن تحرِّرَه. فترصَّد وحشيٌّ لحمزة حتى رماه بحَرْبته في ثُنَّته أسفل بطنه، فوقع حمزة رضي الله عنه شهيداً[٤].

وكان لواء قريش كلما قُتِل حامله حمله آخر من بني عبد الدار حتى قَتَل المسلمون منهم تسعة رجال، فحملته امرأة منهم بعد أن تفرق المشركون وانهزموا وهربوا تاركين

(١) انظر الواقدي، المغازي، ٢٢٣/٣

(٢) انظر المرجع السابق، ٢٢١/١، والعمري، السيرة النبوية الصحيحة،، ٣٨٣/٢

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣/ ١٥١

(٤) انظر حديث وحشي بن حرب بالتفصيل في البخاري، كتاب المغازي، باب قتل حمزة، رقم٤٠٧٢، وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٥٢/٢-١٥٣.

وراءهم غنائمهم، حتى إنهم قد تركوا صنماً لهم قد حملوه معهم لينصرهم –كما يزعمون– . وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم التي لا تحصى لكثرتها. ولكن المفاجأة الكبرى كانت في نزول الرماة المسلمين عن الجبل، ظنّاً منهم أن المعركة قد انجلت، وطمعاً منهم في جمع الغنائم من وراء العدو؛ فهي كَسْبُهم، وهي رواتبهم آنذاك، وقائدهم عبد الله بن جُبَيْر يناديهم، ويطلب منهم الثبات على الجبل وعدم مغادرته؛ وقوفاً عند أوامر رسول الله ﷺ، إلّا أنه ما بقي معه على التلَّة إلا أقل من عشرة رماة، ونزل الباقون ليجمعوا الغنائم، فخالفوا أمْرَ رسول الله ﷺ وأمْرَ قائدهم وهو يهتف بهم ألا يخالفوا أمر رسول الله. ولّما رأى خالد بن الوليد، وكان يومها مشركاً، ومقاتلاً في جيش قريش ذلك الموقف من الرماة قام بحركة التفافٍ مع مجموعة من المشركين، واتجهوا إلى جبل الرماة من خلف المسلمين، فقتَلوا عبد الله بن جُبير ومن معه، وأضْحَوْا من خلف المسلمين، وانكشف ظهر الجيش المسلم، وحاصرهم المشركون، وتحولت المعركة إلى جولة أخرى غيّرت مجرى القتال من نصر للمسلمين أول النهار إلى هزيمة عسكرية شديدة.(١)

٢– الجولة الثانية في القتال:(٢):

لم يتوقع المسلمون ما كان من الرماة، وإذا بجيش المشركين يفاجِؤهم يعيد تنظيم صفوفه بعد ما فعل خالد بن الوليد؛ مما جعل الفرصة سانحة لهجوم المشركين على المسلمين مرة أخرى ، فتفرق المسلمون، وتبعثرت قواهم وخسروا عدداً كبيراً من القتلى والجرحى، وما بقي حول النبي ﷺ إلا القليل يدافعون عنه، ويَفْدونه بأجسامهم وأرواحهم، حتى وصل المشركون إليه وجرحوه، وكسروا رباعِيَّته، ودخل حديد المِغْفَر في وَجْنَته وسال دمه، ووقع في حفرة رفعه منها كل من عليّ وطلحة بن عبيد الله. وكانت أم عمارة نسيبة بنت

(١) انظر التفاصيل، الواقدي،المغازي، ١/٢٢٩-٢٣٠، وفي المطالب العالية، رقم٤٣١٣ وصحح إسناده ابن حجر.

(١٠) انظر تفاصيل الأحداث في ابن هشام، السيرة النبوية' (مع الروض)، ١/١٥٦-١٥٧، والواقدي، المغازي، ١/٢٤٤-٢٤٧، وانظر البخاري، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح يوم أُحد، رقم ٤٠٧٣، ٤٠٧٥، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير، باب اشتداد غضب الله، رقم ١٧٩٣، وباب غزوة أحد، رقم ١٧٩١، ١٧٩٢

كعب تسقي الجرحى، فلما رأت رسول الله ﷺ يتعرض للأذى ألقت سقاءها، واستلّت سيفاً، وأخذت تذود عن رسول الله ﷺ، وتقاتل دونه قتالاً أشد مما يقاتل الرجال حتى جُرِحَت. وجاء أبو دُجانة يَصُدُّ بجسمه النبال حتى لا تصل إلى رسول الله ﷺ، ووقف سعدُ بن أبي وقاص يرمي بالنبل دونه، ورسول الله يقاتل بنفسه حتى تحطمت قوسه. وتساقط كثير من الصحابة شهداء وجرحى وهم يدافعون عن رسولهم. وصعَد المسلمون بصعوبة بالغة، وتحصَّنوا إلى شقٍّ في جبل أُحد، ووقفوا على مرتفع آخر مقابل المشركين. واعتقد المشركون أنهم كسبوا المعركة، وثأروا لهزيمتهم القريبة في الجولة الأولى منها، ولهزيمتهم في بدر؛ فقد قتلوا حمزة وكثيراً من المسلمين. وأشاعوا خبر مقتل النبيﷺ. وأخذ أبو سفيان ينادي: أفيكُم محمد؟ فلم يُجِبْهُ أحد من المسلمين، فنادى: أفيكُم ابن أبي قحافة؟- يقصد أبا بكر- فلم يجيبوه. فنادى: أفيكُم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، فظن أنهم قد قُتِلوا، فقال لقومه: أمّا هؤلاء فقد كُفيتُموهم. فلم تمالك عمر ﷺ حين سمع ما قال أبو سفيان إلا أن أجابه قائلاً: يا عدو الله، إن الذين ذكَرْتَهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يَسوؤك، وإن محمداً يسمع كلامك الآن. وانصرف أبو سفيان وهو يقول: يومٌ بيوم، والحرب سِجال. أي تَناوُب؛ فمرة ينتصر المرء في الحرب ومرة أخرى يُهْزَم فيها. بمعنى أننا انتصرنا عليكم اليوم في أحد، كما انتصرتم علينا بالأمس في بدر، وفي المرة السابقة قتلتم منا، وفي هذه المرة قتلنا منكم. فقال له عمر رضي الله عنه: لا سواء، قتلاكم في النار، وقتلانا في الجنة.

ثم انصرف أبو سفيان ومعه جيش المشركين، وهو يتوعّد المسلمين، ويقول لهم: إن موعدكم ببدر العام القادم. وكأنَّه يريد الانتقام مرة أخرى من المسلمين؛ لأن هزيمة المشركين في بدر لم ينْسَوْها لِهَولِها، وأنهم لم يأخذوا بثأرهم كما أرادوا. ولكنه اكتفى في هذه المعركة بهذه النتيجة، ويريد ألاّ تضيع منه ليعود الى مكة شاعراً بنشوة النصر بإيقاع القتل في المسلمين، وأنه قد انتقم ولو جزئياً لقتلى المشركين في بدر.

ورغم سوء أبي سفيان يومها إلا أنه لم يَقْبَلْ ما كان من زوجته هند، ولا من المشركين من تمثيل وتشويه بقتلى المسلمين، وما وقع لحمزة خاصَّة من مُثْلَة على يد هند؛ حيث بقرت بطنه، ولاكَت كَبِده ولَفَظَتْهُ. ومع ذلك لم تزعجه تلك المثلة، فنادى وهو قافل وعائد ومنسحب في نهاية مساجلته في الكلام مع عمر رضي الله عنه، و كأنه مُعْتَذِرٌ عما حصل، وأنه وقع من غير أمرٍ منه، حتى لاتُسجَّل عليه تلك الفعلة الشنيعة، وقال:"إنه قد كان في قتلاكم مُثْلَةٌ، (أي تشويه للانتقام من القتلى) والله ما رضيتُ، ولا سخطتُ، وما نهيتُ، وما أمرتُ." (١)

(١) صحَّح روايتها الألباني في تعليقه على هامش: الغزالي، فقه السيرة، ص٢٧٩ من حديث أخرجه أحمد والحاكم وإسناده حسن، وله شواهد عند البخاري، وعند أحمد في مسنده رقم٤٤١٤

خامساً: من دروس غزوة أُحد وعِبَرها:

يمكننا إجمال الدروس والعبر من هذه الغزوة على النحو الآتي:

١- التميّز: أظهرت هذه الغزوة في بداية أحداثها تَمَيُّزَ الصف المسلم"؛ فامتاز أهل الإيمان من أهل النفاق، بل وتميزَّت مراتب الإيمان نفسه."[١] ونزل في ذلك قوله سبحانه : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٧٩.

٢- واقعية الضعف في الطبيعة البشرية: كما أظهرت هذه الغزوة الضعف البشري متمثلاً في طمع الرماة رضي الله عنهم الذين استعجلوا الغنائم، ولم يأخذوا بوصية النبي ﷺ في عدم مغادرة الجبل، وأصروا على معصية قائدهم، مما جعل لمعصيتهم تلك آثاراً سيئة على سير المعركة، فحوَّلها من نصر إلى هزيمة عسكرية.

٣- ضرورة السمع والطاعة للقيادة: كما تأكد في هذه الغزوة ضرورة السمع والطاعة للقيادة، والانصيا ع اليام لأوامرها؛ ذلك أن سننَ الله تعالى لا تُحابي أحداً؛ فالسمع والطاعة من أسباب النصر، والمخالفة والمعصية من أسباب الهزيمة. فهذا الخلل الذي وقع فيه الرماة بمخالفة الأمر بنزولهم عن الجبل عرَّض المسلمين جميعاً في المعركة لدرس قاس، ونتائج وخيمة، لم يسلم من آثارها رسول الله ﷺ ؛ حيث جُرِح، وانشمر عنه الناس، ولاقى هو والمسلمون ما لاقوْا من عَنَت ومشقة، ومن قتل وجراح.

٤- تَرَفق ربنا سبحانه بأهل أحد: وقد ترفق الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في محاسبته للمسلمين يوم أُحد، بخلاف ما كان في بدر؛ فيما أنزل الله تعالى في قبولهم الفداء في الأسرى، بسبب ما وقع لأهل أحد من مشقة وقتل وجراح، وما نزل فيهم من مصاب؛

---

(١) الغزالي، فقه السيرة، ص٢٨٠، وانظر ابن القيم، زاد المعاد، ١٩٢/٣.

حيث كان أشدَّ محاسبةً للمنتصر في معركة بدر من محاسبته للمنكسر والمثخن بالجراح في معركة أحد.[1] ففي بدر قال الله لهم: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٧ .أما أهل أحد فقد قال لهم: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٥٢

٥- الثبات وعدم الاستسلام للهزيمة: على المسلمين ألّا يستسلموا للهزيمة أو الضعف؛ فقد أصر النبي ﷺ على موقفه في القتال، وبلى فيه بلاءً حسناً، وأعاد الروح المعنوية للجيش الذي فرَّقَتْه الهزيمة، وثبت معه قلة تدافع عنه بأجسامها وأرواحها، حتى فّوتوا على المشركين قتلَ رسول الله ﷺ، وأفشلوا عليهم خُطَّتهم في استئصال شأفة الإسلام في المدينة.كما أصر رسول الله ﷺ على ملاحقتهم إلى حمراء الأسد ليرفع الروح المعنوية للمسلمين، ولكي لا يطمع المشركون بالعودة إلى المدينة مستغلين حالة المسلمين المعنوية، وليعيد إلى أذهان المسلمين أن قريشاً هي المطارَدَة من قِبَلهم حتى لو اكتفت بالنتائج الميدانية لصالحها. وفي ذلك يُسجِّل الله تعالى هذا الدرس ليمسح عن المسلمين الآثار النفسية للهزيمة العسكرية، ويُعلي من شأن النصر المعنوي بارتفاع الإيمان والثبات، وأن الشهداء ليسوا خسارة، بل الشهادة ربح للشهداء ولأمتهم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ

(١) انظر المرجع السابق ص٢٨٥

ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ آل عمران: ١٣٩ ــ ١٤٣.

٦- ضرورة إعمال مبدأ الشورى، وأنها إذا اتُّخِذ قراره فإنه لا يُعاد: ظهر واضحاً في هذه الغزوة درس يؤكِّد ضرورة إعمال مبدأ الشورى، بل هو أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ؛ مع أنه يوحى إليه.أما أمر الله تعالى له بالشورى فهو ثابت بقوله سبحانه:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾آل عمران: ١٥٩. ولكن اللافت للنظر أن الرسول ﷺ رفض إعادة الشورى مرة أخرى، ورفض التَّرَدُّد حينما ندم الشباب –أصحاب رأي القتال خارج المدينة– لأنهم ظنّوا أنهم ربما استكرهوه على الخروج، وأنهم مستعدون للقتال داخل المدينة، فأجابهم إجابة قاطعة حازمة بقوله:"إنه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأْمَته (أي عدة القتال) أن يضعها حتى يقاتل؛"[١] لأن إعادة الشورى مرة أخرى تسبب الفوضى في اتخاذ القرار، إذ لو أعيدت الشورى مرة أخرى من أجل أحد أو مجموعة، فقد يطلب آخرون إعادتها مرة ثالثة، وآخرون مرة رابعة،...وهكذا، وبالتالي فما إحدى نتائج هذه الشورى بأولى من الأخرى، وهذه فوضى لا توصل إلى قرار سديد. كما أن هذه الشورى تعين القيادة على اتخاذ القرار سواء أكانت بالأكثرية أم بالتوجه العام الذي تفهمه القيادة وتميل إليه فتقرره، كما فهم رسول الله ﷺ توجُّه الدماء الفائرة للشباب وقوتهم، والرغبة الشديدة ممن كان متحسراً بسبب عدم الخروج إلى بدر، وكان يتمنى لقاء العدو، ولا يَقْبَل للمدينة أن تُهاجَم

---

(١) أحمد في مسنده٣/٣٥١ علقه البخاري ، أنظر فتح الباري ٢٨٤/١٣ قال الهيثمي في مجمع الزوائد:رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وأنظر بقية تخريجه في صحيح السيرة ص٢٠٢

في عقر دارها؛ إذ لم يطمع طامع أو غازٍ سابقاً –قبل الإسلام– أن يهاجمها ويدخلها عُنْوَة عن أهلها، فكيف يسمح أهلها للأعداء أن يدخلوها عليهم بعد أن أكرمهم الله تعالى بالإسلام؟!

٧– المرأة المسلمة تشهد المعركة،: كان للمرأة المسلمة حضورها في غزوة أُحد؛ فقد خرجت نساء مسلمات في مهمات السِّقاية، والتمريض، والإعانة، والتموين للجيش المسلم. ولما لزم الأمر، ورأت المرأة المسلمة انشمار المقاتلين المسلمين عن رسول الله ﷺ بقوة الصدمة في الجولة الثانية؛ ثبَتَت النساء رغم هروب كثير من الرجال ليدافعن عن رسول الله ﷺ بأجسادهن، وحملن السلاح وقاتلن قتال الرجال ؛ فهذه فاطمة رضي الله عنها، جاءت تغسل جروح النبي ﷺ، وتداويها برماد من حصير حرقتها لتوقف نزف الجروح. وأما أُم عمارة، نسيبة بنت كعب المازنية فقد كانت ساقيةً للجيش، ولما شعرت بتَعَرُّض رسول الله ﷺ للأذى من المشركين؛ استلت سيفاً من سيوف المسلمين، وأخذت ترمي بالقوس دفاعاً عن رسول الله ﷺ، فضربت عمرو بن قَمِئَة بالسيف، فضربَها فجرَحها، وأُصيبت بجراحات شديدة، وأصاب عاتِقَها أو كَتفَها جرحٌ غائرٌ[1] أَثَّرَ في جسدها طيلة حياتها. وكانت ممن شهد أُحداً من النساء أمُّ سُلَيْط الأنصارية كما ثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب ﷺ لما قسم ثياباً بين نساء المدينة فبقي منه ثوب، فقيل له: اعطِ هذا أمَّ كلثوم بنت علي رضي الله عنه، فقال:"أمُّ سليط أحقُّ منها، وأم سُلَيْط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ. قال عمر: فإنها كانت تَزْفُر لنا القِرَب يوم أحد."[2] أي تملؤها لنا ماء، وتسقينا.

٨– دفن الشهداء في أرض المعركة: ولقد حملت بعض نساء المسلمين الجرحى للذهاب بهم إلى القبور إلا أن فاطمة رضي الله عنها أقنعتهم بضرورة أعادتهم لِيُدفنوا في ميدان

(١) انظر، ابن القيم، زاد المعاد،١٧٦/٣، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٥٧/٣

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ذكر أم سُلَيْط، رقم، ٤٠٧١. ومعنى تزفر لنا القرب وتسقينا الماء،

المعركة كما أشار بذلك رسول الله ﷺ، حتى إن البعير الذي يحمل الشهداء رفض التوجه إلى المدينة، وأصرَّ على التوجه إلى موقع المعركة ليُدفنوا جميعاً هناك، وحمزة رضي الله عنه على رأسهم. ولعل هذا الدفن الجماعي لهم في أرض المعركة فيه ما فيه من رحمة رسولنا ﷺ؛ لأنهم لو أُرسلوا إلى المدينة لتبعثر الحزن في جَنَباتها، وبين قبائلها وأهلها وبيوتها، ولَكَثُر العويل والنواح فيها، رغم أن النبي ﷺ سمح لنسائها بالبكاء على الشهداء، وهو أول من حَزِن عليهم، وعلى رأسهم حمزة عمه رضي الله عنه، حيث تألم لتمثيل الكفار به، ولِما كان من هند التي سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكّالةَ الكُبود–حيث لاكت كبد حمزة من غيظها عليه ثأراً لأهلها، قتلى بدر.– ولقد استنفرت هند الكفار للتمثيل به رضي الله عنه؛ حيث بقروا بطنه، وجدعوا أنفه وأذنيه، وحين رآه النبي ﷺ على ذلك الحال المحزِن من التمثيل به والتشويه له، وجاءت صفية بنت عبد المطلب– أخت حمزة وعمة رسول الله ﷺ– لتراه، فأرجعها ولدها عبد الله بن الزبير بناء على أمر رسول الله ﷺحتى لا تجزع من منظره، فقالت: لقد علمتُ أن قد مَثّل المشركون بأخي، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان، لَأحتَسِبَنَّ ولأصبرن إن شاء الله، فأذِن لها رسول الله ﷺ، فنظرت إليه، وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وصلَّت عليه، واستغفرت له، فقال رسول الله ﷺ: لولا أن تحزن صفية–قبل مجيئها– ويكون سُنَّة من بعدي لتركتُه حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم. فلما رأى المسلمون حُزْن رسول الله ﷺ أقسموا أن يُمَثِّلوا بالمشركين من قريش مُثْلَة لا يمثلها أحد من العرب. وقد أخبر جبريل رسول الله ﷺ أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع، وأنه أسدُ الله وأسدُ رسوله. وأنزل الله تعالى عليه أن يتسلح بسلاح الصبر فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا

يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ النحل: ١٢٦ – ١٢٨**فصبر النبي ﷺ واحتسبه عند الله، وعفا، ونهى عن المثْلَة.**(١)

أما السر في رحمة الله تعالى تعالى بالشهداء بالدفن حيث قَضوا في شهادتهم فهو– والله أعلم– حتى يُبْعَثوا يوم القيامة من آخر مكان اسْتُشْهِدوا فيه، وعلى آخر تراب وقفوا عليه؛ ليشهد لهم عند الله عز وجل على جهادهم الصادق في سبيله، وليكون درساً فيه القدوة لمن يأتي بعدهم ممن يزورهم من المسلمين إلى قيام الساعة؛ إذ" كان رسول الله ﷺ من بَعدُ يزور مصارعهم، وسلك ذلك أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان رضي الله تعالى عنهم جميعاً، وكان عليّ رضي الله عنه يكرم ذرية أهل بدر وأهل أُحد."(٢) ولقد كانت الرحمة الكبرى من الله تعالى للشهداء ومواساتهم العظمى لأهاليهم وإلى قيام الساعة في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩ وقوله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ البقرة: ١٥٤.

٩– من كرامات شهداء أُحد: ولقد كان لأولئك الشهداء كراماتهم عند ربهم، بما أبلَوْا في سبيل الله بلاء حسناً، وبما أظهوار من شجاعة وبطولات في مناجزة أعداء الله، والدفاع عن دين الله، من ذلك:

أ– ما رواه زيد بن ثابت ﷺ قال:"بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحد لطلب سعد بن الربيع ﷺ، وقال لي: إن رأيتَه فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله كيف تجدك؟ قال:فجعلت أطوف بين القتلى، فأَصَبْتُه وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد: إن رسول الله يقرأ عليك السلام،

---

(١) انظر القصة بتمامها بصيغة التحديث عن ابن إسحق عند ابن هشام، السيرة النبوية،٣ مع الروض)، ١٧١/١-١٧٢، وانظر روايات ألم النبي صلى الله عليه وسلم لمقتل حمزة وتكفينه وصبر صفية، العلي، صحيح السيرة ص ٢٠٩-٢١١

(٢) أبو زهرة، خاتم النبيين، ٢٢٦/٢-٢٢٧

ويقول: أخبرني كيف تجدك؟ قال: على رسول الله ﷺ، وعليك السلام.قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم شَفْر(أي رمش عين) يطرف. قال: وفاضت نفسه رحمه الله."(١)

ب- أما طلحة بن عُبَيْد الله رضي الله عنه فقد شُلَّت يدُه، وقُطِعَت أصابعه حين استنجد رسول الله عليه ﷺ بالمسلمين يوم شدّ عليه الكفار، فقال:" مَنْ لِلْقَوْمِ؟ فقال طلحة: أنا. فلمّا قُطِعَتْ أصابعه قال: حسس، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت باسم الله لرَفَقَتْك الملائكة والناس ينظرون. وقاتل رضي الله عنه حتى قُتِل."(٢)

ت- وكذلك ما كان من مصعب بن عمير رضي الله عنه، حامل لواء المسلمين يوم أُحد، والذي استُشْهِد وَكُفِّن بثوبه ولم يكْفِه؛ فإذا غَطَّوْا رأسه ظهرت قدماه، وإذا غَطَّوْا قدميْه ظهر رأسه، فسألوا النبي ﷺ: كيف يفعلون بتكفينه، فقال لهم: "غَطّوا رأسه، واجعلوا على رجليه من الأِذخر."(٣)

ث- أما عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لما بكته أخته وعبد الله يكشف عن وجهه بعد استشهاده، فقال لها النبيﷺ: تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تُظِلُّه بأجنحتها حتى رفعوه.كما يذكر جابر ولده أن أباه عبد الله قال له قبل المعركة: أرجو ان أكون في أول من يصاب غداً، فأوصيك ببناتي خيراً فأصيب فدفنته مع آخر، فلم تدَعْني نفسي حتى استخرجتُه ودفنتُه وحده بعد ستة أشهر، فإذا الأرض لم تأكل منه شيئاً إلا بعض شحمة أذنه. كما أخبر جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال له: ألا أخبرك أن الله كلّم أباك كفاحاً(أي مباشرة أو مواجهة) فقال: يا عبدي سَلْني أُعطِك. قال: أسألك

(١)الحاكم في المستدرك٣٠/٢٠١ صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. انظر تخريجه صحيح السيرة ص٢١٨

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب طلحة، رقم ٣٧٢٤ ، ٣٧٢٥، وفي كتاب المغازي، رقم ٤٠٦٣، وانظر سائر تخريجات الروايات في القصة في: العلي، صحيح السيرة، ص٢١٩

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا لم يجد كفناً، رقم١٢٨٦، وانظر سائر تخريجاته، العلي، صحيح السيرة، ص ٢٢٠، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣٠/ ١٥٣. والأذخر:نبات معروف لديهم.

أن تَرُدَّنِي إلى الدنيا فأُقْتَلَ فيك ثانياً. فقال: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجَعون. قال: يا رب فأَبْلِغ مَن ورائي، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩[1]

١٠- ويستفاد من غزوة أحد أيضاً مجموعة من الأحكام الفقهية فصّلها ابن القيم:[2]نجملها في ما يأتي:

أ- إنه ليس لمن تجهَّز للخروج للجهاد أن يرجع حتى يقاتل عدوه. ويجوز سلوك الإمام بالعسكر في أملاك رعيته إذا كان لا بد من ذلك. وإنه لا يؤذن للصغار غير البالغين بالخروج إلى القتال. ويجوز الغزو بالنساء والاستعانة بهن في الجهاد. كما ويجوز الانغماس في العدو كما فعل أنس بن النضر حين سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتِل، فقال للمسلمين:"فماذا تصنعون بعده؛ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتِل"[3]. وإنه يجوز دعاء الرجل لنفسه أن يُقْتَل في سبيل الله كما دعا عبد الله بن جحش بقوله:"اللهم لقِّني من المشركين رجلاً عظيماً كُفْرُه، شديداً حَرَدُه، فيقتلني فيك، ويسلبني، ثم يجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتُك فقلت: يا عبد الله بن جحش، فيمَ جُدعْتَ؟ قلت: فيك وفي رسولك."[4]

ب- ومنها: أن المسلم إذا قَتَل نفسه فهو من أهل النار كما كان من قُزْمان الظفري، حيث عيَّرَتْه نساء المدينة أنه لم يخرج في أُحد، فخرج حَمِيِّة حتى صار في الصف الأول،

---

(١) انظر الروايات في عبد الله بن عمرو بن حرام في البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت، رقم١٢٤٤، ١٣٥١ ، ١٣٥٢، وكتاب المغازي، باب من قُتِل يوم أُحد، رقم، ٤٠٨٠، وسلم في صحيحه، رقم ٢٤٧١، وسائر التخريجات العلي، صحيح السيرة، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ٣ /١٨٥-١٩١

(٣)ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، ١٥٨/٣- ١٥٩، صرح فيه ابن إسحق بالتحديث.

(٤) الحاكم، المستدرك٣ /١٩٩، قال صحيح على شرطهما لولا إرساله، ووافقه الذهبي، وانظر سائر تخريجاته في العلي، صحيح السيرة، ص٢١٧.

وفعل العجائب في قتل المشركين؛ فكان لا يَدَعُ مشركاً أمامه إلا قتله، حتى استغرب المسلمون من شجاعته وإقدامه، حتى شهد له الصحابة حين سألهم رسول الله: كيف تجدون قزمان؟ فقالوا: يارسول الله ما أبلى أحد منا اليوم بلاءه! فقال: قزمان في النار. وما عرف الصحابة سر تلك النهاية له إلا بعد أن عرفوا أنه قد جُرِح جرحاً شديداً، فمَرِّ به قَتادة بن النعمان، فقال له: هنيئاً لك الشهادة، فقال: والله ما قاتَلْتُ على دين، وإنما قاتلت على حَسَب قومي، ثم لم يتحمَّل جراحته، فاستعجل الموت، ووضع سيفه بالأرض، ورأسه بين ثُدْيَيْه، ثم تحامل عليه، فانتحر. فقال رسول الله ﷺ عنه: "أما إنه في النار. فاستغرب الصحابة هذا الحكم حتى رأوْا ما فعل بنفسه".[1]

ت- ومنها: أن الشهيد لا يُغَسَّل ولا يُصَلّى عليه، ويُكَفَّن في ثيابه التي استُشْهِد فيها إن بقيت عليه بدمه وجروحه، وأن حنظلة كان جنباً فغسّلته الملائكة.[2] وأنه يجوز الدفن الجماعي للأموات كما فعل رسول الله ﷺ حيث كان يدفن الرجلين والثلاثة رجال في قبر واحد. وأنه يُعذَرُ ذوو الأمراض عن الخروج للقتال بعدم وجوب الخروج عليهم، ويجوز لهم إن هم أرادوا هم ذلك، كما خرج عمرو بن الجموح وكان أعرجاً لكنه أصر على ذلك، ولم يستجب لطلب أولاده الأربعة بعدم الخروج؛ لأنه ذو عُذر، وأنهم يكفونه الخروج، وقال لهم:"فوالله إني لأرجو أن أطأ بعَرَجَتي هذه في الجنة. فأجازه النبي ﷺ ، فَقُتِل يوم أحد، وشهد له رسول الله ﷺ بأنه يمشي برجله العرجاء صحيحة في الجنة.[3]

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)،٣ / ١٦٨/ عن ابن إسحق بصيغة التحديث، وإسناده حسن، ورجاله ثقات، وهو مرسل يشهد له ما في البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه رقم، ١١٢، انظر التخريج في صحيح السيرة ص٢٢٣، وابن القيم، زاد المعاد ١٨٦/٣

(٢) انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٥٤/٣.

(٣) انظر أحمد في مسنده، ٢٩٩/٥، وحسَّن إسناده الحافظ في فتح الباري، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣١٥/٩: رجاله رجال الصحيح غير يحيى الأنصاري وهو ثقة، كما جاء في ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض) عن ابن إسحق بصيغة التحديث، ١٦٩/٣، والبيهقي في دلائل النبوة، ٣ /٢٤٦، وسنده حسن ورجاله ثقات.

ث- ومنها: أن المسلم إذا قتل مسلماً خطأً يَظُنُّه كافراً فلا إثم عليه، وعلى الإمام أن يدفع دِيَتَه لأهله من بيت مال المسلمين، كما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها أنه:"لما كان يوم أُحد هُزِم المسلمون، فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أيْ عبادَ الله أُخراكم، فرجعت أولاهم فاجْتَلَدَت هي وأُخراهم، فَبَصُر حذيفة؛ فإذا هو بأبيه اليمان،(وكان رجلاً كبيراً في السن مع صحابِيَّيْن يحرسون النساء والصبيان، فلما رأوا المسلمين في شدة نزلوا للقتال طلباً للشهادة) فقال حذيفة: أي عباد الله، أبي! أبي! قال. قالت: فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه.فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله. -وفي زيادة في سيرة ابن هشام، رواها ابن إسحق تحديثاً- فقال حذيفة: قتلتم أبي! قتلتم أبي! قالوا: والله ماعرفناه، وصدقوا، فقال حذيفة: بغفر الله لكم، فأراد رسول الله أن يَدِيَهُ، (أي يدفع دِيَتَهُ) فتصدق حذيفة بدِيَته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺخيراً."[(1)]

نكتفي بهذه الدروس، وثَمَّة دروس وعِبَر كثيرة استخرجها ابن القيم في كتابه زاد المعاد تحت فَصْل: فيما ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحد، وفصْل: استخلاص الحِكَم والفوائد.[(2)]

سادساً: من نتائج غزوة أُحد وآثارها:

١- خسر المشركون اثنين وعشرين رجلاً من صناديدهم وكبرائهم، وكانت هزيمتهم في الجولة الأولى، وخسروا كثيراً من معَدّاتهم وأسلحتهم وأموالهم. وقد قتل النبي ﷺ أميَّة بن خلف، وهو من كبار زعمائهم؛ إذ أنه لما لجأ النبي ﷺ إلى الشِّعب في حبل أُحد " أدركه

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣/١٦٧-١٦٨ رواه ابن إسحق بصيغة التحديث، وسنده حسن، ورجاله ثقات، وسنده متصل، ورواية عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب إذ همّت طائفتان رقم ٤٠٦٥، وفي باب ذكر مناقب حذيفة بن اليمان، رقم، ٣٧٢٤، وانظر سائر تخريجاته في العلي، صحيح السيرة ص٢١٦

(٢) انظر ابن القيم ،زاد المعاد٣/١٩١-٢١٠

أُميَّة بن خلف وهو يقول: أيْ محمد! لانجَوْتُ إن نَجَوْتَ. فقال القوم: يا رسول الله! أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه. فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصَّمَّة، (...) ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً. فقال ابن هشام: تدأدأ، يقول: تقلَّب عن فرسه."[1]

ومن الطريف أن أميَّة هذا كان يتهدد النبي ﷺ في مكة أنه يعلف فرساً له ليقتُله عليها، فقال له النبي يومذاك: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما طعنه النبي يوم أُحد وجرحه في رقبته واحتقن الدم فيها طمأنه قومه أنه ليس به بأس، قال لهم: قتلني والله محمد، والله إنه قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني، فمات في طربق عودته إلى مكة مع جيش المشركين[2] .

إلا أن المشركين في الجولة الثانية استعادوا هيبتهم العسكرية في نظرهم، وانسحبوا معتقدين أنهم حقّقوا هزيمة المسلمين، وأرادوا أن يعودوا سريعاً إلى مكة حتى يحافظوا على هذه النتيجة.

٢- أما المسلمون فقد انتصروا في الجولة الأولى، أما الجولة الثانية فكانت بالنسبة لهم مؤلمة جِدّاً في نتائجها القتالية؛ حيث استُشْهَد منهم سبعون رجلاً على رأسهم؛ حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، عمُّ رسول الله ﷺ. فمن حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال:" فأصابوا منا سبعين."[3] وجرح عدد كبير من المسلمين جروحاً بالغة، ولم يَسْلَم رسول الله ﷺ؛ إذ جُرِح في وجهه، -وفي رواية في رأسه- وكُسِرت رُباعيته، وقال: كيف يُفلِح قوم شَجّوا نبيَّهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم الى الله عز وجل. [4].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٦٦/٣

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، رقم ٤٠٤٣.

(٤) المرجع السابق، رقم ٤٠٦٩، ٤٠٧٠، ٤٠٧٤، ٤٠٧٦.

٣- حمراء الأسد: ومن نتائج الغزوة؛ أن عاد المسلمون إلى المدينة مُتعَبين ومُثْخَنين بجراحات مؤلمة لكثيرين منهم، وكان البكاء يسمع على شهدائهم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" أمّا حمزة فلا بواكي له،"(١) فبعث سادة الأنصار نساءهم يواسين أخواتهن المهاجرات من بني هاشم في البكاء على حمزة، حتى نهاهن النبي ﷺ عن النواح على الميت بعد ذلك اليوم. وقَبْل أن يرتاح الجيش العائد من أُحد في اليوم التالي يوم الأحد في السادس عشر من شوال(٢) أمر النبي ﷺ جميع المقاتلين في أحد بالخروج لملاحقة جيش أبي سفيان، ولم يسمح لأحد منهم، حتى ولا للجرحى بالبقاء في المدينة، وألّا يخرج أحد معهم لمن ممن لم يكن في أُحد، حتى وصلوا وعسكروا بحمراء الأسد على الطريق من المدينة إلى مكة . وحينما سمع أبو سفيان بأن جيش المسلمين يُطارِد جيشه، أسرع المسير عائداً إلى مكة؛ ليحافظ على نصره الموهوم، ولأنه لم يعد جيشه قادراً على الصمود في معركة أخرى، وقد أصبح في وضع قتالي وتمويني، وأرض لا يضمن فيها النتائج لصالحه. وقد هيأ الله تعالى رجلاً مشركاً من بني خُزاعة، وهو معبد بن أبي معبد الخزاعي، وقد كان بنو خزاعة حِلْفاً لبني المطلب في الجاهلية ثم بعدها في الإسلام، إذ رأى قريشاً في حمراء الأسد تريد العودة للمدينة لاستئصال المسلمين، والإجهاز على بقيتهم:" فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال:ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنهم في يومكم، وندموا على ما صنعوا. (...) قال: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى إلا أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لِنَسْتأصِلَ بقيتهم. قال : فإني أنهاك عن ذلك،"(٣) وأنشد شعراً يصف به كثرة عدد جيش المسلمين وعُدَدهم واستعداداتهم،

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح على شرط مسلم، كتاب الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت رقم **١٥٩١**. وانظر أحمد في المسند بشرح الفتح الرباني للساعاتي، ١٧/ ١٠٦ -١٠٧ بإسناد جيد

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، **(مع الروض)**، ٣ /١٧٣، والبخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٠٧٧

(٣)ابن هشام، السيرة النبوية، **(مع الروض)**، ٣/ ١٧٣- ١٧٥ من تحديث ابن إسحق.

فانصرف جيش قريش حتى لا يفقد إحساسه بالقوة والغلبة. وقد أرسل معبدٌ يُخبر رسول الله ﷺ أن جيش المشركين قد عاد إلى مكة. وقد أقام رسول الله ﷺ في حمراء الأسد خمسة أيام، وعاد يوم الجمعة.(١) وبهذه الحركة استطاع الرسول ﷺ أن يرفع من معنويات جيشه، فهم يُطاردون عدوهم، ولو بقَوْا في المدينة لانشغلوا بجراحاتهم وبكائهم على شهدائهم، وهو بهذا يُفَوِّت الفرصة على المنافقين واليهود المتَشَفِّين بهذه النتيجة.

٤- طمع الأعراب المشركين خارج المدينة: إن الضربة العسكرية التي ألمت بالمسلمين أوهمت المشركين من الأعراب بضعف المسلمين، مما أغرتهم بالتجمع والطمع في غزو المدينة لنهب خيراتها. فعقد النبي صلى الله عليه وسلم السرايا لتأديبها؛ وهذه السرايا هي:

أ- سرية أبي سلمة: وسببها ما قام به بنو أسد بقيادة طلحة ابن خويلد الأسدي وأخيه سَلَمة في نجد، وبنو هذيل بقيادة خالد بن سفيان الهذلي في عرفات مستهدفين غزو المدينة، وذلك في هلال شهر محرم من السنة الرابعة للهجرة، فبعث النبي ﷺ أبا سلمة ومعه مائة وخمسون مسلماً، ولم يلقَوْهم، وغنموا لهم إبلاً وغنماً.(٢)

ب- سرية عبد الله بن أُنَيْس: وفي الخامس من محرم بعث النبي ﷺ عبد الله بن أُنيس ليقتل خالد ابن سفيان بن نُبَيْح الهذلي؛ حيث علم أنه جمع جموعاً يريد غزو المدينة. وقد وصفه له رسول الله ﷺ، وأن من علاماته أنه إذا رآه تأخذه قُشْعَريرة. فأخذ يبحث عنه حتى وجده بعَرَنة، ويقول عبد الله:" وكان وقت العصر، فلما رأيتُه وجدتُ ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلتُ نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومىءُ برأسي الركوع والسجود، (...) فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حَمَلْت عليه بالسيف حتى قتلتُه(...) فلما قدمت على رسول الله

(١) انظر الواقدي، المغازي، ١/ ٣٣٤ - ٣٤٠

(٢) انظر ابن القيم،زاد المعاد ٢١٠/٣، وطبقات ابن سعد، ٢٥٠/٢ وفيها طُلَيْحة وسُلَيْمة.

ﷺ فرآني فقال: أفلح الوجه. قلت قتلتُه يا رسول الله. قال: صدقت."[١] وقد أخبر ابن القيم أنه أتاه برأسه معتمداً على طبقات ابن سعد. كما أن النبي ﷺ أعطاه عصا يحتفظ بها علامةً بينه وبينه يوم القيامة، وقد ضمَّها عبد الله بن أنيْس إلى سيفه، ودُفِنَت معه في أكفانه.[٢]

ت- سرية الرَّجيع: وفي صفر من السنة الرابعة للهجرة أرادت هُذيْل الثأر لدم الهذلي، ولجأت إلى الغدر والخديعة، حيث أغارت بنو لحيان منها على عشرة من الصحابة مع وفد من قبيلتيْ عَضَل والقارَّة، زعموا لرسول الله ﷺ أن قبيلتَيْهما أسلموا، ويحتاجون لمن يُعَلِّمهم الإسلام، ويُقْرِئُهم القرآن، فبعث معهم النبي ﷺ ما أصحابه قرّاء لإقرائهم القرآن وتعليمهم الإسلام ،فغدر الوفد بالقُرّاء عند ماء الرجيع، فقُتل عامَّة المقرئين المسلمين، وأسروا خُبَيْب بن عَدِيٍّ، وزيد بن الدِّثِنَّة وباعوهما لأهل مكة، فسجن المشركون من أهل مكة خُبَيْباً، فدعا اللهَ عليهم قائلاً: اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدَداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً. ومما أنشد:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شِقٍّ كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ
فلستُ مُبْدٍ للعدو تَخَشُّعاً ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي

وطلب منهم قبل أن يقتلوه أن يُمْهلوه ليصلي ركعتين. وقال له أبو سفيان: أيسُرُّك أن محمداً عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فأجاب: لا والله، ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، فصلبوه.

(١) ابوداود في سننه، كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب ،حديث رقم١٢٤٩، وأحمد في المسند مختصراً،٤٩٦/٣. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢٩٥/١ إسناده جيد، وقال ابن حجر في فتح الباري، ٣٥٠/٢ إسناده حسن. وفي الطبراني رجاله ثقات كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٣-٢٠٤، انظر تخريج ابراهيم العلي،صحيح السيرة، ص٢٣٨. وذكر القصة ابن القيم في زاد المعاد، ٢١٠/٣-٢١١ وانظر المزيد من تخريج رواياتها في هامشه.

(٢)انظر المراجع السابقة

وأما زيد بن الدّثنة فاشتراه صفوان بن أمية، وقتله ثأراً لأبيه صفوان بن أمية الذي قتله المسلمون في المعركة.[1]

ث- سرية بئر معونة: كما حصل في السنة نفسها في شهر صفر أن غُدِرَ بوفد مسلم يُقَدَّرُ عددهم بأربعين أو سبعين من القُرّاء برئاسة المنذر بن عمرو الخزرجي، وكانوا من خيار المسلمين، فغدر بهم عامر بن الطفيل، وأحاط بهم رَعَل وذَكْوان من بني سُلَيْم، وقتلوهم. ولهذا كان لا بد من تأديب هؤلاء الأعراب. فقد أخرج لهم النبي ﷺ سرية تؤدبهم، ولكنهم تفرقوا في الجبال، وهي ما عرفت بوقعة بئر معونة.[2] وعلى أثر ذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم ربه على رعل وذكوان وعصيبة وبني لحيان وهم قتلة القراء شهراً كاملاً في دعاء القنوت في صلاة الفجر حتى جاءوا تائبين مسلمين.[3]

٥- تَشَفّي المنافقين بالمسلمين: ومن آثار غزوة أُحد أيضاً أنها قوَّت شوكة المنافقين، فأخذوا يُرجِفون في المدينة، ويتآمرون بالخفية مع حلفائهم من يهود المدينة، ويثيرون موجات التشكيك وإثارة الشبهات، وتَربُّص الفرص للمكر بالمسلمين، والإتصال بمشركي قريش مُتَشَفِّين بما لحق بالمسلمين من أذى في غزوة أُحد. ولقد فضحهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة آل عمران. ونجد رأس النفاق عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول يتشفى بالمسلمين الجرحى، وبولده المؤمن عبد الله، وقد خرج مع النبي ﷺ إلى أُحد وجُرِح، ذكر الواقدي:" وصلى رسول الله ﷺ المغرب- أي من يوم السبت حين رجعوا من أُحد- ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة عند نكبة أصابت أصحابه، وأُصيب رسول الله ﷺ في نفسه. فجعل ابن أُبَيّ والمنافقون معه يَشْمَتون ويُسَرّون بما أصابهم ويُظهِرون أقبح القول. ورجع مَن رجع

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، رقم ٤٠٨٦ وسائر تخريج الرواية في، العلي، صحيح السيرة ص٢٤٠، وابن القيم ، زاد المعاد،٢١٣/٣-٢١٤ وتخريج المحقق.

(٢) انظر ابن القيم، زاد المعاد، ٢١٤/٣-٢١٥، والبخاري في كتاب المغازي، رقم ٤٠٩٠، ومسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم٦٧٧ ص١٥٧ من طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) انظر المراجع السابقة.

من أصحابه، وعامَّتهم جريح، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ وهو جريح، فبات يكوي الجراحة بالنار حتى ذهب الليل. وجعل أبوه المنافق يقول: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي، عصاني محمدٌ وأطاع الوِلدان، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا (أي إلى ما حل بالمسلمين من الهزيمة في نظره ومن القتل والجراح..) فقال ابنه: الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير."[1] وذكر الواقدي كذلك ما كان من تشفي يهود بالمسلمين طاعنين بنبوته عليه الصلاة والسلام، "فقالوا: ما محمد إلا طالب مُلك. ما أُصيب هكذا نبيّ وأصيب في أصحابه."[2] وجعل المنافقون يقولون لأصحابهم: لو أطعتمونا ما قُتِلْتُم، فردَّ الله تعالى على مقولتهم بقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ آل عمران: ١٦٧ – ١٦٨. وكان لعبد الله بن أُبَيّ عادة مُقام بعد صلاة الجمعة، يقوم ليثني على النبيﷺ، ويحض المسلمين على الوقوف معه ونصرته، وهو كذاب دجال، وذلك ليري الناس نفسه، وأنه زعيم له قيمة في المدينة. وبعد معركة أحد حاول أن يفعل ذلك، فقام إليه أبو أيوب الأنصاري وعُبادة بن الصامت رضي الله عنهما؛ فأخذ أبو أيوب بلحيته، وعبادة برقبته، ويقولان له: لست لهذا المقام بأهل، وتركاه، فخرج يقول: كأنما قلتُ هُجْراً،– أي كلاماً قبيحاً– فلقيه مُعَوَّذ بن عفراء، فقال له: مالَك؟ قال: قمت ذلك المقام، فقام عليَّ رجال من قومي! فقال له: ارجع يستغفر لك رسول الله. فما كان من هذا المنافق إلا وأخرج ما في أعماقه من كفر مبطن، وحقد عميق على رسول الله فقال: والله ما أبغي أن يستغفر لي.[3] فنزل قوله تعالى:

(١) الواقدي،المغازي،٣١٧/١

(٢) المرجع السابق

(٣)انظر المرجع السابق، ٣١٨/٣

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ المنافقون: ٥ ـ ٦.

٦- **الخروج إلى غزوة بدر الآخرة، أو بدر الموعد[١]: كان أبو سفيان قد توعد المسلمين عند انصرافه من غزوة أُحد في العام القادم ببدر قدمة في السنة القادمة، لما كان من غيظه في هزيمته في بدر الكبرى، يريد تحدي المسلمين في نفس المكان موهِماً نفسه أنه أصبح قوياً. فلما كان شعبان من السنة التالية لغزو أُحد، أي في السنة الرابعة للهجرة، خرج رسول الله ﷺ في نفس الموعد، ومعه خمسمائة مقاتل وعشرة أفراس، يحمل اللواءَ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتى وصلوا إلى بدر ينتظرون فيها أبا سفيان وقريشاً للقتال، وأقاموا فيها ثمانية أيام ينتظرون. إلا أن أبا سفيان قد تَمَلَّكه الجُبن، وتخوَّف من الهزيمة وعدم الاحتفاظ بنتيجة غزوة أحد، فعاد من الطريق قريباً من مكة، من مَرِّ الظهران بعد أن أعد ألفين مقاتل من جيشه، وخمسين فرساً، زاعماً لقومه رجوعه، ومبرراً لهم انكفاءه؛ بأن العام جَدْب ومَحْل وقَحْط، وأنه رأى الرجوع تخوفاً عليهم من الجوع. وبهذا الخروج إلى بدر الموعد نجح رسول الله ﷺ والمسلمون معه في تحديهم قريشاً.[٢]**

٧- **شَغَب أهل دومة الجندل وتأمين المنطقة الشمالية من الجزيرة: وقد طمع أهل دومة الجندل، وهي على الحدود الشمالية من الجزيرة العربية من جهة الشام بالمدينة، فجمعوا جموعاً كثيرة، فعلم النبي ﷺ بجمعهم، فخرج إليهم في أواخر شهر ربيع الأول سنة خمس للهجرة بجيش قوامُه ألف مُقاتل، ومعه دليل من بني عذرة، ففاجأهم وهم غائبون عن ماشيتهم ورُعاتهم، فغنم منها ما غنم، وهرب منها ما هرب، فتخوَّف أهل دومة الجندل،**

(١)كما سما الواقدي في المغازي ٣٤٨/١

(٢)انظر ابن القيم، زاد المعاد ٢٢٢/١، وابن هشام، السيرة النبوية٢٤٨/٣-٢٥٠ وهناك رواية من حديث ابن عباس في الطبراني رجاله رجال الصحيح، وبسند صحيح انظر تخريجها في صحيح السيرةص٢٣٧

وتفرقوا، ونزل النبي ﷺ بأرضهم أياماً فرَّق فيه جمعهم، ولم يستطيعوا قتالاً. وقد كسب النبي ﷺ في هذه الغزوة أن وادع عيينة بن حصن. وهكذا أزال النبي ﷺ تخوف أهل المدينة ، والآثار النفسية السلبية لغزوة أُحد عليهم.[1].

٨- تشفي اليهود بالمسلمين: فرح اليهود بهذه النتيجة للمعركة من إصابة المسلمين إصابة عظيمة عسكرياً، من وجرحى وقتلى، مما كان له أثر كبير بعد ذلك بالاعتماد على مواقف المنافقين الممالئة لهم، ومما كان لهذا الوهم في استضعاف المسلمين-في نظرهم، كما سنرى من محاولة اغتيال النبي ﷺ؛ مما كان سبباً في غزوة بني النضير.- كما سندرسها في موضوعها إن شاء الله- وهذا التشفي هو الحكم العام على موقف اليهود، لكنه لا يمنع من باب الإنصاف، أن ندرةً منهم، وأفراداً قليلين آمنوا بالإسلام مثل؛ أحد كبائر أحبارهم وهو عبد الله بن سلام رضي الله عنه؛ فقد روى ابن إسحق خبر إسلامه عند قدوم النبي ﷺ إلى قباء، وكتم إسلامه، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ، وطلب منه أن يجمع كبارهم، وأن يدخله بيته متخفياً عنهم، ويسألهم عنه، ويخبرهم بإسلامه؛ ليثبت له أنهم أهل بهتان وكذب. قال عبد الله بن سلام:"فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه، فكلَّموه، وساءلوه، ثم قال لهم: أيُّ رجل الحصين بن سلام فيكم؟(والحصين هاسمه قبل إسلامه) قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبْرنا وعالمنا. قال: فلمّا فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت: يا معشر يهود! اتقوا الله، واقبلوا رسول الله ﷺ؛ فوالله إنكم لتعلمون: إنه لرسول الله؛ تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ ، وأؤمن به وأصدقه وأعرفه. فقالوا: كذبتَ، ثم وقعوا بي.(أي شتموه، ووصفوه بالشر والجهل)، قال فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: فاظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها،"[2] كما

(١) انظر التفاصيل ،ابن القيم،زاد المعاد١،٢٢٢/. وابن هشام ، السيرة النبوية،(مع الروض)، ٢٥٨/٣

(٢) ابن هشام ، المرجع السلبق، ٢٥٧/٣

روى ابن إسحق كذلك ما كان من مُخَيْريق اليهودي، وقد كان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يَعرف النبي بصفته كما هي عندهم في التوراة، لكنه غلب عليه إلفه ليهوديته حتى إذا كان يوم أحد قال:" يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحقٌّ.(باعتبار الوثيقة بينه وبينهم على ضرورة مشاركتهم في حماية المدينة) وقالوا: اليوم يوم السبت(أي يوم عيد يحرم عليهم العمل فيه والقتال).قال:لا سبت لكم، -ثم أخذ سلاحه وعُدَّته لمن وراءه من قومه- إن قُتِلْتُ هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ ، فقاتل معه حتى قُتِل. فكان رسول الله ﷺ يقول: مخيريق خير يهود، وقَبَض رسول الله ﷺ أمواله، فكانت عامَّة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها[1].

(١) انظر المرجع السابق، ٢/٢٥٧، ٣/١٦٨

المبحث الثالث

غزوة بني المُصْطَلِق أو غزوة المُرَيْسيع

أولاً: تسميتها وتاريخها:

سميت غزوة بني المُصْطَلق[1]؛ نسبة إلى القوم الذين خرج المسلمون لتأديبهم وهم بنو المصطلق، كما سميت غزوة المُرَيْسيع؛ نسبة إلى اسم المكان الذي توجد فيه عين الماء المسمّاة بالمُرَيْسيع الذي وقعت فيه الغزوة، في الطريق بين مكة والمدينة قرب الساحل.

أما تاريخها: فقد وقعت يوم الإثنين؛ في الثاني من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة[2].

ثانياً: سبب الغزوة وأهدافها:

١- طمَعُ قبيلة بني المصطلق يُعَدًّ السبب المباشر لهذه الغزوة؛ ذلك أن بني المصطلق، وهم إحدى قبائل خزاعة من الأحابيش الذين اشتركوا في أُحد، طَمعوا في غزو المدينة ظانّين أن المسلمين بعد معركة أُحد أصبحوا ضعافاً.

٢- علْمُ النبي صلى الله عليه وسلم بالحشد لغزو المدينة؛ ذلك أن سيد بني المصطلق وهو الحارث بن أبي ضرار أخذ يجمع العرب من الشركين المجاورين لقومه، ويحشد قومه للهجوم على المدينة في منطقة تسمى المريسيع. [3]

---

(١) أو بَلْمُصْطَلِق هكذا وقع اسمها عند الواقدي في المغازي، ٤٠١/١

(٢) انظر الواقدي، المغازي، ٤٠٤/١ ،وهو الرأي الراجح كما وقع في رواية موسى بن عقبة وابن سعد وابن قتيبة والبلاذري والذهبي والواقدي وابن القيم وابن حجر وابن كثير والبيهقي، خلافاً لابن إسحق والطبري وابن حزم وابن عبد البر وابن الأثير، إذ ذكروا أنها كانت في السادسة ، وخلافاً لما وقع في البخاري، كما يرى ابن حجر في ما نقله عن موسى بن عقبة وعند ابن حزم في رأي آخر أنها كانت سنة أربع، انظر التفاصيل في ابراهيم العلي، صحيح السيرة ،ص٢٤٥ -٢٤٧

(٣) انظر،ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، ٦/٤ رواية ابن إسحق بالتحديث عن عاصم بن عمر بن قتادة، وسنده صحيح.

٣- إرادةُ النبي صلى الله عليه وسلم الانتقام من هذه القبيلة المعادية؛ وقد سبق لها أن حاربت مع المشركين، وأصبح من الضروري تأديبُها، وتشتيتُ جَمْعها، لاسيما وأن موقعها مهمٌّ وحسّاس أمنيّاً؛ إذ أنها في الطريق الرئيس المؤدي إلى مكة، ولذا كانت تُشَكِّل حاجزاً في وجه النفوذ الإسلامي على هذا الطريق.

٤- تأمينُ حركة المسلمين في طريقهم إلى مكة.

٥- قطعُ الطريق التجاري على مشركي قريش.

ثالثاً: قوات الطرفين وتَحَشُّدُهما ومَسيرُهما:

١- كانت قوّات المشركين جموعاً كثيرة من بني المصطلق، وممن أقنعوهم من الأعراب بقيادة الحارث بن أبي ضرار، وقد جهزوا سلاحاً كثيراً، وخيلاً، وهيأوا للمسير حتى وصلوا ماء المُرَيْسيع.

٢- ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أرسل بُرَيْدة بن الحُصَيْب الأسلمي عيناً عليهم، وهم لا يعرفونه، فوجدهم مغرورين، فسألوه عن نفسه، فطمأنهم أنه لما سمع بمسيرهم جاء إليهم ليأتيهم بقومه يشاركونهم في استئصال الإسلام، فسُرّوا بذلك، وعاد بريدة وأخبر النبي ﷺ خبر القوم،[١] فحشد النبي صلى الله عليه وسلم ألف رجل من المسلمين، ومعهم ثلاثون فرساً، وكان في القوم كبار الصحابة. وخرج من المدينة خَلْقٌ كثير من المنافقين لم يخرجوا سابقاً؛ ليس رغبة منهم في الجهاد، وإنما خرجوا طمَعاً في الغنائم، وحيث المسافة قريبة[٢].

٣- سار جيش المسلمين ليلاً حتى لا تُكْشَف حركته، وكان لواء المهاجرين لأبي بكر، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، ووصل الجيش إلى المريسيع، وكانت قد أمسكت دورية المسلمين الاستطلاعية جاسوساً من بني المصطلق على مسافة أربعة عشر ميلاً من المدينة.

---

(١) انظر الواقدي، المغازي، ١/٤٠٤-٤٠٥

(٢) انظر المرجع السابق، ١/٤٠٥

فقال له عمر: لَتَصْدُقَنَّ أو لأَضْرِبَنَّ عنقك، فاعترف، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فأجَّل البتّ في هذه القضية حتى يرى ما يصنع قومه؛ فإن أسلموا أسلم معهم، وإلا فهو على دين قومه، فأمر النبي ﷺ بضرب عنقه؛ لأنه محارب جاسوس، ورفض الإيمان بعد إقامة الحجة بدعوته إلى الإسلام. ولما علم بنو المصطلق بقتله خافوا خوفاً شديداً، وتفرق من كان معهم من جموع الأعراب، فانكشفوا وحْدَهم. وأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدعوهم إلى الإسلام، فأَبَوْا، فأمر النبي بأن يَشُدَّ المسلمون عليهم شدة واحدة؛ فما أفْلَت منهم أحد. وكان شعار المسلمين في هذه الغزوة"يا منصور أَمِتْ أَمِتْ،"[1] وكان لهذا الشعار وَقْعٌ جميل مُطَمْئِن في نفوس المجاهدين؛ يبشرهم أنهم منصورون، وأنه ليس لعدوهم إلا الموت، كما كان له وَقْعٌ شديد ومخيف في نفوس الأعداء، يرهبهم؛ فإنه ليس لهم عند المسلمين إلا القتل والموت.

رابعاً: نتائجها وآثارها:

١- تَشَتَّتَ جمع الأعداء، وقُتِل منهم عشرة، وأُسِر سائرهم من الرجال، ومعهم مائتان من النساء غير الذرية. وغنم المسلمون مواشيهم، وكانت كثيرة جداً بلغت ألْفَيْ بعير، وخمس آلاف شاة.[2] وقسّم النبي ﷺ السَّبْي من الرجال والغنائم بين المقاتلين، وجعل منها سهماً للصدقات على اليتامى والمساكين والضعفاء.

٢- كان في السبايا جُوَيْرِيَّة بنت الحارث ،زعيم بني المصطلق، وكانت من نصيب ثابت بن قيس وابن عم له، فدفعها ثابت لابن عَمِّه، فطلب منها تسع أواق ذهب ليُحَرِّرَها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تقول له: "يا رسول الله؛ إني إمرأة مسلمة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيدٌ قومه، أصابنا من الأمر

(١) من حديث سنان بن وبرة بإسناد حسن عن الطبراني في الأوسط والكبير، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد١٤٢/٦، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٨/٤

(٢) انظر الواقدي، المغازي، ١٤٠/١

ما قد علمتَ، ووقعتُ في سهم ثابت بن قيس بن الشماس وابن عم له، فتَخَلَّصَني من ابن عمِّه بنخلات له بالمدينة، فكاتَبَني على ما لا طاقة لي به، وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك صلى الله عليك، فأَعنّي في مكاتبتي."(١) فَرَقَّ النبي ﷺ لحالها، وأراد إكرامها؛ فهي بنت سيد قومها، فعرض عليها أن يدفع عنها ما كاتبها عليه ثابت ليحررها، وأن يتزوجها، فوافقت، فدفع عنها وحررها وتزوجها، وصارت من أمهات المؤمنين.

ولما علم المسلمون بذلك، ترك كثير منهم ما في أيديهم من الغنائم، وأعتقوا السبايا التي خرجت في أسهمهم؛ إكراماً لرسول الله ﷺ، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، حتى قالت عائشة:" فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها. "(٢)

٣- وقعت أحداث مثيرة وخطيرة في هذه الغزوة من رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول أظهرت نفاقه وحقده الفين على الإسلام ورسوله ﷺ. ولم يكتف بذلك بل أشا ع خبر الإفك في المدينة في طريق عودة السلمين من الغزوة،-كما سيعالج في وحدة قادمة منفصلة إن شاء الله تعالى.-

---

(١) من حديث عائشة في مسند أحمد، ٢٧٧/٦ وقال الساعاتي في الفتح الرباني: ١٠٩/١٤-١١٠ سنده جيد، والحاكم في المستدرك٢٦/٤، وابن هشام في السيرة النبوية، (مع الروض)، ٨/٤-٩، وقد صرح بسماعه ابن إسحق وسنده متصل، والواقدي في المغازي، ٤١١/١

(٢) المراجع السابقة.

المبحث الرابع

غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق

أولاً:تسمية الغزوة:

سميت غزوة الخندق نسبة الى الخندق الذي أشار به الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﵁ على رسول الله ﷺ ليمنع به من دخول المشركين المدينة.

وسميت غزوة الأحزاب نسبة الى الأعداء المهاجمين للمدينة؛ وهم قريش ومن تجمع معها وتحزب من القبائل العربية مجتمعة على حرب رسول الله ﷺ.

ثانياً: تاريخ الغزوة:

خرج المشركون في أواخر شهر شوال، وبدأ النبي ﷺ ومن معه يحفرون الخندق في بداية شهر ذي القعدة، واستمر حصار الأحزاب للمدينة شهراً، لسبعٍ بقين من شهر ذي القعدة في السنة الخامسة للهجرة[١]

ثالثاً:أسباب الغزوة وأهدافها:

أ- ساء قريشاً كما ساء اليهودَ الهدوءُ الذي تحقق في المدينة بعد تأديب الأعراب في غزوة بني المصطلق، وتأمين الجبهة الشمالية للجزيرة العربية بعد دومة الجندل، وبعد طرد يهود بني قينقاع وبني النضير-كما سيأتي في موضعه- قبل فترة وجيزة من السنة الخامسة للهجرة. وبذلك تحقق جوٌّ آمن لرسول الله ﷺ ، وللمسلمين ليتربَّوْا على كتاب ربهم وهدْي رسولهم، ويدافعوا عن شريعة الإسلام بالحجة والبرهان، ونشر دعوته بالكلمة

---

(١) بالجمع بين روايات ابن هشام ، حيث ذكر عن ابن إسحق بصيغة التحديث، ورجاله ثقات أنها في شوال سنة خمس، انظر ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)، ٢٥٨/٣، وعند الواقدي، ٤٤٠/٢ أن جيش المشركين خرج يوم الثلاثاء لثمان خلت من ذي القعدة، فحاصروه خمس عشرة ليلة، وانصرف يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس، وانظر ابن القيم ، زاد المعاد،٢٣٦/٣، ٢٣٩

والبيان، وبعد أن تضعضعت قريش بحيث إنها لم تعُد قادرة على الحرب وحدها؛ خشية من محمد ﷺ وجيشه.[1] كل هذه الأمور تجمعت لتصنع حقداً مشتركاً بين اليهود وقريش؛ فكانت سبباً من أسباب هذه الغزوة.

ب- ومن أسبابها أيضاً من جهة قريش إرادتها تحرير طرق تجارتها إلى الشام؛ وخصوصاً بعد غزوة أُحد، وفشلها في الخروج لتأمين هذه الطريق في ما زعمت أنها ستخرج لبدر الموعد أو بدر الآخرة، وظلت طرق تجارتها مهددة. ومعلوم أن التجارة عصب الحياة الاقتصادية لقريش. وقد نشطت سرايا المسلمين في هذه الطريق حتى محت آثار أحد في المدينة والبوادي[2].

ت- رغبة قريش في استئصال المسلمين، وقد توعّدوا يوم أُحد أن يخرجوا إليه في موسم بدر، فتحدّاهم رسول الله ﷺ، وخرج ولم يخرجوا. وأرادوا هذه المرة في الأحزاب أن يخرجوا ومعهم كل قبائل الشرك في الجزيرة مجتمعة على محاربة الإسلام في المدينة.

ث- خيانة يهود بني النضير الذين شتّتهم النبي ﷺ بسبب تآمرهم عليه،-كما سيأتي في موضعه- فذهب زعماء يهود ومنهم سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم ،وكنانة بن الربيع، وحُيَيّ بن أخطب من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهوذة بن قيس من الأوس، وأبو عامر الراهب-الفاسق-[3] إلى قريش وغَطَفان، وكان قائدهم عيينة بن حصن، وإلى سُلَيْم، وبني مُرَّة، وأَشْجَع، وسائر القبائل المشركة يُؤَلِّبونهم على قتال المسلمين، ويَعِدونهم أنهم سينقضون عهدهم مع محمد. كما أطمَعوا قبيلة غَطَفان بموسم كامل من تمر خيبر إذا

(١) انظر أبو زهرة، خاتم النبيين، ٢٩٣/٢

(٢) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٤١٨/٢ - ٤١٩

(٣)انظر ابن هشام ،السيرة، (مع الروض)، ٢٥٨/٣ بإسناد جيد ورواه ثقات وبصيغة التحديث عن ابن عباس،والواقدي، المغازي،٤٤١/٢ والطبراني في المعجم الكبير ٢٥١/١ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٧ عنه فيه يونس بن سليمان ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح..

أجابتهم لما يريدون.[1] وغريب جداً هذا التآمر ممن عُرِفوا بأهل الكتاب مع المشركين على الإسلام وأهله! إذ من المفروض عقلاً ألا يقف أهل الكتاب مع المشركين الوثنيين ضد من يؤمنون بالله، إن صدق أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله.بل فعلوا ما هو أسوأ من ذلك؛ فقد سأل المشركون هؤلاء النفر من زعماء اليهود:"يا معشر يهود! إنكم أهل الكتاب الأول(...) أفديننُا خير أم دينُه؟ قالوا: بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحق منه!"[2] فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ النساء: ٥١ – ٥٢.

ج- أما سببها من جهة المسلمين فهو: أن رسول الله ﷺ قد علم بخروج جيش الأحزاب نحو المدينة، وكانت قبيلة خزاعة قد أعلمته بخروج قريش خلال أربعة أيام من خروجها ؛[3]لما كان من خزاعة من حلف ببني المطلب قبل الإسلام، وكانوا ينصحونهم. وكان هدف المسلمين هو دفع العدوان الذي أحاط بالمدينة، حفاظاً على الإسلام ورسوله، وعلى هيبة المسلمين.

رابعاً:قوات الطرفين واستعداداتهما:

أ- قوات الأحزاب واستعداداتهم:

تحشَّدت قوات الأحزاب وقوامُها عشرة آلاف مقاتل؛ ستة آلاف منهم من قريش وأهل مكة يقودها أبو سفيان، وأربعة آلاف من قبائل غطفان وأشجع وبني سُلَيْم وأسد وفزارة،

---

(١) انظر، الواقدي، المغازي، ٤٤٣/٢، وعن سعد بن معاذ في رواية الطبراني، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٤٢/٦ رجاله ثقات.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٥٨/٣ -٢٥٩ ، رواه ابن إسحق بالتحديث، وسنده جيد، ورجاله ثقات، وانظر، الواقدي، ٤٤٢/٢، وانظر بقية تخريجه في، العلي، صحيح السيرة، ص ٢٦٥

(٣) انظر، الواقدي،المغازي،٤٤٤/٢

ويضاف إلى هذه القوات العدو الداخلي الماكر يهود بني قريظة في المدينة؛ لأنهم نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ. وكان لهذه القبائل ألوية بقيادة زعمائهم منهم: عُيَيْنَةُ بن حِصْنٍ الفِزاري. وكان أبو سفيان هو القائد الأعلى لقوات المشركين. وقد عسكرت هذه القوات في الجهة الشمالية للمدينة وهي المنطقة المفتوحة، فعسكرت غَطَفان إلى جانب جبال أُحد من جهتها الغربية، وعسكرت قريش في وادي العقيق، وأكملت سائر العساكر إحاطتها بالمدينة حتى باتت المدينة محاصرة تماماً.[(١)] وذكر ابراهيم العلي[(٢)] روايات تحدد منازل المشركين في الخندق من حديث عائشة رضي الله عنها قالت في تفسير قوله تعالى:﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ الأحزاب: ١٠ "قالت: كان ذاك يوم الخندق."[(٣)] وجاء حديث ابن عباس في تفسير الآية وعند ابن مردويه والحافظ ابن حجر في فتح الباري في تفسيرقوله تعالى﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال:عُيَيْنَة بن حصن،﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ قال:أبو سفيان بن حرب".[(٤)]كما بين ابن إسحق بسنده– وهو مصرح فيه بالتحديث، ورجاله ثقات–: أن قريشاً نزلت بمَجْمَع السُّيول في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة، ونزل عُيَيْنَة بن حِصن في غطَفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أُحد بباب نَعْمان.[(٥)]

ب– استعدادات المسلمين للحصار وقواتُهم:

---

(١)انظر الواقدي،المغازي، ٤٤٤/٢

(٢)العلي، ابراهيم، صحيح السيرة، ص٢١٩ -٢٧٠

(٣) البخاري،صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم، ٤١٠١ /٢١٠٢

(٤) ابن حجر فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ٤٤٠/٧

(٥) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٦١/٣ عن ابن إسحق بصيغة التحديث، وابن حجر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٤٥٠/٧، وابن القيم زاد المعاد، ٢٣٨/٣

١- الاستعلامات: وصلت أخبار الأحزاب ومسيرهم إلى رسول الله ﷺ عن طريق ركْب من خُزاعة،[١] وهي قبيلة مُحالِفة للرسول ﷺ ولبني المطلب قبل الإسلام، وقد وصل هذا الركب مسرعاً في أربعة أيام. ولما سمع النبي ﷺ منهم الخبر أرسل دورية استطلاع للأخبار مكونة من صحابيين هما: سُلَيْط، وسفيان بن عوف، فأمسك بهما المشركون، وقتلوهما، وأُتِيَ بهما للرسول ﷺ، فأمر بدفنهما في قبر واحد.[٢]

٢- استشارة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه: جمع رسول الله ﷺ أهل الرأي من زعماء المهاجرين والأنصار، وأخبرهم بمَسير الأحزاب: فما الرأي؟ هل يقاتلون داخل المدينة أم خارجها؟ ولا شك أن الرأي هذه المرة سَيُرَجِّح القتال داخل المدينة؛ لأن درس أُحد والقتال خارجها كان موجعاً، وما زال شاهداً، وذكرياته ما زالت مؤلمة للمسلمين. ولكن رأياً جديداً برز في التخطيط العسكري في ميدان القتال هذه المرة، وهو رأي سلمان الفارسي، إذ قال:" يا رسول الله: إنا إذا كنّا بأرض فارس، وتَخَوَّفْنا الخيلَ خَنْدَقْنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نُخَنْدِق؟ (أي أن نصنع خندقاً) فأُعْجِبَ رسول الله ﷺ برأي سلمان[٣] كما أُعْجِب به المسلمون؛ إذ لم يكونوا يعرفون هذه الخُطة في القتال؛ لأنها لم تكن معروفة لدى العرب سابقاً.

٣- حفر الخندق:

(١) الأمر بحفر الخندق: وحفْرُ الخندق يعني إقفال الجهة الشمالية الغربية الوحيدة المفتوحة للمدينة، وطول هذه المنطقة قد يتجاوز عشرين كيلو متراً. وحتى يمنع الخندق اختراق الخيل وقفزها قرر النبي ﷺ أن يكون طوله يزيد عن ألفي متر، وعرضه قرابة أربعة أمتار،

(١) انظر، المغازي للواقدي، ٤٤٤/٢ ، وإمتاع الإسماع للمقريزي، ٢١٩/١.

(٢) انظر، السيرة الحلبية، ٦٣٦/٢، أبو فارس، محمد، غزوة الأحزاب، ص ٩٤

(٣) الواقدي، المغازي، ٤٤٥/٢

وأن يتجاوز عمقه ثلاثة أمتار.(١) وبهذا يكون المسلمون قد فاجأوا المشركين بخطة عسكرية لا يعرفونها، ولا يستطيعون اختراقها؛ لأنهم لا يعرفون هذا النوع من الخُطط، ولا يعرفون عواقب اختراق هذا الخندق. وصدرت الأوامر فوراً بالحفر، وشارك في الحفر قرابة ألف من المهاجرين والأنصار، وكان نصيب كل عشرة رجال منهم أربعين ذراعاً، وقسّم النبي ﷺ عليهم العمل بينهم عشرات حتى أتموا حفْرَه في ستة أيام ممتدّاً ومتواصلاً من غرب المدينة–من عند مسجد الفتح حالياً– إلى منطقة ذُباب إلى جبل راتج في شمال غرب المدينة. وأصبح جبل سِلْعٍ خلف ظهور المسلمين يتحصنون به، فوقع الخندق في المنطقة الضعيفة التي كان يسهل دخول المشركين منها، وأما ما سوى موقع الخندق فكان محصّناً بجبل وبنيان يسكنه المهاجرون من منطقة ذُباب إلى راتج، وكان الأنصار من الجهة الأخرى يُحَصِّنون بِسَكَنِهم وبيوتهم ما بين ذُباب إلى منطقة خربى. وتحصنت المدينة من جهة الخندق بحراسة بني عبد الأشهل من جهة، وبحراسة بني دينار في الجهة الأخرى، وأمَّن المسلمون النساء والذراري والصبيان في الآطام–المناطق العليا في المدينة– وهي مناطق منيعة.(٢) وكان المفروض أن منطقة بني قريظة هي أضعف نقطة يمكن أن يأتي منها الخطر، إلا أن حمايتها وتأمينها كان مفروضاً على يهود بني قريظة؛ بناء على وثيقة المدينة الأولى التي عقدها معهم رسول الله ﷺ بعد الهجرة .

(٢) النبي يشارك المسلمين الحفر ويواسيهم ويصبّرهم: وقد شارك في حفر الخندق ما يزيد على ألف رجل من المسلمين، وكانوا في سرعة من أمرهم؛ لأنه سباق في زمن الإنجاز لتفويت الفرصة على المشركين. ولما رأى النبي ﷺ ما أصابهم أصحابه من التعب والجوع قال: "اللهم إن العيش عيش الآخرة– وفي رواية أخرى: اللهم لا خير إلا خير الآخرة–

---

(١) وقد وردت التقديرات في الروايت بالأذرع فحسبتها اجتهاداً وهي: كان طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة ، انظر العمري ، السيرة النبوية الصحيحة،٤٢١/٢، والذراع الشرعي: شبران من شبر الرجل العادي، أي بمتوسط أربعين الى خمسبن سنتمتراً.

(٢) الواقدي،المغازي بتصرف، ٤٥٠/٢- ٤٥١

فاغفر للأنصار والمهاجرة".[1]. وكان عليه الصلاة والسلام ينقل التراب مع أصحابه من الخندق حتى وارى التراب جلده . كما كان عليه الصلاة والسلام ينشد مع أصحابه وهم ينشدون؛ ليَحْفِز الهمم، ويمسح الألم، ويخفف التعب عليهم، وينشط سواعدهم، وكان من نشيدهم:

"اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنْزِلْ سكينةً علينا وثَبِّتْ الأقدام إن لاقَيْنا

إن الأُلى قد بغَوا علينا إذا أرادوا فتنة أبَيْنا"[2]

كما كان النبي ﷺ يواسي المسلمين ويدعو لهم. وكان المسلمون في غاية التعب والإرهاق والجوع، وهم يسابقون الزمن في سرعة إنجاز الحفر قبل أن يصل إليهم عدوهم ويدخل عليهم مدينتهم؛ حتى إذا ما كان يشكو أحدهم الجوع لرسول الله ﷺ ، وأنه ربط حجراً على وسطه ليسكت جوعه، رفع له النبي عن بطنه فوجده قد ربط حجرين على بطنه كذلك. وهكذا كان القائد يشارك شعبه تعبهم والعمل معهم، ويشاركهم جوعهم، ومع ذلك كانوا في غاية النشاط والجد، ويجدّدون العهد للرسول ﷺ، فينشدون:

" نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فيجيبهم رسول الله ﷺ، ويدعو لهم بقوله:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم ٤٠٩٩-٤١٠٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم ١٨٠٥، والساعاتي، الفتح الرباني، ٧٧/٢١

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رقم، ٤١٠٦ ، ٤٠١٨، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، رقم ١٨٠٣ ، ١٨٠٤، والفتح الرباني للساعاتي، ٧٧/٢١

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة."[1].

خامساً:من دلائل نبوته ﷺ في غزوة ألأحزاب:

أ- لما كان رسول الله يشارك المسلمين في حفر الخندق، اعترضتهم صخرة صلبة في طريق حفرهم، فعجزوا عنها، فجاء رسول الله ﷺ، فأخذ معْوَله،-أي فأسه- "وقال: بسم الله، فكسر ثُلثها، فقال: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأُبْصِر قصورها الحمراء، ثم ضرب الضربة الثانية، فقطع ثُلُثَها الآخر، فقال: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: ألله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر صنعاء من مكاني هذه الساعة."[2] فكان لهذه البشريات النبوية وقعها في نفوس المسلمين، وكانت قبسة أمل بالنصر في ظروف من الخوف والتعب والحصار.

ب- كان جابر بن عبد الله يحفر مع المسلمين في الخندق، فرأى رسول الله ﷺ وهو يعمل معهم جائعاً، فذهب إلى زوجته فقال لها: اصنعي طعاماً. فذبح جِدْياً، فَشَوَتْه زوجته في التنّور،-أي الفرن- وأخذت خبزاً، وجعلته ثريداً، ووضعت اللحم عليه، ودعا جابرﷺ رسول الله ﷺ إلى الطعام، وإذا بالرسولﷺ ينادي المهاجرين والأنصار من الذين كانوا يحفرون الخندق إلى بيت جابر، ففزعت امراته؛ إذ كيف لها أن تطعم هذا العدد الكبير من هذا الطعام القليل الذي أعَدَّته، وكل ما عندها ثريد خبز قليل، وجِديٌ صغير مشوي وضعته عليه؟! فأمرها النبي ﷺ :ألا تُخْرِجَ الخبز واللحم من التَّنّور، واصطفَّ المسلمون، وجعل النبي ﷺ يأخذ الخبز، ويضع لهم عليه من اللحم حتى شَبِعوا جميعاً، وبقي طعام كثير

(١) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم ٤٠٩٩، انظر نسخة فتح الباري ،٤٩٢/٧..

(٢) أحمد في المسند، ٣٠٣/٤ وحسنه ابن حجر في فتح الباري، ٣٩٧/٧ وله شاهد في البخاري، رقم (٤١٠١)، انظر البخاري بشرح فتح الباري، ٣٩٥/٧.

لأهل بيت جابر، وطلب منهم رسول الله ﷺ أن يهدوا الناس منه لكثرته.[١] وهذا الذي حصل كله من معجزاته ﷺ السية، أو من دلائل نُبُوَّته عليه الصلاة والسلام؛ إذ كثَّر الله الطعام ببركته.

ت- كما ثبت في الصحيح كذلك من دلائل نبوته ﷺ ما جعل من البركة في الطعام، أن بعض أصحابة كانوا يأتون بملء كف أحدهم من الشعير، فيصنع لهم منه بقليل من الدهن أو الزيت أو السمن، فتوضع بين يدي الصحابة الذين يحفرون الخندق مع كثرة عددهم وهم جياع رغم صعوبة أكلها، فيبارك الله بها لَتَسُدَّ رمقهم من الجوع.[٢] وذكر ابن اسحق -بصيغة التحديث- عن "سعيد بن مينا أن ابنةً لَبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير ، قد بعثت معها أمُّها عمرةُ بنت رواحة حفنة من التمر في ثوبها؛ لتطعمها أباها بشيراً، وخالَها عبدَ الله بن رواحة، فرآها النبي ﷺ وهي تبحث عنهما، فقال: تعالي يا بُنيَّة، ما هذا معك؟ قالت: يا رسول الله! هذا تمر بعَثَت به أمي إلى أبي بشيرٍ وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه. قال: هاتيه. قالت: فصَبَبْتُه في كفَّيْ رسول الله ﷺ فما ملأَتْهما، ثم أمر بثوبٍ فبُسِطَ له، ثم دحا بالتمر عليه، فتَبَدَّدَ فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق أن: هَلُمّوا إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه حتى صدر أهل الخندق عنه؛ وإنه ليسقط من أطراف الثوب".[٣] -أي من كثرته-.

سادساً:سَيْرُ أحداث الغزوة:

أ- قوات المسلمين: بدأت قوات المسلمين كبيرة جداً، فقد شارك في الحفر ما يزيد على ألف مهاجرٍ وأنصاريٍّ، وتجهَّز للقتال نحو ثلاثة آلاف في بداية الأمر[٤]، ولكن انسحب

(١) القصة في الصحيحين، البخاري، رقم٤١٠١، ومسلم، رقم، ٢٠٣٩

(٢) انظر الحديث بألفاظه في صحيح البخاري كما مر قبل قليل رقم، ٤٠٩٩-٤٠١٠٠ ، ومسلم رقم، ١٨٠٥

(٣) ابن هشام ،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٦٠/٣، والواقدي، المغازي عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع،٢ /٤٧٦

(٤) ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣/ ٢٦١، ابن القيم،،زاد المعاد، ٢٣٨/٣

المنافقون؛ يدّعون أن بيوتهم عورة أي أن تحصيناتها ضعيفة، وأنه يمكن أن يدخل الأحزاب من جهتهم، وتراجع بعضهم بسبب ما علموه من نقض يهود بني قريظة للعهد، وبقي ثمانمائة أو تسعمائة؛ يتبادلون الحراسة وأعمال الدوريات، حتى تجد الثلاثمائة في كل دورية. وقد جعلت القوات الإسلامية ظهرَها إلى جبل سِلْعٍ، وأخذت تحرس الخندق على امتداده حراسة قوية.كما كانت حراسات خاصة لخيمة القيادة، خيمة رسول الله ﷺ. وبذلك اكتملت تحصينات المسلمين بالخندق والدوريات المسلحة، وجمع الرسول ﷺ النساء والأطفال في بيوت قوية البنيان داخل المدينة، وبدأ الحصار. وكان شعار المسلمين(حم لا ينصرون.)[1] . وكان المشركون قد أحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمِعْصَم، وطوَّقوها بجموعهم الغفيرة، وقواتهم الضاربة.

ب- العمليات العسكرية: وقد كانت بعض العمليات العسكرية على مستوى دورياتٍ بين الطرفين أو محاولات اقتحام للخندق من قِبَل المشركين فيردّها المسلمون. كما كانت دوريات عسكرية خائنة من بني قريظة تُناوش المسلمين في أطراف المدينة فيردها المسلمون كذلك.

وقد ذكر ابن إسحق وابن سعد والواقدي روايات مفصلة، ولكن دون أسانيد أو مرسلة، أحسنها من حديث ابن عباس أنه:"قُتِل رجل من المشركين يوم الخندق، فطلبوا أن يواروه، فأبى رسول الله ﷺ حتى أعطوه الدية، وقُتِل من بني عامر بن لؤي عمْرُو بن عبد وُدّ، فقتله علي بن أبي طالب"[2] ومنها كذلك ما أورده إبراهيم العلي في صحيح السيرة من روايات وهي:[3]

(١) أخرجه أحمد في المسند، ٦٥/٤، ٢٨٩، ٣٧٧/٥، والترمذي في سننه، كتاب فضلئل الجهاد، باب ما جاء في في الشعار، رقم، ١٦٨٢، والحاكم في المستدرك، ١٠٧/٢ وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وانظر سائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة، ص٢٧٠

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، رقم١٨٠٣، قال الهيثمي في المجمع : رواه البزار والطبراني وفي رجالهما محمد بن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات. وانظر سائر الروايات في الأحداث في ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٦٣/٣ - ٢٦٤

(٣) العلي،صحيح السيرة ص ٢٧٤ - ٢٧٥

–   رواية سعد بن أبي وقاص يرمي رجلاً فيُضحِك النبي ﷺ: فمن حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:"لما كان يوم الخندق، ورجل يتَتَرَّس، جعل يقول بالتُّرس هكذا، فوضعه فوق أنفه، ثم يقول هكذا يُسْفِلُه بعدُ، قال: فأهْوَيْتُ إلى كنانتي، فأخرجت منها سهماً مُدمى، فوضعته في كبد القوس، فلما قال هكذا ،تسفل الترس، رميت، فما نسيت، وقع القدح على كذا وكذا من الترس، مال وسقط، فقال برجله هكذا، فضحك نبي الله ﷺ، أحسبه قال: حتى بدت نواجذه. قال:لِمَ فعل؟ قال: كَفِعل الرجل."[1]

–   إصابة سعد بن معاذ رضي الله عنه: فمن حديث عائشة رضي الله عنها قالت:" خرجت يوم الخندق أقْفوا آثار الناس قالت: فسمعت وئيد[2] الأرض ورائي –يعني حس الأرض–، قالت: فالتَفَتُّ فإذا بسعد بن معاذ، ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مِجَنَّهُ.[3] قالت: فجلست إلى الأرض، فمرَّ سعد وعليه درع حديد قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتَخَوَّف على أطراف سعد، قالت:وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، قالت :فمَّر وهو يرتجز ويقول:

لبث قليلاً يدرك الهيجا جَمَلُ   ما أحسن الموتَ إذا حان الأجل

قالت: فقُمْتُ فاقتحمتُ حديقةً فإذا فيها نفَر من المسلمين، وإذا فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة يعني –أن له مغفراً–،[4] فقال عمر: ما جاء بك؟ لعَمْري والله إنك لجريئة! وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تَحَوَّز؟[5]، قالت: فما زال يلومني حتى تمنيتُ أن الأرض انشقت ساعتئذ، فدخلتُ فيها. قالت: فرفع الرجل السَّبْغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد الله، فقال: يا عمر ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم! وأين (...)

(١) قال الهيثمي في المجمع،١٣٥/٦ – ١٣٦، رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة، وانظر كشف الأستار، ١٨٠٨، وانظر تخريج العلي، صحيح السيرة، ص ٢٧٤

(٢) وئيد:صوت شدة الوطء على الأرض يُسمعَ كالدوي من بعد.

(٣) المِجَنَّة: الترس

(٤) المِغْفَر:هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزَّرَد.

(٥) تحَوَّزَ:حرب أو أسر.

الفرار إلاّ إلى الله عزّ وجل. قالت: ويرمي سعداً رجلُ من المشركين من قريش يقال له ابن العرقة بسهم له، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكَحَله،[1] فقُطِعَ، فدعا اللهَ عز وجل سعدٌ، فقال: اللهم لا تُمتْني حتى تُقِرَّ عيني من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية. قالت: فرقى كَلْمَهُ،[2] وبعث الله عز وجل الريح على المشركين، فكفى الله عز وجل المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عُيَيْنَةُ بن حصن ومن معه بنجد."[3].

- محاولة فاشلة عند حصون النساء: من حديث رافع بن خديج ﷺ قال:"لم يكن حصن أحصن من حصن بني حارثة، فجعل النبي ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه، وقال: إن أَلَمَّ بِكُنَّ أحد فأَلْمِعْنَ بالسيف، فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان، أحد بني حشاش على فرس، حتى كان في أصل الحصن، ثم جعل يقول للنساء: انزلن إليّ خير لَكُنَّ، فَحَرَّكْنَ السيف، فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ، فابتدر الحصنَ قومٌ فيهم رجل من بني الحارثة يقال له ظهير بن رافع، فقال: يا نجدان! ابْرُزْ، فبرز إليه، فحمل على فرسه، فقتله، وأخذ رأسه، فذهب به إلى النبي ﷺ ."[4]

ت- يهود بني قريظة ينقضون عهد النبي ﷺ : كان رسول الله ﷺ قد عقد لليهود عهداً يقوم به بنو قريظة بالدفاع عن المدينة مع المسلمين، وقد كانوا يسكنون في أعالي المدينة، وقد حصَّن النبي ﷺ ومن معه المدينة من دخول الأحزاب من الجهة الشمالية، على أن يحمي بنو قريظة المدينة من جهتهم. ومع ذلك كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ولم

---

(١) الأكحل:عِرْق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ الدم.

(٢) الكَلْم :الجرح والكليم:الجريح، ورقى: تداوى بالرقية؛ وذلك بأن يقرأ على المريض بما ورد عن النبي ﷺ من القرآن والسنة بنية الشفاء بأمر الله تعالى.

(٣) قال الهيثمي في المجمع، ٦/ ١٣٦ – ١٣٨ رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات، وقال الساعاتي في الفتح الرباني، ٨١/٢١ – ٨٣ أورده الحافظ ابن كثير في تاريخه ثم قال هذا الحديث إسناده جيد، وله شواهد من وجوه كثير سيرة ابن كثير،٢٣٨/٣، انظر، تخريج العلي، صحيح السيرة، ص٢٧٥.

(٤) قال الهيثمي في المجمع،٦ / ١٣٣، رواه الطبراني ورجاله ثقات.

يكونوا صادقين ولا موفين بعهودهم؛ فكان منهم شغَبٌ قبل تآمرهم مع الأحزاب، إذ كان رسول الله ﷺ يتخوف على المسلمين خلال النهار والحصار الشديد، فكان يذهب مَنْ كان أهاليهم في قباء إليهم يتفقدونهم، ويطلب منهم أن يحملوا سلاحهم خوفاً عليهم من بني قريظة. وقد قامت دورية يهودية منهم بقيادة اليهودي القرظي نبّاش بن قيس برمي نفر من المسلمين بالنبال ساعة، واشتبك معهم المسلمون، وكانت بينهم جراحات، ثم رجع اليهود إلى حصنهم، ولم يعودوا لمثلها.[1] ثم جاء حُيَيٌّ بن أخطب زعيم بني النضير الذين طردهم النبي ﷺ من المدينة ليثأر لهم من المسلمين، فيقنع زعيم بني قريظة، كعْبَ بن أسد بنقض عهده مع الرسول ﷺ. ولما علم الرسول ﷺ أنهم نقضوا العهد بعث إليهم حواريّه الزبير بن العوام يستطلع خبرهم، فعاد فأخبره بأنهم يُصلِحون حصونهم، ويُدَرِّبُونَ طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم. وهذه دلالات واضحة على أنهم إنما كانوا يريدون أمراً، ويستعدون للخيانة. فدعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبد الله بن رواحة وأخبرهم، وبعثهم إليهم وفداً يُذَكِّرونهم بالعهد. فتَنَكَّر بنو قريظة، وأنكروا العهد. فعاد أصحاب رسول الله ﷺ يخبرونه أن يهود قد خانت. ولكن رسول الله ﷺ بعث الأمل في نفوس المسلمين، فقال:"الله أكبر أبشروا بنصر الله وعونه."[2]

ث- خيانة المنافقين ودورهم في بث الإشاعات والحرب النفسية في للمسلمين:

وأخذ المنافقون يُرَوِّجون الإشاعات، ويخوّفون المسلمين من عاقبة الحصار، فقال المنافق مُعتب بن قشير[3]: يَعِدُنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب فيقضي حاجته! ما وعدنا الله ورسوله إلى غروراً. ولما سمع النبي ﷺ بما يقوله المنافقون جدَّد بشراه للمؤمنين بالنصر، وإنه ليرجو من الله أن يطوف بالبيت

---

(١) انظر، الواقدي،المرجع السابق ٤٥١/١

(٢) مغازي الواقدي، ٤٥٩/٢ وانظر الرواية بتفاصيلها في ابن هشام،السيرة النبوية،(مع الروض)، ٢٦١/٣ -٢٦٢

(٣) ذكر هذا ابن اسحق في السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٦٢/٣ وخالفه ابن هشام أنه حدثه من يثق به من أهل العلم أن معتب بن قشير لم يكن منافقا، وأنه كان من أهل بدر.

العتيق قريباً، وأن يأخذ مفاتيح الكعبة،" وأن يهلك الله كسرى وقيصر، ولَيُنْفِقَنَّ أموالهم في سبيل الله."[1] وقد تكفل القرآن بتصوير حرب المنافقين النفسية للمسلمين في غزوة الأحزاب بإثارة الإشاعات، لضرب الروح المعنوية لديهم، بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الأحزاب: ١٢ ــ ٢٠

وكاد المنافقون بما اشتد البلاء، ونجم النفاق يؤثرون على بعض المسلمين: فاستأذن- مثلاً- بنو حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة، كما سجل القرآن قصتهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ

(١) الواقدي، المغازي، ٤٥٩/٢ - ٤٦٠

﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ الأحزاب: ١٣ "وهَمَّ بنو سلمة بالفشل، ثم ثبّت الله الطائفتين."[١]

ج- اشتداد الحصار على المسلمين: اشتد حصار الأحزاب للمدينة، وقد جُنَّ جنون أبي سفيان، حينما فوجئ بخُطة للقتال حصّنت المدينة تحصيناً تاماً، ولم يكن له ولا لقومه خبرة بقتال الخنادق. فبعث رسالةً للنبي ﷺ يقول له فيها:أَحْلفُ باللات والعزى وإساف ونائلة وهُبل،(أي أصنامهم) لقد سِرْتُ إليك أريد استئصالكم، فأراك قد اعتصمت بالخندق وكرهتَ لقاءنا، ولك منا يوم كيوم أُحد. فبعث له النبي ﷺ رداً يجيب على استفزازاته وغيظه منه بقوله ﷺ:قد أتانا كتابك، وقديماً غرَّك يا أحمقَ بني غالب وسفيهَهم بالله الغرور، وسَيحول الله بينك وبين ما تريد، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعُزّى وإسافاً ونائلة وهُبل، يا سفيه بني غالب![٢]

أخذ أبو سفيان وقواته تدور حول الخندق، بحثاً عن نقطة ضعف لاختراقه، فلا يجدون المسلمين إلّا ويقفون من داخل الخندق يرشقونهم بالنَبْل، ويرمونهم بالحجارة التي استخرجوها من الحفريات. وحاولت مفرزة من جنودهم بقيادة عمرو بن وُدٍّ وعكرمة بن أبي جهل أن تقتحم منطقة ضيقة من الخندق، فتصدّى لهم علي بن أبي طالب ﷺ فقتل عليٌّ عمْرَو بن وُدٍّ، وانهزم الباقون. وكان رسول الله ﷺ يحرس بنفسه نقطة ضعيفة في الخندق، ومعه كبار الصحابة وشجعانهم من المهاجرين والأنصار؛ يحرسونه ﷺ حراسة شديدة ودقيقة. وكان من حُرّاسه سعد بن أبي وقاص وعياد بن بِشْر[٣] رضي الله عنهما. وكان من كثرة إشغال الكفار للمسلمين بدورياتهم أنهم شغلوا رسول الله ﷺ والمسلمين

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ٢٣٨/٣ ــ ٢٣٩ وحققه محقق الكتاب فقال، حسن الإسناد، أخرجه أحمد في مسنده ٥ / ١٦٦١٥ ، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد رقم ٢٥٩٧، والترمذي في سننه رقم ١٦٨٢ والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٨٨٦١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥١٢ وابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، ٣ / ٢٦٢

(٢) انظر،السيرة الحلبية ٢/ ٦٥٧. وإمتاع الأسماع للمقريزي١/ ٢٣٩ والواقدي، المغازي، ٤٩٢/٢ - ٤٩٣

(٣) انظر الواقدي، المغازي ٣/ ٤٦٦ -٤٦٨

عن صلاة العصر، ففي حديث عليٍّ ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال:"ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس.[١]

وقد نظم النبي ﷺ جنوده في حراسات مستمرة متناوبة؛ لأن مدة الحصار طالت على المسلمين، ولا تكاد تهدأ الأحداث والمناوشات والتراشق بالنبال؛ حتى لا يقتحم المشركون -رغم محاولاتهم المستمرة- الخندق. وقد أصاب المشركون سعد بن معاذ بسهم فجرح جرحاً شديداً.

وكان عليه الصلاة والسلام مُنْتَبِهاً جداً لإمكانية غدر اليهود، حيث كانت له حراسات ودوريات لحماية المدينة؛ فقد دخلت دورية يهودية من عشرة أفراد المدينة ليلاً حتى وصلت البقيع، فتراشقوا النبال مع دورية للمسلمين وهرب اليهود، وطاردهم المسلمون حتى دخلوا حصونهم.

وقد استشار الرسول ﷺ الأنصار في فكِّ الحصار عن المدينة حتى يشق صفَّ الأحزاب؛ وذلك بعرضه على قائد قبيلة غطفان- عُيَيْنَة بن حصن- أن يرجع عن قتال المسلمين مُقابل ثلث ثمار المدينة. فغضب الأنصار من هذا العرض، وعرفوا أن النبي ﷺ قد أراد بهذا العرض أن يخفف عليهم حصار الأحزاب، فلم يوافقوا على هذا العرض، وأشاروا على رسول الله ﷺ في قمة الرجولة والشجاعة، وفي غاية الأدب معه ﷺ بغير ذلك، وقالوا:"يا رسول الله! كُنّا وهؤلاء على الشِّرك، لا يطمعون أن يأكلوا منّا تمرة إلا قِرى، (أي طعام ضيف) أو بيعاً. فالآن وقد أعزنا الله بك! والله لا نعطيهم إلا السيف. فَسُرَّ النبي ﷺ لرأيهم."[٢]وبعث الى غطفان أنه قد تراجع عن العرض، فافعلوا ما بدا لكم.

(١) النسائي، السنن، ٢/ ١٧ ، وأحمد في المسند، ٣ /٢٥ واسناده صحيح.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣ /٢٦٢ والحديث حسن ورد بصيغة التحديث عن ابن إسحق، وفي رواية عند البزار والطبراني كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٣٢/٦، والواقدي، المغازي، ٤٧٧/٢ – ٤٨٠ رواية الزهري عن سعيد بن المسيب.

ح- الحرب خُدْعَة:[1] وأثناء هذا الحصار الشديد على المسلمين، كما هو أيضاً شديد على الأحزاب؛ لأنه طالت غيبتهم، فقد خرجوا منذ شهر من مكة، وكلما زادت الأيام نقص تموينهم وأرزاقهم، وتسرب اليأس إلى نفوس جيشهم، وتحطمت معنوياته، وتناقصت قدراته على الثبات في أرض المعركة، وفي غير أرضه، وبعيداً عن موطنه، والمدينة يزداد تحصينها يوماً بعد يوم، والمسلمون مصممون على حماية دينهم ونبيهم ومدينتهم، وهو متحصِّنون في مدينتهم، وعندهم تموينهم، وهم يتناوبون في الحراسة، ويمكنهم تنظيم ساعات راحتهم وتعبهم، واليهود جبناء وأضعف من أن يُوَفّوا لهم بعهدهم، فقد جَبُنوا، واختبأوا في حصونهم.أثناء هذه الظروف كلها، وإذا بنُعَيْم بن مسعودﷺ، وكان قد أسلم سراً، لا يعرف أحد بإسلامه بعدُ، وممن خرج مع عُيينة بن حصن، يأتي إلى النبي ﷺ، ويعرض عليه أن يُخذّل عنه. فقال له النبي ﷺ: خَذِّل عنا؛ فإن الحرب خُدعة. فذهب نُعَيْم فوراً إلى يهود بني قريظة، وكان صديقاً حميماً لهم، يأكل ويشرب عندهم، وكان موضع ثقتهم. وقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليست مثلكم، فقد طال الحصار وتضايقوا، فإذا ما غادروا بلادهم؛ فسينتقم منكم محمد وأصحابه، ولذا؛ فاطلبوا منهم رهناً حتى تقاتلوا معهم، ولا تقبلوا الرهن إلا رجالاً من أشرافهم. وطلب منهم أن يكتموا خبره. وذهب إلى قريش بناءً على أنه رجل معروف من غطفان، ويريد نصيحتهم، فقال :علمتُ أن بني قريظة ندموا على نقضهم العهد مع محمد، ووعدوه حتى يرضى عنهم أن يُسَلِّموه أشرافاً من رجالات قريش فيقتلهم. ثم ذهب إلى غطفان وأخبرهم كذلك بمثل ما أخبر به قريشاً. وعاد إلى يهود يشددّ عليهم ويخبرهم أن جواب قريش يوم أن أرسلت إليها بنو قريظة بطلب الرهائن، أنها لا يمكن أن تأمن اليهود. وبالتالي زرع نُعَيْم ﷺ الفساد بين اليهود والأحزاب.

---

(١) انظر القصة بالتفصيل في السيرة النبوية لابن هشام، (مع الروض)،٣ /٢٦٥ ــ ٢٦٦ و الواقدي، المغازي، ٤٨٠/٢ -٤٨٧ ،وابن حجر، فتح الباري، ٤٠٢/٧

وكانت الأحداث والحوارات تجري بين الأطراف تؤكد صدق ما قاله نُعَيْم لدى كل طرف[1].

خ- الهزيمة الكبرى للأحزاب: بعد كل ما جرى من أحداث ميدانية، وتراكمات نفسية، وطول حصار، وإرهاق لجيوش الأحزاب، تراكمت مجموعة عوامل الهزيمة التي لا مفر منها للأحزاب بزعامة قريش على النحو الآتي:

١- أثر خطة نعيم: نفد صبر قريش وسائر الأحزاب، وقرروا أن يُنهوا هذا الحصار بالهجوم الشامل على المدينة، ولكنهم شكّوا في أن قريظة التي أوهمتهم وخدعتهم في أنها ستكون اليد القوية الغادرة بالإسلام، فبعثوا لبني قريظة وفداً ليلة السبت، وقالوا لهم: لقد لقينا من البلاء وطول الانتظار والحصار دون جدوى ما لقينا، هلكَت جمالُنا، وخيولُنا، وتعب جنودنا، وأنتم مرتاحون في حصونكم، وقد آن الأوان أن تقفوا معنا حتى نقاتل محمداً، وننتهي من استئصاله. فأجابهم اليهود، بأننا لا نقاتل يوم السبت؛ فهو يوم مقدس عندنا، وقد أحدث فيه قوم منا سابقاً فمسخهم الله تعالى. كما أننا لا يمكن أن نقاتل حتى نأمن جانبكم بألا تعودوا عنا وتخذلونا، وذلك؛ بأن تعطونا رهناً من أشرافكم. فتأكّدت قريش والأحزاب من كلام نُعَيْم بن مسعود، وقالوا لبني قريظة: والله لا نعطيكم رجلاً واحداً. ودبَّت الفرقة بينهم، وتخلخل موقف الأحزاب[2].

٢- دعاء النبي ﷺ على الأحزاب: وأخذ رسول الله ﷺ يقوم الليل، ويدعو في صلواته وخارجها أن ينصر الله دينه، وأن يهزم عدوه، وكان من دعائه ﷺ:" اللهم مُنْزِلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم."[3] وكان من دعائه أيضاً:" لا

---

(١) انظر ابن هشام السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣/ ٢٦٥ ، وابن القيم ، زاد المعاد، ٢٣٩/٣- ٢٤٠، الواقدي، المغازي ٤٨٠/٢ - ٤٨٢

(٢) انظر الخبر بتمامه في في ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٦٥/٣ – ٢٦٦، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، رقم، ١٧٨٨ وانظر الواقدي، المغازي، ٤٨٧/٢ بتفاصيل كثيرة.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤١١٥ ٤٠٦/٧ ومسلم، كتاب الجهاد، رقم ١٧٤٢ والواقدي، المغازي، ٢/ ٤٨٧

اله إلا الله وحده، أعزَّ جُنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء قبله ولاشيء بعده."(١) ومن دعائه كذلك:" اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبد."(٢)

وهكذا يكون للدعاء أثره، فإذا كانت الخطط العسكرية من عوامل النصر، فإن الدعاء سبب من أسبابه كذلك ؛ لأنه عبادة واتصال بالله تعالى الذي بيده نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين.

٣- ريح شديدة وهزيمة الأحزاب وانسحابهم: ولقد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ على الأحزاب بعد الأخذ بالأسباب. وكان حصار المسلمين شديداً كما وصفه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بقوله:" لقد رأيتنا في الخندق مع رسول الله ﷺ في ليلة شديدة البرد، وقد اجتمع علينا البرد والجوع، فقال رسول الله ﷺ :مَن رجلٌ ينظر لَنا ما فعل القومُ؟ جعَله الله رفيقي في الجنّة. فقال حُذيفة:يشرط له رسولُ الله ﷺ الجنة والرجوع، فما قام منّا رجلٌ! ثم عاد يقول ذلك ثلاث مرات، وما قام رجل واحد من شدة الجوع والقَرِّ (أي البرد) والخوف. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك لا يقوم أحد، دعاني فقال: يا حذيفة ! قال: فلم أجد بُدّاً من القيام حين فَوّه باسمي، فجئتُه ولَقَلْبي وَجْبانٌ في صدري، فقال: تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم؟! فقلت: لا، والذي بعَثَك بالحقّ، إن قدرتُ على ما بي من الجوع والبرد. فقال: اذهب فانظر ما فعل القوم، ولا ترمينَّ بسهم ولا بحجر، ولا تطعن برمح، ولا تضربنّ بسيف حتى ترجع إليّ. فقلت: يا رسول الله ، ما بي يقتلوني، ولكنّي أخاف أن يمثّلوا بي. قال رسول الله ﷺ: ليس عليك بأس. فعرفتُ أنه لا بأس عليّ مع كلام رسول الله ﷺ الأول. ثم قال: اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يقولون. فلمّا ولّى حذيفة قال رسول الله ﷺ :اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته. فدخل عسكرهم فإذا هم يصطلون على نيرانهم؛ وإنَّ الريح تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرّ لهم

(١) صحيح البخاري، رقم ١٤١٤، ومسلم رقم ٢٧٢٤

(٢) البيهقي، دلائل النبوة، ٤٠٣/٣ -٤٠٤ ،الواقدي، المغازي، ٢/ ٤٧٧

قراراً ولا بِناء. فأقبلتُ فجلستُ على نار مع قوم، فقام أبو سفيان فقال: احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجل جليسَه. قال، فالتَفَتُّ إلى عمرو بن العاص، فقلتُ: من أنت؟ وهو عن يميني. فقال: عمرو بن العاص، والتفتُّ إلى معاوية بن أبي سُفيان، فقلتُ: مَن أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان. ثم قال أبو سفيان: إنكم والله لستم بدار مُقام؛ لقد هلك الخُفُّ والكُراع، وأجدب الجَناب، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغَنَا عنهم الذي نكره، وقد لقينا من الريح ما ترونْ! والله، ما يثبتُ لنا بناءٌ، ولا تطمئنَّ لنا قِدْر، فارتحلوا فإني مُرتحل. وقام أبو سفيان، وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلاّ بعد ما قام. ولولا عهْد رسول الله ﷺ إليّ:" لا تُحدثِ شيئاً حتى تأتي" ثَمَّ شئت، لقَتَلْتُه.فناداه عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم، تقشع وتترك الناس؟! فاستحيى أبو سفيان، فأناخ جمله ونزل عنه، وأخذ بزمامه وهو يقوده، وقال: ارحلوا! قال: فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خفّ العسكر، ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لا بدّ لي ولك أن نُقيم في جريدة[1] من خيلٍ بإزاء محمد وأصحابه، فإنّا لا نأمن أن نُطْلَب حتى ينفذ العسكر. فقال عمرو: أنا أقيم. وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضاً أقيم. فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلاّ هذه الجريدة على متون الخيل."[2]

وهكذا هُزِم جيش قريش بقيادة أبي سفيان، وتبعته في الهزيمة جيوش الأحزاب هاربة مدحورة؛ فقد "ذهب حذيفة إلى غطفان فوجدهم قد ارتحلوا، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره. وأقامت الخيل حتى كان السَحَر، ثم مضوا فلحقوا الأثقال والعسكر مع ارتفاع النهار بملل، فغدوا إلى السَّيّالة. وكانت غطفان لما ارتحلت وقف مسعود بن رُخَيْلَة في خيل

---

(١) هي التي جردت من معظم الخيل لوجه.(أساس البلاغة، ص١١٦)

(٢) الواقدي،المغازي،٤٨٨/٢ -٤٩٠، وذكر مسلم في صحيحه ١٤١٤/٣ -١٤١٥ رواية حذيفة بن اليمان مختصرة في كتاب الجهاد، باب غزو الأحزاب رقم ١٧٨٨، وعند أحمد في المسند رواية أكثر تفصيلاً وأقرب إلى رواية الواقدي في المغازي، ٣٩٢/٥ -٣٩٣ ووافق الذهبي على تصحيح رواية الحاكم في المستدرك ٣١/٣ وانظر بقية التخريج العلي،صحيح،السيرة ص٢٧٩

من أصحابه، ووقف الحارث بن عوف في خيل من أصحابه، ووقف فرسان من بني سُلَيْم في أصحابهم، ثم تحملوا جميعاً في طريق واحدة، وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المراض[١]، ثم تفرّقت كلُ قبيلة إلى محالِّها(...) وفي رواية أنه :"لما انصرف عمرو بن العاص قال: قد علم كلُّ ذي عقلٍ أنَّ محمداً لم يكذب. فقال عكرِمَة بن أبي جهل: أنت أحقُّ الناس ألاّ يقولَ هذا. قال عمرو: لِمَ ؟ قال: لأنه نزل على شرف أبيك وقَتَل سيّد قومك. ويقال: الذي تكلم به خالد بن الوليد، ولا ندري، لعلهما قد تكلما بذلك جميعاً. قال خالد بن الوليد: قد علم كلُّ حليم أنّ محمداً لم يكذب قط. قال أبو سفيان بن حرب: إن أحقّ الناس الاّ يقول هذا أنت. قال: ولم ؟ قال : نزل على شرف أبيك، وقتل سيّد قومك أبا جهل."[٢].

ولقد فرح المسلمون بهذه النتيجة من رحيل الأحزاب مدحورين منهزمين، وبما كفاهم الله شر القتال؛ فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال:" فلمّا أصبح رسولُ الله ﷺ بالخندق أصبح وليس بحضرته أحد من العساكر، قد هربوا وذهبوا. وجاءَ رسولَ الله ﷺ الثَّبْتُ أنهم انقشعوا إلى بلادهم، ولما أصبحوا أذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الإنصراف إلى منازلهم، فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك. وكَره رسول الله ﷺ أن تعلم بنو قريظة رجعتهم إلى منازلهم، فأمر بردّهم، وبعثَ من يُنادى في أثرهم، فما رجع رجلٌ واحد، فكان ممّن يردهم عبد الله بن عمر، أمره رسول الله ﷺ. قال عبد الله: فجعلت أصيح في أثرهم في كل ناحية: إنّ رسولَ الله أمركم أن ترجعوا، فما رجع رجلٌ واحدٌ منهم من القَرّ والجوع. فكان يقول: كره رسول الله ﷺ يرى سرعتهم، وكره أن يكون لقريش عيون. قال جابر بن عبد الله: أمرني رسول الله ﷺ أن أردّهم، فجعلت أصيح بهم فما يرجع أحد، فانطلقت في أثر بني حارثة، فوالله ما أدركتهم حتى دخلوا بيوتهم، ولقد صِحْتُ فما يخرج إليّ أحدٌ من جَهد

(١)المراض، موضع بناحية الطرف على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة المنورة، (وفاء الوفا)، ج٢ ص ٣٧٠

(٢)الواقدي، المغازي، ٢/٤٩٠ - ٤٩١

الجوع والقرّ، فرجعت إلى النبيّ ﷺ فألقاه في بني حرام منصرفاً، فأخبرتُه، فضحك رسول الله ﷺ"(١). وكان من تعليق النبي ﷺ على هذه النهاية قوله:"لا يغزونكم بعدها أبداً، ولكن نغزوهم. "(٢) وفي رواية البخاري: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم."(٣)

سابعاً: من دروس غزوة الخندق وعبرها:

أ- لقد كان للقيادة الحازمة وللشورى أثر كبير في توجيه المعركة وكسب النصر، فرسول الله ﷺ أخذ برأي سلمان الفارسي في خطة عسكرية جديدة، مما يؤكد حرص المسلمين على إدخال كل جديد نافع في حياتهم، فالحكمة ضالة المؤمن. كما أخذ برأي أصحابه بعدم معاهدة عُيَيْنَةَ بن حصن على أن يعودوا ولهم بعض ثمار المدينة.

ب- ضرب النبي ﷺ المثل الأعلى للقائد الذي يشارك المسلمين أعمالهم فحفر معهم في الخندق، وعاش معهم شظَف العيش من الجوع والتعب، وشاركهم في حماية الخندق وحراسته، واشترك معهم في كثير من عمليات المناوشة والقتال، كما حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية في المدينة بتحصين النساء والذراراي وحراستهم.

ت- كان حرص جنود المسلمين كبيراً على قائدهم رسول الله ﷺ ، وكانت حراسةٌ مشددة دائماً حوله عليه الصلاة والسلام.

ث- إن للدعاء أثره الكبير في النصر، فما ترك النبي ﷺ الدعاء يوماً في سلم أو حرب. كما كان يقوم الليل؛ لأن الصلة بالله تعالى من أوثق عوامل النصر. وعلّمنا النبي ﷺ درساً وهو: أن المسلمين إذا أخلصوا لربهم وعملوا بالأسباب في حدود طاقاتهم، ولجأوا إلى الله مخلصين لله في نياتهم، نصرهم الله تعالى، وسخّر جنوده لهم في صراعهم مع عدوِّهم؛ فإذا

---

(١)المرجع السابق ٢/٤٩١ -٤٩٢

(٢)كشف الأستار، ١٨١٠ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ / ١٣٩ رواه البزار ورجاله ثقات، وعلق الحافظ ابن حجر في فتح الباري٧/٤٠٥ بقوله :إسناده حسن.

(٣)صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، ٧ /٤٠٥ رقم (٤١٠٩ ، ٤١١٠)

ما سخّر ملائكته جنوداً فقاتلت معهم في بدر، فقد سخّر لهم في الخندق جنده من الريح التي قلب الله بها موازين القوى؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ المدثر: ٣١. ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:" أتت الصَّبا الشمالَ (أي أتت الريح المسماة ريح الصبا إلى الريح المسماة ريح الشمال) ليلة الأحزاب فقالت: مُرّي حتى ننصر رسول الله ﷺ ، فقالت الشمالُ: إن الحرّة لا تسري بالليل، فكانت الريح التي نصر الله بها رسول الله ﷺ الصبا"(١).

ج- جواز الاستعانة بخطط الخديعة للعدو، وإيهامه بخلاف الحقائق؛ فإن الحرب خُدعة. وذلك واضح في خطة نُعَيْم بن مسعود التي وافقه النبي ﷺ عليها بالايقاع بين المشركين وبين يهود بني قريظة عندما علم المسلمون بأن اليهود نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ. وفيها أيضاً المبادرة الفردية لخدمة الإسلام، وهو ما كان من مبادرة نُعيْم رضي الله عنه بكيفية نصرة دين الله عز وجل.

ح- كما يظهر انضباط الجندي وشجاعته والتزامه الأمر؛ مما ظهر في انضباط حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ في الليلة الباردة في المهَمَّة الخطيرة في استطلاع خبر الأحزاب، والدخول الخَطِر في عمق الجيش المشرك ومعرفة خبره. ويظهر ذكاؤه رضي الله عنه عنه حين كاد يُكتَشَف أمره؛ حيث أمر أبو سفيان بالاحتياط قبل اتخاذ قراره بإعلان الانسحاب، فيسأل كل واحد جاره عن اسمه، فبادر حذيفة فوراً بسؤال جواره عن أسمائهم وأشغلهم حتى يكون هو السائل ولا يكون هو المسؤول عن اسمه فينكشف أمره.

خ- أظهر النبي ﷺ مرونته السياسية في تقدير الظروف الصعبة من الحصار المفروض على المدينة من جيوش الأحزاب؛ مما يعد درساً للمسلمين إلى قيام الساعة، وذلك بدراسة

---

(١) رواه البزار في كشف الاستار ١٨١١ مرسلاً، ووصله رجل ثقة من أهل البصرة، وقال الهيثمي في المجمع١٣٤٩/٦: رجاله رجال الصحيح. ورد في صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا رقم ١٠٣٥ ، ومسلم ، كتاب الاستسقاء، باب في الصبا والدبور حديث رقم٩٠٠: "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور."

ظروف القوة وتفاوتها بين المسلمين وأعدائهم، وأنه مع ثباته على المباديء لا يمنعه ذلك من تخفيف الوطأة على المسلمين ليبذل من أمور دنيوية وليس دينية؛ وكان ذلك بما حاول به التخفيف من ضغط الأحزاب في حصار المدينة، وليشق صف الأحزاب بأن استغل الطمع المادي الذي يعمر نفوس غطفان، ففاوضهم على إعطائهم نصيباً سنوياً من تمر المدينة ليعودوا ويتركوا القتال. وهي وإن كانت خطة سياسية، فإنها خطة عسكرية بتمزيق صف الأحزاب. وهذه الخطوة وإن لم تتمَّ ولم تكتمل بسبب موقف زعماء الأوس والخزرج منها، واستجابة النبي ﷺ لهم بالعودة عنها، لكنها تمثل درساً وحنكة، وأمراً مشروعاً في السياسة الشرعية ضمن الضوابط الإيمانية والعقدية، والثوابت الإسلامية، وفيها ما فيها من إعمال مبدأ الشورى واحترام نتائجها.

د- ظهرت في هذه الغزوة طبيعة يهود في عدم احترام العهود والمواثيق، وأنهم في أعماقهم يحقدون على الحق، وأنهم إذا قبلوا معاهدة فهم مُرغَمون بسبب خوفهم وجبنهم وضعفهم، وأنهم إذا لاحت له أدنى فرصة فإنهم يتنكرون للعهود والمواثيق، ويرجعون عنها، وأنه لا يؤمن جانبهم حتى مهما بلغ المسلمون من معاملتهم معاملة طيبة كأهل كتاب، ومهما حفظوا لهم حقوقهم. وهذا واضح جداً مما فعلوا في اتفاقهم مع الأحزاب المشركة على الغدر والخيانة لرسول الله ﷺ وللمسلمين.

ذ- إن ما قاله حذيفة بن اليمان أنه رغم شدة البرد والريح الباردة الشديدة والتعب والإرهاق والخوف والجوع بسبب الحصار، والذي كان سبباً في بيان ضعف أصحاب النبي ﷺ رغم قوة إيمانهم حيث لم يُجِب رجل منهم النبي ﷺ وهو يناديهم ويقول: من رجل يأتيني، حتى ندب رسول الله حذيفة بن اليمان ﷺ ، وهو الذي أصبح أمين سره ﷺ، فما كان منه إلا نهض واستجاب رغم كل هذه الظروف، ويشعر حذيفة بنعمة ربه عليه من إمداده بكرامة شعر فيها أنه كان في حالة نشيطة رغم البرد الشديد، فذهب وعاد وكأنه

في حمّام كما ذكر ذلك بنفسه، أي لم يصبه برد رغم قساوة البرد وشدته آنذاك، "ولا شك أن هذه كرامة يمنّ الله بها على عباده المؤمنين"[(١)] .

ر- إن الرسالة التي أرسل بها أبوسفيان الى النبي ﷺ في آخر حلقات هذه الغزوة لتنبئ في تحليل مضمونها عن يأس وإحباط عميقين ملآ نفوس المشركين وقد عَزَوْه إلى أثر خارجي، وهو خطة الدفاع الجديدة بحفر الخندق مما لا يعرفه العرب آنذاك، وتفاجأوا بها، وليس لديهم خبرة بالتغلب عليها، وفسّروها بأن النبي ﷺ كره لقاءهم فجعل مضايق وخنادق في طريقهم، وهم بهذا يُسَلّون أنفسهم ويواسونها، محاولين تماسك الأعصاب لما أصابهم من هزيمة لم يدركوا سرها، وأنها كانت أكبر من العوامل المادية في المعركة التي كانوا دائماً يعوّلون عليها في كونهم أكثر عدداً في جيوشهم من المسلمين وأكثر عدة في وسائل القتال. ولم يتّعظوا من غزواتهم السابقة في بدر وفي أحد، وأنها لم تغن عنهم كثرة عددهم وكثرة أسلحتهم من الله شيئاً، وأن السرّ في النصر هو أكبر من ذلك وأعظم؛ وهو أن المسلمين مع الله تعالى، وبالتالي فإن الله معهم، وهو وليُّهم وناصرهم، وأن المشركين مع الطاغوت، وأن وليهم الشيطان، ومن كان وليُّه الشيطان فلا ناصر له. ولم يتّعظوا بدعاء قائدهم السابق وزعيمهم المرموق،أبي جهل، والذي كان غارقاً في جاهليته وفي عدائه للإسلام حين ذهب إلى الكعبة يطوف بها وهو خارج إلى معركة بدر يدعو الرب هناك قائلاً: اللهم إن كنا نحارب محمداً فنحن عليه قادرون، وإن كان محمد معك، وكنا نحاربك فليس لأحد على الله من طاقة. ولكن القوم لا يتعظون.

ز- أما رسالة رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان؛ فتدل على ثقة ويقين بنصر الله لدينه، وأن الله لن يُمَكِّن قريشاً من استئصال الإسلام وأهله؛ فدين الله أقوى من كفرهم، ورسول الله أقوى من زعمائهم، والمسلمون عند الله أشرف من كفارهم، وأنه لا بد أن يأتي اليوم

(١) الصَّلابي، علي محمد، السيرة النبوية، ط١،دار النشر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص٦٢٦

الذي تُكسر فيه أصنامهم وتُنْسى، ويزول فيه طغيانهم ويُمْحى، وهم ينتظرون نهايتهم ونهاية كفرهم على يد رسوله ﷺ وأيدي المؤمنين بإذن الله تعالى.

س- كما أظهرت غزوة الخندق أن أهل الباطل متفرق جمعهم وإن كثر؛ فقد اجتمعت الأحزاب من قبائل العرب مع قريش زعيمتهم، ولكن لم تكن لديهم وَحدة نية، ولا وَحدة هدف ؛ فبعضهم كان يريد مصالح مادية وغنائم من المدينة، وبعضهم كان يريد القتال انتقاماً من المسلمين، بدليل أن غطفان قد مالت إلى التصالح مع المسلمين، والعودة عن القتال مقابل حصة من ثمار المدينة. كما ثارت خلافات واضحة بين الأحزاب ويهود بني قريظة، ولم يكن يأمن بعضهم بعضاً، حتى انطلت عليهم خديعة نُعَيْم بن مسعود رضي الله عنه، فشكَّ كل فريق في الآخر، وبذلك تفرق الجمع وانهزموا، ونصر الله المسلمين؛ إذ كانوا على عقيدة توحيد، وعلى نية خالصة لله وحده، كما كانوا يريدون مرضاة ربهم سبحانه، وكانوا لا يريدون الدنيا ومصالحها المادية، بل كانوا يريدون الآخرة بما فيها من النعيم المقيم في الجنة. كمانوا أيضاً على قلب رجل واحد، وهو رسول الله ﷺ. وبالتالي كانت أمتهم واحدة، إذ كان يومها أوسهم وخزرجهم -وهم الأنصار- والمهاجرون معهم صفّاً واحداً؛ فأمرهم مجتمع، وشوراهم واحدة نافذة، وهدفهم واحد وواضح هو نصرة دين الله والدفاع عنه، وحماية الدولة كلّفهم ذلك ما كلّفهم من الجهاد والتضحية والصبر والثبات. وكانت معنوياتهم عالية، وكانوا يتمتعون بالهدوء النفسي، والأمل، بل اليقين بنصر الله عز وجل، رغم الحصار الشديد الذي كان يحيط بمدينتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج: ٤٠ ووصف الله موقف المؤمن الواثق بالله، الموقن بنصره بقوله: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب: ٢٢

ثامناً: من نتائج المعركة وآثارها:

أ- خسرت قريش والأحزاب معها المعركة، وانقلبوا بهزيمة منكرة، وفرَّق الله جمعهم، ولم يظفروا بأهدافهم، وبقي الإسلام قوياً بل زادت قوته، وخسروا سمعتهم التي يتفاخرون بها، وكانت المعركة معركة أعصاب ولم تكن معركة خسائر(١).

ب- نجح المسلمون في الدفاع عن الإسلام والرسولﷺ والمدينة، وارتفعت معنويات المسلمين، وأعز الله تعالى هذا الدين وجنوده.(٢)

ت- انكشف منافقون كثيرون في هذه المعركة، كما انكشف غدر يهود بني قريظة، فكانت غزوة الأحزاب سبباً مباشراً في تصفية هذا الوكر الذي كان آخر أوكار اليهود في المدينة. ولذلك ما أن انتهى انسحاب الأحزاب حتى أصدر الرسول ﷺ أوامره بالهجوم على بني قريظة لتصفيتهم، فقال:"لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة"(٣) ،مما عرف بغزوة بني قريظة.-وسنأتي على تفصيلها في موضعها إن شاء الله تعالى-

ث- ولقد كان لهزيمة الأحزاب والقبائل بقيادة قريش وفشلهم أهمية كبيرة في تأمين المدينة وأهلها، ودولة الإسلام وعاصمتها؛ فلم تجرؤ قريش بعد ذلك على الاعتداء على الإسلام وأهله، ولم تَعُد بعد هذه الهزيمة النكراء قادرة على التفكير على تأليب القبائل العربية على محاربة المسلمين؟ وما أجمل تحليل النبي ﷺ لنتائج هذه الغزوة وبيان قيمتها إذ قال: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم. وهكذا تحول ميزان القوة بين المسلمين والمشركين في الجزيرة العربية لصالح المسلمين. وكانت نهاية عهد الدفاع عن الدعوة وبداية عهد الهجوم على المشركين.(٤) وفعلاً لم تَعُد قريش بعد هذه الهزيمة المنكرة قادرة أو تفكر مجرد التفكير على الإعداد لحرب رسول الله ﷺ، إذ أنها ما تركت جهداً ولا قبيلة إلا

---

(١) انظر، الغزالي، فقه السيرة، ص٣٢١ وما بعدها.

(٢)الواقدي، المغازي، ٢ /٤٨٨ – ٤٩٠ بتفاصيلها.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١١٩

(٤) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٤٣٢/٢

وحزَّبَتْها وألَّبَتْها على حرب الإسلام، فلم تصل إلى مبتغاها، وأمست عاجزة بنفسها أن تفكر بهذا وقد هُزمت ومعها جموع غفيرة من القبائل العربية الكبيرة والمشهورة هزيمة منكرة، وهذا مما مهد لهدوءٍ واضح في الأوضاع في المناطق الأخرى؛ مما جعلها ساحات مفتوحة للدعوة الإسلامية ، ومما جعل رسول الله ﷺ يفكر بدخول مكة منتصراً، ولو بصورة سِلْمِيَّة حين أعلن دعوته للمسلمين والقبائل العربية المحيطة بالمدينة بنيته للخروج لأداء شعيرة العمرة مما انتهى به الأمر إلى صلح الحديبية.

ج- كما كانت عادة رسول الله ﷺ ألا يكتفي بعد غزواته الكبرى بالنصر، ويركن في المدينة؛ لأن دولة الإسلام في خطر من المتربصين بها من الأعراب وأصحاب المطامع المادية؛ فكان إثر كل غزوة كبرى يبعث بعوثه وسراياه لتأديب المعتدين، ولإثبات الوجود والسيطرة على الطرق العامة، وإشعار جميع القبائل من حول المدينة، وفي طريقها إلى مكة وإلى بلاد الشام وإلى نجد وغيرها أن دولة الإسلام لها الهيمنة الكاملة على كل تلك البقاع أمنياً، وإن لم تسلم قبائلها. وهي أيضاً فرصة لتستمع تلك القبائل لدعوة الإسلام، والتفكير بإبداء الموقف منها. ومن تلك الأحداث والبعوث والسرايا والغزوات الصغيرة بعد غزوة الأحزاب إلى الحدث الكبير في أواخر السنة السادسة للهجرة وهو حدث الحديبية، كانت الأحداث والسرايا والغزوات الآتية:

١- غزوة بني لحيان: وكانت في جمادى الأولى في السنة السادسة للهجرة كما في ابن هشام، وفي هلال ربيع الأول كما عند الواقدي؛ حيث خرج النبي ﷺ في مائتي رجل إلى بني لحيان، وهم القوم الذين غدروا بأصحاب الرجيع؛ خبيب بن عدي وأصحابه فقتلوهم، فهرب بنو لحيان إلى رؤوس الجبال، وتجول النبي ﷺ وسراياه في المنطقة وفي أرض عسفان

وأرض بني سُلَيْم أربعة عشر يوماً استعراضاً لقوة المسلمين، وإثبات هيبتهم لدى قبائل تلك المناطق[1].

٢- سرية نجد: حيث بعث النبي ﷺ سرية إلى نجد فأسَرَت ثُمامة بن أثال الحنيفي، سيد بني حنيفة، وربطه النبي ﷺ بسارية من سواري المسجد، وخرج إليه فقال له: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتُل تقتُل ذا دم، وإن تُنْعِم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسَل تُعطَ ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، "فقال له ما قال في اليوم الآخر، وأجابه بنفس الإجابة، فتركه لليوم الثالث، وسأله أيضاً نفس السؤال، فأجابه بما أجاب به سابقاً، "فقال رسول الله ﷺ: أطلِقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. يا محمد! والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إلي من وجهك، فلقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه كلها إليَّ، والله ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فما ترى؟ (أي حين أسره المسلمون كان في طريقه إلى العمرة حتى وهو كافر) فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: أصَبَوْتَ؟(أي أتركت دينك واتبعت دين محمد؟ إذ كان الجاهليون يدعون المسلمين بالصُّباة) فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتينَّكم من اليمامة (وهي بلدُه في ريف مكة كان أهل مكة يتزودون منها بالحنطة والتموين) حبَّةُ حنطة حتى يأذن رسول الله ﷺ."[2]

٣- وقد ذكرت كتب المغازي والسير سرايا وغزوات كثيرة بعد غزوة الأحزاب، وفي السنة السادسة قبل صلح الحديبية غير الذي ذكرناها هنا؛ نذكر أسماءها دون الدخول في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض) ٢٩٧/٣ -٢٩٨، المغازي، ٥٣٥/٢، وطبقات ابن سعد،٧٨/٢ -٨٠، وابن كثير، البداية والنهاية، ٨٣/٤، وابن كثير، السيرة النبوية، ٢٥٨/٣

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، واللفظ له في كتاب الجهاد، باب ربط الاسير، رقم١٧٦٤ والبخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، حديث ثمامة رقم٤٣٧٢

تفاصيلها اكتفاءً بالفكرة، ورجاء عدم التطويل وهي: سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغَمْر، وسرية أبي عبيدة عامر بن الجراح إلى ذي القصة، وسرية زيد بن حارثة إلى بني سُلَيْم بالجموم، وسرية زيد بن حارثة إلى العيص وإلى الطرف، وسرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفَدَك، وسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، وسرية كُرز بن جابر الفهري إلى العزين، وسرية زيد بن حارثة إلى حسمى، وسريته إلى أم قرفة، وسرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن ذارم.[١]

(١) انظر التفاصيل في ابن القيم، زاد المعاد مع تخريج رواياته ٣/ ٢٤٣ - ٢٥٠، والواقدي ، المغازي٢/ ٥٥٠ - ٥٧١

المبحث الخامس

غزوة الحديبية أو صلح الحديبية

أولاً: تسميتها:

عرفت في كتب السيرة بغزوة الحديبية، رغم أنا لم يكن من أهدافها محاربة المشركين وقتالهم؛ وذلك لأن نتائجها كانت في صالح المسلمين أكثر من الغزوات –كما سيتضح بعد شرحها وبيانها.–

وسميت أيضاً صلح الحديبية لما جرى فيه من عقد صلح بين النبي ﷺ وبين مشركي مكة.

وتسمى أيضاً الفتح المبين، كما سماها الله تعالى فيما أنزل على رسوله ﷺ وهو عائد منها بقوله:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ الفتح:١. وقد جمع رسول الله ﷺ الناس يقرأ عليهم الآية:"فقال رجل يا رسول أوَ فَتْحٌ هو؟ قال : أي والذي نفسي بيده إنه لفتح."[(١)] قال البراء بن عازب: "تَعُدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية."[(٢)].

(١) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الجهاد، باب فيمن أسهم له سهماً، حديث رقم ٢٧٣٦، والحاكم وصححه على شرط مسلم ٢/ ٤٥٩ وقال الذهبي عن راوييه بأنهما ثقتان.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٥٠ ، ٤١٥٤

ثانياً: تاريخها:

خرج رسول الله ﷺ ومَن معه من المسلمين من المدينة يوم الإثنين على الصحيح من الروايات، بداية شهر ذي القعدة في السنة السادسة للهجرة.(١)

ثالثاً: سببها وأهدافها:

أ- قصد النبي ﷺ من خروجه وخروج المسلمين معه أداء مناسك العمرة؛ وذلك لرؤية رآها في نومه أنه دخل البيت، وحلق رأسه، وأخذ مفتاح البيت، ووقف بعرفة، فاستبشر بهذه الرؤيا خيراً، كما استبشر به أصحابه كذلك، وعقد العزم على أداء العمرة، وقد أشار الله تعالى لهذه الرؤيا بقوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح: ٢٧. وهذا هو السبب المباشر لها.

ب- ومن أهداف هذا الخروج لأداء العمرة إثبات وجود الإسلام بعد غزوة الأحزاب وفشل المشركين، وإثبات أن المسلمين أصحاب الحق في البيت الحرام.

ت- كما كان في هذا الخروج دعوة لقريش بأن تتوقف عن القتال، وأنه من الأفضل لها أن تسالم المسلمين؛ فهم لا يريدون الاعتداء عليها، ولا قتالها، رغم ما فعلت بهم قريش من محاربتها لهم، ومن تأليب الأحزاب عليهم. وإذا ما وقفت قريش في وجه من يريدون زيارة البيت الحرام، فإنها تحرج نفسها أمام العرب وسائر القبائل، لأنها تسيء إلى البيت الحرام، وتمنع المعتمرين من زيارته والطواف بالكعبة، وهي قبلة العرب منذ إبراهيم

---

(١) انظر ابن حجر، فتح الباري، ٤٠/٧ وهو قول أصحاب السير بالإجماع باستثناء رواية شاذة عن عروة بن الزبير أنه خرج في رمضان، وكانت الحديبية في شوال. والرواية الصحيحة عنه في أنها في ذي القعدة. انظر: الصحيحين عن أنس في البخاري رقم٤١٤٨، ومسلم رقم ١٢٥٣، وانظر سائر تخريجاته في هامش ابن القيم، زاد المعاد، ٢٥٠/٣، والعلي، صحيح السيرة ص ٢٩٨

وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وبالتالي فإن قريشاً وهي تفعل هذا فهي لا تصلح أن تكون وصية على قبلة العرب ومهبط أفئدتهم.

ث- وأما قريش فكان هدفها أن تقف في وجه المسلمين حتى لا يدخلوا مكة، رغماً عنها على الأقل، وإن كانت لو استطاعت أن تمنعهم من الدخول نهائياً إلى البيت لفعلت؛ فإنها بالأمس القريب كانت قد جمعت جموعها وأحزابها لاستئصالهم فكيف لها أن تسمح بدخولهم مكة والطواف بالبيت بجموعهم وهي تتفرج عليهم؟!

رابعاً: استعدادات الطرفين:

أ- كان عدد المسلمين الخارجين في هذه الغزوة بين رجال ونساء وأطفال ما يقارب ألفاً وخمسمائة كما في حديث جابر بن عبد الله قال:" لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. كما ثبت ذلك في حديث ابن أبي أوفى، قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وفي رواية من حديث جابر أيضاً قوله "... وكنا ألفاً وأربعمائة.[1] والجمع بين الروايات كما عند ابن حجر في الفتح أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة؛ فمن قال ألفاً وخمسمائة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربعمائة ألغاه.[2] وعلل للجمع بين الروايات إبراهيم العلي مستنداً إلى أن معظم طرق الحديث عند مسلم، وأنه وقع عند ابن سعد من حديث معقل بن يسار قوله: زهاء ألفٍ وأربعمائة، وهو ظاهر في عدم التحديد؛ فيمكن حمل الاختلاف في التحديد على ما اطلع عليه مَن قدّر العدد، والزيادة مقبولة من الثقات، أو أن الذي ذكر العدد الأقل كان في بداية خروجهم من المدينة، ثم انضم إليهم آخرون، وأن الذي ذكر العدد الأكثر- ألفاً وخمسمائة- ذكر العدد بعد الزيادة بعد الخروج، وبعد حساب الأتباع من الخدم والنساء والصبيان.[3] وهذا تعليل منطقي مقبول.

ب- أما استعدادات قريش حين سمعت بخروج المسلمين: فقد جمعت جموعاً كثيرة من الأحابيش -وهم جماعات من قبائل شتى حلفاء لقريش سموا بذلك لتجمعهم عند جبل في مكة يسمى جبل حبش- ومن مشركي مكة كما؛ أخبر بذلك عُيْينة الخزاعي رسول الله ﷺ، وكان خالد بن الوليد على رأس طليعة خيالة الجيش ومقدمته في الغميم قرب مكة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٥٢ ، ٤١٥٥، وصحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب مبايعة الإمام رقم ١٨٥٦، ٧١ ، ٧٢ ،٧٣ . وحديث عبد الله بن أبي أوفى ، البخاري ، نفس الكتاب والباب رقم ٤١٥٥، ومسلم نفس الكتاب والباب رقم ١٨٥٧ وانظر أحمد في مسنده، ٣ / ٣٩٦ وانظر ابن هشام ، السيرة النبوية ،(مع الوض)، بصيغة التحديث عن ابن إسحق ٤ /٢٥.

(٢) انظر، ابن حجر،فتح الباري٧/٤٤٠ - ٤٤١

(٣) انظر، العلي، صحيح السيرة ص ٣٠٠

بين رابغ والجحفة.[1] وكانت قريش مصرّة على ألا تسمح لرسول الله ﷺ ومَن معه بدخول مكة، وألّا يدخلوا البيت حتى لو وصل الأمر إلى القتال.

خامساً:مسير المسلمين إلى مكة:

طلب الرسول ﷺ من المسلمين أن يتجهزوا لأداء مناسك العمرة، وألا يحملوا معهم من السلاح إلا ما يحمله الراكب، لأنه لا يريد قتال قريش، وساق معه الهَدْي الذي سيذبحه لإطعام فقراء مكة، وطلب من الأعراب المنتشرين حول المدينة أن يخرجوا معه، إمعاناً في إحسان الظن، حتى تتأكد قريش أنه يريد عمرة ولا يريد قتالاً، واختار كذلك لخروجه شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال عند العرب. وقد أحرم النبي ﷺ ومَن معه من المسلمين إحرامهم بالعمرة من ذي الحليفة– وهو ميقات أهل المدينة، وهو ما يعرف بآبار علي في هذه الأيام–، حيث قلّد الهَدي، –أي: علّق في رقبته القلائد إشعاراً بأنه مخصص للذبح في أداء المناسك–كما بعث النبي ﷺ عيناً له يخبر قريشاً أن محمداً يريد العمرة[2] ويعود ليخبره ردة فعلهم. كما حرَص عليه الصلاة والسلام أن يُغيِّر الطريق المعتاد إلى طرق أخرى صعبة المسير؛ حتى لا يصطدم أصحابه ببعض دوريات المشركين فتنشب معركة لا يريدها.

ولما أصرّت قريش على الإعداد للقتال، وعدم قبول دخول المسلمين قال رسول ﷺ:"يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب! ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظْهِره الله أو

---

(١)انظر، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم٤١٧٨ - ٤١٤٨

(٢) انظر صحيح البخاري،الكتاب والباب السابقين رقم ٤١٧٨ - ٤١٨٠

تنفرد هذه السالفة."[1] ومع هذا كله حرَص رسول الله ﷺ أن يكون في طليعة المسير عباد بن بشر ومعه عشرون فارساً. حتى لا يؤخذ المسلمون المحرمون على غِرَّة، ولحماية هذه الأعداد الكبيرة.

ووصل المسلمون إلى الحديبية، قريباً من مكة، وهناك بركت القصواء، ناقة رسول الله ﷺ ، فتشاءم المسلمون من بروكها، وقالوا خَلأَت القصواء.– أي حَرَنت وعاندت – فقال رسول الله ﷺ: ما خلأت ولا هو لها بِخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل– أي: إن الله تعالى منعها من دخول مكة، وهو مثل تقوله العرب لمن مُنع من دخول مكة،كما منع الله تعالى أفيال أبرهة الحبشي حين أراد دخول مكة ليهدم الكعبة–– وأقسم رسول الله ﷺ فقال:" والله لا تدْعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحمن إلا أعطيتهم إياها."[2]

سادساً: موقف قريش وردة فعلها:

جن جنون قريش مما ترى، واجتمع ساداتها، وقالوا: يريد محمد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً فتسمع العرب! والله لا يدخلها علينا هكذا بالقوة؛ فإما أن يعود، وإما أن نحاربه. وجهزوا قواتهم، وأخذت بعض دورياتهم تطوف بمعسكر المسلمين، وأسر المسلمون بعضهم، فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأرجعهم.

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعي لرسول الله ﷺ يتوسط لديه، فأخبره النبي ﷺ أنه ما جاء لقتال، وإنما يريد العمرة، وأنه لا مانع لديه من أن تتوقف الحرب بينه وبين قريش. فعاد لقريش، ونصحها ألّا تقف في وجه رسول الله ﷺ ومن معه، وأن تسمح لهم بأداء

(١) ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، من رواية ابن إسحق بالتحديث، ٤ /٢٥ وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ٤١٧٨ ـ ٤١٨٠

(٢)ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٥/٤ من رواية ابن إسحق بالتحديث، وصحيح البخاري، كتاب الشروة، باب الشروط في الجهاد،رقم٢٧٣١، ٢٧٣٢، وأحمد في المسند ٤ /٣٨٢ ـ ٣٣١

العمرة، ويخرجون بعدها من مكة، فرفضت نصيحته وقالوا له: اجلس إنما أنت أعرابي، لا علم لك.

ثم جاء الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، فبعث المسلمون في وجهه الهَدْي، ليُشعِروه بأنهم إنما جاؤا لأداء نُسُك، فعاد قبل أن يصل، وهدد قريشاً أنهم إن أصروا على منع المتعمرين فسوف يتخلى عن الوقوف مع قريش، وقال لهم:" يا معشر قريش! والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له؟! والذي نفس الحليس بيده لَتُخَلُّن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له: مه–أي اهدأ– كُفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به."(١)

ثم جاء عروة بن مسعود الثقفي إلى قريش ليستأذنهم في مفاوضته النبي ﷺ، وقال لهم:" أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني، قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي–أي امتنعوا– جئتكم بأهلي وولدي ومَن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا (يقصد رسول الله ﷺ) قد عرض عليكم خطة رشَد؛ اقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحوا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك؟ هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً(أي أشرافاً) وإني لأرى أشواباً (أي خليطاً) من الناس (يقصد جموع السلمين) خليقاً أن يفروا ويدعوك. فقال له أبو بكر ﷺ : (كلمة ثقيلة فيها شتيمة) أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا : أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد

---

(١)ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)،٢٦/٤ وانظر التفاصيل أيضاً ص٢٧-٢٨ ، والبخاري كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ٤١٧٨ ـ ٤١٨٠، ومسلم ، كتاب الإمارة، باب مبايعة الإمام الجيش ، رقم ١٨٥٨/ ٧٦ ، ومسند الإمام أحمد، الفتح الرباني للساعاتي، ٢١ /١٠٦

(أي نعمة ومعروف) كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغْفَر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يدَه بنعل السيف، وقال له: أَخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة ، فقال أي غُدر!(أي غادر) ألستُ أسعى في غُدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ:أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنخم(أي بصق) رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلَك بها وجهه وجِلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، (بفتح الواو، ومعناها: ماء الوضوء الذي توضأ به النبي ﷺ) وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له. (وهذه كانت خصيصى لرسول الله ﷺ ؛ إذ أن الله يستحيي أن يعذب جسماً دخله شيء من رسول الله ﷺ. ولذلك كان أنس بن مالك ﷺ يمص الدم النازف من جرح فم رسول الله ﷺ يوم جرح في أحد).

ثم رجع عروة إلى قريش، فقال : أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكاً قط يُعَظِّمه أصحابه ما يُعَظِّم أصحاب محمد محمداً، والله إن ينتخم نخامة(أي يبصق بصاقاً) إلا وقعَتْ في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم أخفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشَد فاقبلوها."[١]

---

(١)أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢ واحمد في مسنده ٣٢٨/٤ - ٣٣١

كما ورد الخبر أيضاً من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال:" إنه كان قائماً على رأس رسول الله ﷺ، وعروة بن مسعود يُكَلِّمُه، فقال له المغيرة: لَتَكُفَّنَّ يدك أو لا ترجع إليك يدُك.- والمغيرة متقلد سيفاً- فقال عروة: من هذا ؟ قال: ابن أخيك المغيرة، فقال: يا غَدر! ما غسلت رأسي من غُدْرَتك."[(١)]

سابعاً:إرسال عثمان إلى قريش وبيعة الرضوان:

ثم أرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لِيُطَمْئِن قريشاً، ويؤكد لها أنه ما جاء للحرب، وإنما جاء للعمرة فحسب، "وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له، يقال له الثعلب، فلما دخل مكة عَقرَت به قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابيش حتى أتى رسولَ الله ﷺ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغِلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعزُّ مني، عثمان بن عفان، فدعاه رسول الله ﷺ فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت معظِّماً لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، ولقيه أبان بن سعيد بن العاص فنزل عن دابته، وحمله بين يديه، وردفه خلفه، وأجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ. فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به. فقالوا لعثمان: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فطُف به. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. فاحتبستْه قريش عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتل."[(٢)] ولما بلغ النبي ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قُتل، دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى مبايعته على

---

(١)المطالب العالية، ٢٠٦٤ ، ٤٣٤٧ ، ونسبه لأبي بكر بن أبي شيبة وقال إسناده في نهاية الصحة، ورواه ابن حبان في صحيحه رقم ١٦٩٦ انظر صحيح السيرص، ٣٠٤-٣٠٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند:٣٢٣/٤ – ٣٢٦، وابن هشام،٣ /٣٠٨ المجلد الثاني وابن سعد في الطبقات،٢/ ٩٦ – ٩٧ ، والطبري في تاريخه،٦٣١/٢، جميعاً من طريق ابن إسحق بسند صحيح قد صرح فيه ابن إسحق بالتحديث، وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية، انظر العلي، صحيح السيرة، ص،٣٠٧-٣٠٨، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)،٢٧/٤

قتال المشركين، ومناجزتهم–أي قتالهم– وقد روى بعض من حضر البيعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال:" لقد رأيتني يوم الشجرة، والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه أن لا نَفِرَّ."(١) وقال بعضهم: بايعناه على الموت، وقال بعضهم بل بايعوه على الصبر، ولا خلاف بين تلك الروايات والعبارات، فإن هذه البيعة التي تمت تحت الشجرة كانت على جميع هذه العبارات؛ فهي على الصبر في القتال، وعلى عدم الفرار، وعلى الثبات حتى لو كلفهم ذلك الموت والشهادة في سبيل الله. وقد أشار القرآن الكريم إلى رضاه سبحانه وتعالى عن هذه البيعة بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح: ١٨

وكان أول من بايع النبي ﷺ تحت الشجرة أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي كما، ثبت عند الحاكم، قال:"أتاني عامريٌّ وأسديٌّ يعني متفاخَرْين، فقلت: كان لبني أسد ست خصال، ماكان لحي من العرب؛ أول من بايع بيعة الرضوان أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي، قال: يا رسول الله ابسُط يدك أُبايعْك. قال: على ماذا؟ قال: على ما في نفسي. قال: فتح وشهادة؟ قال: نعم، فبايعه. قال: فخرج الناس يبايعون على بيعة أبي

(١)أخرجه مسلم في الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، رقم ٧٦/١٨٥٨- وأحمد في المسند انظر الفتح الرباني،١٠٦/٢١ وانظر ابن هشام، السيرة النبوية؛(مع الروض)،عن ابن إسحق بالتحديث عن عبد الله بن أبي بكر، ٢٨/٤

سنان."[١] وقد روى ابن اسحق بالتحديث أن الرسول ﷺ بايع لعثمان؛ "فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فقال: هذه لعثمان."[٢].

ثامناً: قريش تستعد للمفاوضات وتعقد صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ:

أ- قريش ترسل سهيل بن عمرو: أرادت قريش أن تتخلص من هذه الورطة؛ فالمسلمون مُصِرّون على تحقيق هدفهم، والعرب لا تعذر قريشاً في موقفها، وقد اتضحت نية الرسول ﷺ وأصحابه في العبادة، كما علمت قريش أنها بموقفها هذا تصعد الأمور؛ فالمسلمون قرروا القتال، وبايعوا على الشهادة، ومطلبهم مشروع. فبعثت هذه المرة رجلاً مفاوضاً هو سهيل بن عمرو، وقالوا له: ائت محمداً فصالحْه، ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنّا عامَهُ هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عُنوَةً (أي رغم أنوفنا) أبداً."[٣] وقد أدرك النبي ﷺ أن قريشاً أرادت الصلح من معرفته بشخصيته الرجل القادم فقال: "قد أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل."[٤] ولما وصل وأراد المفاوضة، اشترط عليه رسول الله ﷺ أن تطلق قريش سراح عثمان وأصحابه، فاقتنع الرجل وأرسل إلى قريش، فأطلقوهم، وتفاوض رسول الله ﷺ مع سهيل بن عمرو على مبادئ لهدنة بين المسلمين والمشركين مشروطة بعدة شروط واتفقا على كتابة هذا الصلح خطِّياً.

---

(١) الإصابة، ٩٦/٤ ترجمة رقم٥٧١، وقال أخرجه الحسن بن علي الحلواني، ومحمد بن اسحق والسراج من طرفه عن اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي، وأخرجه ابن مندة من طرق عن عاصم عن زِرِّ بن حُبَيْش، قال: أول من بايع تحت الشجرة أبو سنان بن وهب"انتهى.قلت وقد جاء ايضاً في دلائل البيهقي، ١٣٧/٤، من طريق أبن أبي خالد عن الشعبي انظر ابن هشام، السيرة النبوية، مع الروض)، ٢٨/٤.

(٢) ابن هشام،السيرة النبوية٢٨/٤ وأخرج البخاري وضع يده على الأخرى وقال هذه لعثمان من حديث طويل في كتاب المغازي باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٨٦

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية،(مع الروض)، من تحديث ابن إسحق ٢٨/٤ ، ومن حديث منسوب لأبي بكر بن أبي شيبة في غاية الصحة في المطالب العالية، رقم ٢٠٦٤، ٤٣٤٧، وابن حبان في صحيحه، رقم ١٦٩٦. وانظر تخريج ابراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٣٠٧. والحديث ص ٣١٧.

(٤) ابن هشام السيرة النبوية، تتمة الرواية السابقة ، ٢٨/٤.

ب- كتابة الصلح: دعا رسول الله ﷺ علياً يكتب الكتاب وقال له:" اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فاعترض سهيل، وقال: لا أعرف الرحمن الرحيم، ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال رسول الله ﷺ لعلي: اكتب باسمك اللهم. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله."[١] وهكذا ولم يقف النبي ﷺ عند هذه الأمور؛ حيث لم ينشغل بالأمور الشكلية، وإنما المهم أن تكتب مبادئ الهدنة وشروطها.

ت- قواعد الهدنة (الصلح) كما وردت في الكتاب[٢]:

١- أن تقف الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين.

٢- أن يعود الرسول ﷺ والمسلمون هذا العام إلى المدينة ليعودوا في السنة القادمة لأداء العمرة، فتُخلي لهم قريش مكة ثلاثة أيام، ولا يدخلوا معهم إلا سلاح الراكب، والسيوف في أغمادها.-أي في بيوتها وجرابها-

٣- من أراد الدخول من القبائل والأعراب في حِلف محمدٍ فله ذلك، ومن أراد الدخول في حِلف قريش فله ذلك.

٤- من جاء محمداً من قريش من غير إذنها ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين من غير إذن رسول الله لم تردّه قريش على المسلمين.

---

(١) أخرج الكتاب البخاري في كتاب المغازي باب في كتاب الشروط ...رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢ وابن إسحق وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٨/٤

(٢) جاءت الشروط متفرقة في كتب الحديث ومستوفاة في ابن هشام، السيرة النبوية من رواية ابن إسحق ٢٨/٤ – ٢٩ ومتفرقة في البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح مع المشركين، رقم ٢٧٠٠، ومسلم، رقم ١٧٨٣، وانظر، العلي، صحيح السيرة، ٣٢٠ - ٣٢١

تاسعاً:من دروس غزوة الحديبية وعبرها:

يتجلى في هذه الأحداث من غزوة الحديبية دروس وعبر أهمها:

أ- يتجلى فيها صدق النبي ﷺ وحسن نواياه، وأنه كان يريد العمرة وليس القتال؛ فقد اختار شهر ذي القعدة من الأشهر الحرم.

ب- وتتجلى فيها حكمة رسول الله ﷺ في الخروج للعمرة، لإحراج قريش وكشف أمرها، ليثبت للعرب كافة أنها لا تستأهل البلد الحرام، وأنها لاتصلح لزعامته؛ بدليل أنها تحتكره، وتمنع العرب من أداء نُسُك العمرة والطواف بالبيت..

ت- طبق النبي ﷺ حكمته إثر غزوة الأحزاب إذ قال اليوم نغزوهم ولا يغزوننا؛ فها هو ذا رسول الله ﷺ يصل قريباً من مكة، وقريش لا تملك الجرأة في الخروج إليه في طريق مسيره، مع عِلْمها بقدومه بعدد كبير لم يسبق له أن أخرج مثله معه، فالعملية، وإن لم تكن عسكريةكانت أشبه بمحاولة تحرير سلميّ لمكة، ومن هنا كان اسم هذه العمرة غزوة الحديبية، كما كانت مقدمة بين يدي فتح مكة.

ث- كما يظهر احتياطُ القائد وحرصه على رعيته؛ إذ قَدَّم النبي ﷺ دورية الفرسان أمام الجموع، كما أرسل العيون، وأسرت دورياتُه بعضَ المشركين، ولحرصه على عدم القتال عفا عنهم.

ج- تتجلى شجاعة رسول الله ﷺ وحبه لأصحابه؛ إّذ حال ما علم بإشاعة مقتل عثمان طلب المسلمين فوراً للبيعة على القتال وعلى الصبر والثبات حتى الشهادة.

ح- كما ظهر حب أصحاب رسول الله ﷺ وطاعتهم له؛ فقد قام المغيرة بن شعبة يحرس النبي ﷺ وهو يفاوض رؤساء وفود قريش حماية له وحراسة له، كما لم يتخلف من المسلمين معه أحد عن البيعة سوى منافق واحد. وأما موقف عثمان فكان رائعاً جداً؛حيث رفض الطواف بالبيت كما عرضت عليه قريش؛ وذلك حباً للنبي ﷺ وإيثاراً له على نفسه. وكان لهذا الموقف منه أثره الشديد في نفوس المشركين حيث أغاظهم فحبسوه.

خ- تعلم المسلمون من هذه الغزوة حكماً شرعياً وهو جواز الاستعانة بالمشرك الحليف المأمون جانبه عند الحاجة؛ فقد استعان رسول الله ﷺ بالخزاعي، وقد كانت خزاعة حليفة رسول الله ﷺ وحليفة عشيرته بني المطلب قبل الإسلام.

د- تفاوت الصحابة في تقدير الأمور؛ فرغم علُوِّ شأن عمر وأبي بكر رضي الله عنهما، كان أبو بكر ﷺ مستسلماً لرأي رسول الله ﷺ في شروط الهدنة، بينما كان عمر ﷺ أول الأمر معترضاً على بعض شروطها، حتى طمأنه رسول الله ﷺ أنه رسول الله، وأن والله لن يضيعه. وكان عمر بعد الحديبية يندم على ما حصل منه من اعتراض وتغيظ. كما أن فيها درساً من رسول الله ﷺ بصفته قائداً في احترام المعارضة الحريصة على مصلحة المسلمين والتريهة عن الهوى.

ذ- كما تأكد في الغزوة مبدأ "مشورة الإمام رعيته وجيشه استخراجاً لوجه الرأي، واستطابةً لنفوسهم، وأمناً لعَتبهم، وتعَرُّفاً لمصلحةٍ يختص بها علم بعضهم دون بعض،"[1] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران: ١٥٩.

ر- ويستفاد من صلح الحديبية جواز عقد هدنة أو صلح مؤقت بين المسلمين وأعدائهم، لما فيه من الحاجة والضرورة، وكما يقول ابن القيم: "لما فيه من المصلحة الراجحة ودفع ما هو شرٌّ منه؛ ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها."[2] واختلف العلماء في مدة الصلح فرأى بعضهم من المتقدمين أنه لا يصح أن يزيد عن عشر سنوات بناء على شروط الصلح في الحديبية. ورأى آخرون أنه غير محدد بمدة زمنية، وتحكُم المدةَ مصلحة المسلمين؛ ولأن الأصل في العلاقة بين المسلمين والكفار الجهاد، في حين يرى بعض المتأخرين من العلماء أن الأصل في العلاقة هي السلم لا الحرب، وأن الجهاد شرع للدفاع عن النفس

---

(١) ابن القيم،زاد المعاد٢٦٢/٣

(٢) المرجع السابق، ٢٦٥/٣

فحسب، وبالتالي فإن الصلح جائز على الدوام. ويبدو لي أن المتأخرين قد أخذهم روح الهزيمة النفسية للأمة المهزومة، المتخلية عن رسالتها وهي الشهادة على الخلق وإقامة الحجة، وأن الله تعالى إنما اصطفى هذه الأمة لتكون ضمانة كبرى من ضمانات عالمية رسالته؛ مما يلزم منه أن تكون هذه الأمة داعية بالكلمة والبيان وهو جهاد، ومستعدة للدفاع عنه في وجه أعدائها؛ لأنهم لن يسكتوا عنها وعن دعوتها، فلا يصح لها أن تكون حملاً – أي خروفاً– وديعاً تنتظر عدوان أعدائها لتدافع عن نفسها، بل لا بد أن تكون مستعدة دائماً لأن تتحمل تبعات رسالتها بالإعداد للقتال والجهاد كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الحج: ٧٨ وعلى هذا الرأي اتفق علماء الأمة فيما مضى على أن عقد الصلح مع العدو لا بد أن يكون مقدراً بمدة معينة تحددها وتحكما مصلحة الأمة ومدى جاهزيتها للقتال؛ فلا تصح المهادنة إلى الأبد من غير تقدير بمدة.[1]

ز– وجوب طاعة رسول الله ﷺ، وتقديم حكم الشرع على حكم العقل والرأي؛ كما استسلم عمر رضي الله عنه وقد اعترض على بعض شروط الصلح، وقد ندم على ذلك وقال:" أيها الناس افهموا الرأي على الدين، فقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأي اجتهاداً، فوالله ما آلوا عن الحق يوم أبي جندل، –ويقول:– فما زلت أصوم واتصدق، وأعتق(أي يحرر عبيداً صدقة لله تعالى) من الذي صنعتُ مخافةَ كلامي الذي تكلمتُ به يومئذ، حتى رجوتُ

(١) انظر مناقشة هذا الموضوع عند الصلابي، السيرة النبوية ص ٧٢٠ – ٧٢١ وتفسير القرطبي ٢٤/٩ -٢٦ وقد جلّى هذا الموضوع سيد قطب في مقدمة سورة الأنفال في ظلال القرآن.

أن يكون خيراً. "[(١)] وكما وقع في بعض المراجع أيضاً قوله:"فعملتُ لذلك أعمالاً."[(٢)] ولقد كان ذلك الاستسلام لحكم رسول الله ﷺ سبباً في زيادة إيمان أهل الحديبية برضائهم لقضاء الله، وتصديقهم بوعده، وانعكس ذلك سكينة على قلوبهم، وأثابهم نصراً مؤزراً، وفتحاً قريباً بما وعدهم من المغانم الكبيرة؛ منها ما عجّل لهم بها من ثمار الصلح، وفتح خيبر وغنائمها بعد سنة من العودة من الحديبية، وكفّ أيدي قريش عنهم، فلم يعودوا يقاتلوهم. ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه صدق رسوله الرؤيا بالحق في دخول المسجد الحرام ومن معه آمنين، وأنه سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون في آخر سورة الفتح: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ الفتح: ٢٩.

س- كما نأخذ درساً في الوفاء بالعقود، حتى ولو كانت مصلحة بعض المسلمين ليس مع الوفاء بها؛ فإن رسول الله ﷺ استأذن سهيل بن عمرو أن يجيز له ابنه أبا جندل حين جاء مسلماً وقال سهيل: يا محمد لقد لجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتي أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقام إلى ابنه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه (أي جمع عليه ثوبه لإلقاء القبض عليه) فقال له النبي ﷺ: صدقتَ، وردّه إليه.[(٣)] وبهذا فقد احترم النبي ﷺ وثيقة الصلح بين المسلمين والمشركين، وإن فاتت فيها مصلحة أفراد من المسلمين – كأبي جندل وأبي بصير وغيرهما- فيما بعد، حتى وإن كره بعض المسلمين ذلك أولاً، لكنهم رأوا فيما

(١) الصلابي، السيرة النبوية، ٧٢٢، والحكمي، غزوة الحديبية ص٣١٣ وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤ / ١٢٨

(٢) مسند الإمام أحمد، ١٨٩٥٠/٦ قال ابن حجر في فتح الباري: ٥ /٦٩٨ هو موصول إلى الزهري، ومنقطع بين الزهري وعمر.

(٣) انظر ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، من تحديث ابن إسحق عن الزهري ٢٩/٤، والبخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم ٢٧٣٢، وأحمد في المسند ٤/ ٣٣٠ - ٣٣١

بعد ذلك أن الخير كله في الالتزام بأمر الله وأمر رسوله ﷺ بالوفاء بالعقود. وذلك مما وجدوه عملياً بعد ذلك؛ إذ أن هؤلاء المسلمين الذين ردَّهم رسول الله ﷺ بناء على شرط صلح الحديبية قد شكلوا خلية جهادية فدائية مكونة من أبي جندل حيث فرّ في الطريق من أبيه، ورجع أبو بصير بعد أن رده رسول الله ﷺ، واجتمعت معهم مجموعة من المسلمين مماثلة لهم في الموقف حتى أتوا على منطقة على ساحل البحر الأحمر في طريق التجارة بين مكة وبلاد الشام تسمى سيف البحر، وأخذوا "لا يسمعون-بعير- أي قافلة- خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوها، فقتلوه من فيها، وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم "لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن."[١] وبهذا تخلّت قريش عن هذا الشرط من شروط الحديبية، بل هي التي بعثت ترجو النبي ﷺ التنازل عن هذا الشرط وحذفه من وثيقة الصلح؛ لأن مصلحة قريش أن يقبل النبي المسلمين القادمين منها لتُؤَمِّن نفسها منهم في دخولهم في شروط الأمان بالصلح، وأما بقاؤهم خارج الوثيقة ففيه كل الحظر على قريش وتجارها وحياة تجارها.

عاشراً:آثار الصلح ونتائج غزوة الحديبية:

أ- ثار عمر بن الخطاب ظنّاً منه أن في هذا الصلح هضماً للمسلمين، وتنازلاً للمشركين، وأخذ يقول: يا رسول الله! ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى. قال عمر: ففيمَ نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فهدّأ النبي ﷺ من ثورة عمر الذي كان يريد القتال للمشركين، وطَمْأنه فقال: يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولن يضيعني أبداً. فنزل القرآن بسورة الفتح، فأرسلَ إلى عمر فأقرأه، فقال: يا رسول! أوفتح هو؟ قال: نعم، فطابت نفسه، ورجع.[٢].

---

(١)انظر، ابن هشام، المرجع السلبق.

(٢) انظر الروايات، صحيح البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية رقم ٤١٧٧ وكتاب الجزية باب ١٨ رقم ٣١٨٢ .

ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٨/٤

ب- حضر أبو جندل، وهو ابن سهيل بن عمرو، عاقد الصلح من المشركين مع رسوالله ﷺ هارباً من المشركين لحظة الانتهاء من كتابة كتاب الصلح. فلما رآه والده، سهيل ضرب وجهه وأخذ يجره، ويطالب النبيﷺ برده. ولكن سهيلاً لم يقبل، فأخذ أبو جندل يصيح: يا معشر المسلمين! أنقذوني؛ فإنهم سيفتنونني عن ديني. ولكن رسول الله ﷺ لا يخالف عهداً قطعه على نفسه، وما كان منه إلا أن قال له: يا أبا جندل، اصبر، واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. [1] أما عمر ﷺ عنه فقد غاظه ذلك الموقف،" فوثب مع أبي جندل، فجعل يمشي إلى جنبه، وهو يقول له: اصبر أبا جندل، فإنّما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، يقول – عمر- رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضنَّ-أي بخل- بأبيه ونفذت القضية."[2]-أي انتهى الحكم برده مع أبيه بناء على شرط صلح الحديبية.-

ت-وقدم أبو بصير أيضاً من مكة مسلماً مهاجراً بعد الصلح، فجاء رجلان من مكة يطلبانه حسب الشروط في الهدنة، فسلّمه الرسول ﷺ لهما، وفي الطريق قَتل أبو بصير أحدهما بسلاحه، وهرب الآخر، وعاد للرسول ﷺ وقال: يا رسول الله! لقد وفَّيْتَ لهم بالشرط.فقال الرسول ﷺ:مِسْعَرُ حرب لو كان معه أحد. فخرج أبو بصير حتى وصل إلى مكان أمين في طريق تجارة قريش، ثم انضم إليه أبو جندل، ومَن على شاكلتهم من المسلمين الهاربين من مكة، وشرط الهدنة يمنع النبي ﷺ من قبولهم في المدينة، ولكن لا سلطة له عليهم خارجها، ولا تلزمه شروط الصلح إعادة أحد خارج حدودها. فشكل هؤلاء المسلمون مجموعة عسكرية جهادية تقطع على المشركين طريق تجارتهم، وتقتل من يأتي في طريقهم.

---

(١) انظر ابن هشام،السيرة النبوية٢٩/٤ والبخاري في صحيحه كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ... رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢ وهو حديث طويل، وأحمد في المسند، ٣٢٨/٤ - ٣٣١

(٢) ابن هشام،السيرة النبوية،(مع الروض)، من تحديث ابن إسحق، ٢٩/٤، ومن طريق الزهري عند أحمد في المسند، ٤/ ٣٣١، والبخاري، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد، رقم ٣٧٣٢

فما كان من قريش إلا أنها أرسلت للنبي ﷺ تناشده صلة الرحم أن يضم هؤلاء الأشقياء –في نظرها–إليه، وهي متنازلة عن هذا الشرط–الذب تضايق منه عمر– في الهدنة[1].

ث–وقد انتهت عمرة الحديبية دون دخول المسلمين مكة، ولكنهم عادوا بصلحٍ فيه كل الخير للمسلمين، فطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يتحللوا من إحرامهم، ويحلقوا رؤوسهم، ويذبحوا هدْيهم. وعاد بالمسلمين على أمل أن يعودوا في السنة القادمة لأداء العمرة وفي الطريق أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ سورة الفتح: ﴿إِنَّافَتَحۡنَالَكَفَتۡحٗامُّبِينٗا ﴾ الفتح: ١ ، ففهم المسلمون أن صلح الحديبية فتح مبين.

ج– ومن الطريف فيما ثبت في الصحيح أن نفوس المسلمين كانت تتوق للقتال، وأنها كانت متخوفة من شروط الصلح، فهم لأول مرة يدخلون المفاوضات للصلح، ولكن رسول الله ﷺ كان يشعر بالقوة والمَنعة، وأن هذا الصلح فيه القوة للمسلمين والضعف للمشركين؛ فإن الضعيف هو الذي يطلب الصلح رغم قوته المادية العاتية، وأن النبي ﷺ والمسلمين هم الأقوياء؛ فهم الذين انتزعوا بالصلح الاعتراف الرسمي بهم دولة وكياناً مكافئاً في المفاوضات دون الوقوف في التفاصيل، وعند الشكليات، والتي كانت حقيقتها ومآلاتها في صالح المسلمين، وإن رأى بعض المسلمين ضعفاً في بعض شروط الصلح؛ فإ الشرط الذي كرهه بعض المسلمين ورأوا فيه ضعفاً كان أول شرط طلبت قريش إلغاءه والتنازل عنه. ولهذا فإن النبي لما أمر أصحابه بالتحلل من الاحرام بالعمرة صعُب عليهم ولم يقم رجل منهم ليفعل ذلك رغم طلبه منهم ذلك ثلاث مرات، فدخل النبي ﷺ على أم سلمة، وذكر لها ما يراه من صعوبة في استجابة المسلمين لأمره بالتحلل، فأشارت عليه أن يخرج هو بنفسه، ولا يكلم أحداً منهم فيتحلل من إحرامه بذبْح بُدنه، وبحلْق شعره،

(١)انظر ابن هشام،السيرة النبوية ، (مع الروض)، ٣١/٤

ففعل. فلما رأى المسلمون منه ذلك قاموا فنحروا بُدنهم، وحلقوا شعورهم حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً؛ غماً وحزناً ومن السرعة في التنفيذ.[1]

وفعلاً لقد كانت هذه الغزوة نصراً عظيماً للمسلمين؛ حيث اعترفت قريش بدولة الإسلام لأول مرة، فعقدت معهم صلحاً. وكان لهذا الاعتراف أثره في توهين نفوس المشركين والمنافقين ،كما كان له أثره العظيم في ارتفاع معنويات المسلمين.

ح- أعطت سنوات الهدنة فرصة لالتحاق القبائل العربية بالإسلام، ومحالفتها للمسلمين؛ فقد دخلت خزاعة في حلف المسلمين مما أضعف قريشاً، وأضاع هيبتها، وقوّى دولة الإسلام، ورفعَ هيبة المسلمين ومعنوياتهم. وكانت فرصة عظيمة لدخول الناس في الإسلام، وتفرغ المسلمين لبيان دعوتهم. يقول الزهري:" فما فتْحٌ في الإسلام قبله كان أعظم منه(...) فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكَلَّم أحدٌ بالاسلام شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين(أي بعد الحديبية) مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو اكثر."[2] ووافق ابنُ هشام الزهريَّ في نتيجته هذه معقباً على صلح الحديبية، فقال:"والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف واربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف."[3]

خ- لم يخسر المسلمون عمرتهم، فقد عادوا في السنة التالية لقضاء عمرتهم وبهذا يكون المسلمون قد كسبوا عبادة، وكسبوا ثمرات كثيرة من صلح الحديبية كان من أهمها فتح

---

(١) انظر رواية البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٦٣. ومسلم ، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الجيش، حديث رقم ١٨٥٩ / ٧٧.

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤/ ٣٠-٣١.

(٣) المرجع السابق، ٣١/٤.

مكة؛ فقد كانت الهدنة من أعظم الفتوح، لأن مخالفة بعض شروحها كان سبباً في فتح مكة بعد سنتين.

د- وكان من نتائج هذا الصلح أن بعض النساء المستضعفات في مكة خرجن مهاجرات إلى المدينة، "وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرجن إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الممتحنة: ١٠[(١)] **علق الشيخ الغزالي على الحادثة بقوله:" وقد أبى المسلمون عقب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن؛ إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة وهن لا يستطعن مضطرباً(والصواب ضرباً) في الأرض ورداً للكيد كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما. وأياً ما كان الأمر فإن احتجاز من أسلم من النساء تمّ بتعليم القرآن، وكُلِّف المسلمون أن يدفعوا لأزواجهم المشركين عوضاً يستعينون به على زواج آخر، إذا لم يشاءوا الدخول في الإسلام(...) والآية تشير إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم."[(٢)]**

ذ- إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة: وكان من نتائج الحديبية دخول هؤلاء القادة العظام الإسلام؛إذ لقد تلاقت أفكار هؤلاء الثلاثة بعدما رأوا

---

(١) صحيح البخاري كتاب الطلاق، باب إذا أسلمت المشركة رقم ٥٢٨٨ ابن هشام،السيرة النبوية،عن ابن اسحق بصيغة التحديث ٣٢/٤٠

(٢) الغزالي، فقه السيرة، ص٣٦٧ وانظر هذه الفائدة الفقهية عند ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ٢٦٧

من ظهور أمر الإسلام، وقد كانوا القادة الذين حاربوه، وكانوا يكرهونه. وتفاصيل إسلامهم كما وردت عند الواقدي، وكما يرويها عمرو بن العاص ﷺ بنفسه، حيث يقول:" كنت للاسلام مُجانباً مُعادياً، فحضرتُ بدراً مع المشركين فنجوتُ، ثم حضرتُ أحداً فنجوتُ، ثم حضرتُ الخندق(فنجوتُ،)[1] فقلتُ في نفسي: والله ليَظْهَرَنَّ محمدٌ على قريش! فخلَّفْتُ مالي بالرهط. وأفْلَتُّ،-يعني من الناس- فلم أحضر الحديبية ولا صلحها. وانصرف رسول الله ﷺ بالصلح ورجعت قريش إلى مكة، فجعلت أقول: يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه؛ ما مكة بمنزل ولا الطائف، وما من شيء خير من الخروج. وأنا بعد ناتٌّ(أي ناءٍ وبعيد) عن الإسلام، أرى لو أسلمتْ قريش كلها لم أسلم. فقدمتُ مكة رجالاً من قومي كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويُقَدِّمونني فيما نابهم (أي أصابهم) فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومِدْرَهُنا[2]، مع يُمنِ نفسٍ، وبركة أمرٍ. قلت: تعلمون والله أني لأرى أمر محمد يعلوا الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت رأياً. قالوا: ما هو؟ قال: نلحق بالنجاشي فنكون عنده؛ فإن كان يظهر محمد كنا عند النجاشي فنكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا. قالوا: هذا الرأي! قال: فأجمعوا ما تهدونه له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم.(الملابس المصنوعة من الجلد) قال: فجمعنا أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، فوالله إنا لعنده؛ إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه بكتاب كتبه إليه يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فدخل عليه ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه! فإذا فعلت ذلك سُرَّت قريش، وكنت قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت على النجاشي، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي! أهديتَ لي من

---

(١) الزيادة من البداية والنهاية لابن كثير، انظر ٤ / ٢٣٦

(٢) المدره،السيد الشريف، والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال.(القاموس المحيط،ج٤، ص٢٨٣

بلادك شيئاً؟ قال: فقلت: نعم أيها أيها الملك! أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قربته إليه، فأعجبه وفرق منه أشياء بين بطارقته، وأمر بسائره فأُدخل في موضع، وأمر أن يُكتب ويُحتَفظ به. فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك! إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا؛ قد وَتَرَنا، وقتل أشرافنا وخيارنا؛ فأعطنيه فأقتله! فرفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره، وابتدر منخاري، فجعلت أتلقى الدم بثيابي وأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها فَرَقاً منه،(أي خوفاً منه) ثم قلت له: أيها الملك! لو ظننت أنك تكره ما فعلتُ ما سألتُك. قال: واستحيي، وقال: يا عمرو! تسألني أن أعطيك رسولَ رسولِ الله، من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله! قال عمرو: وغيّر الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي : عرف هذا الحقَّ العربُ والعجمُ وتُخالف أنت؟(يقصد نفسه) قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال نعم. أشهد به عند الله يا عمرو فأطِعني واتَّبِعْهُ؛ والله إنه لعلى الحق، وليَظْهَرَنَّ على كلّ دين خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده(...) ودعا لي بطَسْت، (وهو وعاء لماء الغسل، ويقال: طشت) فغسل عنّي الدم وكساني ثياباً. وكانت ثيابي قد امتلأت من الدم فألقيتها. ثم خرجت إلى أصحابي فلما رأو كسوة الملك سُرّوا بذلك، وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهتُ أن أكلمه في أول مرة، وقلت أعود إليه. قالوا: الرأي ما رأيت ! وفارقتُهم كأني أعود لحاجة، فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة، فركبت معهم، ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعيبة على شاطئ البحر الأحمر ومعي نفقة. فابتعتُ بعيراً، وخرجت أريد المدينة حتى حرجت على مرِّ الظهران، ثم مضيت حتى كنت بالهَدَّة إذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان مترلاً، وأحدهما داخل في خيمة، والآخر قائم يمسك الراحلتين، فنظرت وإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم. قلت: أين تريد؟ قال: محمداً؛ دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طمع، والله لو أقمنا لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضَّبُع في مغارها. قلت: وأنا والله قد أردت محمداً، وأردت الإسلام. وخرج

عثمان بن طلحة فرحب بي، فنزلنا جميعاً في المنزل، ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عِنَبَة، يصيح: يا رباح! يا رباح! فتفاء لنا بقوله، وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين! فظننت أنه يعنيني وخالد بن الوليد، ثم ولى مدبراً إلى المسجد سريعاً، فظننت أنه يبشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما طننت، وأنخنا بالحرة، فلبسنا من صالح ثيابنا، ونوديَ بالعصر، فانطلقنا جميعاً حتى طلعنا عليه صلوات الله عليه، وإن لِوجهه تهللاً، والمسلمون حوله قد سُرّوا بإسلامنا. فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع. ثم تقدمت. والله ما هو إلاّ أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طَرْفي إليه حياءً منه، فبايعتُه على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر. فقال: إنّ الإسلام يَجُبُّ(أي يمحو) ما كان قبله، والهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها."[١]

ر- أما خالد بن الوليد فهو يحدث عن إسلامه فيقول:" لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حب الإسلام، وحضرني رُشدي، وقلت: قد شهدتُ هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضِعٌ في غير شيء، وأن محمداً سيظهر. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسفان؛ فقمت بإزائه، وتعرضت له، فصلى باصحابه الظهر آمناً منّا، فهَمَمْنا أن نُغير عليه ،ثم لم يعزم لنا —وكانت فيه خِيَرَةٌ– فاطلع على ما في أنفسنا من الهموم، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعاً وقلت : الرجل ممنوع! وافترقنا، وعدل عن سَنَن خيلنا، وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعَتْهُ قريش بالرواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي؟! فقد اتبع محمداً، وأصحابه آمنون عنده. فأخرج إلى هرقل؟! فأخرج من ديني إلى نصرانية او يهودياً فأقيم مع عجم تابعاً؟ أو أقيم في داري في مَن بقي؟ فأنا على ذلك،

(١) الواقدي، المغزي،٤/٧٤١-٧٤٥

إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القَضِيَّة، فتغيبتُ، فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام! وعقلُك عقلُك؟! ومثل الإسلام جهله أحد؟! وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتِ الله به. فقال: ما مثْلُه جهل الإسلام! ولو كان جعل نكايتَه وجِدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له، ولقَدَّمناه على غيره. فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة. قال: فلما جاءني كتابه نَشِطّت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرني مقالة رسول الله ﷺ. قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إنّ هذه لرؤيا. فلما قدمت المدينة قلت: لأذكُرَنَّها لأبي بكر. قال فذكرها، فقال: هو مَخرجُك الذي هداك الله للإسلام، والضيق: الذي كنت فيه من الشرك. فلمّا أجمعتُ الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم؛ فلو قدِمْنا على محمد فاتبعناه؛ فإن شرف محمد لنا شرف. فأبى أشدَّ الإباء، وقال:لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعتُه أبداً، فافترقنا. قلت: هذا رجل موتور يطلب وِتراً، قد قتل أبوه وأخوه ببدر. فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطوِ ما ذكرتُ لك. قال:لا أذكره. وخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي تُخْرَج إليّ، فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي لصديق، ولو ذكرت له ما أريد ! ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أذكره، ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل من ساعتي؟! فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صَب عليه ذنوب[1] من ماء لخرج. قال: وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه، فأسرع الإجابة، وقال: لقد غدوتَ اليوم وأنا أريد

---

(١) الذنوب، الدلو العظيمة. النهاية،ج٢،ص٥١.

أن أغدو، وهذه راحلتي بفخ[1] مناخة. قال: فاتَّعَدت أنا وهو بيأجَج، إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه. قال: فأدلجنا سحَراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجَج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها، فقال مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال : أين مسيركم؟ قلنا:ما أخرجَك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ. قال: وذلك الذي أقدمني. قال: فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة، فانخنا بظاهر الحرة ركابَنا، فأُخبِر بنا رسولُ الله ﷺ فسُرَّ بنا؛ فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي، فقال: أسرع؛ فإنّ رسول الله ﷺ قد أُخْبَر بك فَسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم. فأسرعت المشي فطَلَعْتُ عليه، فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلَّمت عليه بالنبوة، فردَّ علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله الا الله وأنك رسول الله. فقال: الحمد لله الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلاّ إلى الخير. قلت: يا رسول الله! قد رأيتَ ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق، فادع الله أن يغفرها لي. فقال رسول الله ﷺ: الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله. قلت: يا رسول الله على ذلك؟ فقال: اللهم اغفر لخالد كلّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك. قال خالد: وتقدم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله ﷺ وكان قدومنا في صفر سنة ثمان."[2]

ز- كما أعطت غزوة الحديبية بما انتهت إليه من الصلح ووقف القتال بين المسلمين وقريش فرصة للنبي ﷺ للتفرغ إلى لدعوة الناس والأمم الأخرى للإسلام؛ فقد بعث النبي ﷺ الكتب والوفود الرسمية لهرقل زعيم الروم، ولغيره، -مما سنتحدث عنه في موضعه إن

(١) في ابن كثير عن الواقدي، "بفج"، البداية والنهاية ،ج٤، ص ٢٣٩. وفخ،واد بمكة،معجم البلدان ، ج٦/ ٣٤١

(٢) الواقدي، المغازي، ٧٤٦/٤-٧٤٩ وانظر طرفاً من روايات إسلامهم عند أحمد في مسنده، ١٩٨/٤ -١٩٩، ٢٠٤-٢٠٥ وإحدى طرقه إسنادها صحيح على شرط مسلم، كما أخرجها مسلم في صحيحه وفيها: الإسلام يهدم ما قبله، كتاب باب الايمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله رقم ١٢١، وعلق عليها الساعاتي في الفتح الرباني ١٣٤/٢١-١٣٦ : بأنها رواية ابن إسحق وسندها جيد، وعلق اليهثمي في مجمع الزوائد ٣٥٠/٩ -٣٥١ فقال: رواه ابن إسحق، وسنده جيد، فالحديث صحيح، انظر تفاصيل التخريج في صحيح السيرة ص٣٨٧.

شاء الله تعالى– وكان قد تلت هذا الصلح أيضاً الفرصةُ لدخول مرحلة الدعوة والجهاد للدول العالمية، فكانت غزوة مؤتة–مما سنبحثها في موضعها إن شاء الله.–

حادي عشر: عمرة القضاء أو القضية أو الصلح أو القصاص:

وسميت بالقضاء والقضية؛ لأنها قضاء للعمرة التي لم تتم في السنة السادسة للهجرة والتي انتهت بصلح الحديبية.

وسميت بالصلح؛ لأن أحد شروط صلح الحديبية كان أن يعود المسلمون ذلك العام على أن يأتوا للعمرة في السنة التالية، وأن يقيموا بمكة ثلاثة أيام، وأن يدخلوا دون أسلحة سوى السلاح الفردي للعربي وهي السيوف في قرابها.

وسميت بعمرة القصاص؛ لأن الله تعالى أشار إليها بهذا الاسم في قوله :﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾البقرة: ١٩٤، لأن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عن العمرة في السنة السادسة؛ فاقتص رسول الله ﷺ منهم بدخوله بحسب الصلح في السنة التي تليها.[١]

وكان وقتها في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، حيث نادى رسول الله ﷺ في المسلمين بالخروج لأداء نسك العمرة، حتى وصل مكة، والمشركون من أهل مكة يصطفون عند دار الندوة– وكانت في الساحة شمال الكعبة– ينظرون الى النبي ﷺ وأصحابه، ويقولون: إن المسلمين في عسرة وإجهاد، وتعب؛ فإن حمّى يثرب قد أضنتهم وأضعفتهم وأمرضتهم، فلما سمع النبي ﷺ مقالتهم أمر أصحابه المحْرِمين بالكشف عن العضد اليمنى أو المناكب اليمنى وإظهارها، –وهو الاضطباع–كما أمرهم بالهرولة والمشي بافتخار واعتزاز، يُظهِرون لقريش عزهم وقوهم، ويُدخِلون الرعب في نفوسهم باستعراض، ثم قال

(١)انظر ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤/ ٦٩

قال ﷺ:" رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة، وأخذ عبد الله بن رواحة ينشد شعراً يستعرض به

قوة المسلمين ليغيظ الكفار.(١)

وقد تزوج رسول الله ﷺ بميمونة بنت الحارث وهي، من أهل مكة، وخالة الفضل بن عباس رضي الله عنه، وكان العباس رضي الله عنه وليها في الزواج، وذلك بعد الفراغ من عمرته ﷺ والتحلل من الإحرام، ودخل بها بمنطقة سرف بعد خروجه من مكة. وقد عرض على أهل مكة أن يُمهلوه ثلاثة أيام ليدعوهم إلى وليمة عرسه، لكنهم رفضوا، لأنهم مغتاظون جداً منه، فقد حقق الله له دخول مكة وزيارة البيت، وهو في غاية الراحة وهدوء البال، وأيضاً يتزوج من أهل مكة، ويريد أن يقيم حفلة عرسه في مكة منتصراً ومبتهجاً، ويدعوهم لذلك. رفضوا التجديد لبقائه والمسلمين في مكة بعد ثلاثة أيام، إذ" أتاه حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس في نفر من قريش في اليوم الثالث(...) فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا. فقال النبي ﷺ: "وما عليكم لو تركتموني فأعرست(أي تزوجت) بين أظهركم،وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه. قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا."(٢) فخرج النبي ﷺ وتزوج خارج مكة بسَرَف، وعاد مع أصحابه إلى المدينة في شهر ذي الحجة. وخلّف من أصحابه أبا رافع ليحمل ميمونة إليه في المساء، فماتت ميمونة رضي الله عنها في يومها ذاك بسَرَف، ودُفنت هناك.(٣).

---

(١) انظر تفاصيل الروايات في ابن هشام السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤ /٦٩ وأحمد في المسند، ١/ ٢٦٣٩، ٢٧٩٣ والنسائي، رقم ٢٩٤٥، والبيهقي في سننه، ٨٢/٥ وابن كثير في البداية والنهاية، ٢٢٧/٤ ــ ٢٢٩ ، وانظر رواية موسى بن عقبة في ابن القيم، زاد المعاد، ٣٢١/٣ -٣٢٢ وابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٥٠٠/٧ وانظر العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٣٧٥-٣٧٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٧٠/٤ ،والبخاري في كتاب المغازي، عمرة القضاء، حديث رقم ٤٢٥٩ معلّقاً.

(٣) انظر ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ٣٢٢ ــ ٣٢٣، وابن كثير، البداية والنهاية٢٢٩/٤ ــ ٢٣٠ وهو حديث مرسل ، وانظر طبقات ابن سعد ١٢٠/٢ ـ ١٢٣

المبحث السادس

فتح مكة أو غزوة الفتح العظم

أولاً: تاريخ فتح مكة:

خرج النبي ﷺ بجيشه في العاشر من رمضان في السنة الثامنة للهجرة على رأس ثماني سنين ونصف من هجرته، ودخل مكة فاتحاً يوم العشرين من رمضان أو تسع عشرة ليلة خلت منه.[١]

ثانياً: سبب الغزوة وأهدافها:

أ- كان من شروط صلح الحديبية أن لِقبائل العرب الحرية في دخول حِلف محمد أو حِلف قريش، وأن من يدخل مع أحد الطرفين؛ فلا بد له من أن يلتزم بقواعد الصلح. فدخلت قبيلة بني بكر في حِلف قريش، ودخلت قبيلة خزاعة في حِلف النبي ﷺ. وكان لبني بكر ثأر قبل البعثة النبوية عند خزاعة، فثارت بنو بكر، بتشجيع من قريش فاعتدت على خزاعة، وبمساعدة قريش سراً، فحاصروهم وقاتلوهم، وقتلوا منهم في الحرم، وقريش تنظر، حتى قالت بنو بكر: لقد دخلنا الحرم إلهك،إلهك يا نوفل القرشي! فقال: لا إله اليوم، فذهب عمرو بن سالم الخزاعي يُخبر رسول الله ﷺ أن بكراً وقريشاً قد قاتلوهم وقتلوا منهم في الحرم، وهذا الفعل من قريش مخالف لشروط صلح الحديبية؛ إذ لم يمض عليه سوى ثمانية عشر شهراً .وقد قدِم عمرو بن سالم الخُزاعي على رسول الله ﷺ في المدينة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني أصحابه فقال:

يا رب إني ناشد محـــــمداً حِلف أبينا وأبيه الأتلدا

---

(١) انظر،البخاري، كتاب المغازي،ب اب غزوة الفتح،رقم٤٢٧٦، ١٩٤٤، ١٩٤٨ ، ٤٢٧٩ ،ابن حجر، فتح الباري، ١٨١/٤وابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، رواية ابن إسحق بالتحديث، ٨٤/٤

قد كنتم ولداً وكنّا والدا ثمّة أسلمـــنا ولم نترع يدا
فانصر هداك الله نصـــراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبِدا أن قريشــــاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وزعموا أن لســت أدعو أحدا
فهم أذل وأقل عددا قد جعلوا بكداء مرصدا
هم بيتونا بالوتير هُجّــــدا وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

يقول: قُتلنا وقد أسلمنا. فقال رسول الله ﷺ:"نُصِرَت يا عمرو ابن سالم. فما برح رسول الله ﷺ مرت عنانة (أي سحابة) في السماء، فقال رسول الله ﷺ:" إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب."(١)

ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خزاعة، حتى قدِموا على رسول الله ﷺ، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ للناس:"كأنكم بأبي سفيان، وقد جاء ليشدَّ العقد، ويزيد في المدة."(٢)

ومضى بديل بن ورقاء في أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان، وقد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشد العقد، ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء، قال:من أين أقبلت يا بُديْل؟ فظن أنه أتى النبي ﷺ ،فقال: سِرْتُ في خزاعة في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي. قال: أوما جئتَ محمداً؟ قال: لا. فلما راح بديل إلى مكة، قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فأتى

(١) الخبر بطوله أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية، (مع الروض)، ٨٦/٤ من رواية ابن إسحق وسنده صحيح ورجاله ثقات، انظر ابن حجر ،الإصابة في تمييز الصحابة، ٥٢٩/٢، وهو عند ابن سعد في الطبقات، ٢ / ١٣٤ مختصراً ، وانظر سائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة، ص ٤٠٢

(٢) ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٨٦/٤

مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففتَّهُ، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.[1]

ب- قرر النبي ﷺ أن يخرج إلى قريش في عقر دارها ليفتح مكة، وينصر خزاعة على قريش وعلى بني بكر، لا سيما أن قريشاً قد أخلَّت بأهم شروط صلح الحديبية، وهو وضع الحرب والقتال والاعتداء عشر سنوات، ولم يمض بعد سوى ثمانية عشر شهراً حتى أخلَّت بالعقد، واعتدت وساعدت في العدوان على حليفة رسول الله ﷺ خزاعة.

دخل النبي ﷺ بيته، وأمر عائشة أن تجهزه للخروج إلى القتال، وأمرها بالسِّرِّية والكتمان، حتى كان والدها أبو بكر يسألها عن وجهة رسول الله ﷺ : وأين يريد، تقول : والله ما أدري،"ما سمى لنا شيئاً إلا أنه أمرنا بالجهاد، وبالتجهيز للخروج إلى القتال، وقال:"اللهم خذ العيون(أي الجواسيس) والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتَها في بلادها ."[2].

ثالثاً: أبو سفيان يطلب تجديد الهدنة:

شعرت قريش بخطئها في مناصرة حليفتها بني بكر على بني خزاعة حليفة المسلمين، فأرسلت زعيمها أبا سفيان حتى قدم المدينة، "فدخل على ابنته أم المؤمنين حبيبة رضي الله عنها، فلما أقبل ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه،فقال: يا بُنَيَّة! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟! قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شرٌّ.

ثم خرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلَّمه، فلم يردَّ عليه شيئاً. ثم ذهب إلى أبي بكر ﵁، فكلَّمه أن يكلم له رسول الله ﷺ، فقال:ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب

---

(١) المرجع السابق،وانظر ابن القيم ، زاد المعاد، ٣/٣٤٥

(٢) ابن هشام،السيرة النبوية٤/٨٧ وقد صرح ابن إسحق فيه بالتحديث، وانظر سائر تخريجاته في العي، صحيح السيرة النبوية، ص ٤٠٤

ﷺ، فكلمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ! فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتُكم به. ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ﷺ، وعنده فاطمة، وابنهما الحسن ﷺ غلام يدبُّ بين يديهما، فقال: يا علي! إنك أمَسُّ (أي أقرب) القوم بي رحماً، وإني قد جئتُ في حاجة، فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً، اشفَع لي إلى محمد. فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نُكَلِّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر! قالت :والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ. قال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني. قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقُم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مُغْنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني ما أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس! إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره، فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك! قال:جئت محمداً فكلمتُه، فوالله ما ردّ علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أعدى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري، هل يغني عني شيئاً، أم لا. قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، فقالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال:لا. قالوا: ويلك. والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.[١]

رابعاً:المسير إلى مكة وإسلام أبي سفيان:

جهَّز النبي ﷺ نفسه، وأمر المسلمين بالاستعداد والخروج دون أن يُعْلِمَهم بوُجهة المعركة القادمة، فكانت قواته عشرة آلاف مقاتل؛ من مهاجرين وأنصار ومن التحق به

(١)ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٨٧/٤

من المقاتلين من القبائل المسلمة الجديدة، من سليم ومزينة وغيرها. وعقد عليه الصلاة والسلام رايةً لكل قبيلة ،كما عقد ألوية المهاجرين والأنصار.

وتحرك الجيش المسلم نحو مكة. ولِتَعْمِيَة الأخبار على أهل مكة بعث النبي ﷺ سرية مكونة من ثمانية جنود إلى منطقة أخرى على قرب من المدينة، وكأنها دورية استطلاع للجيش الذي سيتجه إلى تلك المنطقة.

وفي الطريق إلى مكة لقي الرسولُ ﷺ العباسَ بن عبد المطلب ﵁، وقد خرج بأهله مهاجراً إلى المدينة –بعد أن مكث في مكة مسلماً بالسر سنوات كثيرة حسب إشارة النبي ﷺ عليه بذلك– فانضم إلى الجيش المسلم، حتى وصل الجيش منطقة قريبة من مكة (تسمّى مَرَّ الظهران)،حيث أدرك العباس أن الرسول ﷺ سيدخل مكة، فخرج على بغلة للنبي ﷺ يبحث عمن يبلغ قريشاً أن تستسلم حتى لا تكون ملحمة عظمى في مكة. وأوقد المسلمون نيرانهم، وعسكروا، وإذا بأبي سفيان وبُدَيْل بن ورقاء وحكيم بن حزام وبأهل مكة يرون النيران كثيرة، فظنوا أنها لخزاعة تريد أن تنتقم من بني بكر، ولكن أبا سفيان قال: إن خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. وسمع العباس صوت أبي سفيان فناداه وقال له: ويحك يا أبا سفيان! هذا جيش محمد لا قِبَلَ لكم به، ولئن ظفر بك ليضربن عنقك. فتعال معي استأمِنْه لك. فأردفه خلفه على البغلة حتى دخل به معسكر المسلمين، فعرفه عمر ﵁، وقام ليقتله، فحماه العباس، وأسرع به إلى رسول الله ﷺ، وأجاره، فاحترم المسلمون جوار عم رسول الله ﷺ وبات ليلته عند العباس؛ يقنعه بالإسلام حتى جاء الصباح، فجاء به العباس إلى رسول الله ﷺ، فأمسكه النبي ﷺ بجيب قميصه من أعلى، وقال له: ويحك! أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟ فقال: ما شككت بها قط.فقال:

وأن تشهد أني رسول الله؟ فقال: هذه في النفس منها شيء. فقال له العباس: ويحك! اشهد وإلا ضربت عنقك، فشهد شهادة الحق، وأسلم.(١)

خامساً:سقوط القيادة المشركة:

وبهذا سقطت قريش، وأسلم زعيمها المطاع. وأصبح في معسكر المسلمين. وقرر النبي ﷺ دخول مكة على أهلها، ورسم خطة الدخول؛ بحيث تدخل كتيبة عبد الله بن الزبير من جهة كُدَيّ، وتدخل كتيبة خالد بن الوليد -وكان أسلم حديثاً- من أسفل مكة من الجنوب، وهي ميمنة الجيش، وتدخل كتيبة الأنصار بقيادة سعد بن عبادة من الغرب، وتدخل كتيبة المهاجرين بقيادة أبي عبيدة من اتجاه جبل هند، وتدخل سائر القوات من الشمال، وقائدها الزبير بن العوام. وكانت أوامره ﷺ لقواده ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم.(٢)

وبعث رسول الله ﷺ من ينادي في مكة: أنه من دخل بيته فأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل الحرم فهو آمن. فهمس أبو سفيان للعباس: أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فهمس العباس لرسول الله ﷺ أن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل من دخل داره فهو آمن، فأرضى رسول الله ﷺ هذه النفسية، فأمر؛ بأن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.(٣) وأي شيء أكبر نصراً للإسلام من أن من كان قبل ساعات عدواً للإسلام يستجدي الآن رحمة الإسلام، ويفتح بابه لأمان الإسلام والمسلمين. بل إن في هذا النداء لضربة قاصمة لسائر زعامات قريش بعد أن استسلم زعيمها الأكبر أبو سفيان؛ حتى إن زوجته هند بنت عتبة لم تُطِق ولم تقبل ذلك الموقف منه؛ فلما وصل إليها أخذته من شاربيه تُعَنِّفُه، وتقول له: قبحك الله من طليعة قوم أنت، اقتلوا هذا االدسم الحميت-أي زِقَّ اللبن الأسود

(١) انظر المرجع السابق باختصار ٤ /٨٨-٩٠

(٢) انظر، المرجع السابق ٤/ ٩١

(٣)المرجع السابق٤ /٩٠

الدنيء– وهو يقول لهم: ويلكم! لا تَغُرَّنَّكم هذه المرأة من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به.[1]

سادساً:المسلمون يدخلون مكة:

دخلت كتائب جيش المسلمين كما نظمها رسول الله ﷺ مكة، وأمرها بعدم القتال، وعدم استباحة البيت الحرام، حتى لما قال سعد بن عبادة، وقد أخذته حماسة: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، أخذ النبي ﷺ الراية من يده، وأعطاها لابنه، وقال: اليوم يوم المرحمة، اليوم تُعَظَّمُ الكعبة.[2] وليس ذلك غريباً على رسول الله ﷺ، وهو رحمة الله للعاملين؛ يريد أن يدخل مكة، ويكسب أهلها للإسلام، ولا يريد أن يُذلَّهم ويقتلهم، فالإسلام دعوة لإحياء القلوب، وليس لقتل الناس، وللمحافظة على الحرمات لا لاستباحتها وإهدارها.

وقد أمر رسول الله ﷺ العباس أن يحشُر أبا سفيان في مضيق الوادي عى مدخل مكة، ويقف معه حتى يدخل الجيش الإسلامي أمام ناظريه؛ حتى لا تبقى في نفسه روح مقاومة للإسلام وأهله، وحتى يُسَرِّع من إيمانه ويقينه بعزة الإسلام وقوته. وبدأت القبائل المسلمة بألويتها وراياها تمر أمام ناظريْ أبي سفيان؛ فيسأل العباس:من هؤلاء يا عباس؟ فإذا قيل له هؤلاء بنو غِفار مثلاً، فيقول:مالي ولبني غفار... وهكذا حتى طلعت الكتيبة الخضراء، وأثارت الخيل بسنابكها الغبار، ومر رسول الله ﷺ على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير في المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، والرسول خافض رأسه إلى مُقَدِّمَة رحْله تواضعاً لله، قال أبو سفيان: من هؤلاء يا عباس؟!فقال: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. فقال أبو سفيان: لقد بات مُلْك ابن أخيك عظيماً اليوم يا عباس، فأجابه العباس

(١)المرجع السابق٤/ ٩٠ -٩١

(٢)انظر المرجع السابق٤/٩١

ﷺ: إنها النبوة يا أبا سفيان. ثم دخل أبو سفيان وهو يصيح بأعلى صوته: لقد جاءكم محمد بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل البيت فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.[1]

وهكذا دخلت كتائب الإسلام مكة سلماً دون قتال، كما خطط لذلك رسول الله ﷺ ، إلّا ما لقيت كتيبة خالد بن الوليد رضي الله عنه من بعض المقاومة، فاضْطُرَّت لقتل بعض المشركين اضطراراًَ؛ دفاعاً عن النفس، واستكمالاً لدخول مكة وتحريرها من الشرك. واستشهد رجلان من هذه الكتيبة، وهدأت مكة، واستأمن الناس في بيوتهم وفي الحرم، وعسكر النبي ﷺ في مكة، ولم يدخل هو وجيشه بيتاً من بيوتها.

سابعاً: الرسول ﷺ يدخل البيت الحرام:

استراح رسول الله ﷺ، حتى اطمأنَّ إلى دخول جيشه بأكمله مكة، ثم ذهب ومعه المهاجرون والأنصار حتى دخل البيت الحرام، فطاف بالبيت العتيق، وكان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً. وطلب مفتاح مكة، وأخذ يكسر هو وأصحابه تلك الأصنام، ويقول:"جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً."[2] ولما انتهى من تكسير الأصنام، وخرج الناس من بيوتهم، وتجمعت ألوف من أهل مكة في البيت أشرف عليهم رسول الله ﷺ، وقال: الحمد لله الذي صدق وعدَه، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ما تقولون وما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا :أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وأقول لكم ما قال يوسف لإخوته:لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.[3]. وبدأت جموع المشركين تدخل في دين الله أفواجاً.

---

(١)المرجع السابق ٩٢/٤

(٢)أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ، رقم٤٢٨٧، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد، باب تكسير الأصنام من حول الكعبة، رقم ١٧٨١ ، وانظر سائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة، ص٤١٥

(٣)ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٩٤/٤

وهكذا انتهى عهد الوثنية والشرك من مكة وإلى الأبد بفضل الله تعالى، ثم بالفتح العظيم، وعادت مكة إلى التوحيد بحمد الله، كما كانت في عهد ابراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وصعد بلال يرفع الأذان على ظهر الكعبة: الله أكبر الله أكبر.......لا إله الا الله.

ثامناً:دروس وعبر من فتح مكة:

أ- أقرت لنا أسباب الغزوة أن نصرة الحليف واجبة؛ ولذا فإنه لما سمع النبي ﷺ من عمرو بن سالم الخُزاعي أن قريشاً وحليفتها بني بكر اعتدوا على حليفة المسلمين خُزاعة وقاتلوهم في الحرم وقتلوا منهم، وساندهم قريش في العدوان، مُخالفة أحد شروط صلح الحديبية، أعلن النبي ﷺ ،صرته لحلفائه بني خُزاعة، وأنجد مستنجد خزاعة ومبعوثا إليه، وقال: نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم.

ب- أظهرت لنا الغزوة حَزم النبي ﷺ مع أعدائه؛ فلم يكلم أبا سفيان حين جاء لتجديد الهدنة، وللاعتذار عما حصل من خرق لأحد شروط الهدنة. كما ظهر لنا حزم كبار الصحابة حين استنجد بهم أبو سفيان ليشفعوا له عند رسول الله ﷺ، فلم يجيبوه إلى طلبه، وعاد إلى المشركين يائساً مُحْبَطاً.

ت- التمويه على العدو ومباغتته والسرية والكتمان فن من فنون القتال؛ كما فعل رسول الله ﷺ في المسير والتمويه بالسرية، وعدم ذكر وُجهة الجيش، وأنه يجوز أن يخرج المسلمون لقتال أهل العهد إذا أخلّوا بشروط عهدهم دون إشعارهم بذلك.[١].

ث- عرَّفتنا هذه الغزوة ثقة المسلمين بقائدهم جعلتهم يتجهزون ويمشون دون أن يعرفوا أين سيقاتلون؟ ومن سيقاتلون؟.

ج- أعطتنا هذه الغزوة-كغيرها- درساً في التخطيط والتنظيم.

(١)انظر التفصيل عند ابن القيم، زاد المعاد، ٣٦٤/٣، ٣٧٠

ح- أعلت هذه الغزوة خلق التواضع في حالة النصر؛ فالرسول يدخل مكة وهو واضع لحيته على مقدمة رحله؛ تواضعاً لله، وشعوراً بنعمته عليه بالنصر.

خ- إيمان أم حبيبة وولاؤها لله دفعها لأن تسحب فراش رسول الله ﷺ من تحت والدها أبي سفيان، فحبها لله ولرسوله جعلها تكره والدها المشرك النجس، ولا تجامله ولا توادُّه على على حساب دينها، رغم أنه أبوها .

د- كما تظهر شدة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحق ؛ فلم يجامل أبا سفيان، بل هدده والمشركين معه بالقتال، وأنه لو لا يجد إلا أصغر الأشياء، وهو الذَّرَّ لقاتلهم به.

ذ- تظهر في المعركة حنكة العباس وذكاؤه؛ حيث أقنع أبا سفيان بالاستسلام، ثم وضعه في المضيق حتى ينهي آخر روح للمقاومة في نفسه، فتخور عزائمه من رؤية عظمة جيش المسلمين الفاتح لمكة، حتى إن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان لم تطق موقفه، واتهمته في رجولته وزعامته.

ر- أظهر الرسول ﷺ أن شعار الإسلام هو الرحمة وليس القتل والبطش؛ فلما تحمس سعد بن عباده رضي الله عنه وأرادها ملحمة عاقبه النبي ﷺ فاخذ الراية منه، وقال: اليوم يوم المرحمة. ولما وقف في الناس خطيباً قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء... يغفر الله لكم.

ز- ظهر في فتح مكة بركة صلح الحديبية التي كانت فتحاً مبيناً، وكان فتح مكة الفتح الأعظم؛ فقد كان عدد من خرج من المسلمين يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة مسلم، بينما كان عدد المسلمين قد تضاعف بعد عامين من الحديبية، ليكون الخارجون مع رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم عشرة آلاف مقاتل.

س- تلقى المسلمون وإلى قيام الساعة درساً في ضرورة الولاء لله تعالى وحده، والتي نزلت فيه سورة الممتحنة ومن آياتها في الولاء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠

﴿ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الممتحنة: ١وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الممتحنة: ٨ – ٩ وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴾ الممتحنة: ١٣ . **وكل ذلك كان بسبب ضعف بشري وقع فيه صحابي من أهل بدر وهو حاطب بن أبي بلتعة ﷺ، حيث أطْلَعَه النبي ﷺ على سر التجهيز للخروج لفتح مكة، فما كان من الرجل إلا أن بعث كتاباً إلى قريش مع امرأة أخفَتْه في قرون شعرها، فأخبر الله رسولهﷺ بما فعل حاطب، وأرسل النبي ﷺ علياً والمقداد بن عمرو والزبير بن العوام للّحاق بالمرأة ليأخذوا منها الكتاب، وهددوها بالتفتيش الجسمي إن هي رفضت تسليمهمه لهم؛ وهم موقنون تمام اليقين أنه تُخفيه، فهو أمر أوحى الله به لرسوله ﷺ. فلما رأت المرأة منهم الجِدَّ والإصرار طلبت منهم غض البصر وإدارته عنها؛ حتى تُخرج الكتاب من شعرها، رغم أنها امرأة مشركة فإنها ذات حياء؛ فلا تسمح لنفسها أن يرى رجال أجانب منها شعرها!**

ولما علم عمر بما فعل حاطب استأذن النبي ﷺ أن يضرب عنقه، فاستمهله النبي ﷺ حتى سأل حاطباً عن الأمر، فاعترف حاطب، وأقسم أنه لم يكفر بالله ولا برسوله، ولكنها حالة ضعف بشري انتابته، وقال معتذراً عما فعل، ومسوغاً لتلك السقطة التي وقع فيها:"كنت امرءاً لصيقاً بقريش، (أي تابعاً وليس منها في الأصل) ولي منهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت أن يكون لي يد عندهم يحمون قرابتي. فقال عمر: دعني أضرب عنقه يا رسول الله، فقد خان الله ورسوله ونافق. فقال رسول الله ﷺ: إنه شهد بدراً، وما يدريك لعلّ الله قد اطلع على

أهل بدر فقال:اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم."[1] ومن هذا نفهم أنه لا يجوز للمسلم أن يوالي الكفار اعتقاداً ولا سلوكاً ولا مودة على حساب دينه وإيمانه، وبما يُلْحِق الضرر بأُمة الإسلام. كما نأخذ كذلك عبرة مفادها: أن المسلم قد يعتريه ضعف فيفعل فعلاً خطأً دون تغيير إيمانه، وأن المسلم والقائد يعذر لحظة الضعف البشري لأخيه المسلم إذا كان معروفاً بصلاحه وكان صاحب سابقة خير وفضل، فيشفع له ماضيه الطيب عن سوء يقع منه، وخصوصاً أن جريمة التجسس لم تتم.

ش- وثمة درس في ضرورة احترام المسلم لذمة أخيه المسلم، فلما جاء أبو سفيان مع العباس إلى معسكر رسول الله ﷺ، فلما رآه عمر بن الخطاب قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ولحق به وهو مع العباس حتى دخل على رسول الله ﷺ يستأذنه في ضرب عنقه، فقال العباس: إني قد أجرته-دخل في جواري وحمايتي- أتضرب يا عمر وجه عم رسول الله ﷺ؟! فكفّ عمر ﷺ عنه، ولما تنازع العباس مع عمر بشأنه قال: "يا عباس! والله كان إسلامك أحبّ إليّ من إسلام الخطاب."[2]-أي والد عمر- وهكذا احترم عمر ﷺ جوار العباس ﷺ وحمايته لأبي سفيان كما أن أم هانئ بنت أبي طالب، بنت عم رسول الله ﷺ قد أجارت حموين-أي أخوي زوجها- فقال رسول الله ﷺ:"قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ. "[3].

ص- كما يظهر من الحوار الذي دار بين رسول الله ﷺ وأبي سفيان حين جاء به العباس، وبات ليلة كاملة يدعوه إلى الاسلام ويقنعه بدخوله، وقال له رسول الله ﷺ:"ويحك يا أبا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، والرواية بطولها من تحديث ابن إسحق عن عروة بن الزبير ٨٨/٤. وانظر أحمد في المسند ٦٠٠/١ عن علي، وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، رقم٤٢٧٤، وباب من شهد بدراً رقم٣٩١٣، وانظر سائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة، ص ٤٠٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، ٩٠/٤، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٤/٦-١٦٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، وابن كثير في البداية والنهاية، ٢٨٩/٤، وابن القيم، زاد المعاد، ٣٥٠/٣، وانظر سائر تخريجاته عن، العلي، صحيح السيرة، هامش ص ٤٠٦.

(٣)البخاري،الجهاد رقم٣١٧١

سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله الا الله؟ فقال:بأبي وأمي، ما أحلمك وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك، لقد كان يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد– وفي رواية ما شككت بها قط– فقال له: ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي وأمي ما أحلمك، أما هذه ففي النفس منها شيء حتى الآن."(١)

ويظهر من هذا الحوار أن المشركين لم يكونوا يكفرون بوجود رب، ولكنهم لم يكونوا يعترفون له بالتوحيد في العبادة، ولكنهم كانوا يحسدون رسول الله على النبوة؛ ولذلك يقرر أبو سفيان أنه لم يكن ينكر شهادة أن لا اله الا الله، ولكنه كان ينكر نبوة رسولنا محمد ﷺ. ومعلوم أن هذا الإيمان لا يُقبل؛ لأن توحيد المرسِل وهو الله لا يكون إلا بتوحيد المرسَل وهو محمد الرسول المبعوث برسالة التوحيد.

ض– ثمة درس في الأمل بنصر الله، والذي لا يصح أن يفارق الداعية في جميع ظروفه؛ في المحنة والاضهاد أو في القوة والتمكين. وهذا واضح في قصة رواها عثمان بن طلحة، وقد كان مفتاح الكعبة في الجاهلية من اختصاص عشيرته، وكان يفتح الكعبة يومي الإثنين والخميس، ولما جاء النبي ﷺ بعد مبعثه وهو في مكة يريد دخول الكعبة أغلظ له طلحة بالقول، ونال منه عليه الصلاة والسلام وشتمه، فحَلم النبي ﷺ عليه، ثم قال له:يا عثمان! سترى هذا المفتاح يوماً بيدي؛ أضعه حيث شئت. ومضى الزمن حتى كان يوم الفتح الأعظم أخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، وحررها من الأصنام وخطب الناس، ثم قال: أين عثمان؟ فجاء عثمان، ودفع له النبي ﷺ مفتاح الكعبة بعد أن نزعه منه، وقال: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، هاك(أي خُذ) مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء. يا عثمان ألم يكن الذي قلتُ لك؟ فيقول عثمان: لقد تذكرت قوله

(١)نفس التوثيق السابق.

لي بمكة قبل الهجرة(أي فترة الضعف يوم أغلظَ للنبي ﷺ في القول): لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعُه حيث شئت.فقلت: بلى، أشهد أنك رسول الله.[(١)].

ط- كما نلاحظ أن النبي ﷺ لم يعامل مكة أرض فتوح من حيث الغنائمُ وتقسيمُها؛ لأن مكة فيها شيء آخر يمنع من قسمتها كسائر من عَداها من البلاد؛ فهي"لا تُملك فإنها دار النُسُك، ومُتَعَبَّدُ الخَلْق، وحَرَم الرب تعالى الذي جعله للناس، سواء العاكف فيه والباد، (أي الساكن فيها والقادم إليها) فهي وقف من الله تعالى على العالمين، وهم فيها سواء ومنى مناخ(سكن في الحج) لمن سبق."[(٢)]

ظ- وثمة درس كبير نافع للدعاة في هذه الغزوة، وهو ألا يستعجل المسلمون الأمر قبل أن تنضج أسبابه؛ فلو أن المسلمين في مكة قبل الهجرة كسروا صنماً واحداً من أصنام البيت لتَأَلَّبَت عليهم جميع قبائل العرب، إذ كيف يكسرون أصنامهم، وهي آلهتهم التي يعبدونها! وقد كان المسلمون يصلون في المسجد الحرام والأصنام داخل مبنى الكعبة، واعتمروا ولأاصنام في الكعبة. ولكنهم حينما دخلوا مكة في الفتح الأعظم وكسروا الأصنام لم يجدوا واحداً من المشركين يقف في طريقهم أو يحمي صنماً منها، أو ينتحر حزناً عليها. فالأصنام حجارة إن كسرت في غير وقتها، وبدون الإعداد لتخليص قلوب الناس من التعلق بها حدثت فتنة تحرق الأخضر واليابس، ويصنع الكفار بدل المكسور منها ما هو أكبر وأجمل نكاية بالمسلمين. إذن لا بد من إسقاط النظام الجاهلي أولاً، وإخراجه من قلوب الناس، لتسقط الأصنام بأبسط الوسائل، فإن هُبَلَ النظام الكافر أخطر من هُبَلِ الصنم الحجر، وهُبَل الأوضاع الجاهلية والطواغيت البشرية أشدّ عُتُوّا وأَجمد قلباً من الأوثان الأوثان الحجرية .

---

(١)انظر ابن هشام،السيرة النبوية ٩٤/٤ ، ابن سعد في الطبقات ١٣٦/٢ -١٣٧ باختصار، ابن القيم ، زاد المعاد ٣٥٦/٣

(٢)ابن القيم،زاد المعاد ٣٧٤/٣

ع- ولا بد أن نقف كثيراً عند درس تَخَوُّف الأنصار بعد فتح مكة من أن يستقر رسول الله ﷺ في مكة، وقد عاد إليها، وهي خير بقاع الأرض، حيث البيت العتيق والوطن الأصلي ومسقط الرأس الذي قال فيه النبي ﷺ سابقاً: والله إنكِ لأحب أرض الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت. فضلاً عن الأجر العظيم في العبادة والصلاة في المسجد الحرام. فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﵁ وهو يروي دخول رسول الله ﷺ البيت قال: "ثم أتى الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه. قال: والأنصار تحته. قال: يقول بعضهم لبعض: أما الرجل (اي النبي ﷺ) فأدركته رغبة في قريته، (أي مكة) ورأفة بعشيرته. قال أبو هريرة﵁: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يَخْفَ علينا، فليس أحد الناس يرفع طرفه (أي بصره) إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي، (أي ينتهي ويغادره الوحي) فلما قضى الوحي رفع رأسه، ثم قال: يا معشر الأنصار! قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله. قال : فما أسمي إذن؟ كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم؛ فالمحيا محياكُم، والمماتُ مماتُكم. قال: فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله ورسوله (أي بخلنا بك على غيرنا، وآثرنا أنفسنا بك على غيرنا حباً لله ورسوله) قال: فقال رسول الله ﷺ: فإن الله ورسوله يصدّقانِكم ويَعْذُرانِكم."(١)

وكيف لا يَضِنُّ الأنصار برسول الله، وكيف لايحرصون على بقائه في المدينة على رأسم وقد أكرمهم الله به فجمعهم على الإسلام بعد فرقة وحروب، وأكرمهم بدولة الإسلام مع إخوانهم المهاجرين، وحقق الله النصر بنبوته على أيديهم وأيدي إخوانهم؟! كيف يُفَرِّطون برسول الله؟ وكيف لا يتخوفون من أن يترك المدينة عاصمة القلوب،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد، باب فتح مكة،رقم١٧٨٠ ورواية عند ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)،٩٥/٤ وانظر سائر تخريجاته عند أبي داود والنسائي وأحمد وابن أبي شيبة في صحيح السيرة ،ص٤١١

وعاصمة الإسلام، وسويداء القلوب فيها محمد ﷺ رسولهم وحبيبهم؟! ولقد قدر النبي ﷺ للأنصار وِقفتهم مع دين الله ورسوله؛ حباً ونصرة وتضحيات، فأكرمهم وآثر مدينتهم دار هجرته على أحب بلاد الله إليه، مكة ،دار ولادته وموطن رأسه، فغير مفاهيم الوطن والوطنية من الأرض والتراب إلى الإيمان وهوية الإسلام، ومن عاصمة الجغرافيا الطبيعية إلى عاصمة جغرافيا التوحيد والإسلام والولاء لله، والانتماء للأمة السلمة.

تاسعاً: نتائج الفتح الأعظم وآثاره:

أ- انتصار الإسلام بإزالة الخطر الكامن في أعتى دولة للشرك في الجزيرة العربية، وحسم الصراع معها؛ إذلم تعد دولة ذات كيان جامع ومُجْمَع عليه لدى العرب تقاوم الإسلام، فقد تحررت مكة بلد التوحيد من الشرك ديناً، كما تحررت من قوى الظلم والطغيان سياسة، وأصبحت ولاية مسلمة من ولايات دولة الإسلام وعاصمتها المدينة؛ فقد استخلف رسول الله ﷺ عتَاب بن أسيد والياً مسلماً على مكة، ومعاذ بن جبل فقيهاً فيها يعلم الناس دينهم. وبذلك انكسرت شوكة الشرك في الجزيرة إلى غير رجعة، وكما قال رسول الله ﷺ عن مكة:" لا تُغزى هذه بعد اليوم إلى يوم القيامة."(١) ولم يبق بعد فتح مكة مركز لِثقَل معسكر الشرك إلا في قبلتي هوازن وثقيف، حيث حاولتا ملء الفراغ وقيادة المشركين لحرب الإسلام،(٢) إلا أن رسول الله ﷺ لم يغادر مكة بعد الفتح حتى قضى على الشرك فيهما بغزوة حنين وحصار الطائف.- كما سيأتي في المبحث القادم- وكان لهذا الفتح بالتالي أثره العظيم في دخول الناس في دين الله أفواجاً، كما قرر الله سبحانه في سورة سماها النصر حيث قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ

(١)الترمذي، سنن الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة رقم ١٦١١ وقال الترمذي: حسن صحيح، وأحمد في مسنده٤١٢/٣ ، ٣٤٣/٤ ، والبيهقي في دلائل النبوة٥ /٧٥ وإسناده صحيح انظر صحيح السيرة ص ٤٢٢

(٢)انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة٤٨٨/٢

يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ النصر: ١ ــ ٣.

ب- إن إزالة مظاهر الشرك من مكة بتكسير رسول الله ﷺ والمسلمين أصنامها قد طهرها لتعود الكعبة، والبيت العتيق إلى أصل ما بُنِيَا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. وقد كان" في البيت وحوله ثلاثمائة وستون صنماً تُعْبَدُ من دون الله عز وجل، فأمر بها رسول الله ﷺ فكُبَّت كلها على وجوهها، وحُطِّمت ورسولنا يردد قوله: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ الإسراء: ٨١

ثم دخل رسول الله ﷺ البيت فصلّى ركعتين، فرأى فيه تمثال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقد جعل المشركون في يد إبراهيم الأزلام يستقسم بها، فقال رسول الله ﷺ: "ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام، ثم دعا بزعفران فلطَّخه بتلك التماثيل،"[(١)]حتى يطمسها، ولا يُبقي لها أثراً.

ت- كان عدد القتلى من المشركين قليلاً؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد أوصى المسلمين بعدم القتال، ولأنه لا يريد ملحمة في البيت الحرام والبلد الحرام. وما وقع من القتل كان في حالات اضطرارية كما حصل في مناوشة للمشركين مع دورية خالد بن الوليد فقُتل فيها كرز بن جابر، وخنيس بن خالد بن ربيعة، وكما وقع عند ابن إسحق -بصيغة التحديث- أنه أصيب من المشركين ناسٌ قريب من اثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً، ثم انهزم باقي المشركين.[(٢)]

ث- وكان من نتائج الغزوة إهدار دم أثر الحاربين للاسلام والمؤذين لرسول الله ﷺ؛ وكان منهم رجل كاد النبي ﷺ أن يأمر بقتله؛ لأنه كان قد أسلم، وكان يكتب لرسول

---

(١) أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف، رقم ١٨٧٥١، حسنه ابن حجر في المطالب العالية، رقم ٤٣٦٤، وثمة لفظ قريب منه في البخاري حديث رقم ٣٣٥٢، وعند أبي داود في سننه، رقم ٢٠٢٧

(٢) انظر ابن هشام ، السيرة النبوية،(مع الروض)، ٤ / ٩٢

الله ﷺ الوحي، فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش، وهو عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكان أخا رضاعة لعثمان بن عفان ﷺ، وقد شفع له عثمان وجاء به ليستأمن له، فسكت النبي ﷺ ليقوم إليه بعض المسلمين بضرب عنقه، فلم يفعل أحد منهم ذلك، ولما راجعوا النبي ﷺ لِمَ لَمْ يأمرهم بقتله ولو بالإيماء قال:"إن النبي لا يقتل بالإشارة –وفي رواية أخرى– أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كَفَفْتُ يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلاّ أومأْتَ إلينا بعْينك.قال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين."(١) فأسلم ذلك الرجل، وكان والياً لعمر ولعثمان رضي الله عنهما من بعده، وكان ممن فتح مصر.(٢)

كما أمر رسول الله ﷺ صراحة بإهدار دم قادة الشرك المؤذين للإسلام ولرسوله؛ فقد روى سعد بن أبي وقاص، قال:" لما كان فتحُ مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خَطَل، وقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح. فأما؛ عبد الله بن خطل فأُدْرِكَ وهم متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد ابن حريث(...) فقتله، وأما قيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر ، فأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة: اخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجِّني من البحر إلا الإخلاص لا ينجني في البر غيره. اللهم إن لك عليّ عهداً إن أنت عافيتَني مما أنا فيه أن آتي محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلأَجِدَنَّه

---

(١) الرواية الأولى عن ابن هشام، السيرة النبوية **٩٢/٤**، والرواية الأخرى في**:** سنن النسائي، كتاب الذم، باب حكم المرتد، **٧/ ١٥٠ – ١٠٦** وسنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب قتل الأسير، رقم **٢٦٨٣**، وهو صحيح ورجاله ثقات، وهم رجال الصحيح**.** انظر سائر تخريجاته ،العلي، صحيح السيرة، ص٤١٤

(٢) انظر السيرة النبوية، **(**مع الروض**)**، **٤/ ٩٤، ١٠٣**

عفُواً كريماً، فجاء فأسلم،"[1] وكان قد استأمنتْ له رسولَ الله زوجتُه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، إذ كانت قد أسلمت، فأعطاه النبي ﷺ الأمان .[2]

وكان أيضاً في الغزوة من الإذن بالقتل ما أذن رسول الله ﷺ لخزاعة أن تثأر لقتلاها، فتنتقم من قبيلة بني بكر، وقد فعلت ووقعت خطأً في قتل رجل من بني بكر أعلن إسلامه، فدفع النبي ﷺ لبني بكر دِيَته. وكانت استباحة القتال تلك ساعة من نهار في مكة استثنائية، أحل النبي فيها القتال وقتل المشركين حيث قال:" إن مكة حرَّمها الله، ولم يُحَرِّمها الناس، لا يحل لامريء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد(أي يقطع) بها شجراً، فإن أحدٌ ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسول الله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب."[3]

ج- وقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يهدي من أُهدرت دماؤهم، وأن يدخلوا في الإسلام ويصلح حالهم ومنهم بالإضافة إلى من مرَّ ذكرهم قبل قليل:

١- صفوان بن أمية: وقد كان عدواً لرسول الله ﷺ وللإسلام، وكان ثالث ثلاثة مع عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وقد جمعوا جموعاً في الخندمة ليقاتلوا رسول الله ﷺ وهو داخل إلى مكة، ولما حاولت امرأة أن تَثنيهم عن ذلك لقوة محمد وأصحابه؛ قال من كان معهم: -من اعتزازهم بأنفسهم -والله لأرجو أن أُخْدِمَك بعضه، ثم لما رأوا سرية خالد بن الوليد هرب ثلاثتهم. صفوان بن أمية؛ أسلمت زوجته فاختة بنت الوليد ، "وهرب هو إلى جدة ليركب سفينة إلى اليمن، فقال عمير بن وهب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هارباً منك فأَمِّنْه. فأعطاه النبي ﷺ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر، المرجع السلبق، ١٠٥/٤

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حدثني محمد بن بشار ، رقم ٤٢٩٥، وصحيح مسلم ، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، رقم ١٣٥٤، ١٣٥٣، ١٣٥٥ ، وانظر سائر التخريجات في، العلي، صحيح السيرة، ص ٤١٥

الأمان، وأعطى عميراً عمامته علامة على الأمان، ولحق عمير بصفوان وهو يركب يريد ركوب السفينة، يقول له: يا صفوان، فداك أبي وأمي! اللهَ اللهَ في نفسك أن تهلكها؛ فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتُك به. وصفوان يجيبه: ويحك! لا تكَلِّمْني، أنت كذاب، وابتعد عني، وإنه خائف من القتل. وما زال عمير يناديه ويقنعه، ويذكر له أن رسول الله ﷺ أفضل الناس وأبرهم وأحلمهم، وخيرهم وأنه من أولاد عمومتك، وأنه؛ عِزُّه عِزُّك، وشَرَفُه شَرَفُك، وما زال به حتى أرجعه، وأخذه إلى رسول الله ﷺ، وما زال خائفاً، وغير مقتنع بدخول الإسلام، وقال لرسول الله ﷺ: إن هذا يزعم أنك قد أمَّنْتَني. فقال رسول الله ﷺ: صدَق. قال: فاجعلني بالخيار شهرين. فقال له: أنت بالخيار أربعة أشهر. ثم بعد ذلك أسلم صفوان وحسن إسلامه."[1]وهكذا كان حِلم رسول الله عليه سبباً في مساعدة نفسه عليه؛ إذ منحه من مهلة التفكير واتخاذ القرار ضعف المدة التي طلبها، ولم يتعجَّله رسول الله ﷺ في اتخاذ القرار بإعلان الإسلام تحت وطأة الخوف من القتل.

٢- سهيل بن عمرو: ويذكر هو نفسه قصة إسلامه بعد فتح مكة ودخول رسول الله ﷺ إليها؛ حيث رمى بنفسه في بيته، وأقفل عليه بابه لا يخرج، خائفاً القتل، وذاكراً لما كان يؤذي رسول الله ﷺ، وما كان منه من قسوة، وقلة أدب في مفاوضته له يوم عقد صلح الحديبية، ومواقفه في حربه للمسلمين في بدر وأحد، وذهب ابنه المسلم عبد الله يطلب الأمان له من رسول الله ﷺ، فأعطاه النبي ﷺ الأمان وقال: من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدّ النظر إليه، فليخْرُجْ، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثلُ سُهَيْل جَهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافع. فعاد عبد الله إلى أبيه سهيل بالأمان، فقال سهيل عن رسول الله ﷺ: كان والله بَرّاً؛ صغيراً وكبيراً. وكان يخرج في

(١) انظر ابن هشام ، السيرة النبوية، (الروض)،من رواية ابن إسحق بالتحديث، ٤ / ٩١ ،١٠٥

مكة دون أن يتعرض له أحد من المسلمين، وبقي على شِرْكِه حتى أسلم بالجُعُرّانة، وخرج مع المسلمين في حنين.[١]

ح- إسلام أبي قحافة، والد أبي بكر الصديق‌ﷺ: روت السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت:" لما وقف رسول الله ﷺ بذي طُوى،[٢] قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده: أيْ بُنَيَّة! اظهري بي على أبي قبيس.[٣] قالت: وقد كُفَّ بصرُه، قالت: فأشرفت به عليه، قال: يا بُنَيَّة، ماذا تَرين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مُقْبِلاً ومُدْبِراً، قال: يا بنية ذلك الوازع(يعني الذي يأمر الخيل، ويتقدم إليها)، ثم قالت: قد والله انتشر السواد، فقال: قد والله إذا دفعت الخيل؛ فأسرعي بي إلى بيتي، فأغطَّت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته، وفي عنق الجارية طَوْق لها من وَرِق، (أي من فضة) فتلقاها رجل فاقتطعه من عنقها. قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد أتاه أبو بكر ﷺ بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه. قال أبو بكر: يا رسول هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه. قال: فأَجْلَسَهُ بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أَسْلِمْ، فأسلم، ودخل به أبو بكر ﷺ على رسول الله ﷺ ورأسه كأنه ثغامة،[٤] فقال رسول الله ﷺ: غيروا هذا من شعره. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته، فقال: أنشد بالله وبالإسلام طَوْق أختي، فلم يُجِبْهُ أحد، فقال: يا أخية احتسبي طوقك."[٥]

---

(١)انظر الرواية عند الواقدي، المغازي٨٤٧/٣

(٢)ذي طُوى:موضع معروف قرب مكة.

(٣)اظهري بي على أبي قبيس: اصعدي بي على جبل أبي قبيس وهو الجبل المحاذي للكعبة والمسجد والحرام من الجهة الجنوبية لأنه كان كفيف البصر.

(٤)ثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه الشيب، وهو لون للشيب غير جميل.

(٥)ابن هشام السيرة النبوية،(مع الروض)، عن ابن إسحق بصيغة التحديث، وسنده صحيح، ٩١/٤ ، وقد خرجه إبراهيم العلي في تخريجه صحيح السيرة ص٤١٨فال: أخرجه ابن حبان في الموارد، ١٧٠٠ ، وابن إسحق في المغازي بسند صحيح رجاله ثقات،

خ- كما أسلم كثير من النساء المشركات يوم فتح مكة، وكان منهن: هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، والتي تآمرت على قتل حمزة رضي الله عنه، وأم حكيم بنت الحارث امرأة عكرمة بن أبي جهل في عشر نسوة من قريش. وقد طلبت هند من النبي ﷺ أن يعفو عنها لما كان من موقفها من حمزة، وقالت:" يا رسول الله: الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لِتَمَسَّني رحمتُك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله مُصَدِّقة. ثم كشفت عن نقابها، فقالت: هند بنت عتبة، والله يا رسول الله! ما كان على ظهر الأرض أهل خِباء (أي أهل وعشيرة) أحبَّ الي أن يُذَلّوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهلُ خباء أن يُعَزّوا علي من أهل خبائك.

ثم بايع رسول الله ﷺ النساء من غير مصافحة، إذ قالت هند: نماسحك(أي نصافحك) يا رسول الله؟ فقال: إني لا أصافح النساء إن قولي لمائة امرأة مثلُ قولي لامرأة واحدة[1]. وكان النبي ﷺ يبايع النساء يقول لهن:" أبايعكن على ألاّ تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصين في معروف. فكُنَّ يقلن: نعم فيما استطعنا."[2]واما مبايعته ﷺ الرجال فكانت مصافحة. وبعد فتح مكة كانت على الاسلام والإيمان والجهاد، وليس على الهجرة فحين طلب أحد المسلمين أن يبايع النبي أخاه على الهجرة قال ﷺ: "ذهبت الهجرة بما

وقال الهيثمي في المجمع،١٧٣/٦ ، ١٧٤ ، رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات، والبيهقي في الدلائل، ٩٥/٥ -٩٦، والحاكم في المستدرك، ٤٦/٣ – ٤٧، وقال، صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

(١) انظر الرواية في الواقدي، المغازي٨٥٠/٢- ٨٥١ ، وأكثر الرواية في صحيح البخاري،بشرح فتح الباري، كتاب الأيْمان والنَّذر، باب كيف يمين رسول الله ﷺ، رقم٦٦٤١، ٥٣٥/١١ ، وصحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند، رقم ١٧١٤، ١٣٣٩/٣، وانظر سائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة، ص٤٢١

(٢) أحمد، المسند ٣٦٥/٣، ١٦٨/٤ بسند حسن.

فيها، وبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد. ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استُنْفِرتُم فانفروا."[1]

د- وكان من آثار فتح مكة توجيه عدد من السرايا والبعوث لاستكمال الفتح، وتطهير الجيوب المحيطة بمكة وبقايا تجمعات المشركين التي نُظِّمت للدفاع عن مكة، ولتحطيم بقية الأصنام المبعثرة في تلك المناطق المحيطة بمكة وعند قبائل عربية مشركة بعد تطهير البيت الحرام من الأصنام.

وبَعْثُ السرايا بعد الغزوات الكبرى كانت دِيْدن رسول الله ﷺ وعادته في فلسفة الجهاد والقتال؛ لأن أغراض الجهاد لم تكن مجرد الانتصار في المعركة أو إفشال خطط العدو في اقتحام المدينة، أو لمجرد الدفاع عن دولة الإسلام وعاصمته فحسب، وإنما لنشر دعوة الإسلام، ولإقامة علاقات سِلْم مع القبائل والتجمعات التي لم تشترك مع قريش في القتال،بهدف مسالمتها وموادعها، أو اكتفاء شرها، أو إقامة علاقات آمنة معها، أو لتخويفها وإظهار قوة المسلمين عندها، فتهابَ المسلمين وتحسبَ لهم ألف حساب، فلا تعتدي عليهم، ولا تساعد قريشاً في العدوان عليهم، ولفسح مجال الحركة للمسلمين وتأمين تنقلاتهم، وتسهيل حركة نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل لينتهي بها الأمر إلى الإسلام بطريق الكلمة والبيان، لا بطريق القتال والسِّنان. ومن أهم السرايا لتحقيق بعض هذه الأهداف بعد فتح مكة مما يُعَدُّ استمراراً للفتح ونتائجه وآثاره مباشرة ، كانت السرايا الآتية:[2].

(١) انظر الروايات في صحيح البخاري في كتاب المغازي، باب وقال اللبث الأحاديث رقم ٤٣٠٥-٤٣٠٨، وكتاب الجهاد، باب لا هجرة بعدالفتح، رقم ٣٠٧٧، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة عند فتح مكة، رقم ١٨٦٣، وكتاب الجهاد، باب المبايعة بعد فتح مكة، رقم ١٣٥٣، وانظر سائر التخريجات من كتب السنن ومسند أحمد في هامش (١) ، (٤) من، العلي، صحيح السيرة، ص٤٢٠

(٢) انظر ابن القيم ، زاد المعاد ٣/ ٣٥٩ -٣٦٢، وانظر الواقدي، المغازي، بالتفصيل ٨٧٥/٣ -٨٨٤، وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٠٩/٤-١١٢

١- سرية خالد بن الوليد إلى العزى في الخمس الأواخر من شهر رمضان، وكان الفتح قد تم بدخول رسول الله ﷺ مكة في العشرين من رمضان، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً من أصحابه إلى أهل شيبان، وهم كهنة صنم العزى، فلم يجد أحداً حيث هرب سكان المنطقة خوفاً، فعاد خالدثم أرسله النبي ﷺ ليهدم صنم العزى.

٢- سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى صنم مناة، وكانت عند قديد للأوس والخزرج وقبيلة غسان في الجاهلية، وكان قوامها عشرين فارساً، فكسروا الصنم وهدموه، وكان في ذلك في آخر ستة أيام من رمضان بعد فتح مكة.

٣- سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، ومعه ثلاثمائة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سُلَيْم. وقالوا لخالد إنهم مسلمون مُصدِّقون بمحمد، وبَنوا مساجد في ساحاتهم. ومع ذلك أمرهم خالد بإلقاء السلاح وأسرهم، وأمر بقتل الأسرى، ولربما أخطأ وتوهم أنهم لم يسلموا فقتل بنو سليم من كانوا بأيديهم من الأسرى، وعفا المسلمون من الأنصار والمهاجرين عن أسراهم خلافاً لخالد. فغضب النبي ﷺ من فعلة خالد، وقال:"اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد."[١] وبعث لهم دِيات قتلاهم لما وقع فيه خالد بن الوليد من الخطأ في قتلهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي خالداً إلى بني جذيمة، رقم٤٣٣٩ ، ٧١٨٩١ .

المبحث السابع:

غزوة حنين أو هوازن أو أوطاس

أولاً: تسمية الغزوة:

سُمِّيت هذه الغزوة غزوة حُنين نسبة الى المكان الذي وقعت فيه المعركة، وهو مكان حُنين. كما سُميت بغزوة هوازن نسبة إلى قبيلة هوازن التي اشتبك معها المسلمون في هذه الغزوة. كماسميت بأوطاس نسبة إلى وادي أوطاس الذي تسكن فيه هوازن.(١)

ثانياً: تاريخ الغزوة:

كانت غزوة حنين شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة،(٢) وعند الواقدي :أنه بدأ خروج رسول الله ﷺ في أواخر ليلتين من رمضان، وسار يوم السبت لستٍّ ليال خلون من شوال، وكان وصوله ﷺ إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون منه.(٣)

ثالثاً: سبب غزوة حنين وأهدافها:

أ- لما فتح الله مكة للمسلمين، ضَعُف موقف هوازن وثقيف فلم يبق على الشرك غيرهما، وتأكدتا أن المسلمين سيفرغون لهما، فقررتا أن تصبحا قاعدة للشرك بديلاً عن مشركي مكة، فقام مالك بن عوف النضري بجمع هوازن وثقيف وجشم كلها وسعد بن بكر وناساً قليلاً من هلال، وجمعوا أموالهم ونساءهم وذراريهم حتى لا يفكروا بالهزيمة لحرب رسول الله ﷺ(٤).

---

(١) انظر، هامش ابن القيم، زاد المعاد، ٤٠١/٣-٤٠٢.

(٢) انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٢١/٤

(٣) انظر، الواقدي، المغازي، ٨٨٩/٣ ، ٣٩٢.

(٤)انظر ابن هشام، السيرة النبوية١٢١/٤، الواقدي، المغازي٨٨٥/٣ فما بعدها.

ب- وأما رسول الله ﷺ فكان يهدف إلى أن تستسلم ثقيف وهوازن وبعض القبائل العربية، وتدخل في الإسلام دونما قتال، حتى إنه بعث عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي من المسلمين ليستطلع خبرهم، فأعلمه أنهم يحشدون له، وأن قائدهم مالك بن عوف قد أمر أن تخرج معهم نساؤهم وأبناؤهم وأموالهم، فعلّق النبي ﷺ بقوله :" تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله."[١]

رابعاً: قوات الطرفين:

أ- تحشدت للقتال قبيلة هوازن ومعظم قبيلة ثقيف بقيادة مالك بن عوف، ومعهم جميع أسلحتهم وأموالهم، وجمع غفير من نسائهم وأولادهم.

ب- كانت قوات المسلمين اثني عشر ألفاً؛ عشرة آلاف ممن فتحوا مكة، وألفان من المسلمين الجدد من أهل مكة. وكانت عُدة القتال التي جاءوا بها من مكة، كما استعار النبي ﷺ من صفوان بن أمية دروعاً وأسلحة قوامها مائة درع. ونظم رسول اللهﷺ قواته، وأقبل حتى أتى وادي حنين ليفاجئهم قبل خروجهم[٢].

خامساً:سير المعركة:

احتل المشركون هضاب وادي حنين، ومضايقه وقممه، ونصبوا كميناً للمسلمين، وفعلاً لما جاءت قوات المسلمين وقعت في كمين المشركين؛ لأن المسلمين لا يعرفون طبيعة الأرض في هذه المنطقة، وكان الظلام سائداً، فلما رمى المشركون أوائل الجيش المسلم بوابل من السهام، رجعوا وحصل خلل في جيش المسلمين، وساء ظن أبي سفيان- وكان حديث عهد بالإسلام- فقال:" لا تنتهي هزيمتهم (يقصد المسلمين) دون البحر،"[٣] وكان

---

(١)ابن هشام، السيرة النبوية، ١٢٢/٤٥ ، زاد المعاد ٤٠٣/٣ والواقدي ، المغازي٨٩٣/٣-٨٩٤ والحديث أخرجه أبو داوود في كتاب الجهاد، رقم ٢٠٥١، والبهقي في الدلائل ، رقم ١٢٦٥ ، انظر سائر تخريجاته في،العبي، صحيح السيرة ص٤٣٥

(٢)انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)،١٢٣/٤

(٣) المرجع السابق، ١٢٤/٤

في الجيش مسلمون جُدُد، لم يتمكن الإيمان والإسلام بعد في قلوبهم ومن نفوسهم، فلم يثبتوا وهربوا وانتشر الفزع والفوضى في جيش المسلمين.

ولكن رسول الله ﷺ ثبت في المعركة، ومعه أهل بيته ورجال قليل من المهاجرين والأنصار وأخذ ينادي الناس: هلُمّوا، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. ثم أخذ العباس ينادي: يا معشر الأنصار! يا أصحاب البيعة يوم الحديبية! فاجتمع مائة مسلم حول رسول الله ﷺ، وصمدوا في وجه المشركين، وأخذ عدد المسلمين يتزايد، فأخذ رسول الله ﷺ حَصَيات فرمى بها في وجوه الكفار، ثم قال:" انهزموا ورب محمد."[1] فما هو إلا أن رماهم فانسحب المشركون منهزمين، ولم تكن لهم قوة تغطي انسحابهم، فتركوا وراءهم نساءهم وأبناءهم. وقام المسلمون بمطاردتهم، وأعلن النبي ﷺ للمسلمين أن من قتل مشركاً فله كل ما يغنمه منه، فأوقع المسلمون بالمشركين قتلى كثيرين، وأسروا منهم عدداً كبيراً.

وقد وصلت بعض القوات المسلمة تطارد ثقيفاً إلى الطائف وحاصروها، ولكنها كانت مدينة مُحصَّنة ذات أسوار قوية، وأغلق المشركون أبواب المدينة عليهم، وتجمع المسلمون لإجبار ثقيف على الاستسلام، وأخذت ثقيف ترمي المسلمين من داخل الأسوار بالنبال؛ فقتلوا بعض المسلمين. قرر رسول الله ﷺ الإنسحاب عن مرمى نبال المشركين. فأشار سلمان الفارسي ﷺ بأن تضرب الطائف بالمنجنيق لحرق أسوارها، ولكن لم ينجح المسلمون في ذلك بعد شهرين من الحصار، فترك النبي ﷺ الطائف وعاد إلى مكة،[2] وترك أولئك المشركين إلى الزمن؛ فقد يسلمون بلا قتال، ولكن ما عادت لهم قوة مؤثرة على الإسلام والمسلمين كما كانوا من قبل أن تفتح الله مكة ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد،باب ٢٨غزوة حنين، رقم ١٧٧٥، وانظرسائر تخريجاته في هامش ابن القيم، زاد المعلد، ٤٠٧/٣.

(٢)انظر التفاصيل في ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٢٤/٤ ـفما بعدها ، والواقدي، المغازي ٨٩٣/٣- ٩٢٢

سادساً: دروس وعبر من غزوة حنين:

أ- عنصر المفاجأة درس من دروس رسول الله ﷺ في القتال؛ فقد خرج لهوازن وثقيف قبل أن يخرجوا هم إليه. وهذا فيه إرباك شديد للعدو، بحيث لا تمكنه من الآستعداد، وتحرمه من التخطيط وسائر متطلبات القتال.

ب- أعطى الرسول ﷺ مثلاً أعلى في الصبر والثبات والصمود في المعركة، ولولا هذا الصمود لكانت نتائج هذه المعركة خطيرة جداً، ولكانت خسائرها فادحة.

ت- إن كثرة العَدد بلا عقيدة قوية وإيمان عميق خطيرة؛ فقد غرَّت المسلمين كثرتُهم يوم حنين، وكثير منهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم يكونوا قد تشربوا روح الاستشهاد، وقد ذكر الله تعالى أن ذلك الاغترار بالكثرة كان سبب وقوع الهزيمة أولاً في صفوف السلمين في هذه المعركة قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة: ٢٥ – ٢٦ وفي حديث أنس ﵁ قال:" لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم، فقال القوم: اليوم والله ما نقاتل حين اجتمعنا،فكره رسول الله ﷺ ما قالوا؛ ما أعجبهم من كثرتهم."[١] وقد أدَّب الله تعالى لمؤمنين ليكونوا متواضعين، وكي لا يصابوا بغرور القوة والكثرة حين قالوا: "لن نغلب اليوم من قلة،"[٢] بعد أن فتح الله مكة، وصدَّق رسولَه في دخول الناس في دين الله أفواجاً.

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه وابن المنذر وأبو الشيخ وغيرهم انظر الساعاتي، الفتح الرباني ١٦٩/٢١

(٢) ابن القيم،زاد المعاد٣، ٤١١/

ث- اقتضت حكمته سبحانه أن يكمل نصره لرسوله وللمسلمين، وأن ويظهر دينه، ويقضي على الشرك في أواخر معاركه مع مشركي العرب وبقايا زعامائهم، فلا يقاوم المسلمين بعد ذلك أحدٌ من قوى الشرك في الجزيرة العربية.(١)

ج- ولعل سوق مواشي المشركين وأموالهم في حنين كان تعويضاً للمسلمين الفاتحين في فتح مكة؛ حيث دخلوها من غير قتال، ولم يكن للفتح غنائم، ثم تنازلوا عن تلك الغنائم ليأخذوا خيراً منها عند الله كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ الأنفال: ٧٠

كما أن الله تعالى جَبَر بغزوة حنين خاطر أهل مكة، وفرَّحهم بما نالوه من النصر على مشركي هوازن؛ إذ لم تكن لهم طاقة على قتالهم والانتصار عليهم وحدهم لولا أن الله نصرهم بالمسلمين الفاتحين لمكة.(٢).

سابعاً:نتائج غزوة حنين وآثارها:

أ- كانت خسائر المشركين كبيرة جداً؛ حيث قتل منهم أرواح كثيرة، كما خسروا أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وسُبِي منهم ستة آلاف أسير.

ب- انتصر المسلمون على المشركين رغم هزيمتهم أولاً واستُشْهِد عدد من المسلمين، والشهادة ربهم ليست خسارة، بل هي ربح للشهداء عند ربهم في الآخرة، وربح لأمتهم في الحياة الدنيا.

(١)انظر المرجع السابق، ٣ /٤١١

(٢)انظر المرجع السابق .

ت- وزع النبي ﷺ الغنائم والسبي على المسلمين، ثم أقبل وفد هوازن مسلماً، وسألوا رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سبْيَهم وأموالهم، فخيَّرهم رسولُ الله ﷺ بين السبي والنساء أو الأموال، فاختاروا سبيهم إذ فيه أبناؤهم ونساؤهم، فردّ لهم النبي ﷺ حصته وحصة ما كان لبني عبد المطلب من المال، واقتدى المسلمون بالنبي ﷺ فردوا لهم سباياهم.[1].

ث- وكان من أكبر آثار الغزوة ما عرف بغزوة الطائف حيث شجعت نتائج معركة حنين رسول الله ﷺ على استكمال إخضاع بقية المشركين في الطائف؛ إذ بعث النبي ﷺ الطفيل بن عمرو ومعه أربعة من المسلمين ليهدموا صنم بني دوس ،وهو ذو الكفين، فهدموه، وعادوا ومعهم غنيمة؛ دبابة ومنجنيق قاذف للحمم، وهي آلات قتال لم يكن مثلُها لدى المسلمين، ثم قام رسول الله ﷺ ومعه أربعمائة مقاتل فحاصروا الطائف ثمانية عشر يوماً، ونصب رسول اللهﷺ عليهم المنجنيق وهو أول من رمى عليهم. وحصلت مناوشات محدودة وقتلى بين المسلمين وأهل الطائف. وسأل أهل الطائف رسول الله ﷺ الرَّحِم،[2] فأمَّنهم للخروج من الحصن، ولم يأذن الله لرسوله الله ﷺ بفتح الطائف فدعا لأهل ثقيف بالهداية، فقال:" اللهم اهد ثقيفاً،"[3] وأن يأتوا مذعنين للإسلام، ورجع رسول الله ﷺ عنها.[4] ثم هدى الله أهل الطائف فأسلموا بعد ذلك بمدة، وأتوا إلى الإسلام مُذعِنين كما دعا لهم رسول الله ﷺ .

ج- وكان من آثار غزوة حنين درس كبير في توزيع الغنائم، فقد قال ابن إسحق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال:" لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة، حتى

---

(١) انظر،ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٥٢/٣ -١٥٧

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، رقم٦٠٦٨ ، ٧٤٨٠ ومسلم في كتاب الجهاد ١٧٧٨ وفيها اللهم اهد ثقيفاً وائت به

(٣) الترمذي،السنن رقم ٣٩٤٠٢ حسن صحيح غريب ورجاله ثقات ومسند أحمد ٣٤٣

(٤) انظر المرجع السابق١٤٨/٤-١٥٠ وابن القيم، زاد المعاد٤٢٦/٣-٤٣٠ والواقدي، المغازي٩٢٢/٣ - ٩٣٨

قال قائلهم: لقي واللهِ رسول الله ﷺ قومَه. فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال : يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صَنَعْتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ؛ قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء! قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله؛ ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحَمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وِجْدَةُ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل. ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصَدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليُسلموا، ووكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لَما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وواديًا وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شِعب الأنصار وواديها، الأنصار شِعار، والناس دِثار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، (أي بللوها من الدموع من كثرة البكاء) وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسَماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا."(١).

(١)ابن هشام، السيرة النبوية من حديث أبي سعيد الخدري، وسنده صحيح ١٥٦/٤- ١٥٧

الفصل السابع

دعوة اليهود إلى الإسلام والصراع معهم

المبحث الأول: غزوة بني قينقاع.

المبحث الثاني: غزوة بني النضير.

المبحث الثالث: غزوة بني قريظة.

المبحث الرابع: غزوة خيبر.

المبحث الأول

غزوة بني قينقاع

أولاً: بين يدي غزوة بني قينقاع:

كان رسول الله ﷺ قد نظم علاقة اليهود بدولة الإسلام، فهم مواطنون لهم حريتهم في العبادة والتجارة وفي كل شؤون حياتهم، ومن واجبهم حماية المدينة وعدم تعريضها للفتنة. ولكن اليهود قد أكل قلوبَهم الحسدُ على محمد ﷺ ودينه، وأخذوا يُشيعون البلبلة في صفوف المسلمين، وينشرون الشائعات، ويدفعون بعض المؤمنين لإثارة أسئلة الجدل والتشكيك في الدين، كما كانوا متحالفين مع المنافقين. ولما نصر رسول الله ﷺ ببدر، زاد غيظُهم؛ فأخذوا يجاهرون بالعداوة.

وكان من أشجع قبائلهم بنو قينقاع، حيث كانوا تجاراً للذهب والمال في سوق الصاغة، وأصحابَ حِرَف للأواني والسلاح، وكان عدد مقاتليهم سبعمائة مقاتل. وقد وخرج رسول الله ﷺ إلى سوقهم وجمعهم ووعظهم ودعاهم إلى الإسلام وإلى المحافظة على العهد، فقال:" يا معشر اليهود! أسْلِموا؛ فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل ما أوقع بقريش. فقالوا: يا محمد لا يَغُرَّنَّك أنك لقيتَ قوماً لا علم بالحرب، وإنا والله لئن حاربناك لتعلم أنا نحن الناس."[(1)] وهذا تهديد واضح من يهود بني قينقاع للإسلام وأهله ونزل على إثر هذه الحادثة قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٣٧/٣ وحسنه ابن حجر في فتح الباري إسناد ابن إسحق، انظر ابن حجر، فتح الباري، ٣٣٢/٧. وروى أبو داود رواية قريبة في ألفاظها في سننه، كتاب الخراج، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، رقم ٣٠٠١. وانظر الرواية أيضاً في الواقدي، المغازي، ١٧٦/١

﴿ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ آل عمران: ١٢ – ١٣
.

ثانياً: تاريخها:

وقعت غزوة بني قينقاع يوم السبت في منتصف شهر شوال في السنة الثانية للهجرة، أي بعد غزوة بدر بشهر تقريباً. ودامت محاصرة بني قينقاع خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة.(١)

ثالثاً: سبب الغزوة:

كان يتحين رسول الله ﷺ الوقت المناسب لتلقين يهود بني قينقاع درساً لا ينسوْنه أبداً، وليكون درساً لكل يهود المدينة حتى جاء السبب المباشر؛ حيث جاءت امرأة مسلمة إلى سوق الصياغة، فلما جلست عند صائغ يهودي طلب اليهود منها أن ترفع نقابها عن وجهها، فرفضت المرأة المسلمة أن تكشف وجهها لهؤلاء المفسدين. فقام الصائغ فعقد طرف ثوبها من الخلف إلى رأسها دون علمها، فلما قامت المرأة انكشفت عورتها، فصاحت المرأة مستغيثة، فأقبل رجل من المسلمين، فقتل الصائغ اليهودي، واجتمع اليهود في السوق، فقتلوا المسلم.(٢)

وكانت هذه الحادثة هي الشرارة التي كان ينتظرها الرسول ﷺ بهدف الانتقام من بني قينقاع، وإزاحة شرها عن المسلمين، وتطهير المدينة من مكرها، وإضعاف جبهة المنافقين المتحالفين معها، وقد أنزل الله تعالى إذنه بقتالهم بقوله سبحانه: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال: ٥٨.

---

(١) انظر الواقدي،المغازي، ١٧٦/١

(٢) ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٣٧/٣، الواقدي، المغازي، ١٧٦/١

رابعاً: الرسول ﷺ يضرب الحصار على بني قينقاع:

ما أن سمع رسول الله ﷺ بنقض العهد من بني قينقاع؛ فقد قتلوا مسلماً، وقبل ذلك تعرضوا لعرض مسلمة كشفوا عورتها، وهم يتهددون الإسلام، جمع لهم جمعاً كبيراً من المسلمين في المدينة على رأسهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، أسدُ الله وأسدُ رسوله ﷺ. وحاصر جمع المسلمين خونة اليهود بني قينقاع خمسة عشر يوماً من منتصف شهر شوال حتى بداية ذي القعدة من السنة الثانية للهجرة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وانتهى فيها مأكلهم ومشربهم فاستسلموا أذلاء، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بتكتيفهم لتضرب أعناقهم[١].

خامساً: رأس النفاق عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلول يتعاطف معهم:

أقبل عبد الله بن أبي رأس النفاق، يشفع لهم عند رسول الله ﷺ وقد كانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، ويقول: يا محمد أحسن في مواليّ، ورسول الله ﷺ يُعرض عنه فلا يجيبه، ويغضب من مراجعة ابن أبيّ وإلحاحه، ويقول له: ويحك! أرسِلْني، وابن أُبَيٍّ متحسر عليهم، ومتعاطف معهم يقول: يا محمد! أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد حموني سابقاً في يثرب من الأحمر والأسود لتحصدهم مرة واحدة.[٢]

سادساً: موقف عبادة بن الصامت رضي الله عنه منهم:

وجاء الصحابي الجليل عبادة بن الصامت، وقد كان بنو قينقاع أيضاً حلفاءه في الجاهلية، ووقف منهم موقفاً حازماً ، وقال: يا رسول الله! أتولى اللهَ ورسولَه والمؤمنين،

---

(١)انظر الواقدي، المغازي١/١٧٧

(٢)انظر المرجع السابق وابن هشام، السيرة النبوية، باسناد صحيح مرسل صرح فيه ابن اسحق بالتحديث٣/١٣٧

وأبرأُ من حلف هؤلاء الكفار والخونة وولايتهم،. وتنازع مع عبد الله بن أبي، وقال له: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام عهودنَا مع هؤلاء اليهود الخونة.[1]

سابعاً: النتيجة:

حكم رسول الله ﷺ على يهود بني قينقاع بالإجلاء عن المدينة خلال ثلاثة أيام فقط، لا يحملون معهم إلا أولادهم ونساءهم، ويتركون أموالهم غنيمة للمسلمين. وكان بهذا الحكم قد عفا عنهم فلم يقتلهم، حتى لا يثير المنافقون فتنة، وإنما اكتفى بالتخلص من شرهم في المدينة، وطهَّر أسواقها منهم، لعل غيرهم من اليهود يتعظون ويعتبرون، وبقي عبادة بن الصامت يطاردهم، ويطرد ما بقي منهم بعد ثلاثة أيام حتى وصلوا منطقة تُسمّى أذرعات ببلاد الشام. وقد هلكوا بعد ذلك ولم تعد لهم آثار تذكر.

ثامناً:دروس وعبر من غزوة بني قينقاع:

أ- الغدر والخيانة طبع اليهود قديماً وحديثاً، وهم أهل فساد خلقي يهدفون الإساءة لأعراض المسلمين.

ب- المسلمة غيورة على شرفها وكرامتها، والمسلم غيور على أعراض المسلمين، يقاتل دفاعاً عنها، حتى لو كلفه ذلك روحه وحياته.

ت- لا معاملة مع اليهود الغادرين إلا القتل، ولطالما حاول النبي ﷺ دعوتهم إلى المسالمة والهدوء واحترام العهود، ولكنهم أَبَوْا إلا الظهور على حقيقتهم.

ث- ظهرت في هذه الغزوة معرفة النبي ﷺ العسكرية بفنون القتال؛ فقد اتبع أسلوب الحصار، وهو أسلوب مؤثر في قوم غير مُحَصَّنين بالطعام والشراب.

ج- إصرار الجيش المسلم على هدفه، وصبرُه عليه؛ فالنصر صبر ساعة، ولهذا أحكم النبي ﷺ الحصار، وأطال هذا الحصار خمسة عشر يوماً حتى استسلم اليهود.

---

(١)انظر ،الواقدي،المغازي، ١٧٩/١ ،وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٣٨/٣ بإسناد صحيح مرسل.

ح- أظهرت هذه الغزوة صنفين من الناس في المدينة من خلال الموقف من اليهود وهم:

الصنف الأول: المنافقون؛ وذلك واضح من خلال تعاطف رأس النفاق عبد الله بن أُبي معهم.

الصنف الثاني: المؤمنون الصادقين، أصحاب الولاء لله وحد؛، حيث تبرأ عبادة بن الصامت منهم، رغم أنه كان مرتبطاً معهم سابقاً في الجاهلية بحلف واحد، ولكنهم لما خانوا العهد مع رسول الله ومع المسلمين تبرّأ من محالفتهم، ووقف مع رسول الله ﷺ في معاقبتهم.

خ- كما برزت حنكة الرسول ﷺ في تخفيف الحكم عليهم من القتل إلى الإجلاء، حتى لا يثير المنافقون وسائر قبائل اليهود فتنة في المدينة، وحتى لا يفسح الرسول ﷺ المجال لإقامة حلف ظاهر بين اليهود والمنافقين، حيث وما زالت لهم قوة تحاف مع المنافقين. وإنما اكتفى بطردهم وإجلائهم بأنفسهم دون أموالهم، ليُلَقِّن من وراءهم درساً فيعتبروا ويتعظوا.

د- وكما يعلق الشيخ الغزالي على هذه الغزوة إذ يرى أن نزاع اليهود مع المسلمين كان سياسياً لا دينياً؛ لأن الانفراد بالسلطان في الجزيرة العربية كان مبعث الخصام الألدّ لديهم، إذ كان من المفروض عليهم دينياً، ومن المنطق أن يقفوا مع المسلمين في صراعهم مع المشركين؛ فالمشركون وثنيون، والمسلمون أهل دين، واليهود أهل دين، فما معنى أن يغضب اليهود من انتصار المسلمين على المشركين؟! وليس ذلك إلا لأنهم انقطعت علاقتهم بمعنى الدين، وأصبح سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث ديني. ومن ثم شكك القرآن في قيمة الإيمان الذي يدعيه القوم؛[1] إذ يقول الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

(١)انظر، فقه السيرة ،بتصرف ص٢٦٠-٢٦٢

ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا
لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩١.

المبحث الثاني

غزوة بني النضير

أولاً:تاريخ الغزوة:

كانت غزوة بني النضير " في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة،"[١] حيث عالج المسلمون آثار معركة أحد، وأدّب الرسول ﷺ القبائل الطامعة في المدينة. وكان من الواجب على اليهود أن يدافعوا عن المدينة لا أن يتآمروا على قيادتها، وعلى رسولها، وقد حاصرهم النبي ﷺ "ست ليال."[٢]

ثانياً: سبب الغزوة وهدفها:

أ- ذهب النبي ﷺ في عشرة من أصحابه إلى ديار يهود بني النضير ليعينوا المسلمين في دِيَة رجلين مسلمين قتلهما أحد المسلمين خطأً. فتآمر حُيَيٌّ بن أخطب زعيم بني النضير، وقال:" يا معشر اليهود! قد جاءكم محمد في نُفير من أصحابه لا يبلغون عشرة(...) فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه، فلن تجدوه أخْلى منه الساعة(..) فقال عمرو بن جحاش:أنا أظهر على البيت، فأطرح عليه صخرة.فقال سلاّم بن مِشكم: يا قوم! أطيعوني هذه المرة، وخالفوني الدهر. والله إن فعلتم لَيُخَبَرَنَّ بأنا قد غدرنا به، وإن هذا نقض العهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا."[٣] وهمّ عمرو بن جحاش اليهودي بإلقاء صخرة على رسول الله ﷺ، فأخبَر جبريلُ النبيَّ بمؤامرهم، فقام مسرعاً كأنه يريد قضاء حاجته، وعاد إلى المدينة، ثم لحق به أصحابه، فقرر النبي ﷺ أن ينتقم من بني النضير. وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً للغزوة.

---

(١)الواقدي، المغازي٣٦٣/١ وابن هشام، السيرة النبوية٢٤٠/٣

(٢)ابن هشام،السيرة النبوية٢٤٠/٣

(٣)الواقدي،المغازي،٣٦٤/١-٣٦٥ وانظروا رواية ابن هشام، السيرة النبوية٤٠/٣

ب- وأما السبب غير المباشر فهو: أن الرسول ﷺ كان ينتظر اليوم الذي ينتهي به وجود اليهود من المدينة، لأنهم أهل غدر، ولم يتعظوا مما حلَّ بإخوانهم بني قينقاع، وما حلّ بكعب بن الأشرف أحد زعمائهم الذي اغتاله المسلمون لسوء خلُقه وإيذائه رسول الله ﷺ وتآمره مع المنافقين، وفد ربطهم ريول الله ﷺ بكتاب بعد مقتل ابن الأشرف، ومع ذلك يجلسونه ليُضَيِّفوه ، فيتآمرون على قتله.

ثالثاً:جدل بين زعماءبني النضير:

بعد أن كشف النبي ﷺ تآمرهم عليه، دار نقاش بين زعماء اليهود، وندم بعض عقلائهم ممن سبق له أن نصحهم بعدم الاقدام على هذه الجريمة، فاقترح عليهم كنانة بن صويراء بأن يسلموا، لأنه نبيٌّ عرفوا صفاته في التوراة، وبهذا يأمنون على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وإلا فلا ينتظرون منه إلا أن يُجليهم ويطردهم كما طرد بني قينقاع من قبل.(١) ولكن زعيم بني النضير حُيَيَّ ابن أخطب كان عنجهياً مغروراً، رفض الدخول في الإسلام، حتى ولو كان الأمر بالخروج والجلاء.

قد بعث لهم النبي ﷺ محمد بن مسلمة ينذرهم أن يخرجوا من المدينة، وأعطاهم مهلة عشرة أيام، يحملون فيها كل ما يستطيعون من أهلهم وأموالهم فقط، دون أسلحتهم. وأنّ من تأخر بعد هذه المدة تضرب عنقه.(٢) ولكن حُييّ بن أخطب لم يستجب، وأخذ يجهز قومه للحرب، وبعثوا إلى النبي ﷺ أنهم لا يخرجون من ديارهم وأموالهم، معتمدين -كما يزعمون- أنهم محصنون في حصونهم، ولديهم ما شيتهم وتموينهم، ماءٌ، وأنهم مدربون على القتال في أزقتهم، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ مُتَحَدّين: أن افعل ما بدا لك، فإننا لن نغادر حصوننا. وحاول سلام بن مشكم -أحد حكمائهم- مرة أخرى أن يثني حيي بن أخطب

(١) انظر، الواقدي،المغازي، ٣٦٦/١

(٢) انظر المرجع السابق، ٣٦٧/١

عن صَلَفه، ولكنه لم يفلح[1] بل وزاد الطين بلة . وبعث إليهم عبد الله بن أبيّ ألا يستجيبوا لحكم رسول الله ﷺ بالجلاء، ووعدهم بالنصر مع حلفائه، كما وعدهم بإقناع بني قريظة بالوقوف معهم، إلا أن بني قريظة رفضوا نقض العهد مع رسول الله ﷺ، وخافوا من عاقبة الوقوف من حييّ بن أخطب؛ لأنه رجل شؤم. وبعث حييٌّ إلى النبي ﷺ يخبره أنه لا يريد الجلاء، فكبّر النبي ﷺ وقال فرِحاً: "حاربت اليهود."[2]

رابعاً: دروس وعبر من غزوة بني النضير:

أ- اليهود لا يتعبرون ولا يتعظون ولا يتراجعون عن شيم الغدر فيهم.

ب- اليهود يعرفون أن محمداً رسول الله ﷺ، ولكنهم لا يؤمنون به فهم؛كافرون حتى بتوراتهم؛ ولا تُجدي معهم الآيات، وقد رأوا آية صدق نبوة محمد ﷺ، فقد أخبره جبريل بتآمرهم على حياته، ومع ذلك أصروا على عدائهم له.

ت- جواز الاستعانة المالية بغير المسلمين إذا كانوا معاهدين؛ فقد خرج النبي ﷺ يطلب من يهود بني النضير أن يدفعوا نصيبهم من دِيَة رجلين بحسب وثيقة المدينة.

ث- المنافقون متآمرون، ولكنهم جبناء؛ فقد وعد عبد الله بن أبّي يهود بني النضير بالقتال معهم ونصرتهم، ولما حاصرهم النبي ﷺ اختبأ في بيته، وظهرت حقيقة جُبنه.

ج- كان إيثار الأنصار لإخوانهم المهاجرين مثلاً رائعاً للخلق الإسلامي يصلح للاقتداء، كم سيتضح بعد قليل.

خامساً:نتائج غزوة بني النضير وآثارها:

١- انتصار المسلمين، وطرد بني النضير من المدينة:خرج المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ يحاصرون بني النضير في حصونهم، وقد كانت حصونهم منيعة، وفي داخلها طعام وشراب

(١) انظر، المرجع السابق، ٣٦٧/١ – ٣٧٠ باختصار وتصرف.

(٢) المرجع السابق٣٧/١

يكفيهم سنة. وظنوا أن هذه الحصون مانعتهم من رسول الله ﷺ، ووقفت قريظة على الحياد، كما خذَلَهم المنافق عبد الله بن أُبيّ بن سلول؛ فلم يَخرُج إليهم، ولم يبعث لهم أحداً. وأخذ اليهود يرشُقون المسلمين بالنَّبْل والحجارة مِن على الجدران. وغاب علي بن أبي طالب ﷺ فتخوف المسلمون عليه، فإذا به قادم برأس يهودي قد خرج في نفر من اليهود يفاجىء المسلمين، فبعث النبي ﷺ مجموعة من المقاتلين تطارد اليهود حتى قتلوهم. وكاد حيّ بن أخطب يدرك خطأه ، ولكنه ثابت على عدائه للإسلام ويقول: ملحمةٌ كُتبِت علينا. وطال حصارهم خمسة عشر يوماً، ولكن هذا الحصار لا يؤثر كثيراً فيهم؛ إذ هم متحصنون وعندهم تموينهم ومياههم، فقرر النبي ﷺ أن يؤدبهم، وأن يحطم معنوياهم، فأمر بقطع بعض النخيل وحرق بعضه.(١) فجُنَّ جنون اليهود واضطروا للاستسلام شريطة أن يعفو عنهم النبي ﷺ ويعطوه ما يريد. فلم يقبل النبي ﷺ إلا الجلاء عن المدينة والخروج منها بما تحمله دوابهم. وأخذ سلام بن مشكم أحد عقلائهم يقنع حيي بالقبول، وإلا فليس أمام محمد إلا قتل المقاتلين، وسبي النساء والأطفال، وغنيمة الأموال، وإنه من الخير أن تسلم النفوس والدماء وشيء من الأموال. خرج يهود بني النضير عن آخرهم، وحملوا معهم ما استطاعوا من أموالهم وأخذوا يُخْرِبون بيوهم، ويحملون خشبها حتى لا يستفيد منها المسلمون، وتطهرت المدينة من خبائثهم، ولحقوا بإخوانهم يهود خيبر. وتركوا وراءهم خمسين درعاً، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وطعاماً كثيراً، ومزارع للنخيل، وغنائم كثيرة وزعها النبي ﷺ بين أصحابه.(٢)

٢- إيثار الأنصار المهاجرين على أنفسهم: جمع رسول الله ﷺ الأنصار والمهاجرين وهو يوزع غنائم بني النضير. وكان رسول الله ﷺ قد أشرك المهاجرين مع إخواهم الأنصار

(١) الواقدي، المغازي، ٣٧٢/١، وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الوض)،٢٤٠/٣، والبخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة بني النضير، رقم ٤٠٣١ ، ٤٠٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب جواز قطع أشجار الكفار، رقم ١٧٤٦ ، وانظر سائر التخريجات في ابراهيم العلي، صحيح السيرة، ص٢٤٤

(٢)انظر الواقدي، المغازي،٣٧٦/١ - ٣٨٠

في أراضيهم ومزارعهم ومساكنهم بالمؤاخاة في الهجرة فخيَّر الأنصار أن يرد إليهم إخوانهم المهاجرون ما شاركوهم فيه بسبب الهجرة، وأن يقسم بينهم الغنائم بين المهاجرين فقط، أو أن يقسم الغنائم بينهم جميعاً؛ مهجرين وأنصاراً، ويبقى المهاجرون مشاركين للأنصار فيما يشاركونهم فيه. فأجاب الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: بل نقسم الغنائم بين إخواننا المهاجرين فقط، ويبقى إخواننا المهاجرون يشاركوننا في مساكننا وأراضينا ومزارعنا.فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار."(١) وقسّم الغنائم بين المهاجرين، وأعطى فقراء الأنصار دون غيرهم.

٣- غزوة فاضحة للمؤامرات، وكاشفة للخيانات: وقد كشفت لنا سورة الحشر تفاصيل رائعة لهذه الغزوة؛ إذ كانت الفاضحة لمؤامرة اليهود، والحاسمة في كشف المنافقين، والنهاية لأولائك الذين خانوا العهود مع المسلمين؛ حيث قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

---

(١)الواقدي، المغازي٣٧٩/١ وسنن ابي داود١٤٠/٢.

نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن
دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ
﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ الحشر: ١ – ١٤.

٤- تأديب القبائل المشركة: وكان من آثار هذه الغزوة أنها أدَّبت سائر القبائل العربية التي كانت تطمع في المدينة بعد معركة أُحد، وجعلتها تهرب إلى رؤوس الجبال خوفاً من دوريات المسلمين وسراياهم؛ مثل قبيلة بني لحيان وغيرها ممن هي على شاكلتها.

٥- ضعف جبهة النفاق وفضح أمرها: كما أنها زادت من فضيحة المنافقين ومواقفهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول وأظهرت قوة المسلمين على اليهود وعلى جبهة النفاق في المدينة وقد تحسر المنافقون في المدينة حسرة كبيرة على خروج بني النضير، وحزنوا حزناً شديداً؛ إذ كانت لهم هيبة ومال وعدَد وعُدَّة، ولديهم خيرات كثيرة،

يطعمون الطعام، ولهم أفضال على حلفائهم من أهل يثرب، ونجدة حتى قال بعض أهل يثرب يرثي خروجهم: ما ليثرب بعدكم مُقام ، فسمعه مسلم فقال له : فالحَقْهم حتى تدخل معهم النار.[١]

٦- ومن آثار هذه الغزوة إسلام بعض اليهود: ومنهم يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب؛ إذ قال أحدهما للآخر بعد أن رأيا نهاية الحصار:" والله إنك لتعلم أنه لرسول الله، فما تنتظر أن تسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا؟ فنزلا من الليل فأسلما، فأحرزا دماءهما وأموالهما"[٢]

وقد حرّض رسول الله ﷺ يامين على عمرو بن جحاش الذي حاول أن يرمي الصخرة على رسول الله ﷺ، وكان زوج أخته، فبعث يامين رجلاً فقتل ابن جحاش مقابل عشرة دنانير.[٣]

---

(١) انظر الواقدي،المغازي، ٣٧٤/١-٣٧٦

(٢) الواقدي، المغازي، ٣٧٣/١، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٤١/٣

(٣) انظر ابن هشام،المرجع السابق، والواقدي، المغازي٣٧٤/١

المبحث الثالث

غزوة بني قريظة

أولاً: تاريخ الغزوة:

انصرفت الأحزاب بعد هزيمتها في غزوة الخندق، وعاد النبي ﷺ إلى بيته، وما كان ليغتسل حتى جاءه جبريل عليه السلام فقال له:"قد وضعت السلاح،؟! والله ما وضعناه بعد، فاخرج إليهم قال: إلى أين؟ قال ههنا، وأشار إلى بني قريظة.[1] وكان ذلك يوم الأربعاء في الثالث أو الثاني والعشرين من ذي القعدة في السنة الخامسة للهجرة.[2] واستمرت خمسة وعشرين يوماً كما عند أحمد وابن هشام، أو خمسة عشر يوماً كما عند الواقدي.[3]

ثانياً: سبب الغزوة وأهدافها:

أ- القصاص من بي قريظة بسبب غدرها في الأحزاب: مرّ معنا في غزوة الأحزاب أن يهود بني قريظة قد نقضت عهدها مع النبي ﷺ يوم الأحزاب، ويبدو أن زعيمهم كَعْبَ بن أسَد، الذي رفض الاستجابة سابقاً لنصرة بني النضير، قد أقنعه هذه المرة حُيَيٌّ بن أخطب زعيم بني النضير الذي أجلاه رسول الله ﷺ مع قومه الى خيبر، وجاء حييّ ينتهز الفرصة للانتقام من المسلمين، وباتفاق مع قريش والأحزاب ليقنع بني قريظة بمناصرتهم، ونقض عهدها مع المسلمين. وكان كعبُ بن أسد متخوفاً، إلا أنه وقع تحت ضغوط حُييّ وإغرائه له بالخيانة لرسول الله ﷺ والمسلمين، وأنها فرصة اليهود التي لا يجب أن تفوت. وما زال به يقنعه حتى مّزق الكتاب، أو وثيقة المدينة التي تحكم العلاقات بين المؤمنين

---

(١) صحيح البخاري،كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، وأحمد في المسند، ٥٦/٦ رقم١٣١ ، ١٤١ ، ٢٨٠، وابن هشام، السيرة النبوية، ٢٦٧/٣ ،ومسلم ، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من ينقض العهد، رقم١٧٦٩

(٢) انظر الواقدة، المغازي، ٤٩٦/٢، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٦٧/٣

(٣) انظر المرجعين السابقين، ورواية أحمد أرجح وشواهدها كثيرة، انظر، العلي، صحيح السيرة ص٢٧٥

واليهود، والتي تُلزِمُهم بتحمل مسؤولياتهم في حماية المدينة والدفاع عنها، ورد المعتدي عليها، وهم يسكنون في المنطقة الضعيفة من الجهة المتفوحة، والتي يقع عبء تحصينها عليهم. وأدخل كعبُ بن أسد حييَّ بن أخطب معه في الحصن؛ حتى يصيبه ما يصيب بني قريظة.

ولما فرغ النبي ﷺ من غزوة الأحزاب، وهزم الله عدوه، ونصر عبده وأعز جنده، حان وقت القصاص من قريظة جزاء غدرها ونقضها للعهد، فلو نجحت الأحزاب في خطتها مع بني قريظة لأبادت المسلمين، كما أن بني قريظة مع غدرها حاربت أيضاً، فقد أغارت دورية مسلحة من بني قريظة على البقيع في المدينة، وردَّتْها حراسات المسلمين القوية أيام حصار الأحزاب.

ب- الاسجابة لأمر الله تعالى بتصفية آخر قبيلة يهودية وتطهير المدينة منها: وكان التخلص من آخر قبيلة من قبائل الغدر اليهودي في المدينة، وتطهير عاصمة الإسلام منها أمراً لا مفر منه، حتى إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن ينتقم فوراً، وبقيت الملائكة المناصرة للمسلمين يقودها جبريل عليه السلام مستعدة جاهزة، لم تُلقِ أسلحتها بعدُ. ولا بد من الضرب على الحديد وهو ساخن، فلن تلوح فرصة أفضل من هذه الفرصة لتصفية بني قريظة.

ثالثاً: سير المعركة، قوات المسلمين تحاصر بني قريظة:

أ- خرج رسول الله ﷺ، وما زال جيشه في حالة تأهب واستعداد، ويتمتع بمعنويات عالية، بعد هزيمة الأحزاب، خرج ومعه ثلاثة آلاف مقاتل بمعنويات عالية بعد هزيمة الأحزاب، وثلاثة وستون فارساً، ونادى في الناس: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة".[1] فصلى بعض الجيش في الطريق، متأوِّلاً الأمر للاستعجال، وأجل بعضهم الصلاة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الوض)،٢٦٧/٣ ، ورواه الطبراني، ٧٩/١٩-٨٠ رقم١٦٠، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٤٠/٦ رجاله رجال الصحيح غير ابن أبي هذيل وهو ثقة، انظر، العلي، صحيح السيرة ص٢٨١

وقوفاً على ظاهر الأمر حتى خرج وقت صلاة العصر ودخل وقت المغرب. ولما علم النبي ﷺ بما صنع كل فريق منهم أقرّههم على اجتهاداتهم، ولم يعلق بشيء، ولم يعنف أحداً منهم[1].

ب- وحاصر هذا الجيش المسلم بني قريظة في حصونهم، وهي محصنة وفيها تموين كثير ومياه، يستطيعون البقاء فيها سنة لا يحتاجون فيها إلى شيء من خارجها. واشتد الحصار عليهم، وأخذت جنودهم وعددها سبعمائة مسلح ترشق المسلمين بالنبال والحجارة، ويشتمون رسول الله ﷺ، ورمت امرأة رحى -أي طاحونة- على أحد المسلمين فقتلته. ولما أيقنوا أن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يفك عنهم الحصار تشاوروا فيما بينهم، وقام زعيمهم كعب بن أسد يعرض عليهم واحداً من ثلاثة أُمور:

أولها: أن يُسلموا وينجوا بأنفسهم ونسائهم وأطفالهم وأموالهم؛إذ كل الدلائل تشير على صحة نبوة محمد ﷺ. فقالوا : لا نفارق ديننا.

وثانيها: أن يَقْتُلوا هم بأنفسهم أولادهم ونسائهم، ويخرجوا لقتال محمد ﷺ وأصحابه؛ فإن انتصروا فالنساء كثير، وإن هُزموا وقُتلوا لا يأسفون على نسائهم وأولادهم. فقالوا: فما خيرُ العيش بعد نسائنا وأولادنا؟! ليس هذا برأي.فقال لهم كعب: لم يبق إلا ثالث هذه الأمور.

وثالثها: وهو لا رأي سواه -نظر كعب- أن نترل جميعاً هذه الليلة-ليلة السبت- فنفاجىء محمداً وأصحابه، فنقاتلهم. فقالوا: لا نقاتل يوم السبت، وقد علمتَ ما أصاب أسلافنا يوم خرجوا على دينهم، فعملوا يوم السبت، فقد مسخهم الله قردة وخنازير.فقال

(١) انظر الروايات قي صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبيﷺ من الأحزاب، حديث رقم٤١١٩، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، رقم١٧٧٠

زعيمهم يائساً منهم: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمُّه ليلة واحدة من حياته حازماً في رأيه.[1].

اليهود يستشيرون أبا لبابة[2]: بعث اليهود إلى رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة من الأوس وهو من حلفائهم في الجاهلية، فاستشاروه، فرَقَّ لحالهم، ولنسائهم وأطفالهم وهم يبكون أمامه، فقالوا له: يا أبا لبابة! أَنَنْزِل على حكم محمد فينا؟ فقال: نعم وأشار بيده إلى حلقه بما فهموا منه أنه الذبح. فندم أبو لبابة لهذه الرِّقة على يهود في هذا الوضع العاطفي، واعتقد أنه خان الله ورسوله، وانطلق ولم يرجع إلى المسلمين، وربط نفسه في عمود من أعمدة المسجد النبوي–يعاقب نفسه على ما فعل– وأقسم ألا يترك مكانه حتى يتوب الله تعالى عليه مما فعل، وعاهد الله ألّا يدخل أرض بني قريظة طيلة حياته للمعصية التي صنعها في تلك الديار. وقد أنزل الله فيه قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ الأنفال: ٢٧ وبقي على هذه الحال ست ليال حتى تاب الله عليه، ولما بشره أصحابه أقسم ألّا يُطْلِق نفسه حتى يُطْلِقَه رسول الله ﷺ بيده، فأطلقه الرسول ﷺ وهو ذاهب إلى صلاة الفجر. وقد نزلت الآية الكريمة في توبته: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٠٢

رابعاً:دروس وعبر من غزوة بني قريظة:

أ– ليس للغدر جزاء إلا القتل.

ب– اليهود لا يعتبرون ولا يتعظون وهم مكابرون يعرفون الحق ويعادونه.

---

(١) انظر، ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٦٨/٣

(٢) انظر المرجع السابق، وانظر ما قاله الهيثمي في رواية أحمد في مجمع الزوائد: ١٣٦/٦-١٣٨ حسن ، وقال الساعاتي في الفتح الرباني٨١/٢١-٨٣ : إسناده جيد، وله شواهد كثيرة في سيرة ابن كثير، ٢٣٨/٣

ت- لم تنفع قريظة حصونها واستعدادها للحصار؛ لأنها ضعيفة في موقفها، مهزومة من داخلها، محبَطة في أعصابها.

ث- لقد كان موقف رسول الله ﷺ حازماً جداً مع بني قريظة؛ فإنهم لم يتعظوا، ولم يعتبروا ممن سبقهم من اليهود الذين أجلاهم رسول اله ﷺ من المدينة، ولم يسمعوا نصائح عقلائهم بدخول الإسلام كما لم يسمعوا نصائح حلفائهم من الأوس، بل غرتهم الأماني، وأعماهم الحقد وأغراهم رأس النفاق ابن سلول، فأصروا على موقفهم بعدم الاستسلام.

ج- تسامح رسول الله ﷺ مع بعضهم إكراماً لبعض أصحابه ممن كان لبعض اليهود معهم موقف؛ فقد ذكر ابن إسحق قصة عفو النبي ﷺ عن الزبير بن باطا القُرظي حين جاء إلى الصحابي ثابت ابن قيس بن الشماس، وقد كانت له مِنَّةٌ عليه في الجاهلية، فجاء ثابت إلى رسول الله ﷺ يقول له: يا رسول الله! إنه قد كانت للزبير-القرظي- منة عليَّ، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه. فقال له: هو لك. ثم قال له: هو شيخ كبير فما يصنع بالحياة وقد قتلت امرأته وولده، فهب لي امراته وولده، فقال له رسول الله ﷺ: هم لك.كما طلب ثابت أن يهبه ماله، فوهبه له. ومع ذلك لما سأل ابن باطا عن زعماء يهود واحداً بعد الآخر، فيقال: قُتِل، فقال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلاّ الحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، وطلب القتل حتى يلحق- في نظره -بالأحبة. فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله: ألقى الأحبة؛ قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً مخلداً.[1]

ح- أكرم الله تعالى سعد بن معاذ بالشهادة حيث جُرِح في غزوة الخندق، وتماثل جرحه للشفاء إلا أنه انفجر ونزف مباشرة بعد حكمه على بني قريظة. وقد حزن عليه رسول الله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وبكياه حتى قالت عائشة ":إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي ، وكان رسول الله ﷺ إذا وجد ؛-أي حزن-

(١) انظر ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٣/٢٧٠-٢٧١

عينه لا تدمع، ولكن إنما هو آخذ بلحيته."[١] وقد غسلته الملائكة وحملته واشتركت في جنازته فسار فيها سبعون ألف ملك.[٢] كما صح في الحديث قوله ﷺ في موت سعد:"اهتز عرش الرحمن لموت سعد."[٣]

خامساً: نتائج غزوة بني قريظة وآثارها:

أ- استمر الحصار واشتد، حتى مضت خمس وعشرون ليلة، وكان بإمكان اليهود ان يستمروا، ولكن أعصابهم خائرة، وهم ضعفاء، إذ عرفوا ما فعلوا من غدر وخيانة، والمسلمون صابرون أصحاب حق وعدل. والنصر إنما يكون لأصحاب الحق إذا ثبتوا عليه وجاهدوا في سبيله وصبروا، والهزيمة إنما تكون للباطل وأهله والخيانة ومدبريها.

ب- وفي صبيحة اليوم الأخير للحصار استسلم اليهود، ووافقوا على النزول على حكم رسول الله ﷺ، وقبلو أن يحكم فيهم حلفاؤهم في الجاهلية وهم الأوس ظناً منهم أن يشفعوا لهم ، كما شفع الخزرج سابقاً لحلفائهم من بني قينقاع فخفف النبي ﷺ عنهم الحكم وقتها، وقَبِل منهم الجلاء، ولكن هذه المرة لن يفرح اليهود بما فرح به سابقوهم؛ إذ كان لا بد لقريظة أن تعتبر وتتعظ بما حل بيهود بني قينقاع وبني النضير من قبلهم، فقام الأوس يطلبون لهم الشفاعة، فقال رسول الله ﷺ للأوس:ألا ترضون أن يحكم فيهم سيدكم سعد بن معاذ؟ وكان سعد رضي الله عنه في خيمة قريبة من رسول الله ﷺ يعاني من جرح خطير أصابه يوم الخندق، وكان كلما نزف جرحه دعا الله تعالى ألّا يُميته حتى يضع الحرب بينه وبين

---

(١) انظر الرواية في مسند أحمد وقال عنها الساعاتي في الفتح الرباني١/٨١-٨٣ : أورده الحافظ ابن كثير في تاريخه بإسناد جيد وله شواهد كثيرة في سيرة ابن كثير، ٣/٢٣٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٣٦-١٣٨ : رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات.انظر ، العلي، صحيح السيرةص٢٧٥

(٢) انظر ابن سعد،الطبقات، ٣/٢/٧-٩ ورجاله ثقات، وانظر الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ، وقال: صحيح غريب، وانظر سائر التخريجات في ، العلي، صحيح السيرة، ص٢٨٨

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد، رقم ٨٣٠٣ ، وانظر سائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة، ص٢٨٩، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، ،باب فضائل سعد بن معاذ، رقم٢٤٦٦

قريش، حتى ينتقم من بني قريظة. وأركب المسلمون سعد بن معاذ على دابة، وجاءوا به إلى النبي ﷺ فقال لهم: قوموا لسيدكم، فقام المسلمون، وأنزلوه عن الدابة، وجاءه الأوس يشفعون لحلفائهم بني قريظة كما شفع الخزرج سابقاً لحلفائهم بني قينقاع. فأخذ سعد بن معاذ العهد على الأوس أن يقبلوا بحكمه، وقد رضي النبي ﷺ بتحكيمه. فأصدر الحكم فقال:"فإني أحكم فيهم أن يُقتل رجالهم، وتُسبى نساؤهم وذراريهم، وأن تُقَسَّم أموالهم. وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحب إليَّ من أن أجاهدهم فيك." فقبل النبي ﷺ حكم سع رضي الله عنه وقال :إنك حكمت بينهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.[(١)]ثم ما لبث جرح سعد أن انفجر ومات شهيداً رضي الله تعالى عنه.

ت- بعد أن قال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله ورسوله أمر المسلمين بقتل جميع رجال بني قريظة، ودخلت جميع نسائهم وأطفالهم في السبي، ووزَّع أراضيهم ومواشيهم وأموالهم بين المسلمين. ولم يقتل من النساء إلا المرأة التي رمت أحد جنود المسلمين برحى فقتلته؛ لأنها محاربة؛ فحكمها حكم الرجال المقاتلين.

ث- نفَّذ رسول الله ﷺ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ؛ فقتل مقاتليهم، وعلى رأسهم زعيمهم كعب بن أسد ومعه ستمائة أو سبعمائة، وبقي حُيَيّ بن أخطب-زعيم بني النضير الذي نجا من القتل يوم طُرِد مع قومه في غزوة بني النضير، وجاء يحرض قريظة ويخرب بيوتها ويكون سبباً في نكبتها- إلى آخر لحظة عند قتله يعلن عداوته لرسول الله ﷺ ؛إذ لما نظر إلى رسول الله ﷺ وهو يساق إلى القتل قال لرسول الله ﷺ:" أما والله ما لُمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يَخْذل الله يُخْذَل.ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتابٌ وقدرٌ وملحمةٌ كتبها الله على بني اسرائيل."[(٢)]

(١) انظر التفاصيل في ابن هشام، السيرة النبوية، ٢٦٩/٣-٢٧٠ ، وانظر رواية البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الاحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، حديث رقم ٤١٢١ ، ٣٠٤٣ ، ٣٨٠٤، ٦٢٦٢، ومسلم كتاب الجهاد والسير، باب الحكم فيمن حارب ونقض العهد، رقم ١٧٦٨، وسائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة ص٢٨٤

(٢) ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٧٠/٣

وقسم النبي ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأولادهم على المسلمين. ووقعت ريحانة بنت عمرو بن خنافة اليهودية في الأسر عند رسول الله ﷺ، وعرض عليها الزواج والحجاب، ولكنها تعصبت ليهوديتها، فتركها النبي ﷺ لحرية رأيها، حتى بشَّره بعض أصحابه بإسلامها، فسُرَّ النبي ﷺ لإسلامها، وتوفي عليه الصلاة والسلام وهي في ملكه[١].

ج- وهكذا تخلصت المدينة المنورة من اليهود نهائياً، ولم يبق لهم بقية فيها، فقد استعجلوا على أنفسهم، ولم يطيقوا أن يعيشوا أهل كتاب وأهل ذمة مُكَرَّمين في المدينة، بل وقعوا في الخيانة للعهد والمواثيق مع رسول الله ﷺ قبيلة إثر قبيلة؛ بنو قينقاع فبنو النضير، فبنو قريظة.

ح- وعلى أثر الخلاص من بني قريظة، بقي يهودي في أرض الحجاز في حصنه يؤذي رسول الله ﷺ بالكلام، ويؤلب القبائل العربية عليه وهو أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، فقرر رسول الله ﷺ أن يتخلص من شره وأذاه، ويطهر المنطقة كاملة من بقايا يهود، فأرسل إليه رهطاً، فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلة فقتله. وتفاصيل خطة قتله كانت على النحو الآتي:

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال:" بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبلَ حتى دنا من البواب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلتُ، فكَمَنْتُ، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علّق الأغاليق (أي المفاتيح) على عود. قال: فقمتُ إلى الأغاليق فأخذتُها، ففتحتُ الباب، وكان أبو رافع يَسْمَرُ عنده،

(١) انظر المرجع السابق، ٢٧١/٣-٢٧٢

وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سَمَره، صعدتُ إليهُ فجعلتُ كلما فتحتُ باباً أغلقتُ عليَّ من داخل، قلت: إن القوم أن دروا بي لم يخلُصوا إلي حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو ببيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع!قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دَهِش فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجتُ من البيت، فأمكثُ غير بعيد، ثم دخلتُ إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأُمِّك الويْل، إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثخَنَته، ولم أقتله، ثم وضعت خبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي، وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلستُ على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقَتَلْتَه أم لا، فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي، فقلت: النجاء! فقد قتل الله أبا رافع. فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثُته فقال لي: ابسط رجلك. فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط."(١).

(١) أخرجه البخاري ،كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق، ويقال سلام بن أبي الحقيق كان بخيبر ويقال في حصن له بأرض الحجاز حديث رقم ٤٠٣٨ ، ٤٠٣٩

المبحث الرابع

غزوة خيبر

أولاً: تاريخ الغزوة:

وقعت غزوة خيبر في محرم من السنة السابعة للهجرة، أي بعد عشرين ليلة من عودة النبي ﷺ من صلح الحديبية في ذي الحجة من السنة السادسة. وقد أنزل الله على في الطريق بين مكة والمدينة مبشراً له، وواعداً له بمغانم كثيرة وهي غنائم خيبر؛ حيث قال سبحانه:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ الفتح: ٢٠[١]

ثانياً:سبب الغزوة وأهدافها:

أ- أصبح تجمع اليهود في خيبر بعد جلاء بني النضير إليها أكبر تجمع لليهود، وقد اجتمعت فيها أحقادهم، وأخذوا يُحَرِّضون القبائل العربية المشركة على المسلمين، وكانت لهم علاقة بغطفان كبيرة، حتى أصبحت خيبر مصدر تشويش وفتن.

ب- تفرغ النبي ﷺ بعد صلح الحديبية لتصفية هذا الخطر الشمالي في الجزيرة، والذي يثير القبائل والأعراب، ويحرشها على رسول الله ﷺ، وحتى يتفرغ الرسول ﷺ لقريش. فأصدر عليه الصلاة والسلام أوامره بالمسير إلى خيبر، مؤمناً أن الله تعالى سيُغْنِم المسلمين خيبر بما فيها من خيرات.

(١) ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤٠/٤ من رواية ابن إسحق في المغازي، واسناده حسن، ورجاله ثقات، وانظر ابن حجر، فتح الباري،٤٦٤/٧ والبيهقي،دلائل النبوة، ١٩٧/٤ والسيرة النبوية لابن كثير، ٢٤٤/٣ وزادالمعاد لابن القيم٢٤٧/٣-٢٧٥

ثالثاً:قوات الطرفين:

أ- جهز النبي ﷺ جيشاً من ألف وأربعمائة رجل، ورفض أن يخرج معه من أراد الغنيمة فحسب، وكان يقول: لا يخرج معنا إلا راغب في الجهاد، أما الغنيمة فلا. وكان في الجيش مائتا فارس.[1]

ب- أما قوات اليهود في خيبر فكانت كثيرة؛ حيث كانوا يُخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً، ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات![2] وكان فيهم ألف دارع، وكان يساندهم أربعة آلاف من حلفائهم غطفان، على رأسهم عُيَيْنَة بن محصن.[3]

رابعاً:مجريات الغزوة:

أ- حركة الجيش المسلم إلى خيبر: حرَّك النبي ﷺ قواته إلى خيبر، واستعان بأدلّاء لمعرفة الطرق. وأراد أن يدخل خيبر من الشمال من جهة الشام، حتى يمنع حركتهم وتسربهم إلى الجهة الشمالية، ويُحكم الحصار عليهم، وحتى يمنع من نصرة غطفان لهم. وكان عليه الصلاة والسلام يدعو وهو مُشرف على خيبر:"اللهم رب السموات وما أظلَلْن، ورب الأرضين وما أقلَلْن، ورب الشياطين وما أضلَلْن، ورب الرياح وما أذْرَيْن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها. ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقْدِموا بسم الله. "[4] وقد عمل النبي ﷺ حركة تمويه عسكرية؛ حيث تحرك بأصحابه إلى منطقة الرجيع ليوهم غطفان أنه متوجه ضدّهم، فيخافون ويفزعون، فلمَا يتركهم إلى يهود خيبر لا يستطيعون إعانتهم؛ لأنه أصبح حاجزاً بينه وبينهم، وكان الذي يهمهم الآن أن

---

(١) ابن القيم،زاد المعاد،٢٨٤/٣، وانظر الواقدي،المغازي، ٦٣٤/٢ ، ٦٨٩

(٢)الواقدي، المغازي، ٦٣٤/٢

(٣)المرجع السابق، ٦٥٠/٢ - ٦٧٦

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية،٠ (مع الروض)، ٤٠/٤

يسلموا من غزو النبي ﷺ. وبهذا فوَّت النبي ﷺ الفرصة على الفريقين المتحالفين، غطفان ويهود خيبر، من الاجتماع على حربه، والدفاع عن خيبر.

ثم توجه إلى خيبر، ولما دخلها قال:" الله أكبر ! خَرِبَت خيبر؛ إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرين، قالها ثلاثاً."(١) وبعث دورية لغطفان تستعرض نفسها وتوهِمُها بالإغارة عليها، فرجَعَت بعض قوات غطفان وكانت في طريقها إلى خيبر لمناصرة اليهود فيها. وبهذا انفرد جيش المسلمين بيهود خيبر وحدهم. وخاف بعض اليهود من أن يتكرر حصارهم؛ فإن الحصارات السابقة لهم في المدينة كانت شؤماً عليهم، فاقترح الخروج لمقابلة جيش المسلمين خارج خيبر، ولكن الجُبن اليهودي تغلَّب عليهم، ورأوا أن بقاءهم في الحصون أقوى لهم وأمنع، كما وصفهم الله تعالى بقوله:﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ الحشر: ١٤

ب- حصار خيبر: وصلت قوات المسلمين ليلاً، فما أن أصبح الصباح حتى وجد اليهود أنفسهم محاصَرين، فقالوا: محمد والخميس،-أي الجيش- وبدأ هجوم المسلمين شديداً منذ أول أيام الحصار لتوهين معنويات اليهود، وزرع الرعب في قلوبهم، وقد جُرِح منهم في اليوم الأول خمسون جريحاً، وفتح رسول الله أول حصونهم، حصنَ ناعم، ثم حصنَ ابن أبي الحقيق، وسبى منهم سبْياً كثيراً؛ كانت منهم صفيةُ بنت حييّ بن أخطب، فأسلمت، فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها. وكانت صفية بنت حيي بن أخطب عروساً قد تزوجت من كنانة بن أبي الحقيق منذ فترة وجيزة، فقُتِل أبوها حيي بن أخطب من بني النضير، وزوجُها كنانة بن أبي الحقيق، وكانت كما حدَّثت: أنها رأت رؤيا قبل غزوة خيبر؛ حيث رأت أن قمراً وقع في حجْرها، فلما تزوجها النبي ﷺ عرفت تأويل رؤياها، يروي ابن عمر يقول:"

(١) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤١٩٧ ، ٤١٩٨، ومسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة خيبر، رقم ١٣٦٥ ، ١٤٢٦/٣ وانظر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة، ص٣٤١

كان بعيْنَيْ صفية خُضْرَة، فقال لها النبي ﷺ: ما هذه الخضرة بعينيك؟ (أي آثار كدمة وضرب) قالت: قلت لزوجي: (أي كنانة) إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع في حجري، فلطمني وقال: أتريدين مَلِك يثرب؟ (يقصد محمداً ﷺ) قالت: وما كان أبغض إليّ من رسول الله ﷺ؛قَتَل أبي وزوجي. فما زال يعتذر إلي، وقال : يا صفية إن أباك ألّبَ(حرض) عليّ العرب، وفعل وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي."[١] وكان رسول الله ﷺ قد أخذها من السبي وخيّرها بين البقاء على دينها وبين الإسلام، فأسلمت، فأعتقها وجعل عِتْقَها مهراً لها، وتزوجها في طريق العودة إلى المدينة، وأصبحت من أمهات المؤمنين. ولقد كانت تغار منها زوجاته ويفخرن عليها ويقلن لها: يا بنت اليهودي! ودخل عليها النبي ﷺ يوماً وهي تبكي، لما يفخرن عليها، فغضب وقال لها كلاماً ترد به عليهن:" إذا قالوا لك أو فاخروك فقولي: أبي هارون وعمي موسى."[٢].

ت- ووقعت بعد انجلاء المعركة وعقد الصلح مع اليهود حادثة خطيرة، إذ وضعت امرأة يهودية؛ وهي زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم سُماً في شاة قدّمتها طعاماً مشوياً لرسول الله ﷺ، حقداً منها عليه، وخيانة للعهد، ولما أدخل شيئاً منها إلى فمه أُخبر بأنها مسمومة فلفظها ونجا من الموت، وأما مَن أكل منها معه من أصحابه فقد مات بالسم فوراً، ولما سألها عن فِعلتها تلك اعترفت وقالت:أردت لأقتلك. واعترف زعماء اليهود أنهم هم الذين تآمروا عليه وأمروها بذلك، ولما سئلوا عن ذلك أجابوا فقالوا: "أردنا؛ إن كنتَ كذّاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك."[٣] وقد كان هذا السم يعاود النبي ﷺ بآثاره في كل سنة حتى مات رسول الله ﷺ شهيداً متأثراً به في مرض موته حيث قال عليه

---

(١) رواه الطبراني، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٥١/٩ : رجاله رجال الصحيح، وانظر، انب هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤٣/٤

(٢) الواقدي، المغازي، ٦٧٥/٢

(٣) انظر الروايات في صحيح البخاري، كتاب الهبة في باب قبول الهدية من المشركين، رقم٢٦١٧ ،وكتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ، رقم٥٧٧٧

الصلاة والسلام: "يا عائشة: ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم."(١) وبدأت الحصون تتهاوى حِصناً حِصناً، كان آخرها قد سقط وقتل فيه مَرحَب اليهودي، وكان مفاخراً بنفسه ويبارز وينشد فيقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

فانطلق إليه محمد بن مَسْلَمة فقتله. وفي صحيح مسلم أن علياً هو الذي قتله؛ ذلك أن محمد بن مسلمة قطَع ساقيه،(٢) ثم قتل الزبيُر أخا مَرحب واسمه ياسر.

وقد قال النبي ﷺ ليلة دخوله خيبر:" لأُعطين هذه الراية رجلاً يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبُّهُ اللهُ ورسوله، يفتح الله على يديه، وأعطاها علي بن أبي طالب، وقد كان يشتكي من عيْنَيْه، فبصق رسول الله في عينيه ودعا له، فما عاد يشتكي منهما، وقال له: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم الى الإسلام، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حُمُر النَّعَم."(٣) وكان ممن حمل الراية فقاتل أيضاً أبو بكر ﷺ حيث أصيب النبي ﷺ بالشقيقة، (أي الصداع) فأخذ أبو بكر راية رسول الله ﷺ، ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع،"(٤) كما شارك عمر بن الخطاب أيضاً في القتال ومعه دورية قتال. (٥)

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم ٤٤٢٨ مُعَلَّقاً، وابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤٤/٤

(٢) انظر ابن القيم،زاد المعاد ٢٧٩/٢ ، وانظر التحقيقات في المسألة في، ابراهيم العلي، صحيح السيرة، ص٣٤٣ - ٣٤٥

(٣) أخرجه احمد في المسند٢٢٨٨٤/٨ من حديث سهل بن سعد، وأخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام رقم ٢٩٤٢ ، وباب فضل من أسلم على يديه رجل، رقم ٣٠٠٩ ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب، رقم ٣٧٠١ ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم، ٤٢١٠، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، رقم ٢٤٠٦ ، وانظر سائر تخريجاته في هامش ابن القيم، زاد المعاد، ٣٧٨/٢

(٤) الحاكم، المستدرك، ٣٧/٣ وقال :صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، والبيهقي، دلائل النبوة، ٢٤٠/٤

(٥)انظر الحاكم، المرجع السابق.

وهكذا انتهت غزوة خيبر بعد انتصار المسلمين عسكرياً على اليهود، وقُتل كثير منهم، وغنم المسمون كثيراً من أموالهم، وسبوا كثيراً من نسائهم وذراريهم. وبعدها طلب اليهود من النبي ﷺ صلحاً، فوافقهم على الصلح وبشروط؛ لأن مصلحة الإسلام كانت تقتضي ألا يبقى المسلمون في خيبر لبُعدها عن المدينة من جهة، ولحاجة رسول الله ﷺ إلى أصحابه؛ لحسم الصراع مع قريش، ومن أجل فتح مكة من جهة أخرى، فاكتفى بكسر شوكة اليهود نهائياً، ولأن تقييدهم بالصلح بشروطه المعنوية والمادية هو الأفضل لدولة الإسلام في هذه المرحلة من الصراع.

كما كسر النبي ﷺ بهذا الصلح تآمر اليهود مع سائر الأعراب على المسلمين وخصوصاً غطفان؛ إذ انحسرت ويئست، وتخلَّت عن حلفائها يهود خيبر في هذه المعركة وبعد ذلك.

خامساً:دروس وعبر من غزو خيبر:

أ- اختار النبي ﷺ الوقت المناسب لتصفية اليهود في خيبر فكان خروجه بعد صلح الحديبية، حيث هدأ من معركته في الجنوب مع عدوه الأول قريش.

ب- أراد الرسول ﷺ أن تكون أهداف جيشه خالصة لوجه الله تعالى، وحب الجهاد في سبيله، ولم يقبل من يريدون الخروج للغنائم.

ت- اليهود مغرورن بقواهم ولكنهم جبناء لا يواجهون ولا يحاربون إلا في داخل الحصون.

ث- حرص النبي ﷺ على الدعاء في مثل، ليربط القلوب بالله فتستمد منه النصر والعون.

ج- إكرام المرأة في السبي وحين تسلم؛ إذ يَمُنُّ رسول الله ﷺ على صفية بنت عدوه حُيَيٍّ بن أخطب ويكرمها، فيتزوجها. ولما كانت نساؤه يُعَيِّرنها بأنها ابنة اليهودي يَجْبُر النبي ﷺ بخاطرها ويعلمها كيف تجيبهن فتقول: أنا أبي هارون وعمي موسى.

ح- الرسول ﷺ يقبل الصلح مع اليهود من موقف قوة للإسلام، وموقف ضعف من اليهود، وبشروط فيها مصلحة الإسلام، وبما فيه كسر ضوكتهم، ودحر شرهم، حتى انتهى هذا الصلح بخروجهم نهائياً من الجزيرة العربية في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وتصديقاً لأمر النبي ﷺ بأن: لا يجتمع في جزيرة العرب دينان[1].

خ- حرص رسول الله ﷺ على إعمار الأرض وزرعها من ذوي الخبرة حتى ولو كانوا أعداء للمسلمين، ولكن في حالة صلح معهم.

د- الغرض الأول من الجهاد هو دعوة الناس إلى الإسلام، وليست الغنائمُ ولا قتلُ العدو أهدافاً في حد ذاتها للمسلمين الذين يحملون دعوة الخير للناس كافة؛ ولهذا طلب رسول الله ﷺ من علي أن يدعوهم أولاً إلى الإسلام، فإن لم يستجيبوا حاربهم، ووعد المسلمين بالخير في الآخرة بدخول الناس في الإسلام بما هو أحسن من غنائم الدنيا.

ذ- ضرب النبي ﷺ المثل الأعلى للمسلمين في معاملة المرأة المسلمة، فسمح للنساء أن يخرجن في غزواته، وكان يقول لهن: على بركة الله، وكان يقسم لهن في الغنائم لمشاركتهن في التموين والسقاية وتضميد الجراح، وهذه كلها خدمات ميدانية لا تقل أهمية عن القتال.

ر- لقد كان في فتح خيبر إخضاد لشوكة اليهود فيها، وتحطيم لحصونهم وقلاعهم المنيعة مع كثرة مقاتليهم ووفرة أسلحتهم، كما فيه كذلك إخضاد لشوكة القبائل العربية المشركة مثل غضفان، وسيطرة لدولة الإسلام على خيبر وأراض فدَك ووادي القرى وتيماء في الجهة الشمالية للمدينة. ولقد كان لكل هذا أثرٌ كبير في قوة دولة الإسلام، وتعاظمٌ لهيبة المسلمين؛ مما أقلق قريشاً، وقد سبق لها أن اعترفت قبل شهرين فقط بالدولة المسلمة في صلح الحديبية، ومما كان له أثر كبير في تهيئة المسلمين لفتح مكة بإذن الله تعالى، ومما فتح الباب واسعاً لدخول الناس في الإسلام في الجزيرة العربية.

---
(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٥٠/٤

سادساً: نتائج غزوة خيبر وآثارها

أ- صلح خيبر: وافق رسول الله ﷺ على أن يعقد صلحاً مع اليهود بالشروط الآتية:

١- أن يحقن المسلمون دماء اليهود فلا يقتلوهم.

٢- أن يدفع اليهود نصف ثمار خيبر سنوياً للمسلمين.

٣- أن يبقوا على أرضهم لخدمتها، ولهم نصف ثمارها بدل تعبهم فيها وزراعتهم لها.

٤- أن للمسلمين الحق في طردهم منها متى شاءوا. وقد طردهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته بهذا الشرط.

ب- قسمة الغنائم: قسم النبي ﷺ غنائم كثيرة غنمها في القتال. وقد كان خرج في الجيش نساء مسلمات يداوين الجرحى، ويساعدن المسلمين، فلما قسم الغنائم جعل لهن نصيباً منها. وقد نال من الغنائم والخيرات الكثيرة من خيبر كثيرٌ من المسلمين حتى بلغ الخير منها ألفاً وأربعمائة مسلم سواء منهم من قاتل أو لم يقاتل،[١] حتى جعل النبي ﷺ لجعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين العائدين من الحبشة من الغنائم. وكان فرح النبي ﷺ بعودة جعفر كثيراً حتى قال:"ما أدري بإيهما أنا أسَرُّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر."[٢]

ت- كان لغنائم خيبر، وما تلاها من واردات خيراتها بحسب شروط الصلح أثر اقتصادي كبير في ميزانية الدولة الإسلامية، وتنمية مواردها المالية، وتعزيز قوة المسملين الاقتصادية، حتى شعر المسلمون بذلك فقالوا: ما شبعنا من التمر حتى فُتحت خيبر.

(١)انظر التفاصيل في ابن هشام،السيرة النبوية، وابن القيم،زاد المعاد٣/٢٨٣-٢٦ والواقدي، المغازي٢/٦٨٠-٦٩٨

(٢)ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٤/٥٢

المبحث الخامس

مجمل موقف اليهود من الدعوة الإسلامية

أولاً: تخوف اليهود ومن من الإسلام ودولته:

أخذ الصراع مع اليهود شوطاً كبيراً؛ فهولاء أهل كتاب ولهم عدد كبير، وكانوا قد تمكنوا من المدينة وأهلها في عصور مبكرة حتى قبل مجيء قبائل الأوس والخزرج إليها، وكان لهم صبغة دينية، "ولهم مكانة دينية وعلمية مستمدة من أنهم أصحاب كتاب سماوي، وذو صلة بالأنبياء والأمم الغابرة وأخبارها،"(١) وكانوا أصحاب ثروة وزراعة في خيبر، وفي يثرب، كما كانوا أصحاب صناعة ومسيطرين على سوق الذهب والمال، ولذا فقد نشروا الربا، وشجعوا العبودية والرق بسبب العجز عن سداد الديون. كما كانوا مرجعاً مالياً للأوس والخزرج؛ إذ العرب لا يحبون المهنة، ولا يهتمون بالثراء. كما كانوا مرجعاً استشارياً وقضائياً؛ لأنهم متعلمون وحكماء. وقد جعلوا بينهم وبين القبيلتين العربيتين الكبيرتين؛ الأوس والخزرج، أحلافاً وولاءات، وساعدوا في إثارة الحروب بين القبيلتين ليضمنوا عدم اتفاق العرب عليهم، ولحماية أنفسهم. كما كان عندهم علم من التوراة بقرب مبعث نبي من العرب؛ إذ كانوا يتهدَّدون الأوس والخزرج به، وأنهم سيقفون معه عند قتاله للمشركين؛ حيث كانوا يقولون عندما يشجر خلاف بينهم وبين أحد من القبيلتين: قَرُبَ مَبْعَثُ نبيٍّ من العرب ولنُقاتلنَّكم معه فنَقْتُلكم قتل عادٍ وإرَم، وسجل القرآن الكريم تهديدهم هذا بقوله تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٨٩

---

(١)دروزة، محمد عزة، سيرة الرسول، صورة مقتبسة من القرآن الكريم، المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، طباعة قطر،الدوحة١٤٠٠هـ،١٢٢/٢

ولهذا كله لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ورأوا دولة الإسلام قائمة نظروا بتوجُّس وخيفة، وطار لُبُّهم مما رأوا، واستشاط غضبهم، واحترقت قلوبهم غيظاً وحسداً، وساءهم وَحْدة أمر الأوس والخزرج واجتماع شملهم على دين واحد وقيادة واحدة أخرجتهم من قبضتهم وسيطرتهم، وشعروا أنهم لم يعودوا أصحاب السيادة والتخطيط والكلمة في يثرب، وقد دخلوا مُرْغَمين في وثيقة مع النبي ﷺ مما شعروا فيها بالتقييد والمسؤولية، وأن ثمة من سيحاسبهم وفق مواقفهم، وبالتالي زالت امتيازاتهم السابقة في المدينة. ولتلك الأسباب مجتمعة لم يستطيعوا إخفاء حقدهم وحسدهم؛ فكانوا أول الحاسدين لرسول الله ﷺ بعد انتصار المسلمين في معركة بدر، وكانوا أول المعادين للإسلام، رغم الخطابات الرقيقة لهم من القرآن الكريم بضرورة الإيمان بالإسلام، والتحذير من أن يكون من أول الكافرين به، وذلك في أوائل ما نزل من سور القرآن في المدينة في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ومن ذلك؛ قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ٤٠ ــ ٤٢

ولقد غرّهم من أنفسهم أنهم لم يفهموا رسالة دعوة الإسلام لهم ، بأنهم يجب أن يكونوا أول المؤمنين بها، وأول من يلتف حولها؛ لِما عندهم من التبشير بهذه الرسالة الخاتمة في كُتُبهم، ولأن أساس هذه الرسالة هي التوحيد الذي جاءت به نبواتهم ورسالاتهم على أنبياء بني اسرائيل. وقد أعلن رسول الله ﷺ ما جاء إليه من ربه أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ونطق القرآن بأن بني اسرائيل قد أوتوا الكتاب والحكمة والنبوة، وأنهم أصحاب فضل بسبب إيمانهم، وأن منهم أئمة هداة بأمر الله. فبدل أن يفهموا هذه الرسالة للاقتراب من الرسول ﷺ والإيمان بدعوته، غرّتهم أنفسهم، وظنوا "أن يجعلهم النبي ﷺ

خارج نطاق دعوته، معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم، وأمنعَ من أن يأمل النبي ﷺ دخولهم في دينه وانضوائهم تحت رايته، بل كانوا يرون أن من حقِّهم أن ينتظروا انضمامه هو إليهم كما يمكن أن نفهم من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ١١١ ومن قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٢٠ وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ البقرة: ١٣٥. لاسيما حينما رأوه يصلي إلى بيت المقدس قبلتهم، ويعلن إيمانه بانبيائهم وكتبهم، ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته، ويتلو فيما يتلوه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٩٠ "ورأوه ﷺ يدعوهم في جملة الناس، بل يخصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة، ويندِّد بهم لعدم إسراعهم إلى استجابتها، ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف التعطيل والتناقض، فكان هذا الأمر على ما هو المتبادر باعثاً على تنكرهم وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني. ثم لما رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم، ويتخذون النبي ﷺ مرجعهم الأعلى، ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع، فاستشعروا –حقاً أو باطلاً –الخطر العظيم يحدق بمركزهم ومصالحهم إذا هم أرادوا أن يتمسكوا بكيانهم، ويظلّوا على يهوديتهم، ولا يندمجوا في الدعوة الإسلامية، فكان هذا عاملاً على اندفاعهم في خطة التَّنكُّر والحقد والتآمر والصدّ والتعطيل إلى نهايتها"(١).

---

(١)المرجع السابق٢/١٢٣-١٢٥

ثانياً:اليهود أعداء الحق ورافضون دعوة القرآن لهم:

سجل القرآن موقفهم في سورة البقرة في أول ما كان منهم بعد دعوته لهم، وتلطفه بتذكيرهم بنعمته عليهم؛ بأن جعلوا من أنفسهم أول كافر به فقد جاءت الآيات من (٤٠)إلى(٤١) في سورة البقرة في الحديث عن بني اسرائيل تصف استعراض مواقفهم من الحق سابقاً ولاحقاً، وتنتهي في نهايات داخل سياقاتها بموقفهم من الإسلام ورسوله بقوله تعالى عنهم: ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾ البقرة: ٤١ لأنهم فعلاً كان أول موقفهم هو الكفر بالإسلام، وتقول عنهم في سيرتهم السابقة أن ديدنهم الكفر بآيات الله قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٦١ .

ويستبعد القرآن أن يؤمنوا بالإسلام لما عُرِف من طبيعتهم في معاملة أنبيائهم السابقين بقوله تعالى: ﴿ ۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ٧٥ ــ ٧٦ ،

وأنهم حتى مع كتابهم كانوا يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه الآخر، فكيف سيؤمنون بالقرآن؟! قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن

يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٨٥.

وأنهم وقفوا مُسبَقاً منه: بأنهم قلوبهم غُلف غير مستعدين للاستماع إليه، وأنهم رغم ما كانوا يهددون المشركين في المدينة أن نبياً من العرب سيبعث، وأنهم سيقاتلون المشركين ويكونون في صفه ومعه، ومع ذلك لما بُعث حاربوه قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٨٩.

وأن موقفهم هذا سببه الحسد والبغي، وأنهم مُصرّون على الكفر به؛ قال تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩٠ – ٩١.

وأعلنوا عداءهم للملائكة، ومنهم ميكائيل، وجبريل حامل الوحي إلى أنبياء الله تعالى ورسله السابقين، عليهم السلام، وإلى رسول الله وخاتمهم محمد ﷺ، وأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وأنهم لا يحبون أن يأتي خيرٌ على رسوله ﷺ، وأنهم يوَدّون ارتداد المؤمنين برسوله عن الإسلام، كما قال تعالى فيهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ البقرة: ١٠٩.

ثالثاً: مواقفهم الجدلية:

وقف اليهود موقف المجادلة والمحاجة بالباطل لرسول الله ﷺ وللمسلمين معتمدين على ما معهم من فكر ديني لعبوا فيه، فجادلوا المسلمين في نسبة محمد ﷺ إلى إبراهيم وأنه كان يهودياً، وأنهم هم الذين على حق، وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وأن النصارى ليسوا على حق وذلك نكاية بالقرآن الذي اعترف بنبوة عيسى عليه السلام، وأنهم هم الذين فضلهم الله على العالمين باعتراف القرآن ونصه وبالتالي فهم شعب الله المختار، وزعموا أنهم هم على الحق؛ إذ أن النبي ﷺ والمسلمين يُصَلّون إلى بيت المقدس وهي قبلتهم، وأن محمداً هو بشخصه الذي قد أعاد المسلمين إلى الكعبة قبلة جديدة لهم، وبالتالي ضاعت صلاتهم السابقة! وقد تولى القرآن الرد عليهم في جميع هذه الشبهات، وغلبهم في الحجة، وأظهر زيف أقوالهم، وزيغ قلوبهم، وعداءهم للحق، وكَذِبهم وتزويرهم للحقائق التاريخية.[١]

رابعاً: تآمرهم على المسلمين مع المنافقين ومشركي مكة:

كان النافقون يتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين، ويتواصَوْن فيما بينهم بالكفر به. وكان اليهود يتخططون معهم لتشكيك المسلمين في دينهم، ويرسلون معهم أسئلة للنبي ﷺ عن الروح وعن صفات الله وعن قضايا غيبية تشكيكاً للمسلمين، وكانوا يسخرون بالإسلام والصلاة والأذان، كما كانوا يتآمرون مع المنافقين ويعقدون معهم أحلافاً، وعلى رأسهم رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، حتى وقف معهم بالتخذيل عنهم، وبمحاولة ثَنْي النبي ﷺ عن طردهم من المدينة بعد خيانتهم في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة،

(١) انظر التفاصيل في مواضعها في تفسير الآيات ذات العلاقة ، وانظر المرجع السابق، ١٣٨/٢-١٦٥

وقد كانت مواقفهم مع المشركين من أهل مكة وخصوصاً كما رأينا إثر غزوة بدر، عندما قالوا لرسول الله ﷺ: لقد حاربت قوماً لا علم لهم بالحرب، ولو حاربتنا لعلمتَ أنا نحن الناس. وقد صرحوا لمشركي قريش حينما سألوهم: أديننا خير أم دين محمد؟ فأجابوهم: بأن دين قريش –وهو عبادة الأصنام– خير من دين محمد. وأما وقوفهم مع مشركي قريش والأحزاب [1] في غزوة الخندق فكان أكبر تآمر على الإسلام ورسوله والمسلمين ودولتهم. كما تآمر يهود خيبر مع غطفان والقبائل العربية المشركة في شمال الجزيرة العربية لغزو المدينة واستئصال شأفة الإسلام.

خامساً:مواقف استثنائية من بعض اليهود باتباع الحق:

رغم أن الظاهرة الكبرى لمواقف اليهود كانت عداء الإسلام وأهله، ونقض العهد مع رسول الله ﷺ، إلا أن الخطاب القرآني بقي على حاله في دعوتهم إلى الإسلام، وذكر ما وصف الله به مؤمنيهم من الفضل في تاريخ الأديان في بني اسرائيل وأنبيائهم، وأن محاربة المسلمين لهم لم تمنع من دعوتهم إلى الخير حتى ولو أساءوا وحاربوا وغدروا، طبقاً لمفهوم عالمية دعوة الإسلام، وخيريته للناس كافة، وأنه رحمة للعالمين، وهم من العالمين، بل هم أولى من المشركين بالاتباع، والمفروض أنهم أسرع استجابةً للدين الحق؛ لِما عرفوا من الحق السابق والدين والكتاب الذي نزل على أنبيائهم ورسلهم. ولذلك فإن رسول الله ﷺ –كما سبق أن بينا في غزوة خيبر– طلب من علي رضي الله عنه قائد قوات المسلمين يومها أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يحاربهم، فإن هم أسلموا لا يُحارَبون، وأبلغه أن ما عند الله من أجر هدايتهم خير من حربهم وغنائمهم.

---

(١) انظر تفاصيل هذه المواقف دراسات بصور قرآنية عند دروزة، المرجع السابق، ١٦٦/٢-١٨٦ وانظر ابن هشام، السيرة النبوية ، (مع الروض)، ٢٥٣/٢ فما بعدها.

ولقد سجل القرآن الكريم استثناءات قرآنية بشأن مَن آمن من اليهود، وممن كانوا معتدلين، وكانوا على حسن ظنٍّ بالحق، وذلك في سور البقرة والمائدة وآل عمران والنساء، مما يشير إلى إخلاص بعضهم، وإنصاف بعض علمائهم للإسلام، مما يشير إلى أن بعضهم قد تخلص من المؤثرات المتنوعة العنصرية والنفسية، ومن الأنانية التي هي سمة النفسية اليهودية على مرِّ العصور؛ ومما نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ المائدة: ٦٦ وقوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ المائدة: ٨٠ والتعبير بـــ : (كثيراً هنا وفي آيات أخرى أكثركم، وكثيراً منهم) يدل على أن أقلية أو قليلاً منهم فيهم خير، ويصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران: ١١٣ – ١١٥ وقوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٦٢.

ولا ننسى مَن آمن منهم ومن أحبارهم؛ ففي الصحيح من سيرة رسول الله ﷺ من رواية حُمَيْد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الحبر اليهودي عبد الله بن سلام قد أسلم، وقد علم بمقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة حيث أتاه يسأله ويتأكد من نبوته فقال:"إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما

بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أُمه؟ فقال النبي ﷺ: أخْبَرني به جبريل آنفاً .قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة؛(كان اليهود يُعادون جبريل كما في القرآن الكريم) قال: أمّا أول أشراط الساعة: فنارٌ تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كَبِد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه. قال:أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. قال: يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهت، (أي أهل كذب وزور) فاسألهم عنّي قبل أن يعلموا بإسلامي. فجاءت اليهود: فقال النبي ﷺ: أيُّ رجلٍ عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا:خيرُنا وابنُ خيرِنا، وأفضلُنا وابن أفضلنا. فقال النبي ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله. قالوا: أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله، فقال: أشهد الا إله الا الله وأن محمداً رسول الله. قالوا: شَرُنا وابنُ أشَرِّنا، وتَنَقَّصوه. قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله."[1]. وفي رواية أخرى عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس أيضاً وفيها :" لما جاء نبيُّ الله جاء عبد الله بن سلام، فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئتَ بحق، وقد علمت يهود أني سيدُهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ. فأرسل نبي الله ﷺ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود! ويلكم اتقوا الله. فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق فأَسْلموا. قالوا: ما نعلمه– قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار– فقال: فأي رجل فيكم عبد الله ابن سلام؟ قالوا: ذاك سيدُنا وابنُ سيدنا، وأعلمُنا وابنُ أعلمنا. قال: افرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان لِيُسلِم. قال أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا حاشا لله ما كان ليسلم. قال أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا حاشا لله ما كان ليسلم .قال يا ابن سلام! اخرج عليهم. فخرج، فقال: يا معشر يهود! اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون

(١) البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، حديث رقم ٣٩٣٨

أنه رسول الله، وأنه جاء بحق .فقالوا: كذبت. فأخرجهم رسول الله ﷺ."[1] كما ثبت كذلك في الصحيح أن بعض بني اليهود لحقوا بالنبي ﷺ؛ ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال:"حاربت قريظةُ والنضيرُ فأجلى (رسول الله ﷺ) بني النضير، وأقرَّ قريظة، ومَنَّ عليهم حتى حاربت قريظة، فقتلَ رجالهم وقسم نسائهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، الا أن بعضهم لحقوا بالنبيّ فأمَّنَهُم، وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم."[2]

بل إن من اليهود من أسلم وحارب مع المسلمين يوم أحد واستشهد وهو مُخَيْريق، وقد أوصى بماله وبكل ما يملك لرسول الله ﷺ ينفقه كيف يشاء.[3]

ومع هذا كله فقد كان الموقف الغالب الأعم، والروح السائدة، والمواقف المعلنة والباطنة من اليهود عداء رسول الله ﷺ والإسلام والمسلمين، وكان تجاوبهم مع الحق لا يكاد يذكر.

الفصل الخامس

دعوة الدول الكبرى إلى الإسلام والصراع معها

(١) البخاري، المرجع السابق، كتاب مناقب الأنصار، ٤٥- باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث ٣٩١١، وانظر ابن حجر، فتح الباري، ٢٤٩/٧-٢٥٠ ، ٢٧٢ ، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٥٧/٢، عن ابن إسحق بصيغة التحديث ٢٧٢

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، رقم٤٠٢٨ ،ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد، باب إجلاء اليهود من الحجاز،رقم١٧٦٦

(٣) انظر ابن هشام ،السيرة النبوية، (مع الروض)، عن ابن إسحق بصيغة التحديث، ٢٥٧/٢

المبحث الأول: دعوة الرسول ﷺ عظماء زمانه وكتبه إليهم.

المبحث الثاني: غزوة مؤتة.

المبحث الثالث: غزوة تبوك.

المبحث الرابع: بَعث أُسامة.

المبحث الأول

دعوة الرسول ﷺ عظماء زمانه وكتبه إليهم

أولاً: محمد ﷺ رسول الله تعالى وداعيته إلى الناس كافة:

بعث الله رسول ﷺ للناس كافة، وكلَّفه أن يدعو الناس إلى عبادة الله عز وجل؛ فبدأ بأهله وعشيرته وقومه، فآمن معه قليل، وحاربه كثير، وخاض مع قريش وسائر القبائل العربية معارك حامية ودامية، حتى ما كان من أمر الهدنة يوم الحديبية. وكان رسول الله ﷺ يتحيَّن الفرصة المناسبة حتى يُكمل مهمته، ويقوم بوظيفته في دعوة غير العرب، ودعوة المناطق النائية داخل الجزيرة العربية وفي أطرافها إلى الإسلام، فلطالما شغلته قريش والأحزاب عن مخاطبة الناس، ولم يغِ عن ذهنه ﷺ لحظة واحدة أنه مبعوث رحمة للعاملين، وأن والقتال ليس هو هدف دعوته، ولا نهاية المطاف في منهجه، ولا هو منهج التعامل مع الناس في الأصل في رسالته؛ فالإسلام دعوة لحياة الإنسان حراً كريماً، عابداً لله قبل أن يكون دعوة للقتال وإزهاق النفوس. لكن إذا أصر الباطل على الوقوف في وجه هذه الدعوة وتربص للإسلام ودولته، أصبح القتال ضرورة لا مفر منها. ولذا فإن رسول الله ﷺ ما قاتل قوماً ولا قبيلة ولا أُمة من الأمم إلا بعد أن دعاهم إلى الله عز وجل، وتلطف في دعايتهم إلى الإسلام، وما اختار القتال أسلوباً للدعوة إلا بعد ان تختار الأمم والدول والشعوب والقبائل المدعوة القتال لمنع دعوته، وللصدِّ عن دين الله عز وجل.

وتحقيقاً لهذا النهج؛ فقد بعث رسول الله ﷺ مُبَكِّراً رسائل إلى ملوك الأرض في زمانه؛ ملك الروم، وملك الفرس، وملك الحبشة ومقوفس مصر وغيرهم لدعوتهم إلى الإسلام. وما إن لا حت فرصة هدوء بعد الحديبية ، حتى استغلها النبي ﷺ لدعوة الملوك والرؤساء، والعظماء والأمراء في طريق دعوة شعوبهم وقبائلهم ودولهم إلى الإسلام، واختار النبي ﷺ أن يكتب لهؤلاء العظماء رسائل مختومة بختم النبوة"محمد رسول الله".وبعثها مع

حكماء وعقلاء من أصحابه: حيث بعث" دِحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حُذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الاسكندرية، وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعياد ابنيْ الجلندي الأزديَّيْن ملكَيْ عُمان، وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيّضيْن ملكّيْ اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى منذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شُجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شّمر الغساني ملك تخوم الشام، (...) وبعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغساني، وبعث المهاجر بين أبي أُمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحِمْيَري ملك اليمن."[١]

ثانياً: رسائل النبي ﷺ وكتبه إلى ملوك الدول وعظماء القبائل:

أ- رسالة النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم: كانت تتقاسم العالم ذلك الزمان، دولتان كبيرتان الروم وفارس، فأرسل النبي ﷺ رسالته التالية إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيها، ويدعو شعبه إلى الإسلام الذي يعترف بعيسى بنبوة عليه الصلاة والسلام. ونص هذا الكتاب هو[٢]:

" بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٣٢/٤

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، حديث أبي سفيان عند هرقل، رقم٧ وله أطراف كثيرة رقم ٥١ ، ٢٦٨١ ، ٢٨٠٤، وصحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم١٧٧٣، وانظر سائر تخريجاته في السنن وسائر كتب السنة في، العلي، صحيح السيرة هامش ص٣٨٢

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أَسْلِم تسلمْ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[١]: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤ .

فلما وصل الكتاب إلى هرقل بحث عن تجار من قوم هذا النبي الذي أرسل له رسالة، فوجد أبا سفيان مع بعض التجار العرب، فسألهم عن محمد وحسبه ونسبه، وإلى ماذا يدعو قومه، وهل صدّقه القوم أم كذبوه، وعن أخلاقه. فلما أجابوه عرف أنه نبي صادق، ولما صارح رجال الدين عنده أنكروا عليه، فأوهمهم أنه يختبرهم، وخاف على مُلكه، ومصالحه ودنياه،فهو "سياسي ماكر، وأمرُ الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم ملكه، وينمي قوته (...) وشات لباقة قيصر السياسي أن يستدعي دِحية، (حامل كتاب النبي إليه) وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم! ثم أعطاه قدراً من الدنانير، وصرفه. وعاد دحية إلى رسول اللهﷺ بالنبأ، فقال النبي ﷺ: كذب عدو الله، والله إنه ليس بمسلم. وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين. "[٢]

وقد روى ابن عباس حديث أبي سفيان مع هرقل على إثر هذه الرسالة، وهي: "حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش،(يقصد مدة الهدنة في صلح الحديبية) فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال أيُّكم أقرب

---

(١) الأريسيون: نصارى اتباع عبد الله أريس، وهم فرقة نصرانية تدعى بالأروسية وعرفوا بالمزارعين والفلاحين لامتهانهم الزراعة لأنهم كانوا موحدين وهربوا من ظلم القائلين بالتثليث على أشهر الأقوال.

(٢) الغزالي، فقه السيرة، ص ٣٨٥

نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل؛ فإن كذَبَني فكَذِّبوه، فوالله لولا الحياء من أن يَأْثِروا عليَّ كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسَبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها! قال: ولم تمكني كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له سألتُك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرتَ: أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرتَ: أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك لقلتُ: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا، فقد أعرفُ أنه لم يكن لِيَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرتَ أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوبَ. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخْلُص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.ثم دعا بكتاب رسول الله الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤ .

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب؛ كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأُخْرِجْنا، فقلت لأصحابي حين أُخرجنا: لقد أَمِر أمرُ بن أبي كبشة، (يقصد أنه عَظُم شأن محمدﷺ، وكانوا من سوء أخلاقهم مع رسول الله أنهم ينسبونه إلى الأب الرضاعي وهو زوج أمه في الرضاعة حليمة السعدية) إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقِناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

وكان ابن الناطور صاحب إيلياء أسقفا على نصارى الشام يحدث: أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك. قال ابن الناطور وكان هرقل حَزّاءً ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر. فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهُمَّنك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود. فبينما هم على أمرهم أُتِيَ هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمُخْتَتَنٌ هو أم لا؟ فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختتن،

وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يَرُمْ حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبيّ، وأنه نبّي، فأَذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلّقت، ثم اطلع، فقال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان، قال: رُدّوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبرُ بها شدتكم على دينكم فقد رأيتُ. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل. رواه صالح بن كيسان ويونس ومعمر عن الزهري.[1]

ب- رسالة النبي ﷺ إلى كسرى ملك الفرس: وفي رواية عن ابن عباس: " أن النبي ﷺ بعث كتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعها إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشي أما بعد؛ ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤.

فأما كسرى؛ فمزق كتاب رسول الله ﷺ، ولم ينظر فيه فقال رسول الله ﷺ: "مُزِّق ومُزِّقت أمته."[2] وثمة رواية من مرسل يزيد بن حبيب ﷺ قال: "وبعث رسول الله ﷺ عبد

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب حديث أبي سفيان، رقم الحديث ٧ وأطرافه في ٥١ ، ٢٦٨١ ، ٢٨٠٤ ، ٢٩٤١ ، ٢٩٧٨ ، ٣١٧٤ ، ٤٥٥٣ ، ٥٩٨٠ ، ٦٢٦٠ ، ٧١٩٦ ، ٧٥٤١ .

(٢) قال ابراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية في تخريجها هامش ص ٣٨٣: أخرجه أبو عبيد في الأموال رقم٥٩ ، صفحة ٣٢، وقد اتفقت كلمة العلماء على سعيد بن المسيب وأن جميع مراسيله صحيحة، وانه كان لا يرسل إلا عن ثقة من كبار التابعين أو صحابي

الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه:

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس؛

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإن تُسلِم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

قال فلما قَرَأَهُ شَقَّهُ ، وقال: يكتب إلي بهذا وهو عبدي. قَالَ: ثُمَّ كَتَبَ كِسْرَى إِلَى بَاذَانَ، وَهُوَ عَلَى الْيَمَنِ : أَن ابْعَثْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بِالْحجاز رَجُلَيْنِ مِنْ عِنْدكَ جَلْدَيْنِ ، فَلْيَأْتيَاني به ، فَبَعَثَ بَاذَانَ قَهْرَمَانَهُ ، وَهُوَ بَابَوَيْه ، وَكَانَ كَاتبًا حَاسبًا بكتَاب فَارِسَ ، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلا منَ الْفُرْسِ ، يُقَالُ لَهُ : خرخسرهُ ، وَكَتَبَ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْصَرِفَ مَعَهُمَا إِلَى كِسْرَى ، وَقَالَ لبَابَوَيْه : ائْت بَلَدَ هَذَا الرَّجُلِ ، وَكَلِّمْهُ ، وَأْتني بخَبَره ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدمَا الطَّائفَ ، فَوَجَدَا رجَالا منْ قُرَيْشٍ بجنب منْ أَرْضِ الطَّائف، فَسَأَلاهُمْ عَنْهُ ، فَقَالُوا: هُوَ بالْمَدينَة، وَاسْتَبْشَرُوا بهمَا، وَفَرِحُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ: أَبْشرُوا، فَقَدْ نَصَبَ لَهُ كسْرَى مَلكُ الْمُلُوك، كُفيتُمُ الرَّجُلَ!. فَخَرَجَا حَتَّى قَدمَا عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَكَلَّمَهُ بَابَوَيْه، فَقَالَ: إِنَّ شَاهنشَاه، مَلكَ الْمُلُوك كسْرَى، قَدْ كَتَبَ إِلَى الْمَلك بَاذَانَ، يَأْمُرُهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ مَنْ يَأْتيه بكَ، وَقَدْ بَعَثَني إِلَيْكَ لتَنْطَلقَ مَعي، فَإِنْ فَعَلْتَ كَتَبَ فيكَ إِلَى مَلك الْمُلُوك يَنْفَعُكَ ويَكُفُّهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَبَيْتَ فَهُوَ مَنْ قَدْ عَلمْتَ، فَهُوَ مُهْلكُكَ وَمُهْلكُ قَوْمكَ، وَمُخَرِّبُ بلادكَ، وَدَخَلا عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ، وَقَدْ حَلَقَا لحَاهُمَا، وَأَعْفَيَا شَوَارِبَهُمَا، فَكَرِهَ النَّظَرَ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ: ويْلَكُمَا، مَنْ أَمَرَكُمَا بِهَذَا ؟

معروف. انظر أقوال العلماء في ذلك(جامع التحصيل في أحكام المراسيل ص،٤٥-٤٦ – ٩٩)، وقد جاء ما يؤيده من مرسل يزيد بن أبي حبيب عند ابن جرير الطبري في تاريخه، ٩٠/٣/٢، قبل غزوة خيبر، فالحديث بذلك حديث حسن.

قَالا: أَمَرَنَا بِهَذَا رَبُّنَا، يَعْنِيَانِ: كِسْرَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَكِنَّ رَبِّي قَدْ أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحْيَتِي وَقَصِّ شَارِبِي ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: ارْجِعَا حَتَّى تَأْتِيَانِي غَدًا. قَالَ: وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَّطَ عَلَى كِسْرَى ابْنَهُ شِيرَوَيْهِ، فَقَتَلَهُ فِي شَهْرِ كَذَا وَكَذَا، لَيْلَةَ كَذَا وَكَذَا مِنَ اللَّيْلِ، سَلَّطَ عَلَيْهِ ابْنَهُ شِيرَوَيْهِ فَقَتَلَهُ قَالَ: فَدَعَاهُمَا، فَأَخْبَرَهُمَا، فَقَالا: هَلْ تَدْرِي مَا تَقُولُ؟ إِنَّا قَدْ نَقِمْنَا عَلَيْكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا، أَفَنَكْتُبُ هَذَا عَنْكَ، وَنُخْبِرُهُ الْمَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَخْبِرَاهُ ذَلِكَ عَنِّ، وَقُولا لَهُ: إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ مُلْكُ كِسْرَى، وَيَنْتَهِي إِلَى مُنْتَهَى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ، وَقُولا لَهُ: إِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ أَعْطَيْتُكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، وَمَلَّكْتُكَ عَلَى قَوْمِكَ مِنَ الأَبْنَاءِ، ثُمَّ أَعْطَى خرخسره مِنْطَقَةً فِيهَا ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ، كَانَ أَهْدَاهَا لَهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ، فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى قَدِمَا عَلَى بَاذَانَ، فَأَخْبَرَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِكَلامِ مَلِكٍ، وَإِنِّي لأَرَى الرَّجُلَ نَبِيًّا كَمَا يَقُولُ، وليكونن مَا قَدْ قَالَ، فَلَئِنْ كَانَ هَذَا حَقًّا، فهو نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَسَنَرَى فِيهِ رَأْيَنَا، فَلَمْ يَنْشَبْ بَاذَانُ أَنْ قَدِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ شِيرَوَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ كِسْرَى، وَلَمْ أَقْتُلْهُ إِلا غَضَبًا لِفَارِسَ، لِمَا كَانَ اسْتَحَلَّ مِنْ قَتْلِ أَشْرَافِهِمْ وَتَجْمِيرِهِمْ فِي ثُغُورِهِمْ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَخُذْ لِي الطَّاعَةَ مِمَّنْ قِبَلَكَ، وَانْظُرِ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ كِسْرَى كَتَبَ فِيهِ إِلَيْكَ فَلا تُهِجْهُ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي فِيهِ، فَلَمَّا انْتَهَى كِتَابُ شِيرَوَيْهِ إِلَى بَاذَانَ، قَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَرَسُولٌ، فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَتِ الأَبْنَاءُ مَعَهُ مِنْ فَارِسَ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْيَمَنِ، وقال: وَقَدْ قَالَ بَابُوَيْهِ لِبَاذَانَ: مَا كَلَّمْتُ رَجُلا قَطُّ أَهْيَبَ عِنْدِي مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ بَاذَانُ: هَلْ مَعَهُ شُرَطٌ قَالَ: لا."(١)

ت- رسالته ﷺ إلى النجاشي : وقد بعث رسول الله ﷺ إلى النجاشي مثل ما بعث إلى هرقل وكسرى؛ فمن حديث أنس رضي الله عنه :"أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى

---

(١) قال ابراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية في تخريجها هامش ص ٣٨٥ : أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه المجلد الثاني الجزء الثالث ص،٩٠ - ٩١، وابن كثير في سيرته:٥٠٨/٣ – ٥١٠ ، نقلاً عن ابن جرير، وابن سعد في الطبقات، ١٤٧/٢/١، من حديث عبيد الله بن عبد الله بن مسعود مرسلاً أيضاً بإسناد صحيح، ووصله ابن بشران في الأمالي من حديث أبي هريرة بسند واهٍ، وحسنه الألباني بهذين الشاهدين" بدون ذكر ابن كثير، كما في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ، ص،٣٨٨.

النجاشي، وإلى كل جبّار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ."[1] وقد أوضح ابن القيم "أن النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ، وهو الذي آمن وأكرم أصحابه، هو غير النجاشي الذي كتب إليه يدعوه إلى الإسلام؛ فهما اثنان"[2].

ث- رسالته إلى المقوقس حاكم مصر: ففي حديث مرسل من رواية عبد الرحمن بن عبد القارئ :" أن رسول الله ﷺ بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فمضى بكتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس، فقبَّل الكتاب، وأكرم حاطباً، وأحسن نزله، وسرحه إلى النبي ﷺ، وأهدى له مع حاطب كسوة، وبغلة بسرجها، وخادمتين إحداهما أم إبراهيم،(أي ابن رسول الله ﷺ، وأمه هي مارية القبطية) وأما الأخرى، فوهبها رسول الله ﷺ لجهم بن قيس العبدي، فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص رضي الله عنه على مصر."[3]. وأما نص كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية فهو:

"بِسْمِ اللَّه الرَّحَمْنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّد بْنِ عَبْد اللَّه ، إِلَى الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ القِبْطِ؛

سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ القِبْطِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ آل عمران: ٦٤

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار، رقم ١٧٧٤ ، وانظر سائر تخريجاته في، العلي، صحيح السيرة هامش ص٣٧٩.

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد، ٥٧٦/٣

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية' (مع الروض)، ٢١٦/٤ وعند ابن كثير في سيرته، ٥١٤/٣، والبيهقي في الدلائل،٣٩٥/٤، واسناده ثقات، قد صرح ابن إسحق بالتحديث، وله شاهد من حديث حاطب أخرجه البيهقي في الدلائل، ٣٩٥/٤ ــ ٣٩٦، وابن كثير ،٥١٤/٣ -٥١٥، وقال الحافظ في الإصابة، ٣٠٠/١ في ترجمة حاطب رقم، ١٥٣٨، أخرجه ابن شاهين من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه عن جده: قلت، وفي سنده = عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف كما في التقريب، فيرتقي الحديث إلى درجة الحسن، وابن سعد في الطبقات،٢٦٠/١ -٢٦١، انظر، العلي، صحيح السيرة هامش ص٣٨٥

وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة، فلما دخل عليه، قال له: إِنَّهُ قَدْ كَانَ قَبْلَكَ رَجُلٌ يزْعُمُ أَنَّهُ الرَّبُّ الأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّه نَكَالَ الآخرَة وَالأُولَى، فَانْتَقَم به ثُمَّ انْتَقَم منْهُ، فَاعْتَبرْ بغَيْرِكَ وَلا يَعْتَبرُ غَيْرُكَ بك، قَالَ: إِنَّ لَنَا دينًا لَنْ نَدعَهُ إلا لمَا هُوَ خَيْرٌ منْهُ فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله وَهُوَ الإِسْلامُ الْكَافي به اللَّهُ فقد مَا سوَاهُ، إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ ﷺ دَعَا النَّاسَ فَكَانَ أَشَدَّهُمْ عَلَيْه قُرَيْشٌ وَأَعْدَاهُم لَهُ الْيَهُودُ وَأَقْرَبَهُمْ منْهُ النَّصَارَى، وَلَعَمْري مَا بشَارَةُ مُوسَى بعيسَى، إلا كَبشَارَة عيسَى بمُحَمَّد ﷺ، وَمَا دُعَاؤُنَا إِيَّاكَ إِلَى الْقُرْآن إلا كَدُعَائكَ أَهَلَ التَّوْارَة إِلَى الإِنْجيل، وَكُلُّ نَبيٍّ أَدرَكَ قَوْمًا فَهُمْ منْ أُمَّته، فَالْحَقُّ عَلَيْهم أَنْ يُطيعُوهُ، فَأَنْتَ ممَّنْ أَدْرَكَهُ هَذَا النَّبيُّ، وَلَسْنَا نَنْهَاكَ عَنْ دين الْمَسيح، وَلَكنَّا نَأْمُرُكَ به، فَقَالَ الْمُقَوْقسُ: إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ في أَمْرِ هَذَا النَّبيِّ فَوَجَدْتُهُ لا يَأْمُرُ بمَزْهُود فيه ، وَلا يَنْهَى، عَنْ مَرْغُوب فيه، وَلَمْ أَجدْهُ بالسَّاحرِ الضَّال، وَلا بالْكَاهنِ الْكَاذب، وَوَجَدْتُ مَعَهُ آيَةَ النُّبُوَّة بإِخْرَاجِ الْخبْء وَالإِخْبَارِ بالنَّجْوَى، وَسَأَنْظُرُ. وَأَخَذَ كتَابَ النَّبيِّ ﷺفَجَعَلَهُ في حُقٍّ منْ عَاجٍ وَخَتَمَ عَلَيْه، وَدَفَعَهُ إِلَى جَاريَةٍ لَهُ، ثُمَّ دَعَا كَاتبًا لَهُ يَكْتُبُ بالْعَرَبيَّة، فَكَتَبَ إِلَى النَّبيِّ ﷺ:

بسْمِ اللَّه الرَّحَمْنِ الرَّحيمِ، لمُحَمَّد بْنِ عَبْد اللَّه، منَ الْمُقَوْقسِ عَظيمِ الْقبْطِ سَلامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ؛

فَقَدْ قَرَأْتُ كتَابَكَ وَفَهمْتُ مَا ذَكَرْتَ فيه وَمَا تَدْعُو إِلَيْه، قَدْ عَلمْتَ أَنْ نَبيًا بَقيَ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بالشَّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْت رُسُولَكَ وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بجَاريَتَيْنِ لَهُمَا مَكَانٌ في الْقبْط عَظيمٌ، وَبكسْوَة، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْكَ بَغْلَةً لتَرْكَبَهَا، وَالسَّلامُ عَلَيْكَ. وَلَمْ يزدْ عَلَى هَذَا، وَلَمْ يُسْلمْ، وَالْجَاريَتَانِ مَاريَةُ وَسيرينُ، وَالْبَغْلَةُ دُلْدُلُ بَقيَتْ إِلَى زَمَنِ مُعَاويَةَ ﷺ."[1]

---

(١) أورده الزيعلي في نصب الراية،٤/٤٢١/٤٢٢ من طريق الواقدي، بزيادة: ودفع الكتاب إلى حاطب، وأمر له بمائة دينار وخمسة أثواب، وقال له ارجع إلى صاحبك، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً فإن القبط لا يطاوعوني في اتباعه وأنا أضن بملكي أن أفارقه، وسيظهر صاحبك على البلاد وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده، فارحل من عندي قال: فرحلت من عنده ولم أقم عنده إلا خمسة

ج- وقد بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى زعماء الإمارات العربية على أطراف الجزيرة العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام ومنها:

١- كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى: وكتب إلى المنذر بن ساوى، ذكره الواقدي بإسناده، عن عكرمة قال: وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته، فنسخته، فإذا فيه: بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى، وكتب إليه يدعوه فيه إلى الإسلام، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ أما بعد: يا رسول الله فإني قرات كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأَحْدِثْ إليّ في ذلك أمرك. فكتب إليه الرسول ﷺ:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد؛

فإني أذكرك الله، فإنه من ينصَح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفَّعتُك في قومك. فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوتُ على أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلُح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية."(١).

٢- كتاب النبي ﷺ إلى ملك عُمان: وكتب إلى ملك عُمان(٢)كتاباً، وبعثه مع عمرو بن العاص، ونصه:

أيام، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت له ما قاله لي، فقال النبي ﷺ:"ضن الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه، انظر ابن القيم، زاد المعاد بتخريج المحقق عرفان العشا، ٥٧٦/٣ ، والخبر أخرجه ابن سعد في طبقاته، ٢٦٠/١/٢٦١

(١) أشار إليه الحافظ في الإصابة١٣٩/٦ ترجمة رقم٨٢١٢ من رواية ابن إسحق والواقدي وأخرجه ابن سعد في الطبقات٢٧٦/١ بمعناه. انظر ابن القيم، زاد المعاد، هامش ٥٧٧/٣.

(٢) عمان بضم اوله، وتخفيف ثانيه، وآخره نون:اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع إلا أن حرها يضرب به المثل، معجم البلدان لياقوت١٥٠/٤ وانظر ابن القيم، زاد المعاد٥٧٧/٣

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد[1] ابني الجلندي؛

سلام على من اتبع الهدى؛ فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلِما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيْتُكما، وإن أبيتما أن تُقِرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما. " وكتب أُبيٌّ بن كعب، وختم الكتاب.قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عُمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ــ وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خلقاً ــ فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك. فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبِد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة! قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدَق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام. قال: فمتى تبعتُه؟ قلت: قريباً. فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم. قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقرّوه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه! قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب. قلت: ما كذبتُ، وما نستحلُّه في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي؟ قلت: بلى، قال: فبأي شيء علمتَ ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرَجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقلَ قولُه، فقال له ينَّاق أخوه: أتَدَعُ عبدَك لا يخرج لك خرْجاً، ويدين بدين غيرك ديناً محدَثاً! قال هرقل: رجل رغب في دين، فاختاره لنفسه، ما أصنع به، والله لولا الضنُّ بملكي لصنعتُ كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك.قال عبد: فأخبِرْني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز

---

(١) سبق وأن ورد اسمه:عياد، انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٣٢/٤

وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به، ولكن أخي أضنُّ بملكه من أن يدعه ويصير ذَنَباً.(يقصد: تابعاً) قلت: إنه إن أسلم مَلَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺفي الصدقات في الأموال، حتى انتهيتُ إلى الإبل. قال: يا عمرو، وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعي الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومي في بُعْد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا، قال: فمكثْتُ ببابه أياماً، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوماً فدخلتُ عليه، فأخذ أعوانه بضَبُعَيَّ،[1] فقال: دعوه، فأُرسِلْتُ، فذهبتُ لأجلس، فأبوْا أن يدَعوني أجلس، فنظرتُ إليه فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تُخبرُني عن قريش كيف صنعَتْ؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هُدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحَرجَة.[2]، وأنت إن لم تُسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيلَ، ويُبيد خَضراءك، فأسلِم تسَلم، ويستعملْك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غداً، فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو! إني لأرجو أن يُسلم إن لم يَضِنَّ بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبي أن يأذن لي. فانصرفت إلى أخيه، فأخبرتُه أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرتُ فيما دعوتَني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملَّكْتُ رجلاً ما في يدي، وهو لاتبلغ خيلُه

---

(١) الضبع: العضد، والجمع:اضباع، مختار الصحاح.

(٢) الحرج، بكسر الراء وفتحها: المكان الضيق كثير الشجر، انظر، المرجع السابق.

هاهنا، وإن بلغَتْ خيله أَلْفَتْ قتالاً ليس كقتال من لاقى. قلت: وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما قد ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إليّ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقا النبي ﷺ وخلَّيا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني."[1].

٣- كتاب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي، صاحب اليمامة: وكتب النبي ﷺ إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي، وأرسل به مع سُلَيْط بن عمرو العامري:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أنّ ديني سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر، فأسْلِم تسْلَم، وأجْعَل لك ما تحت يديك.

فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوماً، أنزله وحيّاه، واقترأ عليه الكتاب، فرد رداً دون ردّ، وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إلي بعض الأمر أتبعْك. وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هَجَر، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه ، فقال: لو سألني سَيابة من الأرض ما فعلت، بادَ وبادَ ما في يديه. فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح، جاءه جبريل عليه السلام، بأن هوذة قد مات، فقال النبي ﷺ: أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ، يقتل بعدي. فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ: أنت وأصحابك. فكان كذلك."[2]. "وذكر الواقدي: أن أركون دمشق عظيم من عظماء النصارى، كان عند هوذة، فسأله عن النبي ﷺ، فقال: جاءني كتاب يدعوني إلى الإسلام، فلم أجبه. قال الأركون:لم لا تجيبه؟ قال: ضننت بديني وأنا ملك قومي، وإن تبعته لم أملك. قال: بلى

---

(١) طبقات ابن سعد**٢٦٢/١**، نصب الراية، **٤٢٤/٤٢٣/٤**، انظر ابن القيم، زاد المعاد، **٥٧٩-٥٧٨/٣**

(٢) أورده الزيلعي في نصب الراية،**٤٢٥/٤** وعزاه شارحه لابن سعد في الطبقات وقولﷺ **"**لو سالني سيابة من الأرض**"**.السياب**:**البلح يريد ﷺ لو سأله قدر بلحة من الأرض ما فعل، ابن القيم، زاد المعاد **٥٨٠/٣**

والله، لئن تبعتَه ليُمَلِّكَنَّك، فإن الخيرة لك في اتِّباعه، وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل: محمد رسول الله."[١]

٤- في كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني: وكان بدمشق بغوطتها، فكتب إليه النبي ﷺ كتاباً مع شجاع بن وهب بعد عودته من الحديبية، ونصه:

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى الحارث بن أبي شمر؛ سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدّق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك."[٢]فرفض وأخذ يُعِدُّ نفسه لقتال المسلمين.

كما بعث رسول الله ﷺ كتاباً إلى أمير بصرى في الشام فقتل حامل رسالة النبي ﷺ.

وهكذا كان رد هذا العربي الذي كان يقوم بدور حراسة حدود الرومان من عرب الجزيرة أسوأ رد، بل إنه لم يحترم التقاليد السياسية في إكرام حملة الرسائل بين الدول.

ثالثاً:دروس وعبر من رسائل النبي ﷺ إلى العظماء:

أ- من هدي الإسلام الدعوة إلى الله قبل القتال. ولهذا بدأ النبي ﷺ بدعوة الناس إلى الإسلام، وأرسل رسائله لعظماء العالم والعرب؛ فلما أبوْا إلا الكفر ومحاربة الإسلام حاربهم، حتى دخلوا في دين الله عز وجل.

ب- كانت رسائله ﷺ إلى زعماء زمانه مختصرة مفيدة، تحتوي المباديء الكبرى التي يدعو إليها الإسلام وهي: الإيمان بالله الواحد وبرسالة محمد ﷺ ،وترك عبودية البشر للبشر برد العبودية لله وحده لا شريك له.

ت- كانت رسائله تبدأ بالبسملة-بسم الله الرحمن الرحيم- وبالسلام على اتبع الهدى، فإن الإسلام دين السلام والهدوء، والطمأنينة والأمن والأمان للبشرية، وليس دين الترويع والعدوان والقتل والدمار.

---

(١) ابن القيم، المرجع السابق.

(٢) الخبر بطوله وبتمامه أخرجه ابن سعد في طبقاته ٢٦٢/٢٦١/١، ابن القيم ، زاد المعاد، ٥٨٠/٣

ث- كانت رسائله ﷺ لأهل الكتاب تتميز بدعوهم إلى كلمة سواء بيننا وبينهم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، وألا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، بينما كانت رسائله لغيرهم ممن يدينون بالمجوس والوثنية تتميز بدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد وبرسالة محمد ﷺ وترك الكفر؛ وذلك لأن أهل الكتاب انحرفوا عن عبادة الله باتخاذ المسيح ابن مريم رباً، وأخذ رجال الدين عندهم يُعَبِّدون الناس لهواهم فأطاعتهم أقوامهم فعبدوهم من دون الله عز وجل.

ج- وعد النبي ﷺ أهل الكتاب في رسائله، أن من يسلم يؤته الله أجره مرتين، وليس ذلك لغير أهل الكتاب؛ فلإيمانهم بدينهم -وأصلُه من عند الله- أجرُ، ولإيمانهم بالإسلام -وهو دين الله الخاتم- أجرٌ آخر، فكان أجرهم مضاعفاً.

ح- حمَّلَت رسائل النبي ﷺ زعماء تلك الأمم والشعوب إثم شعوبها إن لم تسلم؛ لأن الزعماء إن أسلموا رفعوا الإثم عنهم وعن شعوبهم، وإن هم لم يسلموا أثموا وتحملوا إثم الشعوب التي حالوا بينها وبين الإسلام. ولهذا فإن الحكم مسئولية خطيرة وعظيمة عند الله عز وجل؛ فمن نصح شعبه وأراد لهم الخير ، نجا ونجّا معه قومَه، وله عند الله أجر هداية نفسه،ومثلُ أجر هداية قومه؛ لأن الدالَّ على الخير كفاعله. ومن غش قومه فلم ينصحهم، وحال بينهم وبين الهدى فقد ظلم نفسه أولاً ،وظلمهم، واكتسب إثم نفسه وتحمل مثل أوزارهم وآثامهم.

خ- اتصفت ردود زعماء أهل الكتاب على رسائل النبي ﷺ بالرقة واللين، فمنهم مَن أسلم، ومَن لم يسلم منهم ردّ رداً حسناً، بينما اتصفت ردود الوثنيين والمجوس بالغلظة والشدة، فمنهم من مزَّق الكتاب، ومنهم من قتل مبعوثَ النبي ﷺ، ومنهم أمير بصرى العربي الذي كان مُعتزاً ببزعامته الذليلة، ووظيفته الوضيعة وهي حماية حدود الدولة الرومانية، إذ فضَّل التَّبَعِيَّة الذليلة على العزة بالإيمان ودخول الإسلام. ولم يكتف بعدم إسلامه فحسب، بل قتل حامل كتاب رسول الله ﷺ.

بينما هرقل، وهو امبراطور الدولة الرومانية الكبيرة ردّ حامل الرسالة ردّاً جميلاً، وكانت لديه لباقة بأن استدعى دحية، وحاول إيهامه بأنه مسلم، ثم أعطاه قدراً من الدنانير وصرفه."[١] مع أنه كاد يسلم إلا انه فضّل ملكه على اتباع الحق. ولذلك فإن رسول الله ﷺ كذّبه في دعواه الإسلام؛ إذ لَمّا عاد دحية يخبر بإسلامه قال رسول الله ﷺ:كذب عدو الله، ليس بمسلم. وأمر بالدنانير فقسّمت على المحتاجين."[٢]

أما ملك الفرس فكان ردّه سيئاً؛ فمزق كتاب رسول الله ﷺ فمزق الله ملكه. أما والي اليمن التابع الذليل لملك الفرس فقد التزم تنفيذ أوامر سيده فبعث اثنين يغتالان النبي ﷺ، وقد كشفهما رسول الله ﷺ وقال لهما:"ويحكما من أمركما بهذا؟ قالا: ربنا، "[٣] – يعنين كسرى– وردّهما رسول الله ﷺ من حيث أتيا إلى اليمن؛ ليبلغوا واليها الذليل أن الله قد قتل سيده كسرى، وقال رسول الله ﷺ لهما:" أخبراه أن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخفّ والحافر. وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملّكتُك على قومك."[٤]

وهكذا تكون ثقة الداعية بربه وبعظمة رسالته وانتشارها، وسلطانها، كما تكون ثقته بنصر الله عز وجل ليصل هذا الدين إلى كل بقعة في العالم، حيث يمشي خفٌّ وحافر على وجه الأرض. وهذا الذي حصل؛ فقد باد ملك كسرى وملك هرقل وسائر ملك ملوك الأرض، وانتشر الإسلام في العالم وحكم أهله بشريعته في كل بقعة في الأرض فيها إنسان. كما قال تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى

(١) انظر،الغزالي،فقه السيرة ص٣٨٥

(٢) المرجع السابق ص٣٨٦ من رواية أخرجها أبو عبيد في الأموال ص٢٥٥ قال الألباني:إسناده صحيح لكنه مرسل بيد أن الزرقاني نقل في شرح المواهب٣/٢٤٠ عن الفتح أنه في مسند أحمد أيضاً ، انظر تخريج الألباني هامش، الغزالي، فقه السيرة٣٨٦

(٣) حديث حسنة الألباني أخرجه ابن جرير ٢/٢٦٦-٢٦٧ مرسلاً، وفي طبقات ابن سعد١/ق٢ ص٤٧ ايضاً مرسلاً وسنده صحيح، انظر الغزالي، فقه السيرة هامش ص٣٨٩.

(٤) الغزالي،فقه السيرة ص٣٩٢ قال الالباني،الحديث ضعيف أخرجه ابن جرير في تاريخه٢/٢٩٧ عن يزيد بن أبي خبيب مرسلاً.

ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا
يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ الأنبياء: ٤٤ ـ ٤٥

المبحث الثاني

غزوة مؤتة

أولاً:تسمية الغزوة وتاريخها:

أمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوة مؤتة؛ نسبة إلى موقعها ؛ وهي بلدة من أرض البلقاء من أرض فلسين أيام الدولة الرومانية، والواقعة حالياً جنوب مدينة الكرك في المملكة الأردنية الهاشمية. وكان الخروج في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وذلك في فترة الهدنة بين المسلمين وقريش بناء على صلح الحديبية. قال ابن إسحق رحمه الله:" حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير: قال بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان".(١)

ثانياً: سب الغزوة وأهدافها:

أ- كان رسول الله ﷺ قد بعث الحارث بن عُمْير الأزدي بكتابه الذي يدعو فيه عظيم بصرى بالشام، فعَرَض له في مؤتة شرحبيل بن عمرو الغساني؛ حيث كان عاملاً على البلقاء من قبل قيصر، فربطه وضرب عنقه.(٢) فلما علم رسول الله ﷺ؛ اشتد عليه الأمر فأمر بتجهيز الجيش، وقد كانت غسانُ ملوكَ عرب الشام حرباً على رسول الله ﷺ ؛ فقد تَخَوَّف ملكُهم الحارثُ بن أبي شمر الغساني على ملكه، وتجهز للهجوم على المدينة حين بعث له رسول الله ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام مع شجاع بن وهب الأسدي، فلما رأى الكتاب رمى به، ثم قال:"من ينزْعِ مني ملكي؟! وقال: أنا سائر إليه(أي إلى رسول

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٧٠/٤ وهي رواية صحيحة مصريح فيها بالتحديث عن ابن إسحق.

(٢) انظر حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، وتوثيقاته، ص١٢٦، وانظر ابن القيم، زاد المعاد، ٣٣٢/٣، الواقدي، المغازي، ٧٥٥/٢

الله ﷺ) ولو كان باليمن جئته عليّ بالناس، وأمرباعداد الخيول والتجهيز لغزو المدينة، واستشار قيصر قي ذلك فصرفه عن مراده"[١].

ب- كما كان رسول الله ﷺ قد بعث كتابه إلى هرقل عظيم الروم، ولم يستجب للإسلام. فأراد رسول الله ﷺ أن يُلَقِّن الروم وتابعيهم من العرب الغساسنة درساً، حيث لم يستجيبوا للدعوة إلى الله، واعتدوا على مبعوث رسول الله ﷺ؛ فمِثْل هؤلاء الكبراء هم الذين يقفون في سبيل نشر دعوة الإسلام، ولا بد من قتالهم.

ت- الإسلام دعوة عالمية، تتجاوز حدود جزيرة العرب إلى الدول الكبرى. وهذه المعركة أرادها رسول الله ﷺ بالإضافة لما سبق من أسبابها المباشرة بداية اشتباك مع الدولة الكبرى-الروم- إيذاناً بعالمية الإسلام.

ثالثاً: قوات الطرفين[٢]:

أ- كانت قوات المشركين تتألف من جيشين كبيرين قوامهما مائتا ألف جندي؛ مائة ألف منهم من جيش الرومان، ومائة ألف أخرى من عرب الغساسنة وسائر القبائل المتَنَصِّرة التابعة للرومان.

ب- أما قوات المسلمين فلم يكن عددها يتجاوز ثلاثة آلاف جندي، وبهذا يكون عدد قوات العدو سبعين ضعفاً تقريباً من عدد قوات المسلمين، عدا عن التجهيزات القتالية لجيش أكبر دولة في العالم آنذاك. وقد نظم رسول الله ﷺ جيشه، فجعل له أمراء ثلاثةً؛ يتعاقبون على قيادته، وهم زيد بن حارثة رضي الله عنه، فإن قُتِل فجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن قُتِل فعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.[٣].

(١)انظر ابن القيم، زاد المعاد،٣/٤٩٤ ، ٥٨/٤٩٥

(٢)انظر ابن هشام، السيرة ،٤/٧٠ ، ٧١

(٣) انظر المرجع السابق ٤ /٧٠

رابعاً: وداع الجيش المسلم ووصية رسول الله ﷺ له:

نظراً لأهمية هذا الخروج، وبعد المسافة، وخطورة هذه الغزوة القادمة خرج رسول الله ﷺ والمسلمون معه يودعون الجيش، ويدعون لهم بالنصر وبالعودة سالمين. وكان مما وصى النبي ﷺ جيشه: أن يأتوا القوم الذين قَتَلوا مبعوثَه فيدعوهم إلى الإسلام أولاً، فإن أَبَوْا قاتَلوهم. وكان مما وصّاهم به ﷺ أن: " اغزوا بسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدُروا، ولا تُغيِّروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امراة ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، وتهدموا بناء".(١)

ولما سلّم المسلمون على الجيش وقادته، وسلّم عبد الله بن رواحة على رسول الله ﷺ بكى، فقالوا له: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حبٌّ الدنيا، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكُر فيها النار﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ مريم: ٧١ فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال له المسلمون: صحِبَكُم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردَّكم إلينا صالحين غانمين، فأنشد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

ولكنني أسأل الرحمن مغفرة   وضربة ذات فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا

أو طعنةٍ بيديْ حرّان مجهزة   بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جَدَثي(٢)   أرشده الله من غاز وقد رشدا(٣)

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي، ص/٣٢٧ .مغازي الواقدي٢/٧٥٧-١٧٥٨

(٢) جدَثي: بمعنى جثتي

(٣)ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، ٤/٧٠ ، وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله ثقات ٦/١٥٧ -١٥٨

خامساً: مسير الجيش المسلم إلى أرض المعركة:

سار جيش المسلمين أطول مسافة سارها، من المدينة إلى معان، حيث تزيد عن ألف من الكيلو مترات، في قسوة الصحراء ورمالها، ووجدوا هناك مائتيْ ألف مقاتل مدجج بالأسحلة، ويقاتل في بلده وبين أهله، فكانت مفجأة رهيبة لجيش المسلمين. فعقد أمراءُ الجيش المسلم مجلساً استشارياً عسكرياً لدراسة الأمر قبل الإقدام. فرأى بعضهم أن يرسلوا إلى النبي ﷺ فيخبروه بعدَد عدوهم علّه يَمُدُّهم برجال أو يُصْدِر لهم الأوامر بالإقدام. ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وأخذ يُحَرِّض الجيش على الإقدام على القتال، ويقول:"يا قوم والله إن التي تكرهون لهي التي خرجتم تطلبون؛ الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهورٌ، وإما شهادة.[1] وهكذا استقر رأي الجيش المسلم على الإقدام على القتال.

سادساً: سير المعركة[2]:

وصل جيش المسلمين من معان إلى مؤتة، وهو الموقع الذي قُتِل فيه مبعوث رسول الله ﷺ. وكان الجيش مُقَسَّماً على؛ مقدمة للهجوم، ومؤخرة، وميْمَنَة، وميْسَرَة.

أخذ الراية الأمير الأول للجيش زيد بن حارثةﷺ، وهجم بقواته على قوات العدو الرومي والمتنصرة العرب ببسالة وشجاعة، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى تناولته رماح القوم واستشهد ﷺ، فأخذ الراية بعده الأمير الثاني جعفر بن أبي طالب ﷺ، وقاتل قتالاً شديداً، حتى قفز عن فرس له شقراء، فعقرها وأخذ يقاتل راجلاً وهو ينشد :

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ، الرجع السابق، ٧١/٤

(٢) انظر المرجع السابق٧٢/٤-٧٣ عن ابن إسحق بالتحديث وسنده ثقات.

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةً وبارداً شرابُها

والروم رومٌ قد دنا عذابُها كافرة بعيدة أنسابُها

عليَّ إن لاقيتُها ضرابُها

فقُطعَت يمينه، فحمل الراية في شماله، وأخذ يقاتل حتى قُطعت شماله، فاحتضن الراية بعَضُدَيْه حتى استُشْهِد ﵁، وقد وجد أصحابه في جسده ما يزيد على تسعين طعنة، كلها في صدره ومقدمة جسمه، ولا شيء منها في ظهره، فأخذ الراية من بعده أمير الجيش الثالث عبد الله بن رواحة ﵁، وقد وجد في نفسه بعض التردُّد فأخذ ينشد الشعر يعاتب نفسه ويدعوها للإقدام ويقول:

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلَنَّه لَتنزِلَنَّ أو لَتُكْرَهنَّه

إن أجلب الناس وشدوا الرنّه مالّلي أراك تكرهين الجنة

قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنه[١].

وينشد أيضاً ويقول:

يا نفس إلَا تُقْتَلي تموتِي هذا حِمامُ الموت قد صُليتِ

كما تَمَنَّيْتِ فقد أُعْطيتِ إن تفعلي فعلَها هُديتِ

وكان بيده ﵁ قطعة لحم ناولها إياها قريبه، فنهش منها نهشة، ثم رماها، وتقدم، وبقي يقاتل حتى استُشْهِد .وبهذا تم استشاد قوّاد الجيش المسلم الثلاثة رض الله عنهم؛ فانشكف الجيش،وبات مهدداً.

(١) الشنة هي السقاء البالي

سابعاً: خالد بن الوليد ﷺ يقود الجيش ويرسم خطة الإنسحاب:

ولما استشهد القادة الثلاثة رضي الله عنهم؛ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، بادر أحد كبار الجيش وهو ثابت بن أرقم فحمل الراية حتى لا تسقط، ولا تنتهي المعركة بهزيمة المسلمين، وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم يتولى إمارة الجيش. فقالوا له: أنت. فقال: ما أنا بفاعل. فاختار المسلمون خالد بن الوليد. فحمل خالد الراية وقاتل سائر النهار، وفي الليل غيّر خالد ترتيب الجيش؛ فجعل المقدمة مؤخرة والمؤخرة مقدمة، وجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة.(١) ولمابدأ القتال ألقى الله الرعب في قلوب الأعداء، ورأوا –بسبب تغييرات خالد بن الوليد لترتيب الجيش– جيشاً آخر، فظنوا أن مدداً جديداً من الجيش قد وصل إلى المسلمين، واحتدم القتال، وبدات قوات العدو بالتراجع شيئاً فشيئاً حيث بردت هِمَّتهم للقتال، فاستغلَّ خالد الفرصة، وأخذ ينسحب هو أيضاً بجيشه شيئاً فشيئاً، فنجا هذا الجيش المسلم من نهاية صعبة لو استمر القتال بسبب كثرة عدد جيش الأعداء وكثرة عُدَدِهم. وهكذا عاد الجيش المسلم بحمد الله تعالى إلى المدينة بخسائر قليلة؛ إلا ما كان من استشهاد اثنى عشر رجلاً ومنهم أُمراؤه الثلاثة، في حين قُتِل من الأعداء عدد كبير.

ثامناً: رسول الله ﷺ يخبر المسلمين بسير المعركة:

بينما كانت المعركة مُحتدمة، وإذا برسول الله ﷺ يخطب في المسلمين في المدينة، ويقول لهم:" إلا أُخْبِرُكم عن جيشكم الغازي؟ إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو، فأُصيب زيدٌ شهيداً فاسْتَغفروا له.– فاستغفر له الناس– ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، فشَّد على القوم حتى قُتِلَ شهيداً، اشهدوا له بالشهادة، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء عبدُ الله بن رواحة، فأثبتَ قدميْه حتى أصيب شهيداً، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد،

(١) انظر المرجع السابق، وأخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة، رقم ٤٢٦٥ ، ٤٢٦٦ وانظر سائر تخريجاته في العلي، ابراهيم ، صحيح السيرة النبوية، ص٣٩١

ولم يكن من الأمراء، هو أمر نفسه، فرفع رسول اللهﷺ أُصبَعَيْه وقال: اللهم هو سيفٌ من سيوفك فانْصُرْهُ."[1].

تاسعاً: آثار غزوة مؤتة ونتائجها:

أ- تحقق النصر للإسلام: عاد جيش المسلمين، واستقبل النبيُّ ﷺ هؤلاء الأبطال، فقام الصبيانُ يَحْثون في وجوه الجيش المسلم التراب، ويقولون يا فُرّارُ! يا فُرّارُ، فَنهرهم النبي ﷺ وقال:" ليسوا بالفُرّارِ، ولكنهم الكُرّارُ إن شاء الله."[2]

وحقيقة الأمر أن هذه الغزوة رغم ما حصل فيها من شدة للمسلمين في القتال، واستشهاد قادتها الثلاثة من كبار الصحابة، فقد حقق الله فيها النصر للإسلام والمسلمين، خلافاً لمن رأى أنها كانت هزيمة؛ كابن سعد في الطبقات إذ- في نظره- لم يقبلها صبيان المدينة.وذلك للأسباب الآتية:

١- لأن السبب في عدم قبول صبيان المدينة لهذه النتيجة؛ لا لأنها كانت هزيمة، بل لأن هؤلاء الأطفال -في طفولتهم- لم يعتادوا أن يرواْ مثل هذه التنيجة.

٢- لقد رأى كبار أصحاب المغازي والسير، كالواقدي وموسى بن عقبة والزهري وابن كثير، وكما رجح البيهقي، أن المسلمين قد انتصروا في هذه المعركة، وكما نقل ابراهيم العلي روايات ترجح انتصار المسلمين فيها،[3]رغم الشدة التي عانوْها في معركة غير متكافئة عدداً وعدّة؛ فعدد جيش الرومان بلغ سبعين ضعفاً من الجيش المسلم، والجيش الروماني يقاتل داخل أرضه، والجيش المسلم يقاتل خارج أرضه، وبعيداً عن الإمداد، ومع ذلك فقد أوقع الجيش المسلم في الجيش الرومي قتلاً كثيراً، وكسَرَ هيبة الرومان

(١) أحمد في المسند، ٢٩١/٥ ــ ٣٠٠ ــ ٣٠١ والحديث صحيح، ورجاله ثقات. وبعضه في البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة،، رقم ٤٢٦٢ ، وانظر سائر تخريجاته في العلي، صحيح السيرة، ص ٣٩٢

(٢) انظر ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٧٤/٤

(٣)انظر العلي، ابراهيم ، صحيح السيرة، ٣٩٣ - ٣٩٧

في داخل أراضيهم، فقد ذكر الواقدي رواية لعطّاف بن خالد أن الرومان لما غيَّر خالد الخطة قالوا: "قد جاءهم مدَدٌ! فرُعِبوا فانكشفوا منهزمين، فقُتلوا قِتْلَةً لم يُقْتَلْها قومٌ."[(١)].

٣- ولقد شهد النبي ﷺ للجيش المسلم بأنهم الكُرّار في سبيل الله، وليس الفُرّار كما وصفهم صبية المدينة. ولقد وصف النبي ﷺ خالداً بانتصاره في قيادة المعركة بأنه سيفٌ من سيوف الله، وأن الله قد فتح عليه حيث انكسرت في يده يوم مؤتة تسعة أسياف، ولم يثبت في يده إلا صحيفة يمانية.[(٢)] وأما القادة الشهداء فقد انتصروا ووقع أجرهم على الله، وقد بشَّر النبي ﷺ بارتفاع مترلتهم في الجنة.

٤- والنصر غنما هو للمباديء، وقد انتصر الإسلام في نفوس أهله وأوقع الرعب في نفوس الرومان وأذناهم من القبائل العربية التابعة لهم في بلاد الشام وعلى حدود الجزير العربية.

ب- إقرارهيبة الولة المسلمة وخول بعض القبائل العربية في الإسلام: كان لهذه الغزوة أثر كبير على سمعة المسلمين، فقد ألقت الرعب في نفوس القبائل العربية وبخاصة في شمال الجزيرة، إذ أنها أخذت تنظر للمسلمين نظرة جديدة، إنهم يحاربون الروم، والروم دولة عالمية كبيرة، وإنه لا يقاوم الكبارَ إلا كبيرٌ. ولم يكن يخطر ببال العرب في جزيرهم أو ببال الأعراب المُتَنَصِّرة، والتي تعيش تحت الحماية الرومانية أن تقوم اللعرب قوة أو دولة تُعَكِّرُ صفوَ الروم، وتتحداهم، وتقاتلهم، ولذا؛ فقد أسلم بعد غزوة مؤتة بنو سُليم، وأشجعُ وغَطَفان وذبيان وغيرها من القبائل العربية.

ت- سرِيَّة ذات السلاسل: ولما علم النبي ﷺ من خلال غزوة مؤتة أن بعض القبائل العربية على مشارف الشام قد وقفت مع الرومان ضد جيش المسلمين، أرسل لها سرية في جمادى الثانية مباشرة بعد عودة الجيش من مؤتة في ثلاثمائة من المسلمين بقيادة عمرو بن العاص

---

(١) الواقدي، المغازي، ٧٦٤/٢

(٢) انظر رواية صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ٥١٥/٧

ﷺ، وأمره أن يستعين بمن يثق بهم من قبائل بَلي، وعَذرَة، وبَلقين. وكان اختيار عمرو بن العاص لقيادة السرية؛ لأن جدته لأبيه كانت من قبيلة بَلي. فسار عمرو ومن معه الليل وكمَنوا النهار، ولما قربوا من القوم طلب عمرو مدداً، فبعث له النبي ﷺ مدداً قوامه مائتان بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وقال لهما: لا تختلفا. ولما وصلت هذه السرية قضاعة دوَّخوا أهل تلك القبائل العربية المتمردة من شدة القتال، وهزموهم حتى نزلت السرية على ماء يقال له سلسل، ولهذا سميت هذه السرية بذات السلاسل. ولما تم تأديب تلك القبائل العربية المتآمرة عادت السرية إلى المدينة منتصرة سالمة.[1] وهذا مما يرجح أن غزوة مؤتة كانت انتصاراً للمسلمين بآثارها، وليست هزيمة بفضل الله تعالى.

عاشراً:دروس غزوة مؤتة وعبرها:

أ- عالمية االرسالة: الإسلام دعوة عالمية، وأثبتت غزوة مؤتة أن الإسلام قد خرج بدعوته خارج نطاق الجزيرة العربية، فلما اعتدى الغساسنة على مبعوث رسول الله ﷺ الذي حمل رسالة الدعوة إليهم، قاتلهم رسول الله ﷺ حتى يفتح باباً لوصول الدعوة إليهم.

ب-المسلمون أحرار لا يقبلون الظلم: فالإسلام لا يقبل الضيم، ورسول الله ﷺ والمسلمون لا يسكتون على الظلم، ومن ثم كانت معركة مؤتة انتقاماً لمسلمٍ حمل دعوة الله، وهو سفير رسول الله ﷺ، وتأديباً لمن لا يكرمون الإنسان، ولمن لا يحترمون السفراء.

ت-الإعداد للقتال بحسب الإستطاعة والنصر من الله وحده سبحانه: المسلمون لا يقاتلون بعدَدٍ ولا قوة فحسب، وإنما يقاتلون بنية صادقة للجهاد في سبيل الله وبما توفر لديهم من العدد والعُدة؛ لأن النصر من الله سبحانه وتعالى، ولذا قابل جيش المسلمون سبعين ضعفاً من جيشهم، ويملكون أضعافاً مضاعفة عن عُدَدهم وأسلحتهم. وقد ثَبَّت هذا المعنى في

(١) انظر تفاصيلها عند أحمد في مسنده، ١٩٧/٤، ٢٠٢ ، وعند البخاري في الأدب المفرد، رقم٢٩٩ ، وسائر الروايات وتخريجاتها عند العلي، صحيح السيرة، ٣٩٨-٣٤٠ ، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية' (مع الروض)، ٤٣٩/٤ - ٤٤٠

نفوس جيش المسلمين عبد الله بن رواحة حين حَرَّض الجيش على الإقدام على العدو، فإن المسلم ضامن بإذن الله تعالى أحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وأيٌّ منها هو انتصار.

ث- شجاعة القيادة وبلاؤها في القتال: أبلى أمراء الجيش المسلم بلاء حسناً في القتال حتى استُشْهِدوا -رضي الله عنهم- رضي الله عنهم. وكان لكل منهم مَيْزَة؛ فزيد بن حارثة ﷺ ما ترك الرّاية حتى نَهَشَتْه رماحُ جيش العدو، فلم تُبْقِ منه شيئاً. ولقد كافأه الله تعالى على بلائه في سبيله كما أخبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله:"دخلت الجنة، فاستَقْبَلَتْني جاريةٌ شابَّةٌ، فقلتُ: لِمَن أنت؟ قالت : أنا لِزَيْد بن حارثة،."[1]وأما جعفر بن أبي طالب ﷺ فقد حضَن الرّاية بيده اليُمنى، فلما قُطعت حملها بيده اليُسرى، فلما قطعت أمسك بها بعضديه وبقي محافظاً على حملها حتى لا تسقط حتى قُطِع نصفين؛ فسمّاه النبي ﷺ بجعفر الطيار، وأخبر عنه أن الله أكرمه بجناحين يطير بهما في الجنة بدل يديه، فمن حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:" رأيتُ جعفرَ بن أبي طالب مَلَكاً في الجنة مُضَرَّجَةً قوادمُه بالدماء يطير في الجنة."[2] وفي رواية ثانية عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد جيد :"إن جعفراً يطير مع جبريل وميكائيل له جناحان عوَّضَه الله من يديه"[3].وكان ابن عمر ﷺ إذا لقي ولد جفر رضي الله عنمها حيّاه بقوله:"السلام عليك يا ابن ذي الجناحين."[4]وأما عبد الله بن رواحة ﷺ فقد تغَلَّب على نفسه عند تردُّدِها للنزول إلى

(١) ذكر الرواية صاحب كنز العمال، بأرقام ٣٣٢٩٩ ، ٣٣٣٠٢ ونسبه إلى الروياني، والضياء في المختار، وابن عساكر وقال الذهبي: إسناده حسن. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ١٨٥٩ ، انظر العلي ، صحيح السيرة، هامش (٣)ص ٣٩٥

(٢) ورد عن الطبراني بإسنادين؛ أحدهما حسن والآخر جيد، كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢٧٢/٩، وفتح الباري، ٧٦١٦، وله شواهد. انظر التفصيل، العلي، صحيح السيرة، ص٣٩٥

(٣) انظر المرجع السابق

(٤) البخاري في صحيحه، كتاب في فضائل الصحابة، باب مناقب جعفر، رقم٣٧٠٩ ، وفي كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة، رقم٤٢٦٤

ساحة قيادة المعركة، وأقسم عليها لتنزلنَّ إلى القتال، مما جعل سريره في الجنة مائلاً قليلاً عن سريرَيْ صاحِبَيْه زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ج- حنكة خالد بن الوليد العسكرية: ظهرت في هذه المعركة مواهب خالد بن الوليد العسكرية، حيث خدَع العدوَّ بتغيير ترتيب قواته، حتى ظن العدو أن مَدَداً جديداً من الجيش جاء للمسلمين فوقع في نفوسه جيشه الرعب، ونجح خالد ﷺ في رسم خطة الانسحاب بلا خسائر، حتى سماه رسول الله ﷺ سيف الله المسلول.

ح- همُّ القائد الأعلى للأمة وحرصه على الجيش ومتابعته: ومما يدل على أهمية هذه المعركة وخطورتها؛ أنها كانت أول صدام مع دولة عُظمى وقوية، وخارج أرض الجزيرة العربية، ومع غير العرب، وبجيش قليل جداً، وعُدَّة قتالية أقل من قليلة إذا قيست باستعدادات الجيش المقابل.ولذلك كله كان النبي ﷺ مشغولاً بسيرها وينتظر نتائج، بل كان يخبر بها وبسيرها بتفاصيلها ساعة فساعة.

خ- الدعوة لدخول الناس الإسلام هوالأصل والقتال ضرورة يمهد الطريق: كان لغزوة مؤتة آثار طيبة في تقوية دولة الإسلام، وارتفاع معنويات المسلمين، فهم يحاربون أكبر دولة في العالم، وأكبر تجمع للقبائل العربية في الشام، مما فتح الباب لدخول قبائل جديدة في الإسلام، ومما كان سبباً في سرية ذات السلاسل لتأديب القبائل المتاخمة لحدود الجزيرة في الشمال، ولوقوفها مع قوات الرومان.

د- زرع روح الجهاد في الناشئة: تظهر من هذه الغزوة آثار مدرسة الإسلام في تعبئة نفوس الصبيان والناشئة على الجهاد، فإن صبيان المدينة وبعض المسلمين لم تعجبهم نتيجة المعركة؛ إذ كيف يخسر الجيش المسلم أُمراءه الثلاثة؟! وعَدّوا هذه النهاية هزيمة، لولا ما كان من رسول الله ﷺ وهو يرفع معنويات الجيش والمسلمين ويقول لهم :"بل هم الكُرار، إن شاء الله تعالى".

ذ- الحُزن على الميت لا يتعارض مع التسليم بالقدر: فبرغم تسليم النبي ﷺ بقدر الله تعالى في استشهاد أصحابه إلا أنه حزن على مقتلهم، ورَقَّ ليُتْم أولاد ابن عمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث قالت عائشة رضي الله عنها:" لما جاءت وفاةُ جعفر عرَفْنا في وجه النبي ﷺ الحزن."[١]وقام النبي ﷺ على رعايتهم، وواساهم، ودعا لهم بقوله:"اللهم اخْلُفْ جعفراً في أهله، وبارِك لعبد الله (أي ابنه عبد الله بن جعفر) في صفْقَة يمينه-قالها ثلاث مرات...-وقال لأُمِّهم: العَيْلَةَ أتخافين عليهم وأنا وَلِيُّهم في الدنيا والآخرة؟!"[٢].

(١) البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من جلس عند المصيبة يعرف فيه الحزن، رقم ١٢٩٩، ١٣٠٥، ٤٢٦٣ ، انظر سائر تخريجات الروايات في العلي، صحيح السيرة، ص٣٩٤

(٢) أحمد في مسنده، ٤٠٢/١ باسناد صحيح على شرط مسلم ، وانظر سائر تخريجاته في العلي، صحيح السيرة، ٣٩٧

المبحث الثالث

غزوة تبوك أو غزوة العُسْرة

أولاً: تاريخها:

بعد أن فتح رسول الله ﷺ مكة، وبعد غزوة حنين والطائف، وبعد أن أظهره الله تعالى على المشركين في الجزيرة وجاءت رموز العرب تعلن إسلامها تفرغ رسول الله ﷺ لنشر دعوة الإسلام خارج الجزيرة، وكان قد اصطدم قبل فتح مكة بالرومان في مؤتة، وما أن عاد من الفتح حتى أخذ يستعد لغزو الرومان في رجب من السنة التاسعة للهجرة، وأقام بتبوك شهر شعبان وأياماً من شهر رمضان في تلك السنة(١).

ثانياً: سببها وأهدافها:

أ- بلغ النبي ﷺ أن الرومان يجمعون جيشاً كبيراً، يريدون غزو المدينة؛ ذلك أنهم شعروا بعد معركة مؤتة وما ذهب لهم فيها من القتلى أن المسلمين أصبحوا قوة كبيرة في الجزيرة العربية، وأنهم يهددون ملك قيصر.

ب- كما خاف الروم أن ينجح الإسلام في إرجاع العرب المَتَنَصِّرين على أطراف الجزيرة العربية إلى سيطرة الدولة الإسلامية، وهم يشكلون حاجزاً بين الجزيرة والروم، كما أنهم يقومون بدور التابع الذليل لهم لاسيما وأن بع ضهم أخذ يدخل في الإسلام.

ت- كما أن الرسول ﷺ لم يتمَّ له الانتقام التام من الروم والقبائل المتنصرة التي قتلت مبعوثه إليهم بالإسلام.

ث- حرَص رسول الله ﷺ على الاحتفاظ بهيبة الدولة الإسلامية بتأديب الغساسنة، ومواجهة جيش الروم قبل أن يدخل حدود الجزيرة العربية.

---

(١)انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ١٧٢/٤

ثالثاً :تسميتها:

سُميت غزوة تبوك؛ نسبة إلى المكان الذي وقعت فيه، وتبوك بلد في شمال الجزيرة العربية من جهة بلاد الشام على بُعْد مائة وثلاثين كيلومتراً من الحدود الجنوبية للأردن حالياً.

وأما تسميتها غزوة العُسْرة؛ فلأنها جاءت في سنة جَدْب، وكان الصيف حاراً، والناس في حالة عُسْر، والمسافة بعيدة، والعدو دولة الروم، وهي دولة كبرى قوية. ولهذه الأسباب مجتمعة سُمِّيت غزوة العُسْرة.

ولأن الله تعالى سمّاها في كتابه العزيز بهذا الاسم؛ قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١١٧

ووجه جابر بن عبد الله ﵁ لهذه التسمية بقوله:" اجتمع عليهم عُسرة الظَّهر؛(يقصد قلة الركائب من جمال وخيول) فكان العشرة من الجنود المسلمين يتعاقبون على بعير واحد، وعُسرة الزاد؛ فما كان زادهم إلا التمر المَتسَوِّس، والشعير المتغير بسبب القحط، وعُسرة الماء؛ فالمسافة بين المدينة وتبوك طويلة جداً،(تبلغ ثمانمائة كيلو متر تقريباً) مع شح المياه في الطريق وطول السفر، وحرّ الصيف؛ إذ كانت في فصل الصيف وأشهر القيظ، فأصابهم التعب والعطش الشديدان، كما أصابتهم المجاعة لقلة الزاد. وقال ابن عرفه: سمي جيش تبوك جيش العسرة لأن رسول الله ﷺ ندب الناس إلى الغزو في حمارة القيظ،

فغَلُظ عليهم، وعَسُر، وكان إبّان ابتياع الثمرة، وكان عدد الجيش الروماني فيها كثيراً جداً". (١)

ولهذه الأسباب من العُسْر مجتمعة أعلن النبي ﷺ للمسلمين وجهته فيها على خلاف الغزوات السابقة؛ إذ كان لا يعلن النبي ﷺ عن وجهته في الغزو. روى البخاري بسنده من حديث كعب بن مالك ﷺ قال:"كان رسول اللهﷺ قلَّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى (أي أوهم) بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً (أي الصحراء التي لا ماء فيها)، واستقبل غزو عدوٍّ كثير، فجلّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أُهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد."(٢)

رابعاً: تجهيزات الطرفين للقتال:

أ- جهّز الرومان قوات كثيرة منهم بلغت أربعين ألف مقاتل، كما جهزت القبائل العربية من لَخَمٍ وجُذام وعامِلَة وغَسّان قوات أخرى كثيرة، ومعهم جميعاً أسلحة كثيرة(٣).

ب-جهز رسول الله ﷺ جيشاً من ثلاثين ألف جندي؛ فيهم عشرة آلاف فارس، على عشرة آلاف فرس حيث ندب المسلمين للتجهيز، حيث كان الجو حاراً والسنة مجدبة، والظروف عسيرة. ومع ذلك تسابق المسلمون للتجهيز للقتال؛ فقد قدم عثمان ﷺ مائتي بعير مُحَمَّلة ببضائعها التي عليها، ومائتي أوقية من الفضة، وألف دينار ذهبي لتجهيز الجيش، فجهز ثلث الجيش حتى امتدحه رسول الله ﷺ فقال:"ماضّر عثمانَ ما عمل بعد اليوم."(٤) كما تصدق أبو بكر ﷺ بماله كله، ولم يترك لأهله شيئاً. وكان أول من تصدق

(١) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٨ ،والعلي، صحيح السيرة، ص٤٦٣ - ٤٦٤ وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع اروض)، ١٧٣/٤

(٢)البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، رقم ٢٩٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه رقم ٢٧٦٩

(٣)انظر المباركفوري، الرحيق المختوم ، ص٤٨٤ والواقدي، المغازي، ٩٩٠/٣

(٤)الترمذي،الجامع الصحيح، مناقب عثمان بن عفان٢١/٢، والواقدي،المغازي٩٩١/٣ .

وتصدق عمر بن الخطاب ﷺ بنصف ماله، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ بمائتي أوقية من الفضة ،كما تصدق العباس ﷺبمال كثير، وكذا طلحة بن عبيد الله ﷺ."[1].

ولم يبخل في الإعداد لهذه المعركة سوى المنافقين الذين أخذوا يشيعون روح الإنهزام في المدينة، ويزعمون أنه لا طاقة للمسلمين بالروم، وأن الجو حار جداً، وأخذوا يستأذنون النبي ﷺ في عدم الخروج ؛حتى قال أحدهم وهو الجدُّ بن قيس: يا رسول الله! ائذن لي ولا تَفْتنّي، فإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر –أي الروميات– أن لا أصبر عنهن، فأقع في الفاحشة، –أي لجمالهن وإغرائهن، حسب قصده التافه، وعديم الذوق مع رسول الله ﷺ – فأعرض رسول الله ﷺ عنه، وأذن له بالتخلف، فجاء ابنه وهو رجل بدْرِيٌّ – أي رجل صالح ممشهدوا بدراً– يعاتبه على استئذانه رسول الله بعدم الخروج، وقال له:" فوالله ما في بني سلمة أكثر منك مالاً، ولا تخرج ولا تَحْمِلُ أحداً!–أي لا تجهِّز غازياً– فقال: يا بنيَّ! مالي وللخروج في الريح والحر والعُسرة إلى بني الأصفر؟ والله ما آمَن خوفاً من بني الأصفر وإني في منزلي، فأذهب إليهم فأغزوهم! إني والله يا بني عالمٌ بالدوائر، فأغْلَظَ له ابنه فقال: لا والله، ولكنه النفاق. والله لينزلَنَّ على رسول الله فيك قرآن يقرأونه، فرفع (الأب) نعله فضرب بها وجهه – (أي وجه ابنه) فانصرف ابنه ولم يكلمه. وقال لقومه بني سلمة: لا تنفروا في الحر؛ زهادة في الجهاد، وشكّاً في الحق، وإرجافاً برسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل فيه :﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ التوبة: ٨١ – ٨٢ ونزلت فيه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

(١) انظر المرجع السابق ٩٩١/٣

لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة: ٤٩ فجاء إليه ابنه، وقال له: ألم أقل لك إنه سيترل فيك قرآن يقرأه المسلمون؟ قال:يقول أبوه: اسكت عني يا لُكَع! (وهو التافه الذي لا خير فيه) والله لا أنفعُك بنافعة أبداً، والله لأنت أشدّ عليَّ من محمد."[١]

بينما جاء نفر من أصحاب النبي ﷺ ليخرجوا معه، فلم يجد ركائب تحملهم، وقال لهم:" لا أجد ما أحملكم عليه. "فرجعوا يبكون، حتى جاء أحد المسلمين فتصدق بستة أبعرة، (أي جمال) فبعثها الرسول ﷺ إليهم لتَحْمِلَهُم".[٢] وهؤلاء النفر الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ التوبة: ٩١ – ٩٢.

خامساً: سير المعركة:

أ- سار جيش المسلمين في الجو الحار، ولما وصلوا منازل ثمودَ في منطقة تسمى الحِجْر، هَبَّت فيها عواصف رملية شديدة، واشتد العطش والحر بالمسلمين، ولولا أن الله تعالى أكرمهم بسيل من الماء شربوا منه وحملوا معهم لهلك كثير منهم عطشاً. ولما وصل المسلمون تبوك وجدوا أن الجيش الروماني قد انسحب، حينما علم بكثرة جيش المسلمين وقوة معنوياقم.

ومما جاء في البخاري أن رسول الله ﷺ لما مر بمنطقة الحِجْر حذر الجيش من دخول مساكنها؛ لأنها أرض إهلاك قوم ظالمين، روى ابن عمر رضي الله عنهما قوله ﷺ:"لا تدخوا

(١) الواقدي، المغازي، ٩٩٢/٣ -٩٩٣ ، وانظر طرفاً من هذه الرواية في ابن هشام، السيرة النبوية،(مع الروض)، ١٧٣/٤ - ١٧٤

(٢) انظر المرجع السابق، ٩٩٣/٣ -٩٩٥ ، وانظر رواية البخاري في الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم ٤٤١٥

مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين–وفي رواية أخرى عنه–:لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبَكم مثلُ ما أصابهم."[١]

ب–ثم أرسل النبي ﷺ إلى صاحب أيلة –العقبة– رسالة يطلب فيها منه أن يُسْلِمَ وإلا قاتله المسلمون. فأذعن الرجل وجاء بنفسه لرسول الله ﷺ يطلب الأمان، فكتب له النبي ﷺ كتاب صلح وأمان، وفرض عليه الجزية.[٢]كما بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في خمسمائة فارس إلى الأُكَيْدر وحقن الرسول ﷺ دم ملكهم، وصالحه على أن يدفع الجزية.ملكِ دومة الجندل، فأسروه، وقتلوا أخاه، وحاصروا المدينة، ففتحت أبوابها فداءً لملكها، فغَنِم المسلمون منها غنائم كثيرة. [٣]

ت–أقام جيش المسلمين في تبوك عشرين يوماً، ثم رجع إلى المدينة منتصراً حيث هرب جيش الروم وجَبُن عن مواجهة جيش المسلمين، كما خضعت للمسمين كثير من القبائل والولايات العربية على أطراف الجزيرة العربية من حدودها الشمالية، وأصبح بينها وبينهم عقود أمان تمتنع بموجبها عن الاعتداء على المسلمين، وتدفع للدولة السلمة الجزية سنوياً. وبهذا أمّن الرسول ﷺ الدولة الإسلامية من أخطار الغزو الخارجي، كما كان قد أمَّنها من الغزو الداخلي بعد فتح مكة، وبدأت تتوافد وفود القبائل تعلن إسلامها.

سادساً:المخلفون الثلاثة:

تخلف ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين عن الخروج في جيش العسرة، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم. ولما رجع المسلمون من تبوك أمر النبي ﷺ بمقاطعتهم، فقاطعهم المسلمون حتى قاطَعَتْهم نساؤهم.[٤].

---

(١) البخاري في صحيحه، الباب والكتاب السابقان، رقم، ٤٤١٩، ٤٤٢٠

(٢) انظر الروايات العلي، صحيح السيرة ٤٧٩ - ٤٨٠

(٣) الواقدي،المغازي، ١٠٢٥/٣ فما بعدها باختصار.

(٤) ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٧٥/٤

فوجد هؤلاء الصحابة ضيقاً شديداً حتى ضاقت عليهم أنفسهم، وهم يستغفرون ربهم ويتوبون إليه، ويدعونه أن يُفَرِّج عنهم. ولما علم الله صدق نياتهم، وقد أدبتهم المقاطعة العنيفة تاب عليهم، وأنزل قول تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التوبة: ١١٨ ففرح المسلمون بتوبة الله على المُخَلَّفين، وأنهوْا مقاطعتهم، وفرحوا هم كثيراً بقبول الله تعالى منهم توبتهم، وتصدق بعضهم بمعظم أموالهم، وعاهدوا الله تعالى على الصدق وألاّ يعودوا لمثلها. ويروي كعب بن مالك قصة تخلفه وأصحابه في روايات جمعها إبراهيم العلي[١] مع ذكر فوائد قصة هؤلاء المؤمنين الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:

"حديث الثلاثة الذي خلفوا:

من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه قال:"لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قطُّ إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في بدر ولم يعاتِب(أي رسول الله ﷺ) أحداً تخلف عنه؛ إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة[٢]حين تواثقنا على الإسلام.[٣] وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.[٤]وكان من خبري حين تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة. والله ما جمعت قبلها راحلتين قط،

---

(١) العلي،صحيح السيرة، (مع الروض)، ٤٨٤-٤٩٣

(٢) ليلة العقبة:الليلة الثانية التي بايع رسول الله ﷺ الأنصار فيها على الإسلام، وأن يؤوه وينصروه.

(٣) تواثقنا على الإسلام:تبايعنا عليه وتعاهدنا.

(٤) وإن كانت بدر أذكر: أي أشهر عند الناس بالفضيلة.

حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل، سفراً بعيداً ومفازاً،[١] واستقبل عدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم[٢] ليتأهبوا أهبة غزوهم[٣] فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ ، ولا يجمعهم كتابُ حافظ (يريد بذلك الديوان) .

قال كعب: فقَلَّ رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر،[٤] فتجهز رسول الله والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقضى شيئاً وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إن أردتُ. فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس بالجِدِّ، فأصبح رسول ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو،[٥] فهَمَمْتُ أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت، ثم لم يُقْدَر ذلك لي. فطَفقْت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزُنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺحتى بلغ تبوكاً، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك ؟ . قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسَه بُرداه والنظرُ في عطفيه.[٦] فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلّا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ. فبينما هو على ذلك رأى رجلاً

---

(١) مفازاً: بريه طويلة قليلة الماء يخاف فيها الهلاك.

(٢) فجلا للمسلمين أمرهم: كشفه وبينه وأوضحه.

(٣) ليتأهبوا أهبة غزوهم: ليستعدوا له بما يحتاجون من زاد.

(٤) أصعر: أميل.

(٥) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا

(٦) والنظر في عطفيه: أي جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه

مبيضاً[1] يزول به السراب[2] فقال رسول الله ﷺ:كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه[3]المنافقون.

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً[4] من تبوك ، حضرني بثّي[5]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بِمَ أخرج من سخَطِه غداً؟ واستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً[6] زاح[7] عني الباطل حتى عرفتُ أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه.[8] وصَّبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المُخَلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له. وكانوا بضعة وثمانين رجلاً. فقبل منهم رسول الله ﷺعلانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُه فلما سلمت عليه تبَسَّمَ تَبَسُّمَ المغْضَبِ، ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلستُ يديه فقال لي: ما خَلَّفَك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: يا رسول الله ! إني والله !لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً.[9] ولكني والله! لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن[10] الله أن يُسْخِطَك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه.[11] إني

---

(١)لابس البياض

(٢)يتحرك وينهض،والسراب هو ما يظهر للإنسان في الهواجر في البراري كانه ماء

(٣)عابوه واحتقروه

(٤)توجه قافلاً: راجعاً

(٥)بثي:حزني

(٦)اظل قادماً: اقبل ودنا قدومه كأنه القى على ظله

(٧)زاح: زال

(٨)أجمعت صدقه:عزمت على صدقه

(٩)اعطيت جلاً:فصاحة وقوة في الكلام وبراعة، بحيث أخرج عن عهده ما ينسب إلي غذا أردت

(١٠) ليوشكن:ليسرعن.

(١١) تجد علي فيه:تغضب.

لأرجو فيه عقبى الله[1]والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك. قال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى

يقضي الله فيك . فقمت وثار رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا. لقد عجَزْتَ في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون؟! فقد كان كافيك ذنبضك استغفارُ رسول الله ﷺ لك . قال: فوالله ما زالوا يؤَنِّبونني[2] حتى أردت أن أرجع فأُكَذِّب نفسي. قال:ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا نعم. لقيه معك رجلان قالا مثلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثل ما قيل لك قال: قلت من هما: ؟ قالوا: مَرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة. قال:فمضيت حين ذكروهما لي، قال: فاجْتَنَبَنا الناسُ. وقال: تغيروا لنا حتى تنَكَّرَتْ لي في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا[3] وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلدهم،[4] فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأُسَلِّمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه، وأسارِقُه النظر؛ فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني. حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيتُ حتى تسورتُ[5] جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام. فقلت له: يا أبا

(١) إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيراً ويثيبني عليه.

(٢) يؤنبونني:يلومونني أشد اللوم.

(٣) استكانا:خضعا.

(٤ اشب القوم واجلدهم:أي اصغرهم سنا وأقواهم.

(٥) حتى تسورت:علوت وصعدت السور وهو اعلاه.

قتادة! أنشدك بالله[١] هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال:فسكت، فعدت له فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليتُ حتى تسورتُ الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام[٢] ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدلُّ على كعب بن مالك . قال: فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان. وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغَنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة،[٣]فالحَقْ بنا نواسِك .قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتيامَمت[٤] بها التَّنّور فسَجَرْتُها[٥] بها.

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي[٦]، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال :لا بل اعتزلها، فلا تقربها. قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال: لا، ولكن لا يَقْرَبك. فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه ؟قال: فقلتُ والله لا أستأذنُ فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها

(١) أنشدك بالله: أسألك بالله.

(٢) نبطي من أهل الشام: فلاحو العجم.

(٣) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حقك.

(٤) فتأيمت: تيممت أي: قصدت.

(٥)فسجرتها:أحرقتها.

(٦) واستلبث الوحي: أبطأ.

وأنا رجل شاب؟ قال:فلبثتُ بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا. قال: ثم صليتُ صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله عز وجل منا، قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت؛ سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع،[١] يقول بأعلى صوته: يا كعبَ بن مالك أَبْشِر! قال: فخَرَرْتُ ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فرَج. قال: فآذَن[٢]رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يُبَشِّروننا، فذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مبشرون، وركض رجل إليّ فرساً، وسعى ساعٍ من أَسْلَمَ قِبَلي، وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يُبَشِّرُني فنَزعتُ له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذ، واستَعَرْتُ ثوبين فلبستُهما ، فانطلقتُ أتأَمَّمُ[٣]رسولَ الله ﷺ، يتَلَقّاني الناس فوجاً فوجاً[٤]يهنئونني بالتوبة، ويقولون: لِتَهْنِئَك توبةُ الله عليك .حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرُق وجهه من السرور: أَبْشِر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدَتْك أمُّك. قال: قلتُ: أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله. وكان رسول الله ﷺ إذا استنار وجهه كان وجهه قطعةَ قمر . قال :وكنا نعرف ذلك .قال: فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع[٥]من مالي صدقة إلى الله ورسول ﷺ .فقال رسول الله ﷺ: أمسك بعض مالك؛ فهو خير لك. قال: فقلت: فإني أُمْسِكُ سهمي

---

(١) أوفى على سِلع: صعده وارتفع عليه، وسلع جبل بالمدينة معروف.

(٢) فآذن: الناس أي أعلمهم.

(٣) أتأمم:أي أقصد.

(٤) فوجاً فوجا: الفوج الجماعة.

(٥) أنخلع من مالي:ا تصدق

الذي بخيبر.قال: وقلت: يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلّا صِدْقاً ما بقيت . قال: فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه[1] الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدتُ كِذْبَةً منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عز وجل ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التوبة: ١١٧ - ١١٨ قال كعب: والله ما أنعم الله عليَ من نعمة قط، بعد أذ هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلِك كما هلَك الذين كذبوا؛ إن الله قال للذين كذبوا – حين أنزل الوحي – شر ما قال لأحد، قال تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ التوبة: ٩٥ - ٩٦

قال كعب: كنا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ التوبة: ١١٨ وليس الذي ذكرَ الله مما خلفنا،

(١) أبلاه الله: أنعم عليه.

تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا[1]عمن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه."[2]

سابعاً:" فوائد قصة الذين خُلِّفوا:

وقد استنبط العلماء من الحديث في توبة كعب بن مالك وصاحبيه فوائد جمة ذكر كثيراً منها ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد، وذكر ابن حجر العسقلاني في الفتح فصلاً مفيداً، كثير الفوائد.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري :٨ /١٢٣-١٢٤، ما نصه:" وفي قصة كعب من الفوائد غير ما تقدم(يعني في أثناء شرح الحديث):

١- جواز طلب أموال الكفار من ذوي الحرب، وجواز الغزو في الشهر الحرام، والتصريح بجهة الغزو إذا لم تقتض المصلحة ستره، وإن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزمهم النفير ولحق اللوم بكل فرد لو تخلف.

٢- وقال السهيلي: إنما اشتد الغضب على من تخلف، وإن كان الجهاد فرض كفاية لكنه في حق الأنصار خاصة فرض عين؛ لأنهم بايعوا على ذلك ومصداق ذلك قولهم في غزوة الخندق:

---

(١) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك حديث رقم: ٤٤١٨، مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم ٢٧٦٩، أبو داود ، كتاب الأيمان والنذور، ، باب فيمن نذر أن يتصدق بماله، رقم ٣٣٢١ ، وأحمد في المسند: ٤٥٦/٣ ــ ٤٥٩، والنسائي، كتاب الطلاق، باب الحقي بأهلك: ١٥٢/٦ ، باختصار اقتصر فيه على قوله: الحقي بأهلك وما فيها، عبد الرزاق في المصنف ٩٧٤٤، ابن أبي شيبة في المصنف رقم ١٨٨٥٣ ، ابن هشام في السيرة،٥٣١/٢ ، ابن جرير في التفسير، ٥٨/١١ ، ابن أبي حاتم ،١٠٥/٤ ، ابن كثير في السيرة ، ٤٢/٤ ــ ٤٨ البيهقي في دلائل النبوة، ٢٧٣/٥ ــ ٢٧٩، السيوطي في الدرر المنثور، ٢٨٧/٣ ، وقد أورده البخاري بعدة أرقام في مواطن متعددة ، رقم ٢٧٥٧ ، ٢٩٤٨ ، ٢٩٤٨ ، ٢٩٤٩ ، ٢٩٥٠ ، ٣٥٥٦ ، ٣٨٨٩ ، ٣٩٥١ ، ٤٦٧٣ ، ٤٦٧٦ ، ٤٦٧٧ ، ٤٦٧٨ ، ٦٢٥٥ ، ٦٦٩٠ ، ٧٢٢٥.وهذه هي تخريجات ابراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٤٩٠.

فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة، لأنها كالنكث لبيعتهم، كذا قال ابن بطال. قال السهلي: ولا أعرف له وجهاً غير الذي قال. قلت: وقد ذكرت وجهاً غير الذي ذكره ولعله أقعد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ التوبة: ١٢٠ . وعند الشافعية وجه: أن الجهاد كان فرض عين في زمن النبي ﷺ ، فعلى هذا فيتوجه العتاب على تخلف قطعاً.

٣- وفيها: أن العاجز عن الخروج بنفسه أو بماله لا لوم عليه، واستخلاف من يقوم مقام الإمام على أهله والضعفة.

٤- وفيها ترك المنافقين، ويستنبط منه ترك قتل الزنديق إذا أظهر التوبة وأجاب من أجازه بان الترك كان في زمن النبي ﷺ لمصلحة التأليف على الإسلام.

٥- وفيها عِظَم أمر المعصية، وقد نَّبَّه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حراماً، ولا سفكوا دماً حراماً ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟!

٦–وفيها أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين.

٧–وجواز إخبار المرء عن تقصيره، وتفريطه، وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره تحذيراً، ويضمه لغيره.

٨–وجواز مدح المرء بما فيه من الخير إذا أمن الفتنة، وتسلية نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره.

٩– وفضل أهل بدر والعقبة، والحلف للتأكيد من غير استحلاف، والتورية عن المقصد، ورد الغيبة، وجواز ترك وطء الزوجة مدة.

١٠–وفيه: أن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن يبادر إليها، ولا يُسَوِّف بها لئلا يحرمها كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال: ٢٤ **ومثل قوله تعالى :** ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام: ١١٠ **ونسأل الله تعالى أن يلهمنا المبادرة إلى طاعته، وأن لا يسلبنا ما خولنا من نعمته.**

١١–وفيها: جواز تمني ما فات من الخير، وأن الإمام لا يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور بل يذكره ليراجع التوبة.

١٢–وجواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حمية لله ورسوله، وفيها جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن أو غَلَطُه.

١٣-وفيها أن المستحب للقادم أن يكون على وضوء، وأن يبدأ بالمسجد قبل بيته فيصلي ثم يجلس لمن يسلم عليه، ومشروعية السلام على القادم وتلقيه، والحكم الظاهر، وقبول المعاذير واستحباب بكاء العاصي أسفاً على ما فاته من الخير.

١٤-وفيها: إجراء الأحكام على الظاهر، ووكول السرائر إلى الله تعالى.

وفيها: ترك السلام على من أذنب، وجواز هجره أكثر من ثلاث، وأما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على مَن لم يكن هجرانه شرعياً، وأن القسم قد يكون عن غضب كما يكون عن تعجب ولا يختص بالسرور. ومعاتبة الكبير أصحابه ومن يَعِزُّ عليه دون غيره.

١٥-وفيها: فائدة الصدق وشؤم عاقبة الكذب.

١٦- وفيها: العمل بمفهوم اللقب إذا حفَّته قرينة، لقوله ﷺ لما حدثه كعب:أما هذا فقد صدق. فإنه يشعر بأن من سواه كذب، لكن ليس على عمومه في حق كل أحد سواه، لأن مرارة وهلال أيضاً قد صدقا؛ فيختص الكذب بمن حلف واعتذر لا بمن اعترف، ولهذا عاقب من صدق بالتأديب الذي ظهرت فائدته عن قرب، وأخَّر من كذب للعقاب الطويل، وفي الحديث الصحيح: إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد به شراً أمسك عنه عقوبته فيرد القيامة بذنوبه. وقيل: إنما غلظ في حق هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم تركوا الواجب عليهم من غير عذر، ويدل عليه قوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ

مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ التوبة: ١٢٠ وقول الأنصار:

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبدا

١٧–وفيها: تبريد حر المصيبة بالتأسي بالنظير، وفيها: عظم مقدام الصدق في القول والفعل، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به.

١٨–وأن: من عوقب بالهجر يعذر عن التخلف عن صلاة الجماعة؛ لأن مرارة وهلالاً لم يخرجا من بيوتهما تلك المدة.

١٩–وفيها: سقوط السلام على المهجور عمن سلم عليه، إذ لو كان واجباً لم يقل كعب: هل حرك شفتيه برد السلام.

٢٠– وفيها: جواز دخول المرء دار جاره أو صديقه بغير إذنه ومن غير الباب إذا علم رضاه.

٢١–وفيها: أن قول المرء الله ورسوله أعلم، ليس بخطاب ولا كلام ولا يحنث به من حلف أن لا يكلم الآخر إذا لم ينو به مكالمته دائماً، وإنما قال أبو قتادة ذلك لما ألح عليه كعب، وإلا فقد تقدم أن رسول ملك غسان لما سأل عن كعب جعل الناس يشيرون له إلى كعب، ولا يتكلمون بقولهم مثلاً: هذا كعب؛ مبالغة في هجره والإعراض عنه.

٢٢– وفيها: أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدح في صحتها. وإيثار طاعة الرسول ﷺ على مودة القريب، وخدمة المرأة زوجها، والاحتياط لمجانبة ما يخشى الوقوع فيه.

٢٣– وجواز: تحريق ما فيه اسم الله للمصلحة.

٢٤ – فيها: مشروعية سجود الشكر.

٢٥– والاستباق إلى البشارة بالخير وإعطاء البشير أنفس ما يحضر الذي يأتيه بالبشارة وتهنئة من تجددت له نعمة، والقيام إليه إذا أقبل، واجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة، وسروره بما يسر أتباعه، ومشروعية العارية، ومصافحة القادم والقيام له، والتزام المداومة على الخير الذي ينتفع به.

٢٦– واستحباب الصدقة عن التوبة، وأن من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراجه جميعه."(١)

ثامنا: دروس غزوة تبوك وعِبَرها:

أ– نأخذ من غزوة تبوك درساً في إصرار المؤمنين على تحقيق أهدافهم، فحين لم يتمكن المسلمون من تحقيق أهدافهم تماماً في غزوة مؤتة، جهَّز النبي ﷺ جيشاً كبيراً لمواجهة الروم وكبح جماح عدوانهم على الإسلام.

ب–وفي تسابق المسلمين للتجهيز درس كبير في حب الإنفاق في سبيل الله، حتى إن بعض المسلمين لما لم يجد ما ينفقه، ولا دابَّةً تحمله رجعوا باكين؛ فسُمّوا بالبَكّائين.

ت–المسلم لا يؤْثِر الراحة على الجهاد؛ فقد كان خروج المسلمين إلى غزوة تبوك رغم الحرِّ الشديد والسَّنة المجدبة، وفي وقت نضج ثمار المدينة، حتى سميت هذه الغزوة بغزوة العُسْرة.

ث–المسلم الصادق رجّاع إلى الله تعالى؛ فالمُخَلَّفون الثلاثة من المسلمين؛ كم ندموا على تخلفهم عن رسول الله ﷺ، حتى ربط أحُهم نفسه بعمود المسجد، وحبس الآخرث نفسَه في بيته حتى تاب الله عليه، أما الصحابي أبو خيْثَمة، وقد تأخر عن الخروج، وذهب إلى عريشه فوجد زوجتيْه قد برَّدتا له العريش، وأَعَدَّتا له الطعام الطيب، فَندم، ورفض أن

---
(١) العلي، صحيح السيرة، ص ٤٩٠ - ٤٩٣

يدخل العريش، وقال لهما: هيِّئا لي الزادَ والراحلة، رسولُ الله في الحر والريح وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد وطعام مُهَيَّأ وامرأة حسناء، في ماله مقيم! والله ما هذا بالنَّصَف والعدل. وقد افتقده النبي ﷺ، فلما أقبل قال عليه الصلاة والسلام:كُن أبا خيثمة. ولما وصل اعتذر لرسول الله ﷺ على تأخُّره، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ج- المنافقون لم يكونوا مع الإسلام، ولن يكونوا معه أبداً؛ فقد أرجفوا قبل الخروج، وثبطوا المسلمين، وكانوا قد بنَوْا مسجداً طلبوا من النبي ﷺ أن يصلي لهم فيه قبل خروجه إلى تبوك؛ حتى ينالوا بركته! وحقيقة الأمر أنهم كانوا ما بنوْا هذا المسجد إلّا ليكون ملتقى لمؤامراتهم، فأمهلهم النبي ﷺ حتى يرجع من تبوك، فلما عاد أمره الله تعالى أن يهدمه عليهم، ولذلك سُمِّي ذلك المسجد بمسجد الضرار، وقد أنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ التوبة: ١٠٨.

ح- كانت معركة تبوك حرب أمة ضد أمة أخرى؛ ولذا فقد رفع الله تعالى شأن الأمة المسلمة بفرار أمة الروم عن المواجهة، ولم يكن العرب يحْلُمون بحرب الروم قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فأصبحوا يعتقدون أنهم يستطيعون قتال أكبر دول الأرض، وتخويفهم على طريق القضاء عليها؛ لأنهم أصبحوا أصحابَ رسالة الإسلام إلى العالم وحمَلَتها، والمدافعين عنها وعن دولتها، والمجاهدين في سبيل نشر خيرها وحضارتها، والعاملين على إسعاد الإنسان في هذه الأرض في الدنيا والآخرة .

خ- ويمكن اعتبار ما ذكرنا قبل قليل من فوائد من قصة الذين خُلِّفوا درساً تفصيلياً فيه من العبر والأحكام الفقهية مافيه.

المبحث الرابع

بعث أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما

أولاً: تاريخ بعث أُسامة :

قال الواقدي: "فلما كان يوم الاثنين لأربع بقين من صفر سنة إحدى عشرة؛ أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لغزو الروم(...) فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر دعا أسامة بن زيد، فقال: يا أسامة! سر على اسم الله وبركته. فقد وَلَّيْتُك على هذا الجيش.(...) فلما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر بُدِيءَ رسول الله ﷺ فضصُدِّعَ وَحُمَّ، فلما أصبح الخميس لليلة بقيت من صفر عقَد رسول الله ﷺ بيده لواءً، ثم قال: يا أسامة! اغز بسم الله في سبيل الله؛ فقاتل من كفر بالله (...) ويوم السبت لعشرٍ خلون من ربيع الأول، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يُوَدِّعون رسول الله ﷺ(...) فباتوا ليلة الأحد. ونزل أسامة ورسولُ الله ﷺ ثقيلٌ مغمور،(...) فلما أصبح يوم الإثنين غدا من معسكره، وأصبح رسول الله ﷺ مُفيقاً، فجاءه أسامة، فقال: اغْدُ على بركة الله، فودَّعه أسامة.(..) فبينما أسامة يركب من الجُرف أتاه رسولُ أمِّ أيمن– وهي أمه– تُخْبِره أن رسول الله ﷺ يموت، فأقبل أسامة إلى المدينة معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فانتهوْا إلى رسول الله ﷺ يموت، فتوفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف."[١] وقدحاول المسلمون ثَنْي أبي بكر عن إنفاذ جيش أسامة؛ بسبب وقوع الردة، وأن الحاجة إلى قتال المرتدين أهمُّ من غزو الروم في هذه الفترة، إلا أن أبا بكر أصرَّ على إنفاذ هذا البعث وقال: "والذي نفسي بيده، لو ظننت السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدأتُ بأَوْلى منه، ورسول الله ينزل عليه الوحي من السماء يقول: أنفِذوا جيش أسامة.

(١) الواقدي، المغازي، ١١١٧/٣-١١٢٠

ولكنه استأذن أسامةَ في استثناء عمر بن الخطاب ﷺ وقال لأُسامة: "إنه لا غَناء بنا عنه."[١] فأجابه أسامة إلى طلبه. وعاد جيش أسامة من البعث لهلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة فغاب خمسة وثلاثين يوماً عشرون في بدأته وخمسة عشر في رجعته."[٢]

ثانياً: أسباب بعث أُسامة وأهدافه:

أ- ذكر الواقدي سبباً عاماً لهذا البعث فقال: "لم يزل رسول الله ﷺ يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه، ووجد عليهم وجْداً شديداً"؛ أي كان السبب هو الإنتقام من الروم والثأر لشهداء المسلمين في معركة مؤتة.

ب-وذكر الغزالي أن "فروة بن عمرو الجذامي كان والياً من قبل الرومان على مَعان وما حولها من أرض الشام، فاعتنق الإسلام، وأخبرَ النبيَّ ﷺ بذلك، فغضب الرومان، وألقوا القبض عليه، وسجنوه، وضربوا عنقه عند عين ماء، يقال له عفراء بفلسطين، وتُرِك مصلوباً ليَرَهَب غيره أن يسلك سلوكه، وقيل: إنه لما قُدِّم للقتل أنشد يقول:

بَلِغ سُراة المسلمين بأنني　　　سلمٌ لربي أَعْظُمي ودمائي

فاعد رسول الله ﷺ جيشاً كبيراً ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة وأمره أن يوطيء الخيل تُخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، ويثبتها بمَعان، يبغي بذلك إرهاب الروم، واعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود."[٣]

---

(١)المرجع السابق، ١١٢١/٣ انظر ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٤٦/٤

(٢) المرجع السابق، ١١٢٥/٣

(٣) الغزالي ، فقه السيرة، ص ٤٩١ (عين عفراء الآن هي قرب الطفيلة في الأردن .ومن الملاحظ أن تقسيمات الجغرافيا الطبيعية سابقاً- أي قبل الانتداب الانجليزي على شرق الأردن وفلسطين كانت مختلفة عن الجغرافيا السياسية بحسب تقسيمات اتفاقية سايكس بيكو في الحرب العالمية الأولى عند إنتهاء الدولة العثمانية؛ حيث كانت الأردن في الجغرافيا الطبيعية تعني الأرض المحاذية لنهر الأردن شرقاً إلى العراق وغرباً إلى الساحل على البحر الأبيض المتوسط ، وأن الجهة الجنوبية للنهر هي فلسطين من ساحل البحر الأبيض المتوسط غرباً إلى الصحراء الجنوبية المحاذية للسعودية وجنوب العراق وإلى نهاية الحدود الصحراوية الأردنية مع العراق حالياً ،وأن الفاصل بين الأردن وفلسطين سابقاً هو سيل الزرقاء إلى مصب البحر الميت ومن مصب البحر الميت إلى بلدة سبسطية شمال مدينة نابلس إلى نهر الزرقاء المتجه جنوب حيفا على ساحل البحر المتوسط، كماوردت هذه التقسيمات القديمة في الحموي ، ياقوت، معجم البلدان، ٢٧٦/٢ ،وقد ذكر النبي ﷺ عن مدينة بيسان أنها في الأردن وهو يسأل عن نخل بيسان هل يثمر أم لا؟

ت– كما أن هناك سبباً أساسياً هو أن رسول الله ﷺ أراد أن تكون الجبهة مفتوحة للدعوة والجهاد للدول الكبرى بعد أن دخلت الجزيرة العربية في دين الله، طبقاً لمفهوم عالمية هذه الرسالة، وأن هذا الدين ليس للعرب وليس ديناً خاصاً بهم وبجزيرتهم ، بل هو دين الله تعالى للناس كافَّة.

ثالثاً: قوات بعث أُسامة ومسيره:

أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وجعل المسلمون –مهاجرين وأنصاراً– يَجِدّون بالخروج والتجهيز، وفيهم كبار الصحابة؛ عمر وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيْل من المهاجرين، وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلَم من الأنصار. وأمر أبو بكر بعد وفاة النبي ﷺ مناديَه أن يقول للناس: عَزْمَة مني ألا يتخلف عن أسامة مِن بعْثه مَن كان انتُدب معه في حياة رسول الله ﷺ؛ فإني لا أوتى بأحد أبطأ بالخروج معه إلا إلحقته به ماشياً.وبلغ عدد الجيش ثلاثة آلاف رجل وفيهم ألف فرس، أي وألف فارس.(١)

وأما الأعداء ؛ فكانت قبيلة أُبنى في طريق البعث، وكانوا غارّين ولا جموع لهم. وكان النبي ﷺ قد أوصى أسامة أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أطاعوه خيَّرهم، وإن أحبوا أن يقيموا في دارهم ويكونوا كأعراب المسلمين ، وإن تحولوا إلى دار الإسلام، وجاهدوا يكون لهم ما للمسلمين من مهاجرين وأنصار.

وأما الروم؛ فقد علم هرقل ،وهو بحِمص ببَعْث أسامة فجمع بطارقته، وقال لهم: هذا الذي حذَّرتكم فأبيتم أن تقبلوه مني. وبعث خيالته إلى البلقاء، ولم يزل مقيماً بها حتى جاء الفتح الإسلامي في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(١) انظر الواقدي، المغازي، ١١٢٢/٣

وقد قام جيش البعث بالغارة على قبيلة أُبْنى، وقَتَل من قاتل منهم، وسبى من قدر عليه، وغنم ما قدر عليه من الغنائم. وأما أسامة بن زيد رضالله عنهما: فقد تمكّن من الإمساك بقاتل أبيه زيد يوم مؤتة؛ وقد أخبره بذلك من سباهم، فقتله جهاداً في سبيل الله، وانتقاماً لمقتل أبيه، أحد الأُمراء الثلاثة الذين قادوا معركة مؤتة، واستُشهدوا فيها. وقد سَلِم بحمد الله تعالى جيش أسامة، ولم يصب منه أحد بأذى، وأرعبَ الروم، وعاد أُسامة ﷺ بجيشه منتصراً. وخرج أهل المدينة رجالاً ونساءً مسرورين ومُبتَهِجين بالنصر وبسلامة الجيش.

رابعاً:دروس بعث أُسامة وعِبَرُه:

أ- إظهار عالمية الإسلام، وضرورة مواصلة الدعوة إلى التوحيد لشعوب العالم، والجهاد لمواجهة دول الكفر التي تحول بين الناس وبين كلمة التوحيد ودعوة الإسلام.
ب-إصرار رسول الله ﷺ على بعث أسامة رغم مرضه، ولئلا ينقطع الجهاد بوفاته، فإنه ﷺ وهو على فراش الموت كان يقول: أنْفذوا بعث أسامة.
ت-اعتراض بعض الصحابة على إمارة أسامة بن زيد، وإنه أصغر القوم وابن ثمانية عشر عاماً.وإنه ابن مولى وليس من أشراف القوم، وإنه سيكون أميراً على كبار الصحابة وأشرافهم. ولما سمع النبي ﷺ غضب غضباً شديداً، وأمر باجتماع الناس، وخطبهم، فقال: "إن تَطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قَبْلُ، (يعني في إمرة زيد بن حارثة أحد قادة معركة مؤتة الثلاثة)، وأيم الله إن كان لَخَليقاً (أي كفؤاً) للإمارة، وان كان (أي زيد) لَمِن أحَبِّ الناس إليَّ، وإن هذا (يعني ابنه أُسامة) لَمِن أحَبِّ الناس إليَّ بعده.- واللفظ للبخاري-، وفي لفظ آخر -عند مسلم-: إن تطعنوا في إمارته، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله! إن كان لخليقاً لها، وأيم الله ! إنْ كان لَأحبَّ الناس إليّ، وأيم الله ! إن

هذا لها لخليق– وأيم الله! إن كان لَأحبَّهم إليَّ من بعده، فأوصيكم به؛ فإنه من صالحيكم." اللفظ لمسلم[(١)].

ث–مسارعةُ الصحابة للتجهيز للقتال؛ استجابة لأمر رسول الله ﷺ، وتواضعُ كبار الصحابة وقبولهم إمارة أسامة الشاب الصغير، وابن المولى حُبّاً بمَن يُحِبُّه رسول الله ﷺ، وامتثالاً لأمره عليه الصلاة والسلام.

ج– تخوُّف الصحابة واشفاقهم على المسلمين من خروج الجيش بعد وفاة النبي ﷺ، وحصولِ الردة، ورجاءُ كبارهم أبا بكر أن يؤجل غزو الروم؛ من أجل قتال المرتدين أولاً. ولَمّا لم يجبهم أبو بكر إلى ذلك سمعوا وأطاعوا.

ح– حزم أبي بكر ﷺ بإصراره على إنفاذ بعث أسامة؛ فهماً منه، والتزاماً باوأمر رسول الله ﷺ، وأن الله لا يضيع المسلمين؛ فإن لواءً عقده رسول الله ﷺ وبوحي من الله لا يُضيِّعه الله. والخليفة لرسول الله ﷺ لا بد أن يكون حريصاً على إنفاذ وصية رسول الله ﷺ. وهذه شجاعة من أبي بكر رضي الله عنه رغم كل الظروف الصعبة المحيطة من الفراغ الذي تركه رسول الله ﷺ بموته، ومن رِدَّة العرب، وما يمكن أن يكون لها من عواقب.

خ– أدبُ أبي بكر ﷺ وهو يستأذن أسامة قائد الجيش أن يترك له عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويستثنيَه من الخروج معه في البعث؛ لحاجة الخليفة أبي بكر إلى وزيره الأول وهو عمر في ظروف ليست سهلة؛ إذ يقول أبو بكر وهو يصر على إنفاذ البعث ويقول للصحابة:" أُكلِّم أسامة في عمر يُخَلِّفه يقيم عندنا فإنه لا غَناء بنا عنه. والله ما أدري: يفعل أسامة أم لا. والله إن رأى لا أُكْرِهُه.(...) وكلَّمه أن يترك عمر ففعل، وجعل يقول له : أذنتَ ونفسك طيبة؟ فقال أسامة: نعم"[(٢)].

---

(١) البخاري في صحيحه، فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن حارثة، رقم ٣٧٣٠ ، وكتاب المغازي، باب غزوة زيد بن حارثة، رقم ٤٢٥٠، وباب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد، رقم ٤٤٦٨ ، ٤٤٦٩ ، وكتاب الأيمان والنذور، باب وأيم الله ، رقم ٦٦٢٧ ،وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم ٢٤٢٦

(٢) الواقدي، المغازي، ١١٢١/٣ - ١١٢١

د- وصايا رسول الله ﷺ القتالية لأسامة رضي الله عنه: وقد وصّى رسول ﷺ قائد البعث أُسامة بمجموعة من الوصايا وتعليمات القتال وأخلاقه وآدابه وهي:

١- أمره بالانكماش في غزوهم[١] أي الإسراع، لأن عامل السرعة مهم في القتال وخصوصاً في بلاد بعيدة عن مركز الدولة المسلمة، وعن الإعداد والإمداد المادي والتمويني والتسليحي والمعنوي للقوات المسلمة. كما أمره أن يقلل من المكوث في أعراب أُبْنى حتى لا يشغلوه عن المهام الرئيسة، وهي غزوه الروم؛ إذ قال لأسامة:"فإن أظفرك الله عليهم فأقْلِل اللُّبْث فيهم."[٢].

٢- وصى النبي ﷺ أسامة بالاستعانة بالأَدِلّاء، ونشر العيون أي الجواسيس أمامه، ونشر دوريات الاستطلاع.[٣] وهذا ضروري في أرض لا يعرفها الجيش مسبقاً، وليكون مستعداً للدخول، ومحتاطاً للكمائن.

٣- الدعوة للإسلام قبل قتال الناس، لأنها هي المقصود الأول. قتلُ الناس ليس هدفاً في ذاته للإسلام.

٤- الوصية بالتزام أخلاق القتال، ووحدة الصف؛ حيث قال النبي ﷺ لأسامة:"أغز باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تتمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تُبْتَلون، ولكن قولوا: اللهم اكْفِناهُم، واكْفُف بأسَهم عنا. فإن لَقوكم قد أَجْلَبوا وصَيَّحوا فعليكم بالسكينة والصمت، ولا تنازعوا فتفشلوا فتذهب ريحكم، وقولوا: نحن عبادُك وهم عبادك، نواصينا بيدك، وإنما تَغْلِبُهم أنت، واعلموا أن الجنة تحت البارقة." [٤] (أي بارقة السيوف)

(١) انظر المرجع السابق، ٣ /١١١٧

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق. ١١١٧/٣ - ١١١٨

ذ- خروج الخليفة بنفسه يودع الجيش: فقد خرج أبو بكر ﷺ بنفسه يودع جيش أسامة؛ رافعاً لمعنويات الجيش المسلم، ومؤكِّداً الثقة بقيادة أسامة له، ومقوياً لمعنويات المسلمين في ظل الظروف الصعبة التي يمرون بها من الحزن على موت رسول الله ﷺ ، والردّة في الجزيرة العربية التي لا يعلم نتائجها إلا الله. ووصى أبو بكر أسامة بتأكيد وصية رسول الله ﷺ له، وأعلن له أن حركته وخروجه ليس بأمر نفسه هو كخليفة، وإنما بأمر رسول الله ﷺ، وفي هذا حبٌّ عميق لرسول الله ﷺ يملأ قلب أبي بكر، وإيثار له بأنه هو الآمر، وفيه أيضاً رفعٌ لمعنويات أسامة، وتبشيرٌ له بأنه منتصر إن شاء الله؛ فإن الله لا يهزم جيشاً أمر به رسول الله ﷺ، وعقد لواءه، وأصر على إنفاذه، ولا يخذل قيادة من أصرّ رسول الله ﷺ على اختياره قائداً. ولقد كان لهذا كله دور في تعميق الثقة لدى القيادة ولدى الجيش بالنصر، إذ كان شعارهم وهم يدخلون على قبيلة أُبْنى:"يا منصور أَمِت" وهي إحدى شعارات غزوات رسول الله ﷺ .

ر- قتلُ أُسامة ﷺ قاتلَ والده زيد بن حارثة في غزوة مؤتة: لقد كان ثأر أسامة من قاتل أبيه زيد في مؤتة ما أشفى به صدره وصدور المؤمنين، فضلاً عن تحقيق ما كان يشفي صدر رسول الله ﷺ في حياته لشدة حزنه على زيد ومن قُتل معه من قيادات معركة مؤتة.

ز- نصر جلا الله به حُزْن الأمة: إن هذا السرور والبهجة بانتصار بعث أسامة وسلامة جيشه أزال الحزن من نفوس المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، وقَوّى عزائمهم ويقينهم بنصر الله لدينه في حياة رسول الله ﷺ، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

الفصل السادس

الدعوة وجهاد القوة العميقة-الصراع مع النافقين-

المبحث الأول:ظاهرة النفاق والمنافقين في المدينة.

المبحث الثاني: مواقف المنفقين تفصيلاً ومجاهدتهم.

المبحث الثالث: النفاق والمنافقون؛ دروس وعِبَر.

تمهيد :

دعوة المنافقين إلى الخروج مما فيه من مرض النفاق كان من أصعب مهمات الدعوة، وكان جهاد المنافقين من أدق أنواع الجهاد؛ بعد جهاد النفس ،وهو الخفي، وجهاد العدو العدو الكفار، وهو الجهاد الظاهر. وأما المنافقون فيجتمع فيهم أنهم عدو باطن ظاهر، خفي في إبطانه الكفر، ظاهر في إعلانه الإسلام، لا يحل لك مقاومتُه وقتالُه في الظاهر؛ إذ ظاهره مسلم يعلن الشهادتين، فيُعصَم دمه، ولا يمكنك محاربته لأن كفره باطن غير ظاهر. وهو يعيش في أعماق مجتمعك المسلم، وليس منفصلاً عنك تكتفي شرَّه، وهو في حقيقته أشد على المسلمين من الكفار، وأخطر منهم؛ ولذلك كانت عقوبته عند الله أشد من عقوبة الكفار ، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٤٥

ولهذا المعنى جعل ابن القيم المنافقين أحد مراتب الجهاد فقال: "فالجهاد أربع مراتب؛ جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين."(١) وجعل جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب: "بالقلب واللسان والمال والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص بالمال"(٢). وعقد فصلاً في ترتيب سياق هدي النبي ﷺ مع الكفار والمنافقين من حين بُعِث إلى حين لقي الله عز وجل، وذكر سياسته معه المنافقين دون قتالهم مع صعوبتها، ولكنها محتاجة إلى الحكمة، فقال: "وأما سيرته في المنافقين فإنه ﷺ أُمِر أن يَقبل منهم علانيتهم، ويَكِل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأُمِر أن يُعرض

---

(١) ابن القيم،زاد المعاد، ٣/٧

(٢) المرجع السابق، ٣/٨

عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغهم بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونُهِيَ أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم وأُخْبِرَ أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم"(١).

المبحث الأول

ظاهرة النفاق والمنافقين في المدينة

أولاً:ظاهرة النفاق وهوية المنافقين:

المنافقون فريق من أهل المدينة، ممن كان في قلوبهم مرض، مالوا إلى الإسلام في ظاهرهم، وقلوبهم له منكرة، وكانوا يتحينون الفرص للتشكيك به، ولتخذيل المسلمين عنه.

وكان على رأس هؤلاء المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول الخزرجي، الذي كان ينتظر تاج الملك قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. ولما قامت دولة الإسلام والتفَّ المسلمون حول رسولهم ﷺ نَقَم عبد الله بن أبيّ على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ؛ لأنه فوّت عليه الملك.

كما لحق بابن سلول أبو عامر الفاسق، الذي كان قد ترهب قبل النبوة، وزعم أنه ينتظر النبي المبعوث قريباً من العرب. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة حسده أبو عامر وأنكر نبوته، وجاء يناقشه في الحنيفية، وخرج إلى مكة مُباعداً لرسول الله ﷺ ، ومُباغِضاً له.

ثانياً: أسباب ظاهرة نشوء النفاق في المدينة:

أ- نلاحظ أن النفاق لم يكن في مكة، وإنما نشأ وترعرع في المدينة. وذلك لأن الإسلام كان في مكة ضعيفاً مضطهداً، فلم يكن ثمة داعٍ لأن يتظاهر به أحد؛ فيضطهد ويعذب.

---

(١)المرجع السابق، ١٤٣/٣

ولكن لما قويت شوكة الإسلام في المدينة، ودخل عامة أهلها من الأوس والخزرج في الإسلام، وأصبح له بعد معركة بدر قوة وغلبة وسيطرة؛ فطمع هذا النفر من المنافقين في إظهار الإسلام ونصره، ولكن قلوبهم له منكرة، وأخذوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر. وبالتالي فإن فتنتهم في داخل الصف المسلم يمكن أن تسري، بينما لو كانوا كفاراً ظاهرين لانكشفوا، ولما قَبِل منهم أحد رأياً، ولتعرضوا للأذى.

ب–المنافقون ذوو ضمائر فاسدة، وهم متمردون تمرداً خفياً على سلطة الدولة المسلمة الجديدة، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنهم كانوا مضطرين للدخول تحت سلطة الدولة بصفتهم مسلمين ظاهراً، حتى لا يكون مصيرهم مصير المشركين واليهود. فتلفَّعوا بثوب الإسلام ليحموا أنفسهم من نهاية المشركين وعاقبة اليهود. فهم يمثلون بقايا الكفر وقوته العميقة التي اختفت، وأخذت تعلن الإسلام ظاهراً وتخفي الكفر باطناً.

ت–والمنافقون أصحاب حسد، يحبون الدنيا ولا يعملون للآخرة. وكان بعضهم زعماء يبحثون عن عز الدنيا، فلما جاء الإسلام حرمهم من وهم زعاماتهم، وحب رئاساتهم؛ فنقموا عليه، وأظهروه وأبطنوا الكفر. كما أنهم أصحاب ظن سيء يخافون أن يظهر المشركون على المسلمين. ولهذا لما أصدر النبي ﷺ حكمه في يهود بني النضير جاء رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلول يشفع لهم، ويقول: يا محمد! أَحْسِنْ إليّ في مَوالِيَّ،؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحد؟! وإني والله امرؤ أخشى الدوائر.

ث–كما كان لليهود دور بارز في تعزيز النفاق والمنافقين في المدينة؛ حيث كانوا يُنَسِّقون معهم لعداء رسول الله ﷺ، وهم الذين كانوا يدفعون المنافقين لطرح أسئلة الجدل والمماحكة على الرسول ﷺ، كما كانوا يغذونهم بالإشاعات والفتن لبلبلة الصف المسلم، ومحاولة شق وحدته بتذكير الأنصار بيوم بعاث في الجاهلية، أو بإثارة الفتن بين المهاجرين والأنصار. ولقد كانت للمنافقين اتصالات واضحة باليهود؛ فعبد الله بن أبيّ كان يقول

لبني النضير يحرضهم على عدم الاستجابة لشروط النبي ﷺ: لئن أُخْرِجْتُم لنخرجن معكم، ولئن قوتِلْتُم لننصرنَّكم.

ج- وليس صحيحاً ما ذكره بعض المحللين من أن الخوف من القتل هو الذي دفع المنافقين إلى موقفهم؛ لأن الإسلام دخل إلى المدينة بغير قتال، وأعطى النبي ﷺ الأمان لأهل المدينة ومن حولها من الأعراب، وصنع وثائق تحكم علاقة المؤمنين بغيرهم، من اليهود والقبائل، وبقي اليهود على دينهم، وبقي مشركون في أطراف المدينة على شركهم؛ فالخوف لم يكن موجوداً، فلا يمكن اعتباره مسوغاً للنفاق. ولكن الحقيقة تقول: إن المنافقين خافوا على مصالحهم أن تفوت؛ لأن الأغلبية العظمى من المهاجرين والأنصار قد دخلوا الإسلام فوراً، فوجد هذا النفر من الكفار وهم المنافقون ألا يسبحوا عكس التيار؛ إذ قد يضّحون بسمعتهم ومكانتهم في أقوامهم وبمصالحهم، وكان على رأسهم مَن كان أهل المدينة يَصنعون له تاج الملك، وهو رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول.

ثالثاً: خطورة النفاق والمنافقين:

لقد كان معسكر النفاق والمنافقين خطيراً في الحياة الإسلامية؛ لأنه كفر في حقيقته غير ظاهر، ولذلك لا تستطيع أن تتصرف مع المنافقين وتعاملهم معاملة الكفار، إذ أنهم يظهرون الإسلام، ويُصَلّون مع المسلمين، وقد يخرجون مع المقاتلين . فهذا العدو خفي باطن، مرضٌ تحمله الأمة في نسيجها، وليس عدواً خارجياً منحازاً تقاتله. ولذلك حينما كان يقترح بعض الصحابة على رسول الله ﷺ أن يضرب رأس المنافقين كان عليه الصلاة والسلام يقول:" لا، حتى لا يُقال: محمد يقتل أصحابه."[1]

كما أن هذا المعسكر صاحب حيلة ودهاء، ولا ينكشف أمره لكل المسلمين، بل تنطلي حيلته على كثير من المسلمين الطيبين. ولذلك؛ فقد نجح رأس النفاق ابن أبيّ في

(١) انظر تخريج الروايات في العلي، صحيح السيرة ص ٢٥٢ ، ٢٥٤

إقناع ثلث الجيش المسلم يوم أُحُد بالعودة إلى المدينة، وما نظن أن ثلث الجيش كان منافقاً، ولكن المنافقين قلة استطاعت بدهائها أن تقنع الدهماء والبسطاء من المسلمين، الذي لا يستطيعون التمييز بين المواقف ودراستها دراسة دقيقة. ولقد كان المنافقون مختلطين بالمسلمين اختلاطاً شديداً، ولم يكن أمرهم معروفاً لجميع المسلمين، إلا ما كان من معرفة بعض ملامحهم وصفاهم، حيث قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ محمد: ٣٠ ولذلك لم يكن من السهولة معرفتهم أول الأمر، وإنما أخذوا ينكشفون شيئاً فشيئاً من خلال مواقفهم، وفي ساعات الشدة والأزمات، والمعارك والقتال، حيث كان لهم من كل حَدَث موقف، وفي كل معركة تخذيل، فكانوا عدواً أشد من الأعداء المعروفين، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ المنافقون: ٤.

رابعاً: علاج ظاهرة النفاق ومجاهدتها إجمالاً:

أ- سلك النبي ﷺ مع المنافقين أسلوب العظة والتذكير بالله تعالى، وكان ﷺ يدعوهم إلى الهدى بالحكمة والوعظة الحسنة، ويوجه المسلمين إلى عدم الاستعجال بالحكم على الناس بالنفاق، وقوفاً عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: ٩٤.

ب-أحسن النبي ﷺ معاملة المنافقين وداراهم لعلهم يرتدعون، وحتى ينكشف أمرهم للمسلمين. ولما طلب الصحابي الجليل الابن وهو عبدُ الله بن-رأس النفاق- عبد الله بن

أبي من الرسول ﷺ أن يضرب هو عنق أبيه النافق، إن كان يريد الرسول ﷺ قتله، وحتى لا تثور نفسه فيثأر لدم أبيه من قاتله، فيَقْتل مؤمناً بكافر، قال له النبي ﷺ:"لا ولكن برّ أباك، وأَحْسِن صحبته."(١)

ت- كما كان النبي ﷺ يدعو المسلمين إلى الحذر منهم، ومن إشاعاتهم؛ وذلك بالوعي الراسخ، والإيمان الثابت، والحزم في الأمور، والإعراض عنهم وعن أباطيلهم، كما وجهه الله تعالى بقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ النساء: ٨١.

ث- كما نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة المنافقين، وعن حبهم وصداقتهم؛ لأنهم فريق متآمر مخادع، يبُثّون السوء والشر في الأمة المسلمة. كما حذر المسلمين عن الاغترار بظاهر أقوال المنافقين. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: ١١٨.

ج- ولعل القاعدة الأساسية التي سلكها رسول الله ﷺ مع المنافقين في جميع الأحوال:

١- أنه كان يعاملهم حسب ظاهرهم، وكان لا يبالغ في التفتيش عن بواطنهم، ولا هتك أسرارهم.(٢) وكان حريصاً على ألا يجابهم، وعلى ألاّ يكاشفهم، حتى لا يزداد شرهم، وحتى لا يزيد حقدهم. ويروي ابن كثير قصة منافق تاب، وكان له أصحاب منافقون، وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه كان لي أصحاب منافقون، وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال رسول الله ﷺ:"من أتانا استغفرنا له، ومن أصر فالله أولى به، ولا

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الوزائد، ٣١٨/٩ : رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) انظر سالم، ابراهيم علي، النفاق والمنافقون ، دار الشعب، القاهرة، ١٣٨٩هـ =١٩٦٩م ،ص ٣٢٥

تَخرِقَنَّ على أحد سِتْرَه."[١] وكان النبي ﷺ يتركهم ليُعْرَفوا من خلال مواقفهم، وخصوصاً في الحرب؛ لأن الحرب كشّافة لمن في قلوبهم دَخَن، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ محمد: ٣.

٢- لم يسلك النبي ﷺ طريق التشكيك والظن بالمنافقين؛ حتى لا يكون هذا منهجاً للمسلمين في التعامل فيما بينهم، ولا يستطيع الناس الكشف عن بواطن الناس وقلوبهم، فمن باب أولى ألاّ يُتَّهموا ببواطنهم، ولذا فإن المعاملة يجب أن تكون بحسب الظاهر. ولم يحاكِم المنافقين؛ رغم أن الله أطلعه عليهم بأسمائهم، وأسرّ بذلك إلى أمين سره حذيفة بن اليمان، حتى لا يقال: محمد يقتل أصحابه، وحتى لا يقع المسلمون بعده في قتل من يجتهدون في أنه منافق. والأحكام الشرعية وتطبيقها حسب الظاهر والبينات هو الذي يعالج الجرائم ويربي المجتمع، ولا تطبق الأحكام بالظن، ولا يؤخذ الناس بالشبهة.

٣- وهذا لم يكن يمنع من أن الله تعالى كان يكشف مواقف المنافقين بحسب المناسبات وأفعالهم، فيما يتزل من آيات في تربية الصف المسلم، والتحذير من النفاق من خلال مواقف معروفة لدى المسلمين للمنافقين، بل أنزل سورة تحمل اسمهم، وهي سورة "المنافقون"؛ وهي تصف نفسياتهم وتصرفاتهم، وتُعَلّق على فعل رأس النفاق عبد الله بن سلول يوم غزوة بني المصطلق.

٤- ولربما كانت سياسة رسول الله ﷺ في معاملتهم تغري بعضهم؛ فيُمْعِن في نفاقه وهماً منه أنه ما زال مُتَخَفِّياً، إلا أن الله تعالى كان يفضحهم وذلك واضح في قوله تعالى :"﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ

---

(١) ابن كثير، التفسير العظيم، ٣٨٤/٢

لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ التوبة: ٦١ .

أما المعاناة من ظاهرة النفاق في المدينة فكانت كبيرة؛ وذلك بسبب سوء مواقفهم من هذا الدين، ومن رسوله ﷺ، ومن المسلمين مما اضطُر إلى مواجهتها ومجاهدتها تفصيلاً.

المبحث الثاني

مواقف المنافقين تفصيلاً ومجاهدتهم

أولاً: انتشار ظاهرة النفاق:

نبتت ظاهرة النفاق منذ وصول رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً، وعندما أقام دولته. وازدادت الظاهرة مع ظهور الإسلام ونصر الله له في بدر، واستمرت في العهد المدني، في جميع الأحوال؛ سلماً وحرباً، وفي الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية والأسرية، وفي الليل والنهار؛ فهي العدو الخفي، والعدو الذي لا ينام، والعدو الذي ليس له موسم، والذي لا يعرف الكلل والملل، ولا المسالمة والهدنة. وإذا ما كانت جبهات الأعداء، من قريش واليهود والرومان، لها أثرها ومواسمها وغزواتها في الزمان والمكان المخصوصين، فإن جبهة النفاق كانت مطلقة من الزمان والمكان، ومن والأسلوب والأشخاص. ولا غرابة في ذلك؛ فهي عدو أشد عداوة من العداوة الظاهرة للكفار؛ إذ هي كفر خفي داخل ثوب مسلم يعلن الشهادتين ويصلي الجماعات، ويتدسس في الجيش، ويستشري في جميع أوصال الأمة. ولا يستغرب المرء الأمر إذا كانت بدايات سورة البقرة ذكرت ثلاثة أصناف للناس: وهم صنف المتقين، وقد وصفهم الله في ثلاث آيات والصنف الثاني: وهم الكفار، وقد وصفهم في آيتين، بينما وصف الصنف الثالث: وهم المنافقون، فقد وصفهم في ثلاث عشرة آية. بل إذا ما أحصينا الآيات التي تحدثت عن المنافقين ومواقفهم في القرآن الكريم نجدها مبثوثة في سبع عشرة سورة، وبما يقارب أربعمائة وعشرين آية[١]:

آيات القرآن التي وردت في شأن المنافقين		
السورة	أول الآية أو الآيات	رقم الآيات

(١)انظر ملحق رقم (١) انظر المرجع السابق، ص ٤٢٨ -٤٢٨

البقرة	"ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين..."	من ٨ إلى ٢٠
البقرة	"سيقول السفهاء..."	١٤٢، ١٤٣
البقرة	"ومن الناس من يعجبك..."	٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦
آل عمران	"وقالت طائفة من أهل الكتاب..."	٧٢
آل عمران	"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا..."	من١١٨ إلى ١٢٠
آل عمران	"أم حسبتم أن تدخلوا الجنة..."	١٤٢
آل عمران	"وطائفة همتهم أنفسهم..."	من١٥٤ الى ١٦٨
آل عمران	"ما كان الله ليذر المؤمنين..."	١٧٩
النساء	"الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل..."	٣٧، ٣٨
النساء	"ألم تر إلى الذين يزعمون..."	من٦٠ إلى ١١٠
النساء	"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط..."	من١٣٥ إلى ١٤٦
المائدة	"يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر..."	٤١
المائدة	"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء..."	من ٥١ إلى ٥٦
المائدة	"وإذا جاءوكم قالوا آمنا..."	٦١
الأنفال	"إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم..."	٤٩
براءة	"يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا...."	من ٣٨ إلى آخر السورة

الحج	' ومن الناس مع يعبد الله على حرف....."	١١ ، ١٢ ، ١٣
النور	'إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم..."	من١١ إلى ٢٦
النور	'ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء..."	٣٣
النور	'ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا..."	من ٤٧ إلى ٥٣
النور	'إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله..."	من ٦٢ إلى ٦٤
العنكبوت	'ومن الناس من يقول آمنا بالله ..."	١٠ ، ١١
الأحزاب	'يا أيها النبي اتق الله..."	من١ إلى ٢٠
الأحزاب	'وما كان لمؤمن ولا مؤمنة..."	من٣٦ إلى ٤٨
الأحزاب	'لئن لم ينته المنافقون..."	٦٠ ، ٦١
الأحزاب	نا عرضنا الأمانة..."	٧٢ ، ٧٣
القتال	'ومنهم من يستمع إليك...	من١٦ إلى آخر السورة
الفتح	'ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات..."	٦
الحديد	'يوم يقول المنافقون..."	من١٣ إلى ١٥
المجادلة	'ألم تر إلى الذين نهو عن النجوى..."	٨
المجادلة	'ألم تر إلى الذين تولوا غضب الله عليهم..."	من١٤ إلى ٢٢
الحشر	'ألم تر إلى الذين نافقوا..."	من ١١ إلى ١٧
المنافقون	'إذا جاءك المنافقون..."	من١ إلى ٨
التحريم	'يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين..."	٩

وإذا ما فتشنا في السيرة عن أسمائهم فيما عرفوا من مواقفهم، ومن لحن القول رغم عدم كشف النبيّ ﷺ عن أسمائهم لعامة المسلمين، ورغم باطنيتهم –كما ورد في كتاب النفاق والمنافقون– نجد سبعة وأربعين اسماً، وهم:[1]

(١) سالم،النفاق والمنافقون، ص ٤٢٩ ، وانظر اسماء نفر منهم في ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٢٩٥٥ ـ٢٦٤

الرقم	الاسم	الرقم	الاسم
١	أبو حبيبة بن الأزعر	٢٤	بجاد بن عثمان
٢	ابو الجواظ	٢٥	زيد بن عمرو
٣	الأخنس بن شريق	٢٦	زيد بن اللصيت
٤	أوس بن قيظي	٢٧	سعد بن حنيف
٥	بخرج	٢٨	سلسلة بن برهام
٦	بشر بن زيد	٢٩	سويد بن الحارث
٧	بشر بن أبيرق	٣٠	الضحاك بن ثابت
٨	ثعلبة بن حاطب	٣١	عباد بن حنيف
٩	جارية بن عامر بن العطاف	٣٢	عبد الله بن أبيّ بن سلول
١٠	الجد بن قيس	٣٣	عبد الله بن نبتل
١١	جلاس بن سويد بن الصامت	٣٤	عثمان بن أوفى بن عمرو
١٢	الحارث بن حاطب	٣٥	عمرو بن جذام
١٣	الحارث بن سويد	٣٦	عمرو بن قيس
١٤	الحارث بن عمرو بن مالك	٣٧	عمرو بن مالك بن الأوس
١٥	حاطب بن أمية	٣٨	قزمان
١٦	خذام بن خالد	٣٩	قيس بن عمرو
١٧	داعس	٤٠	كنانة بن صوريا
١٨	رافع بن حريملة	٤١	مالك بن أبي قوقل
١٩	رافع بن زيد	٤٢	مجمع بن عامر بن العطاف
٢٠	رافع بن وديعة	٤٣	مربع بن قيظي
٢١	رفاعة بن زيد بن التابوت	٤٤	معتب بن قشير

٢٢	زوى بن الحارث	٤٥	نبتل بن الحارث
٢٣	زيد بن جارية بن عامر	٤٦	نعمان بن أوفى
		٤٧	وديعة بن ثابت

ولقد كانت لهم صلات قوية باليهود، وأغراهم اليهود على النفاق، ولنستعرض عدداً من مواقفهم مع الإسلام ودولته ورسوله ﷺ وفي محطات مختلفة.

ثانياً: رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول يَزْوَرُ بدخول الإسلام إلى المدينة:

بعد الهجرة النبوية، وانقسام الناس بعد الهجرة إلى موادعين وهم اليهود، وقبائل وأعراب مشركين خارج المدينة وحولها، ومسلمين –مهاجرين وأنصاراً– وهم الأمة المسلمة، وقلة كافرة على رأسهم أبو عامر الراهب– الفاسق– وقد تركوا المدينة، ونحى بعض أهل المدينة موقفاً ظاهره الإسلام وباطنه الكفر وهم المنافقون، وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول الخزرجي. وقد كان ذلك الرجل في فترة هادئة بعد حرب بِعاث، – وهي آخر وقعة بين قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة، بين يدي الهجرة بقليل – وقد هدأت نفوس الأوس والخزرج، وكان ينتظر أن يتوج ملكاً على أهل المدينة ، بل كانوا ينظمون له تاج الخرز ليتوجوه، وجد هذا الرجل في نفسه، وَحَقَد على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ، إذ جمع الله تعالى الأوس والخزرج على الإسلام، وعلى رسوله. وضاعت فرصة الملك على ابن سلول.

وكان الرجل صاحب أعصاب هادئة، ولديه عقل وذكاء وحنكة ودهاء، فاضْطُر إلى الدخول في الإسلام ظاهراً، وأخذ ينتظر الفرص ويتصيد الأحداث لينشر سمومه، ويُغَذّي حقده. وكانت له وجاهة في قومه، وعلاقات متينة باليهود في المدينة، وكان يجد آذاناً صاغية لم ينكشف لها سره وحقيقته، وأخذ يتحين الفرص للتخريب، وشكل فرقة للتجسس من صغار النفوس وضعافها من أمثاله؛ يطيعونه وينفذون أوامره، وينشرون أكاذيبه في

مختلف المناسبات؛ فما تركوا ساحة إلا وأفسدفيها، حتى إن صلاة المسلمين لم تَسْلَم من شره، بل بلغ شره بيوت أزواج النبي ﷺ وعِرضه في زوجاته، وبدأ بتخذيل من يعرفهم في أعالي المدينة ومن خارجها عن دخول الإسلام ؛كما ذكر ذلك الشاعر أبو قيس، صيفي بن الأسلت، وقد كان تنصر في الجاهلية، وأصبح راهباً. ولما سمع بالإسلام أراد أن يدخل فيه حتى شاب وتأخر في إلاعلان إسلامه، وذكر أن سبب تأَخُّره عن ذلك كان: أنه عندما دخل المدينة ليُسلِم لقيه عبد الله بن سلول، وكان يسمعُ له، فَنَفَّره من الإسلام. فلما شاخ بعث إلى النبي ﷺ فأرسل إليه أنه يشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ليشفع له بها عند الله، ففعل.(١)

وقد كان سلوك ذلك المنافق مشيناً حتى بعد إظهاره الإسلام؛ إذ كان يتاجر بالبغاء في المدينة، بتأجير إمائه السّتّ للزنا، وكان يكرههن على ذلك، فشكته اثنتان منهما لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى قوله :﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النور: ٣٣

ومما ورد في كتب السيرة: قال ابن اسحق: "وأما عبد الله بن أُبيّ فقام على شرفه في قومه متردداً، حتى غلبه الإسلام فدخل فيه كارهاً."(٢) وذكر ازورراه بدعوة الإسلام وكراهيته حديث النبي ﷺ مع الناس عن الإسلام، ودعوتهم إليه. قال ابن اسحق:" فحدثني محمد بن مسلم الزهري عن عروة بن الزبير عن أُسامة بن زيد بن حارثة، حِبِّ رسول الله ﷺ: قال:ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده (أي يزوره في مرضه) من شكوٍ

(١)انظر المرجع السابق ، ص٦٨

(٢) ابن هشام،السيرة النبوية، (مع الروض)، ٩/٣

أصابه على حمار(...) وأردفني رسولُ الله ﷺ خَلْفَه. قال: فمرّ بعبد الله بن أبيّ(...) وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله ﷺ تذمم (أي تحرَّج) من أن يجاوزه حتى يترل، فترل فسلَّم ثم جلس قليلاً فتلا القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، وذكّر بالله وحذَّر، وبشَّر وأنذر. قال: وهو زامٌّ لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال: يا هذا! إنه لا أحسنَ من حديثك هذا، إن كان حقاً فاجلسْ في بيتك، فمن جاءك فحَدِّثْه إياه، ومن لم يأتك فلا تغْشَه به، ولا تأته في مجلسه بما يكره. فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى فاغشنا به في مجالسنا ، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيننا، فهو والله ما نحب، ومما أكرمنا الله به، وهدانا إياه. (...) وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عباده، وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبيّ. فقال: (أي سعد بن عبادة) والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً! لكأنك سمعتَ شيئاً تكرهه.قال:أجل. ثم أخبره بما قال ابن أُبيٍّ. فقال سعد: يا رسول الله! ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإننا لَنَنظُم له الخرز لُنَتوِّجَهُ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته مُلْكاً."[1] . وكان ابن أُبيّ قبل ذلك غير راغب في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، فقد عرج النبي ﷺ على ابن أبي سلول يريد الترول عنده تأليفا لقلبه، لكنه لم يستطع أن يخفي حقده في باطنه، فقال لرسول الله ﷺ : إذهب إلى من دَعَوْك وانزل عليهم! فقال سعد بن عبادة، زعيم الخزرج: يا رسول! الله لا تجد في نفسك من قوله؛ فقد قَدِمْتَ علينا والخزرج تريد أن تُمَلِّكه، فلما ورد بالحق الذي أعطاك الله شَرِقَ، فذلك الذي فعل ما رأيتَ، فعفا عنه رسول الله ﷺ. [2].

(١) المرجع السابق، ٩/٣ -١٠ وهو صحيح ورد بصيغة التحديث عن ابن إسحق، وانظر رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ولتسمعن من الذي أوتوا الكتاب، رقم٤٥٦٦ ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على المنافقين، رقم ١٧٩٨

(٢) انظر السيرة الحلبية، ٦٨/٢ ، وزيني دحلان، السيرة المكية، ٤١٢/١

ثالثاً: الإرجاف في المدينة بهزيمة المسلمين بعد بدر:

كانت إعدادات قريش عدداً وعُدَّة أكثر من إعدادات المسلمين يوم بدر، مما جعل المنافقين يتمنون في أعماقهم هزيمة المسلمين، ويتهمون المسلمون بالغرور، كما سجل القرآن موقفهم ذاك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: ٤٩. ولما كانت النتيجة انتصار الرسول ﷺ وجيشه على المشركين، وعاد المسلمون إلى المدينة منتصرين أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل العالية، وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة (...) ليبشر أهلها بما فتح الله على المسلمين، وأركب زيداً ناقته القصواء؛ فأما كعب بن الأشرف اليهودي فصار يُكَذِّبُها ويقول: إن كان محمد قتل هؤلاء فَبَطْنُ الأرض خير من ظهرها. ولكن رجلاً من المنافقين لجأ إلى التكذيب كما فعل اليهودي، ولكنه اخترع من رأسه رواية لا أصل لها، وصار يرجف في المدينة، فلقي أبا لبابة رضي الله عنه وقال له: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون معه ابداً، قد قتل محمد ، وغالب أصحابه، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب.قال أسامة بن زيد، فبلغني ذلك فجئتُ حتى خلوتُ بأبي وسألته عما يقول الرجل. وقلت: أحقٌّ ما تقول؟ قال: أي والله إنه لحقٌّ ما أقول يا بُنَيَّ. فقَوِيَتْ نفسي ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت له: أنت المرْجِف برسول الله؟ لَنُقَدِّمَنَّك إلى رسول الله إذا قدم فلنّضْرِبَنَّ عنقك . فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه."[1]

رابعاً: المنافقون وحادثة تحويل القبلة:

البيت العتيق هو أقدم قبلة للتوحيد على وجه الأرض، وكانت قبلة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

(١) سالم،النفاق والمنافقون ، ص٩٩

فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٦ – ٩٧ وكان العرب يحجون إلى البيت العتيق، وكان قبلة الحنيفية منهم، وكان النبي ﷺ يصلي ركعتين في الصباح وركعتين في المساء هو ومَن آمن معه من المسلمين في مكة متجهين إلى الكعبة المشرفة. ويبدو أن الله تعالى أمر رسوله في مكة في زمن لم تحدده كتب السيرة وقبل فرض الصلوات الخمس عليه ليلة الإسراء والمعراج: أن يتوجه في صلاته إلى بيت المقدس، ولما كان النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة كان هو والمسلمون يضعون الكعبة بينهم وبين القبلة الجديدة، فيصيبون القبلتين الكعبة والبيت المقدس معاً. ولكن بعد الهجرة أصبح التوجه إلى الكعبة مستحيلاً عملياً، فتوجه المسلمون مع رسولهم في صلاقم إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً. وفي هذه الفترة أخذ المشركون واليهود والمنافقون يُشكّكون في الإسلام وفي رسوله، ويُشيعون الشائعات والأراجيف بأن محمداً أخذ دينه من أهل الكتاب؛ لأن قبلتهم هي بيت المقدس، وأنه ترك قبلة إبراهيم وإسماعيل. وأخذ الشائعات تؤذي المسلمين، وأخذ المسلمون يتحرجون ويُلحّون على رسولهم ﷺ أن يجيبهم على أسئلة المنافقين ليخرجوا من التشكيك، ويطلبون من النبي ﷺ أن يسأل ربه أن يعيدهم إلى قبلة العرب الأولى، الكعبة المشرفة، لترتاح نفوسهم، ويخرجوا من جو الشائعات والأراجيف.

وقد أطلق القرآن على هذه الطوائف من المشركين واليهود والمنافقين لقب السفهاء، ووضع قواعد الفهم للإيمان والعبادة، وبين أسرار هذا الأمر بتغيير القبلة في هذه الفترة من فترات الدعوة في قوله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ

ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ البقرة: ١٤٢ – ١٤٣. ووصف رغبة رسوله ﷺ الشديدة بالعودة إلى القبلة الأولى، ليستقر حال المسلمين، وليُنْهِيَ الفتنة الذي أثارها المنافقون وغيرهم في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٤٤، وأكد فرضية التوجه من جديد إلى المسجد الحرام للمسلمين إلى قيام الساعة بقوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٥٠.

ولما تحولت القبلة إلى المسجد الحرام لم يسكت المنافقون وسائر السفهاء بل قاموا يُشَكِّكون المسلمين في صلاتهم التي صلّوها إلى بيت المقدس: هل قبلت أم لا؟ فردّ الله تعالى على شبهاتهم ليُطَمْئِن المسلمين على قبول صلاتهم قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ البقرة: ١٤٣، والمقصود بالإيمان هنا الصلاة، أي: وما كان الله ليُضيع صلاتكم؛ لأن الصلاة قائمة على الإيمان، والمؤمن يلتزم بأوامر ربه سواء وجَّهه إلى بيت المقدس أو إلى المسجد الحرام، فقبول الصلاة مرهون بالإلتزام بطاعة أمر الله، وليس في الجهة التي نتجه إليها؛ فكل الجهات لله،

ولا قداسة في جهة لذاتها، قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ البقرة: ١٤٢ وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ البقرة: ١١٥.

كان شوق أصحاب النبي ﷺ إلى العودة إلى المسجد الحرام كثيراً حتى إنهم لما سمعوا في بعض مساجدهم خبر التحويل، فيما أنزل الله على رسوله ﷺ وكانوا راكعين متوجهين إلى بيت المقدس تحولوا فوراً في صلاتهم تلك إلى المسجد الحرام، وسِّمي المسجد الذي حصلت فيه الحادثة مسجد القبلتين. يروي البخاري أحاديث هذه القصة بأسانيدها في الأحاديث الآتية:

"عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً –أو سبعة عشر شهراً– وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلّى أو صلاها صلاة العصر، وصلى معه قومٌ، فخرج رجل ممَّن كان معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله، لقد صلَّيْتُ مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت. وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوَّل قبل البيت رجال قُتِلوا لم نَدْرِ ما نقول فيهم ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ١٤٣[(١)].

---

(١) البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سيقول السفاء، رقم ٤٤٨٦ ، وانظر روايات الأحاديث في باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا، رقم ٤٤٨٧ ، وباب وما جعلنا القبلة التي كنت عليها... رقم ٤٤٨٨، وباب قد نرى تقلب وجهك، رقم ٤٤٨٩، وباب ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب رقم ٤٤٩٠ ، وباب الذين آتيناهم الكتاب رقم ٤٤٩١، وباب ولكل وجهة هو موليها رقم ٤٤٩٢، وباب ومن حيث خرجت.. رقم ٤٤٩١ والباب الذي يليه رقم ٤٤٩٤ وانظر أحاديث صحيح مسلم في الحادثة نفسها ، كتاب المساجد، باب تحويل القبلة، رقم ٥٢٦ ، ٥٢٧

خامساً:موقفهم في غزو أُحد:

لما استشار النبي ﷺ أصحابه في قتال جيش قريش الذي وصل جبال أحد، هل يقاتلون المشركين خارج المدينة أو يتركوهم حتى يهاجموا المدينة فيقاتلوهم داخلها؟ أخذ النبي ﷺ برأي الشباب المتحمس للقتال خارج المدينة ، وكانت لديهم رغبة حيث لم يشهدوا بدراً، وكان رأي النبي ﷺ أن يقاتلوهم داخل المدينة، ولكن رجّح رأي جمهور المسلمين، فقرر الخروج. ولما لبس عُدَّة القتال وراجعه بعض أصحابه أنهم لربما أحرجوه، وضغطوا عليهم بمشورتهم، رفض إعادة الحديث في الموضوع تطبيقاً لمبدأ الشورى، وقال:" إنه ليس لنبي إذا لَبِس لأْمَتَهُ–أي لباس القتال– أن يضعها حتى يُقاتِل."(١)

ولقد كان رأي عبد الله بن أبيّ بن سلول القتال داخل المدينة. ويبدو أن هذا الرأي كانت له فيه مصلحة؛ لأنه سيكون مُخْتَفِياً هو والمنافقون من أمثاله، وسوف لا تظهر مواقفهم في القتال، وربما يستطيعون خذلان المسلمين ولا ينكشفون. ولذلك غاظه ما كان من موافقة النبي ﷺ لأصحاب الرأي بالخروج. ولما تجهز جيش المسلمين وكان قوامه ألف مقاتل، قام عبد الله المنافق يُخَذِّل الجيش وينشر فيه الإشاعة والفتنة وأن هذا الخروج كان بغير ما يُحِبُّه رسول الله ﷺ، وأَوْدَت فتنتُه برجوع ثُلُث الجيش وخذلانه لرسول الله ﷺ وللمسلمين. ويبدوا أن هذا المنافق كانت له كلمة مسموعة، ولم يكن قد انكشف أمره؛ فإنه كان صاحب دهاء وخبث، وله علاقات سابقة واسعة بالناس.

يروي ابن اسحق فيقول:" حتى إذا كانوا (أي الجيش المسلم، وهم ألف رجل) بين المدينة وأحد انخذل عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول بثُلث الناس، وقال: أطاعهم(يقصد النبي ﷺ) وعصاني، ما ندري: علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من

(١) أحمد في مسنده، ٣٥١/٣ ورجاله رجال الصحيح . وعلق البخاري بعضه انظر فتح الباري، ٢٨٤/١٣ ، وانظر سائر تخريجاته في العلي، صحيح السيرة، ص ٢٠٢

أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم! أُذَكِّرُكُم الله ألّا تَخْذُلوا قومَكم ونَبِيَّكم عندما حضر مِن عدوِّهم. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لَما أسْلَمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استَعْصَوْا عليه وأبْوا إلا الانصراف عنهم، قال: أَبْعَدَكم الله أعداء الله. فسَيُغْني الله عنكم نَبِيَّه."[1]

سادساً:موقف المنافقين في غزوة بني المُصْطَلِق:

كان للمنافقين موقفان من أسوأ المواقف مع رسول الله ﷺ –وكل مواقفهم سيئة– في غزوة بني المصطلق:أحدهما: ظهر فيه رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، ولم يستطع إخفاء حقده على رسول ﷺ وعلى المسلمين المهاجرين. والآخر: شارك فيه بِخُبْث ودهاء، وأوقع فيه آخرين؛ منهم صفوان بن المعَطَّل، وحَمنَة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وحسان بن ثابت،– شاعر رسول الله ﷺ – وآخرين لم يظهروا، ولكنهم أشاعوا الفتنة، وأقلقوا بيت رسول الله ﷺ .

الموقف الأول: مقالة عبد الله بن أُبَيٍّ في رسول الله ﷺ والمهاجرين:

فقد ثبت عن ابن هشام من رواية ابن إسحق بالتحديث، وفي البخاري وكتب السنن تفاصيل هذه القصة.[2]: فمن حديث جابر بن عبد الله؛ "قال : كنا مع رسول الله ﷺ فكَسَعَ (أي ضرب دُبُره بالسيف) رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا لِلأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٤٩/٣ قال ابراهيم العلي في صحيح السيرة، هامش ص ٢٠٤ : سنده حسن وهو مرسل. وفي رواية البخاري من حديث زيد بن ثابت قال: "لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أُحد رجع ناس ممن خرج معه؛ فرقة تقول :نقاتلهم، وفرقة تقول : لا نقاتلهم ، فنزلت (فمالكم في المنافقين... آل عمران، وقال: إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة، البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد رقم ٤٠٥٠.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٧/٤ ـ ٩ ، والأحاديث بعضها وتخريجاتها في: العلي صحيح السيرة، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤.

دعوى جاهلية؟! قالوا :يا رسول الله ! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: دعوها فإنها مُنْتِنَة. فسمع بذلك عبد الله بن أبيِّ، فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دَعْني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قَدِموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد."[1]

وقد سمع زيد بن أرقم رضي الله عنه، –وقدكان غلاماً ابن اثني عشر عاماً – القول السيء لابن أُبيّ من قوله للأنصار: لا تُنفقوا على عند رسول الله، وليخرجن الأعز منها الأذل...وبلّغه لرسول الله ﷺ؛ فمن حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: قال: "خرجنا مع النبي ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبيّ لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفَضّوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرتُه، فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل. قالوا: كذب زيد يا رسول الله، فوقع في نفسي ما قالوا شدة حتى أنزل الله عز وجل تصديقي في قوله: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ المنافقون: ١ فبعث إليّ النبيّ ﷺ فقال:"إن الله صدّقك يا زيد."[2].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير، باب قوله: (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) رقم: ٤٩٠٥- ٤٩٠٧ ، ومسلم كتاب، البر والآداب والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم ٢٥٨٤ ، والترمذي كتلب، التفسير، باب ومن سورة المنافقين، حديث رقم: ٣٣١٥، وقال حسن صحيح. وأحمد في المسند:٣ /٣٩٢ – ٣٩٣ ، والطيالسي: ٧٦/٢ رقم ٢٢٧٢ ، والحميدي: ١٢٣٩ ، واللفظ لأحمد.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير سورة المنافقين، باب إذا جاءك المنافقون، رقم ٤٩٠٠ ، ٤٩٠١ ، ٤٩٠٢ ، ٤٩٠٣ ، ٤٩٠٤ ، ومسلم أول صفات المنافقين رقم ، ٢٧٧٢ ، والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة المنافقين، حديث رقم ، ٣٣١٢ ، وقال

معالجة رسول الله ﷺ الموقف بطريقة حكيمة:

فقد روى محمد بن اسحق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر، ومحمد بن يحيى بن حبان، كلٌّ قد حدثني حديث بني المصطلق وساق الحديث، وذكر قصة الأنصار والمهاجرين والخصومة بينهما إلى أن قال: (...فغضب عبد الله بن أبّي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث، فقال : أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكائرونا في بلادنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأُوَلُ: سَمِّنْ كلبَك يأكُلْك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حصره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عبادَ بن بِشْر فليقتُلْه. فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ، ولكن ائْذَن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبّي بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلَغَه أن زيد بن أرقم قد بلَّغَه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلتُ ما قال، ولا تكلمت به. وكان في قومه شريفاً عظيماً؛ فقال مَن حضر رسولَ الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدْباً على ابن سلول، ودفعاً عنه.

حسن صحيح ،ورقم ٣٣١٣ وقال حسن صحيح ،ورقم ٣٣١٤ وقال حسن صحيح ، وأحمد في المسند ،٣٦٩/٤ ، ٣٧٣ وانظر ابن هشام ، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٧/٤

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أُسَيْد بن حُضَيْر، فحيّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال : يا نبي الله، والله لقد رحلتَ في ساعة منكرة، ما كنتَ تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أوما بلَغَك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال عبد الله بن أُبيّ!، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل. قال: "فأنت يا رسول الله ألأعزُّ، والله تخرِجُه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز، ليتوجوه فإنه ليرى إنك قد اسلبته مُلْكاً.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدد يومهم ذلك حتى آذهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبيّ، إلى أن قال: وجعل بعد ذلك إذا أحْدّثَ الحَدَثَ كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويُعَنِّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم:"كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قَتَلْتُه يوم قلتَ لي اقتله لأَرْعَدَتْ له أُنُفٌ لو أمرتُها اليوم بَقْتِله لَقَتَلَتْهُ. (ومعنى أرعدت له أنف :انتفخت أنوف غضباً لقتله وعصبية وحمية لأنه غير ظاهر النفاق بعدُ، أما الآن فقد ظهر نفاقه وانفضح أمره). قال: قال عمر:" لقد والله علمتُ: لَأَمْرُ رسول الله ﷺ أعظمُ بركة من أمري."[(١)]

موقف الابن عبد الله رضي الله عنه من أبيه المنافق عبد الله بن أبيّ:

في رواية الترمذي لحديث جابر السابق الذكر عن غزوة بني المصطلق، ومحاولة المنافقين إثارة الفتنة زيادة لطيفة ليست عند البخاري ومسلم،حيث قال الترمذي بعد قول النبي

(١) سيرة ابن هشام، (مع الروض)، ٢٩٠/٢ – ٢٩٢ والحديث رجاله ثقات ولكنه مرسل، وابن جرير الطبري في تاريخه، ٦٠٥/٢ ، وله شاهد مرسل من طريق عروة عند ابن أبي حاتم قال فيه ابن حجر : مرسل جيد ، فتح الباري، ٦٤٩/٨ ، وأصله في الصحيحين كما سبق من حديث زيد بن أرقم، وجابر بن عبد الله . وبهذا يكون الحديث حسناً لغيره.

ﷺ لعمر ﷺ:"دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وقال غير عمرو(يعني: ابن دينار): فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: والله لاتنفلتُ حتى تُقِرَّ أنك الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، فَفَعَل.(١).

وقد حصلت حادثة أخرى عرض فيها عبد الله بن عبد الله بن أبي أن يقتل والده المنافق ففي حديث أبي هريرة ﷺ قال:" مرّ رسول الله ﷺ بعبد الله بن أُبيّ وهو في ظل أطم (أي بناء مرتفع) ، فقال: غَبّر علينا ابن أبي كبشة، (يعني محمداً ﷺ فن أباه في الرضاعة أبو كبشة زوج مرضعته حليمة السعدية، وهذا تعبير غير مؤدب، لن الولد لا ينسب إلى أبيه في الرضاعة، فكيف بمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب من بني هاشم) فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: يا رسول الله ! والذي أكرمك لئن شئت لآتِيَنَّك برأسه، فقال: لا، ولكن بِرَّ أباك وأحسن صحبته،"(٢).

الموقف الثاني: موقف المنافقين في حادثة الإفك باتهام عائشة رضي الله عنها بالزنا:

ولم يُخْفِ المنافقون أحقادهم، وما تركوا ساحة من ساحات الأذى لرسول الله ﷺ إلا ودخلوها، ولذلك كان شرهم أعظم من شرور الأعداء من الكفار والمشركين، فلقاء الكفار والمشركين في ساحة واحدة هي ساحة القتال، وفيها تثور مشاعر الحماسة والرجولة وحب الجهاد، ولكن ساحات الصراع من النفاق والمنافقين لا تسلم منه ساحة قتال وحالة حرب، كما لا تسلم منه ساحات السلم، بل دخلوا أعماق ساحة عرض رسول الله ﷺ وبيوت زوجاته أمهات المؤمنين .فقد أشاعوا خبر الإفك في المدينة. وكان سبباً في نزول آيات تبريء ساحة عائشة رضي الله عنها، وتدافع عن طُهرها؛ فقد روى ابن إسحق بصيغة التحديث خبر الإفك في غزوة بني المصطلق بتفاصيله مجموعة الروايات عن كبار التابعين

(١) تخريجه من حديث جابر، وانظر ابن هشام السيرة النبوية، المصر السابق، ٨/٤ وهو صحيح مصرح فيه بالتحديث عن ابن إسحق.

(٢) قال الهيثمي في محمع الزوائد : رواه البزار، ورجاله ثقات ، انظر، الهيثمي، المجمع، ٣١٨/٩

ورواة السِّيَر، وعن الزهري عن علقمة ، وعن سعيد بن جبير، وعن عروة بن الزبير وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. [١] وذكر البخاري رواية خبر الإفك برواية عن عائشة نفسها رضي الله عنها، أسوقها بتمامها: فهي ترويها ابتداء من قصة سفرها مع النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق، وسبب تأخرها عن الجيش، وإرداف الصحابي صفوان بن المُعَطل لها على ناقته يقودها حتى أدركت الجيش، وانتشار خبر الإفك والشائعات في المدينة، واستشارة النبي ﷺ أصحابه فيها حين تأخر عليه الوحي، وآثار تلك الفتنة، ونزول الوحي ببراءها إلى آخر تفاصيل الحادثة: عن "عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺحين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت له اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرً أقرع بين أزواجه، فأيُّهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أُنزل الحجاب فكنتُ أُحْمَل في هودجي وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفَلَ دَنَوْنا من المدينة قافلين، آذن ليلةً بالرحيل فقمتُ حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزتُ الجيش. فلما قضيت شأني أقبلتُ إلى رَحْلي فلَمَسْت صدري فإذا عِقْد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعتُ، فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يُرَحِّلوني فاحتملوا هودجي فرَحَّلوه على بعيري الذي كنتُ أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه،– وكان النساء إذ ذاك خِفافاً لم يَهْبُلن ولم يَغْشَهُنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلْقَة من الطعام– فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل، فساروا. ووجدتُ عِقدي بعدما استمر الجيش، فجئتُ منازلهم، وليس بها منهم

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٩/٤

داع ولا مجيب، فتيممتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أهم سيفقدوني فيرجعون إلَّي. فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني، فنمت. وكان صفوان بن المعطل السُّلَميُّ ثم الذَّكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه (أي بقوله:إنا لله وإنا إليه راجعون) حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلَّمْنا بكلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وأهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمتُ إليها، فركبتها. فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نُزولٌ. قالت: فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول. قال عروة :أُخبِرتُ أنه كان يُشاع ويُتَحَدَّث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه. وقال عروة أيضا: لم يُسَمِّ من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة. وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى. وإنَّ كِبْرَ ذلك يقال له عبدٌ الله بن أبي بن سلول. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يُسبَّ عندها حسان وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي   لعرض محمد منكم وقاء

قالت: عائشة فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك. وهو يُريبني في وجعي: أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي. إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول كيف تيكم ؟ ثم ينصرف. فذلك يريبني، ولا أشعر بالشر؛ حتى خرجتُ حين نقَهْتُ، فخرجت، مع أم مسطح قِبَل المناصع، وكان مُتَبَرَّزَنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف (أي الحمامات) قريباً من بيوتنا. قالت: وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.قالت: فانطلقت أنا وأم مِسْطَح، وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق> وابنها مِسْطَح بن أُثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلتُ أنا وأم مسطح قِبَل بيتي

حين فرغنا من شأننا، فعَثَرَتْ أم مسطح في مُرطها، (أي ثوبها) فقالت: تَعِسَ مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، أتَسُبِّين رجلا شهد بدراً؟ فقالت: أي هَنْتاهْ (أي يا هذه) ولم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك. قالت: فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعتُ إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلَّم، ثم قال كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتِيَ أبويَّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي: يا أُمَّتاه! ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بُنَيَّة! هَوِّني عليك. فوالله لقَلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كَثَّرن عليها. قالت: فقلت سبحان الله! أولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي. قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما؛ أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة :أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجارية تَصْدُقك! قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة! هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمِصُه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذُرُك؛ فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج> وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، قالت وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ولكن احتَمَلَتْه الحمية فقال لسعدٍ:

كذبتَ. لعَمْرُ الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يُقتل. فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه؛ فإنك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فبكيتُ يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي. فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذَنَتْ عليَّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلَّم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء. قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال:" أما بعد يا عائشة! إنه بلغَني عنك كذا وكذا؛ فإن كنتِ بريئة فسيُبَرِّئُك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه. قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلصَ دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلتُ لأبي: أَجِبْ رسولَ الله ﷺ عني فيما قال! فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ،فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال! قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ،فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً: إني والله لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدَّقتم به؛ فلئن قلتُ لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنّي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ،ثم تحولتُ واضطجعتُ على فراشي والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنَزِّلٌ في شأني وحياً يتلى، لَشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبَرِّئني الله بها. فوالله ما رام رسول الله ﷺ

مجلسه، ولا خرج أحدُ من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتى إنه ليَتَحَدَّر منه من العرق مثل الجُمان وهو في يوم شاتٍ من ثقَل القول الذي أنزل عليه. قالت: فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال :"يا عائش!ة أما الله فقد برَّأَكِ." قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل. قالت: وأنزل الله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي. قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ.........إلى قوله: غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب:" ماذا علمت – أو رأيت–؟" فقالت: يا رسول الله! أَحْمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلا خيراً. قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع. قالت: وطفِقَتْ أختها حَمنَة تحارب لها، فهلكتْ فيمن هلك . قال ابن شهاب فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، ثم قال عروة: قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل، ليقول: سبحان الله. فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كَنَفِ أنثى قط. قالت: ثم قُتل بعد ذلك في سبيل الله. (١)

سابعاً: موقفهم في معركة الأحزاب:

لما أمر النبي ﷺ أصحابه بحفر الخندق بناء على إشارة سلمان الفارسي ﷺ، وكان الحفر في ظرف صعب؛ فالمشركون يحيطون بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم. ولما استعصت الصخرة في الخندق فجاء رسول الله ﷺ وضربها ثلاث ضربات تطاير الشرر من قسوتها

(١) البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم ٤١٤١

وقال بعد الضربة الأولى يرفع معنويات المسلمين ويؤملهم بالنصر، ويزيح اليأس عن النفوس:" الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأُبْصِرُ قصورها الحمر الساعة، ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا"(١) فارتفعت معنويات المسلمين بتبشير رسولنا ﷺ لهم بالنصر، بينما كان موقف المنافقين متخاذلاً ومُخَذِّلاً للمسلمين، وأخذو يشيعون اليأس، وعلقوا على تبشير النبي ﷺ للمسلمين بالنصر بسخرية ذكرها القرآن عن موقفهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الأحزاب: ١٢

وقد سجل القرآن مواقعهم في التخذيل بأقوالهم وتصرفاتهم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ

---

(١) العمري، السيرة النبوية الصحيحة ، ٤٢٣/٢ من رواية أحمد والنسائي، حسنها ابن حجر في فتح الباري ٣٩٧/٧ وانظر سائر تخريجات العمري للرواية.

أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ الأحزاب: ١٣ ــ ٢٠

ثامناً: موقفهم في غزوة تبوك:

كانت غزوة تبوك في وقت العسرة مالياً وزمنياً ومناخاً وبُعداً، ولذا كانت فرصة كبيرة للمنافقين يدخلون من ثغرات العسرة ليشوشوا صف المسلمين، ولينفثوا سمومهم. ومن أسوأ مواقفهم– وكل مواقفهم سيئة– ما يأتي:

الموقف الأول: لمزهم المسلمين في الصدقة: حيث تنادى المسلمون في جمع المال والركائب والتموين للخروج إلى الغزوة، وكان كل مسلم يُقَدِّم في حدود استطاعته قلَّ أو كثُر، فأخذ المنافقون يعيبون المُقِلّين في الصدقة، وقد ذكر القرآن لَمزهم ذاك في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التوبة: ٧٩ **وثبت في حديث ابن مسعود الأنصاري ﷺ قوله:" لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء."[١]**

الموقف الثاني:التخذيل وانتحال الأعذار الواهية: حاول المنافقون تخذيل المسلمين عن الخروج نظراً لشدة الحر، وقرب نضج ثمار المدينة. وقد بلغ رسولَ الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي وكان بيته عند جاسوم، يثبطون الناس عن

(١) البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورةالتوبة، رقم ٤٦٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحمل بأجرة يتصدق بها، رقم ١٠١٨

رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث النبي ﷺ إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا."[(١)].

وحاول بعضهم استئذان النبي ﷺ عن الخروج بأعذار واهية، حتى اعتذر أحدهم، وهو الجِدُّ بن قيس عن الخروج تخوفاً على نفسه من نساء بني الأصفر كما زعم.– النساء الروميات– وقد ذكر القرآن مواقفهم ومقولاتهم في سورة التوبة قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة: ٨١ وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ التوبة: ٤٢ وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة: ٤٩.

وفعلاً كما حكى كعب بن مالك لم يبق بالمدينة إلاّ المنافقون وأهل الأعذار من الضعفاء، الذين رخص لهم النبي ﷺ ممن حسنت نياتهم وقال عنهم النبي ﷺ :" إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة؛ حبسهم العُذر."[(٢)]

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ، (مع الروض)، ١٧٤/٤

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ١٠ ،رقم ٤٤٢٣، وباب الجهاد لمن حبسه الغذر، حديث رقم ٢٨٣٩ ، وانظر سائر تخريجاته في سنن ابن ماجه ودلائل النبوة للبيهقي وأبي داوود وأحمد وابن أبي شيبة في: العلي، صحيح السيرة، ص ٤٧٤، وأخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر، رقم ١٩١١

الموقف الثالث: بناؤهم وَكْرَ المؤامرات، أومسجد! الضِّرار: وقد بنى المنافقون مسجداً خارج المدينة قبل غزوة تبوك بتآمر مع أبي عامر الراهب الفاسق، وطلبوا من النبي ﷺ أن يخرج اليهم فيه ليصلي فيه ويباركه، وكانوا يريدون من هذا المسجد أن يعقدوا فيه اجتماعاتهم ويحيكوا فيه مؤامراتهم على الإسلام ورسوله ﷺ وعلى المسلمين، فنهى الله رسوله ﷺ أن يخرج معهم، وأن يصلي فيه، وسماه مسجد الضرار قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ التوبة: ١٠٧ ــ ١٠٨

ولذلك فإن رسول الله ﷺ حرّق هذا المسجد وهدمه بعد عودته من تبوك[١].

الموقف الرابع:محاولة اغتيال رسول الله ﷺ: لقد حاول نفر من المنافقين اغتيال رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك؛ إذ بينما رسول الله ﷺ في العقبة يقود ناقتَه حذيفةُ بن اليمان، ويسوقها عمارُ بن ياسر؛ "أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل. فقال رسول الله ﷺ لحذيفة قدْ، قدْ، حتى هبط رسول الله ﷺ من الوادي، فلما هبط ورجع عمار قال: يا عمار هل عرفتَ القوم؟ قال: قد عرفتُ عامة الرواحل والقوم متلثمون.فقال: هل تدري ما أرادوا.قال: الله ورسوله أعلم. قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه."[٢] وقد كان عددهم أربعة عشر أو خمسة عشر رجلاً، عذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة لم يكونوا يعلمون أن رسول

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية ،(مع الروض) ، ١٨٠/٤

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٥٣/٥ ورجاله ثقات. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

رسول الله ﷺ كان في هذا الركب، ولعن رسول الله ﷺ الاثني عشر منافقاً الآخرين، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي الطفيل: "وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. وعذر ثلاثة منهم: قالوا: ما سَمِعْنا مناديَ رسول الله ﷺ ، ولا عَلِمْنا بما أراد القوم، وقد كان في حَرَّة فمشى، فقال: إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذ."[١] وهؤلاء– والله أعلم– من ذكرهم النبي ﷺ بقوله:" في أمتي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط؛ (أي ثقب إبرة الخياطة) ثمانية منهم تكفيهم الدُّبَيْلَةُ، سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم –كما في رواية غندر–، – وفي رواية حذيفة– :في أصحابي... ثمانية منهم تكفيلهم الدبيلة وأربعة،لم أحفظ ما قال شعبة فيهم."[٢].

وقد نزل فيهم قوله تعالى :﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ التوبة: ٧٤.

تاسعاً: مواقفهم في قتال النبي ﷺ ليهود:

لقد صنع المنافقون مع القبائل اليهودية علاقة قوية لمقاومة الإسلام، وحرب رسوله ﷺ معتمدين على صلات سابقة بهم، وأحلاف قديمة بينهم وبين القبائل العربية قبل دخول الإسلام الى المدينة. ولذلك فقد كانت تظهر تلك العلاقة واضحة جلية عند كل اشتباك بين اليهود وبين المسلمين وكانت مواقفهم على ما يأتي:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب، ٢٧٧٩/١١

(٢) لمرجع السابق، ٢٧٧٩/٩

الموقف الأول: وقوفهم مع بني قينقاع: نقض بنو قينقاع عهد رسول الله ﷺ فكشفوا عورة المرأة المسلمة في سوق الذهب، وقتلوا مسلماً، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه بطردهم من المدينة، إلا أن الذي قام يناصرهم ويحاول بكل جهوده ألا يُطردوا من المدينة هو رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول؛ حيث قال:" يا محمد! أحسِن في مواليَّ. وكانوا حلفاء الخزرج، (أي قبل الإسلام) فأعرض عنه، (أي رسول الله ﷺ) فأدخل يده في درع رسول الله ﷺ ،فقال رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب حتى رُؤي لوجه رسول الله ﷺ ظِلال، فقال له: وَيْحَكَ أرْسِلْني. فقال: والله لا أُرسلك حتى تُحسِن في مواليَّ؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة! أي والله إني لامرؤ أخشى الدوائر(أي أن المجرم يخشى أن تدور الدائرة على المسلمين وينهزموا وتكون القوة لليهود. وهذا يدل على نفاق وكفر باطن وسوء ظن بالله تعالى) وقال رسول الله ﷺ : هم لك."[1]

وقد أشار القرآن الكريم إلى موقف ابن سلول هذا والمنافقين في قوله تعالى :﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١ ــ ٥٢

وحدَّث ابن إسحق بسند صحيح قال:" لما حاربت بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ تَشَبَّثَ بأمرهم عبد الله بن أبي سلول، وقام دونهم. قال: ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ،(مع الروض)، ١٣٧/٣ ــ ١٣٨ مرسل، صرح ابن إسحق فيه بالتحديث' وإسناده صحيح، وانظر البيهقي، دلائل النبوية ، ١٧٤/٣.

اللهﷺ وكان أحد بني عوف، لهم من حِلْفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبيّ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ ،وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من حِلْفهم، وقال: يا رسول الله! أتَوَلّى اللهَ ورسولَه ﷺ والمؤمنين ، وأبرأُ من حِلْف هؤلاء الكفار وولايتهم. قال: ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت هذه القصة من المائدة."[1]

الموقف الثاني: وقوفهم مع يهود بني النضير: تآمر اليهود على قتل النبي ﷺ مُسْتَغِلّين فرصة جلوسه عندهم إلى جوار حائط، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما المسلم عمرو بن أمية الحضرمي، وكان لهما جوار من النبي ﷺ، وكانت صحيفة المدينة تلزم مشاركة اليهود مع المسلمين في تحمل مسئوليات الدِّيَة، فقرر اليهود إلقاء صخرة من على ظهر الحائط ليقتلوا رسول الله ﷺ، فأخبرَ اللهُ رسولَه ﷺ بمكرهم، فخرج مسرعاً، وأعلن الحرب عليهم، وحاصرهم ست ليال، وقطع عليهم نخيلهم وحرَّقه. وإذا "برهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي نوفل، وسويد، وداعش قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثْبُتوا فإنا لن نُسْلِمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب."[2]

وقد نزل قول الله تعالى يفضح المنافقين ووقوفهم مع يهود بني النضير ، ووعودهم لهم بنصرهم، قال تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ الحشر: ١١ – ١٢.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٣٨/٣ ، صرح فيه ابن إسحق بالتحديث، وهو مرسل وإسناده صحيح، وانظر البيهقي، دلائل النبوة ١٧٤/٣ – ١٧٥ وآيات المائدة ٥١ - ٥٦

(٢) ابن هشام،المرجع السابق ، ٢٤٠/٣

المبحث الثالث

النفاق والمنافقون دروس وعبر

أولاً- النفاق مرض نفسي واجتماعي خبيث وخطير، لأنه تناقض بين الظاهر والباطن، وتَلَوُّن في المواقف، ويقود إلى مواقف خطيرة في حياة الفرد والأمة، يبدأ مرضاً فردياً ثم يصبح ظاهرة جماعية تهدد أمن المجتمع وسلامته.

ثانياً- معسكر النفاق شديد الخطورة على الأمة فهو يساند معسكر الكفر الظاهر، ويقود إلى الوثنية وفرقة الصف. ولظاهرة النفاق لم تترك أذاها للمسلمين منذ أول يوم دخل فيه الرسول ﷺ المدينة إلى آخر لحظة قضاها النبي ﷺ فيها، حتى كان للنفاق يد في حركة الردة.

ثالثاً- صعوبة التعامل مع النفاق والمنافقين، يزيد من خطورة هذه الظاهرة، لأنهم يصعب ضبط حركاتهم وتصعب محاربتهم. وتصفيتهم ربما تفتح الباب لفتنة داخلية. ولهذا كان رسول الله ﷺ يرفض عروض الصحابة بقتلهم؛ إذ كيف له أن يقتل من يظهرون الإسلام. وهو بهذا لا يريد للمسلمين أن يحكموا على الناس بقلوبهم، إذ أن شرعنا يتعامل مع الظاهر لا مع الباطن؛ فبواطن الناس لا يعلمها إلا الله تعالى. ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول: لايقال محمد يقتل أصحابه، ويقول : أليسوا يظهرون شهادة أن لا اله إلا الله، وأني رسول الله؛ فإني نُهيتُ أن أقْتُلَ أولئك.(١)

رابعاً- رغم خطورة هذه الظاهرة، فإنها كانت تحفز المسلمين وتدفعهم للوعي والحيطة والحذر، وكانت تعزز وحدة صف المسلمين في وجه هذا الخطر الداخلي.

---

(١)الواقدي، المغازي، ١٠٤٢/٣ - ١٠٤٤

خامساً- لم يترك المنافقون جبهة من الجبهات المعادية للإسلام إلا ودخلوا فيها وساندوها، فقد تآمروا مع اليهود على المسلمين، كما تآمروا مع قريش، كما خذَّلوا المسلمين عن القتال، كما كانوا وراء الفتن الداخلية لتصديع الجبهة الداخلية للمجتمع المسلم، حتى ما سَلِم من أذاهم بيت النبوة ولا زوجات الرسول ﷺ.

سادساً- يكْبِرُ المسلم موقف الشاب زيد بن أرقم الذي لم يسكت على فتنة المنافق، فذهب إلى رسول الله ﷺ يخبره ما سمعه منه، كما يُكْبِر المسلم موقف الشاب المؤمن الصادق عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول الذي جاء للرسول ﷺ يعرض عليه قتل والده إن كان رسول الله ﷺ يريد قتله، كما يقف لوالده ويتصدى له بباب المدينة فيمنعه من الدخول فيها إلا بإذنٍ من رسول الله ﷺ.

سابعاً- تتجلى حكمة الرسول ﷺ في معالجة الموقف الذي أصبح مشحوناً بين المسلمين، بفتنة المنافق ابن سلول؛ فيأمر النبي ﷺ الجيش بالرحيل حتى أعياهم التعب، وبالتالي أسكت الفتنة، وأطفأ نارها، وأذاب الشائعات، وأشغل الناس عن القيل والقال، فأمات الفتنة في مهدها.

ثامناً- يجب على المسلمين أن يحذروا النفاق والمنافقين، ولهذا أخذ المسلمون درساً عميقاً في كيفية معالجة حديث الإفك؛ فكان الأولى لهم أن يظنوا بأنفسهم خيراً، وأن لا تنطلي عليهم مؤامرات المنافقين الذين لم يسلم من أذاهم أطهر بيت، بيت النبي ﷺ وأزواجه.

الفصل السابع

خواتم العهد المدني

المبحث الأول: عام القبائل والوفود.

المبحث الثاني: حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

المبحث الثالث: حجة الوداع_اكتمال الدين وإتمام النعمة–

المبحث الأول

عام القبائل والوفود

أولاً:الناس يدخلون في دين الله أفواجا:

ما إن فتح المسلمون مكة حتى لانت قريش، فدخلت في الإسلام، وانفرط عِقد جميع القبائل العربية، فإن العرب تابعة لقريش، ولم يكن لها بعدُ مَنَعَة ولا قوة، ولم يعد الإسلام مضطهداً ولا محارباً في الجزيرة العربية، حيث إن غزوة تبوك كانت تعني أن الإسلام أخذ يتحمل مسؤولياته في دعوة الأمم الأخرى وقتالها، فقد اشتبك مع أقوى دولة كبرى، دولة الروم. ولذا فما إن عاد المسلمون منتصرين من تبوك حتى توافدت قبائل العرب من شمال حدود الجزيرة إلى جنوبها، تتوافد وفودها على المدينة وفداً بعد آخر، فمنهم من يعلن إسلامه ويتلقى تعاليم الإسلام ثم يعود، ومنهم من كان في شك وفي عصبية جاهلية، فتلقاه النبي ﷺ، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، حتى دخل في الإسلام طائعاً مقتنعاً، ومنهم من جاء خاضعاً مقراً يطلب إعلان إسلامه، ومنهم من كان مسلماً يدعو قومه ولكنهم تأخروا في إسلامهم، فيأتي بهم لإعلان إسلامهم وتَعَلُّم أحكام الشرع. وقد كثرت الوفود حتى بلغت ستين وفداً. وقد أطال في ذكرها ابن سعد في طبقاته،(١) وذكر ابن القيم في كتابه زاد المعاد ثلاثة وثلاثين وفداً منها، مع الفقه المستخلص من بعضها،(٢) وهكذا سُمِّي العام التاسع للهجرة عام الوفود.

---

(١) انظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى، العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٥٤١/٢

(٢) انظر ابن القيم، زاد المعاد، ٥٠٥/٣ ـ ٥٦٧

ثانياً: أهم الوفود:

ومن أهم الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ في المدينة:

١- وفد الطائف أو وفد ثقيف:

وقف أهل الطائف من الإسلام وقفة عداء منذ بداية عهد الدعوة، حتى بعد فتح مكة، فقد حاصرهم النبي ﷺ في غزوة حنين، وقد امتنع عن هدم حصون ثقيف وحرق بساتينهم وعاد إلى المدينة، وقد دخل قلةٌ منهم في الإسلام، ولكنهم بقوا في غالبيتهم وزعاماتهم على كفرهم، ولما عاد إليهم زعيمهم عروة بن مسعود مسلماً قتلوه.[١] وقد كان محبوباً فيهم؛ فندموا. وقد رأوا أن قريشاً زعيمة العرب قد استسلمت، وأنه لا طاقة لأحد من العرب على حرب الإسلام، فقرروا أن يبعثوا وفداً من ستة رجال بزعامة "عبد يا ليل"، فلما قدموا المدينة ضرب لهم النبي ﷺ قبة في المسجد، وكانوا يثقون بخالد بن سعيد بن العاص من المسلمين، وكانوا إذا جاءهم الطعام من قِبَل النبي ﷺ لا يأكلون حتى يأكل خالد منه؛[٢] تخوفاً وسوءَ ظَنٍّ منهم بالمسلمين. وبعد حديث ومفاوضات أعلنوا إسلامهم، ولكنهم كانوا ما زالوا تعز عليهم جاهليتهم، فطلبوا من النبي ﷺ أن يبقي لهم صنم اللات ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ، فطلبوا سنتين فأبى، قالوا: فسنة واحدة، فرفض النبي ﷺ رفضاً قاطعاً، ثم سألوه إذا كان ولا بد من كسر أصنامهم ألا يكسروها هم بأيديهم تخوفاً من عاقبة كسرها، فأجابهم النبي ﷺ ، وأرسل معهم المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان بن حرب لكسرها. ثم طلبوا منه أن يعفيهم من الصلاة فقال لهم رسول الله ﷺ: "فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه، فقالوا: يا محمد سنؤتيكها وإن كانت دناءة."[٣] ومن حديث وهب قال: سألت جابراً عن ثقيف إذ بايعت، قال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها، ولا جهاد، وأنه

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٨٤/٤

(٢) نظر المرجع السابق، ١٨٥/٤

(٣) المرجع السابق

سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا."(١) وبقي هذا الوفد يفاوض على البقاء على الزنا والخمر والربا، ورسول الله ﷺ يصر على رفض طلباتهم؛ لأن هذا الدين لا يقبل الجاهلية في عقائدها ولا في سلوكها، والدين يجب أن يؤخذ كله بلا نقص. وعاد الوفد، وكتم إسلامه على ثقيف خوفاً من القتل، وأظهر الحزن والكرب؛ لأن محمداً لم يجبهم إلى ما سألوه من؛ عدم هدم اللات والعزى، وعدم تحريم الخمر والزنا والربا، وأن الرجل مصر على قَتْل من يقف في طريق الإسلام، فثارت ثقيف، فاقترح الوفد عليها أنه لم يبق إلا أن تُعِدّوا السلاح للقتال، ففكرت ثقيف ثلاثة أيام؛ إذ كيف يقاتلون رجلاً دان له العرب واستسلمت له مكة وأخذ يحارب الدول الكبرى؟! فلما رأى الوفدُ حالهم صارحهم بأنه قد أعطاهم الأمان وأنهم أسلموا، فنزع الله من قلوب ثقيف نخوة الشيطان. وقام المغيرة وأبو سفيان بهدم أصنام ثقيف وهم مُلْتَفّون حولها، خائفون من العواقب، حتى نبشاها من أساسها. وهكذا دخلت ثقيف في الإسلام.(٢)

٢- وفد بني عامر:

جاء هذا الوفد مسلماً، ولكن كان فيه عامر بن الطفيل وأَرْبَدُ، وكانا غادِرَيْن يريدان قتل النبي ﷺ بحيلة رسماها معاً. ولما طلب عامر من النبي ﷺ أن يجعله خليلاً شرط عليه النبي ﷺ أن يُسْلِم حتى يُخالِلَه، فأخذ يتهدد ويتوعد، وخذله صاحبُه أربدُ؛ إذ عصم الله رسوله ومنعه من مؤامرتهما، فكان كلما أراد أربدُ أن يهوي على النبي ﷺ بالسيف هيأ له أن صاحبه عامراً واقفٌ بينه وبين النبي ﷺ، وأنه إن أهوى بالسيف فسيهوي به على صاحبه. وقد أعلن هذا الوفد إسلام بني عامر ورجعا. ولكن الله تعالى قد انتقم من الغادرين فأصيب

(١) أبوداود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في خبر الطائف، رقم ٣٠٢٥ ، وأحمد في مسنده، ٢١٨/٤ قال محقق زاد المعاد ٥٠٨/٣ وكذا ابراهيم في صحيح السيرة ص٤٩٤ : إسناده حسن.

(٢) للتفصيل: انظر الواقدي، المغازي، ٩٦٠/٣ - ٩٧٣

عامر "بالطاعون في عنقه في الطريق فاهلكه، ونزلت صاعقة على أربد وهو على جمله فأحرقتهما."[(١)].

٣- وفد بني حنيفة:

جاء وفد بني حنيفة وفيهم مُسَيْلَمَة الكذاب الذي سبق أن بعث للنبي ﷺ كتاباً يدّعي فيه أنه نبي، ولما كلموا النبي ﷺ أسلم فريق منهم، وفريق بقَوْا على ضلالهم وعصبيتهم، يدّعون أن مسيلمة نبي، ليس اقتناعاً بالحق ولكنهم كانوا يتعصبون لقبيلتهم فيقولون: كذاب ربيعة خير من صادق مضر[(٢)].

٤- وفد بني تميم:

أقبل هذا الوفد من بني تميم وفيه أشرافهم منهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر الشاعر، وأخذ يفخر هذا الوفد بخطبائه وشعرائه، فخطب خطيبه عطارد، وقال الزبرقان شعراً يفتخر فيه، فطلب النبي ﷺ من ثابت بن الشماس أن يرد على خطيبهم فخطب، ومن حسان بن ثابت أن يرد على شاعرهم فقال شعراً يفتخر فيه بالنبوة، فلما فرغوا قال الأقرع بن جابس: إن محمداً خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا[(٣)]. وأسلم القوم، وأكرمهم النبي ﷺ، وأعطاهم الجوائز، وعادوا إلى قومهم. وصح من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما قال:" دخلت ﷺ وعلقت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم! قالوا: قد بشرتنا فأعطنا ، مرتين. ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم! قالوا: قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر.قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات فنادى منادٍ: ذهبت ناقتك

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، (مع الروض)، ٢٠٦/٤ -٢٠٧ ، وانظر رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، رقم ٤٠٩١ وانظر ابن القيم ، زاد المعاد، ٥١٣/٣ ، وأحمد في مسنده، ٢١٠/٣

(٢) انظر المرجع السابق، ٢١٠/٤ -٢١١

(٣) انظر التفاصيل، ابن هشام، السيرة النبوية، ٢٠٤/٤ -٢٠٦

يا ابن الحصين.فانطلقت فإذا هي يُقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني تركتها."[١] ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:"لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: (هم أشد أمتي على الدجال، وكانت فيهم سبية عند عائشة فقال: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال: وهذه صدقات قوم أو قومي."[٢].

٥- وفد بني سعد بن بكر:

أرسلت بنو سعد ضمامة بن ثعلبة وقد كان مسلماً، فلما جاء إلى المسجد فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فأجابه النبي ﷺ. فقال: إني سائلك فمُشَدِّدُ عليك المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك! آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال عليه الصلاة والسلام: نعم، قال: آلله أمرك أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً؟ قال : اللهم نعم، قال آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال :اللهم نعم، ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة حتى إذا انتهى قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، لا أزيد ولا أنقص ، فقال رسول الله ﷺ: إن يصدق يدخل الجنة. وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام، وهدم أصنامهم التي كانوا يعبدونها، وانتشر الإسلام بينهم، فما أمسى ذلك اليوم حتى أسلموا رجالاً ونساءً. وما كان من رجل وافد أفضل من هذا الرجل لأثره في قومه.[٣]

٦- وفود اليمن:

(١) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) ، حديث رقم ٣١٩٠ ، ٣١٩١ ، وجاء عند البخاري أيضاً ،كتاب المغازي، حديث رقم ٤٣٦٥ ، ورقم ٤٣٨٦ وكتلب التوحيد، حديث رقم ٧٤١٨ ، والترمذي 'كتاب المناقب' باب مناقب ثقيف .رقم ٣٩٥١ ، وقال حسن صحيح، والنسائي في الكبرى كما أشار إلى ذلك في تحفة الأشراف رقم ١٠٨٢٩، انظر العلي، صحيح السيرة، ص٥٠٠

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي، باب قال ابن إسحق غزوة عيينة بن حصن، حديث رقم ٤٣٦٦ ' ومسلم كتاب فضائل الصحابة' باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطي، حديث رقم ٢٥٢٥ ، انظر العلي، صحيح السيرة' ص ٥٠٠

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم ، رقم ٦٣

كما أقبلت وفود من اليمن من الأشعريين والأزْد، وغيرهم إلى النبي ﷺ، وكانوا مسلمين يريدون أن يتعرفوا أحكام الإسلام، وكانوا أسرع من غيرهم إلى الدخول فيه، وقد بعث النبي ﷺ بعض أصحابه يعلمونهم أحكام الدين، وكتب لهم كتباً تبين لهم واجباتهم تجاه الدولة الإسلامية.

وقد امتدح رسول الله ﷺ وفود الأشعريين واليمنيين؛ فمن حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "يقدم عليكم أقوام هم أرقُّ منكم قلوباً؛ قال: فقدم الأشعريون، فيهم أبو موسى الأشعري. قال: فلما دَنَوْا المدينة كانوا يرتجزون ويقولون: غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه."(١). وورد كذلك من حديث جبير بن مطعم قال: "بينما نحن مع رسول الله ﷺ بطريق مكة إذ قال: يطلع عليكم أهل اليمن كأنهم السحاب، هم خيار مَن في الأرض. فقال رجل من الأنصار: ولا نحن يا رسول الله؟ فسكت. قال: ولا نحن يا رسول الله؟ فسكت. قال: ولا نحن يا رسول الله؟ فقال في الثالثة كلمة ضعيفة: إلا أنتم."(٢) وصحّ كذلك من حديث أبي هريرةؓ، قال: "قال رسول الله ﷺ: أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، والإيمان يَمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغَنَم."(٣)

٧- وفد نصارى نجران:

بعث النبي ﷺ كتاباً إلى نصارى نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام ، فبعثوا وفداً إلى النبي ﷺ يأتيهم بخبره، فسألوه عن قوله في عيسى فتلا عليهم رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿

(١) أخرجه أحمد في المسند، ١٥٠/٣ ، ١٥٥ ، ١٨٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٣٥١ ، ٢٦٢ كما قال العلي عنه: إسناده صحيح ، انظر تخريجاته في العلي، صحيح السيرة ، ص٥١١

(٢) أحمد في المسند، ٨٤/٤ ، والطبراني ، رقم ٤٧٠٢ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥٥/١٠ : رواه أحمد والطبراني وإسناده حسن، وانظر العلي، صحيح السيرة، ص ٥١١

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، رقم ٤٣٨٨ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان ورجاحة أهل اليمن، رقم ٥٢ ، وانظر سائر تخريجاته ، العلي، صحيح السيرة، ص ٥١١

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ آل عمران: ٥٩ – ٦١ **وطلبهم النبي ﷺ إلى المباهلة، –وهي الدعاء باللعنة على الكاذب– فخافوا من لعنة الله؛ فمن حديث حذيفة بن اليمان قال: "جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال:فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل. فوالله لئن كان نبياً فلاعَنَنا لا نفلح، ولا عقَّبنا من بعده.قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين. فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح. فلما قام، قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة."[١] وطلبوا حكمه فيهم، فكتب لهم النبي ﷺ كتاباً أعطاهم فيه الأمان ، وجعلهم من أهل الذمة إن اختاروا أن يبقوا على دينهم. ولما عادوا إلى قومهم اختار بعضهم الإسلام، واختار بعضهم الآخر أن يبقى على دينه، ويكون من أهل الذمة.[٢]**

ثالثاً: دروس عام القبائل الوفود وعبره:[٣]

١– الدين لا يقبل المساومة فإما أن يؤخذ كله أو يترك كله، نجد هذا الدرس واضحاً من رفض النبي ﷺ إسلام ثقيف مع اشتراطهم ترك تحطيم أصنامهم فترة من الزمان، واشتراطهم عدم الصلاة أو البقاء على بعض منكراتهم.

---

(١) البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة، رقم ٣٧٤٥ ، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي عبيدة، رقم ٢٤٢٠

(٢) انظر تفاصيل قصتهم في كتاب النبي ﷺ لهم في ابن القيم، زاد المعاد، ٣/٥٣٤ - ٥٣٥

(٣) ذكر ابن القيم فوائد تفصيلية ودقائق فقهية كثيرة استنبطها من الوفود ومقابلاتهم لرسول الله ﷺ انظرها في ابن القيم، زاد المعاد، ٥١٣ ، ٥٢٨ ، ٥٣٦ ، ٥٥١

٢- رسول الله ﷺ معصوم محفوظ بحفظ الله، ولهذا فقد أسقط الله في يد عامر وأرْبَدَ حين تآمرا على قتله في وفد بني عامر، وقد انتقم الله منهما لرسوله ﷺ؛ فماتا شرَّ مَيْتَة.

٣- المؤمن الحق لا يخضع للتهديد والوعيد، درس نقتبسه من رفض النبي ﷺ أن يخالل عامراً وهو بعدُ على كفره.

٤- كان أهل اليمن أسرع الناس إسلاماً من بين الوفود، كما شهد لهم النبي ﷺ بأهم أرق الناس أفئدة، وأن الإيمان يماني، وأن الحكمة يمانية.

٥- ليس الكفر دائماً حصيلة الجهل، وإنما الكفر تعصب للباطل وعنجهية، هكذا بقي بعض بني حنيفة كفاراً يعتقدون نبوة مسيلمة الكذاب تعصباً؛ "وعلى هذا فإن الإسلام الحقيقي عند الله عز وجل ليس هو المعرفة المقابلة للجهل فقط، ولا المعرفة والإقرار باللسان دون دون التيقن بالقلب فقط، بل المعرفة اليقينية بالقلب والإقرار ، والانقياد والتزام دين الله ظاهراً وباطناً"[(١)].

٦- من واجب الداعية أن يعلم المسلمين الجدد أحكام الإسلام وهكذا كان رسول الله ﷺ يعلم الوفود أحكام الإسلام، كما كان يرسل مع بعض الوفود من أصحابه من يقيمون بينهم ليعلموهم دينهم.

٧- الإسلام دين هداية وليس دين زعامة، فقد ترك رسول الله ﷺ زعماء القبائل على حالهم، فلم يعزلهم ولم يعين لهم حكاماً من أصحابه، لأن إسلامهم هو المطلوب، ولتكون زعاماهم منهم طالما كانت هذه الزعامات مؤمنة.

٨- لم يكن يقبل النبي ﷺ من المشركين الخيار بين الإسلام والشرك؛ فغما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا، بينما نجده مع وفود النصارى يخيرهم بين الإسلام وبين أن يكونوا من أهل الذمة، وذلك احتراماً لأصل دينهم، لأنه كان في أصله من عند الله تعالى.

---

(١)المرجع السابق، ٣/٥٣٧

٩- لم يكن من الوفود وفد لليهود، لأنهم كانوا قد أساءوا للإسلام وغدروا بالمسلمين، فطردت قبائلهم بنو قينقاع وبنو النضير، ونكل بمقاتلة بني قريظة، وفتحت حصونهم في خيبر وكانوا على علاقة صلح بالمسلمين قبل عام الوفود.

١٠- امتدح النبي ﷺ خصلتين في زعيم عبد القيس حين قدم وفدهم على رسول الله ﷺوهما الحلم والأناة، لما في هذا الخلق من أهمية في إدارة أمور الحياة وفي التعامل مع الناس فقد أخرج البخاري في صحيحه قوله ﷺ لأَشْجَعَ بن عبد القيس: "إن فيك خَصْلَتَيْن يحبهما الله، ورسوله؛ الحِلْم والأناة."[١].

(١) البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ٤٠ أداء الخمس وأطراف الحديث، رقم، ٨٧ ، ١٣٩٨ ، ٣٠٩٥ ، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الإيمان بالله تعالى ورسوله، ٢٤/١٧ ، ٢٦/١٧ ، وانظر سائر تخريجاته عند أحمد وأبي داود وغيرهم في هامش ابن القيم، زاد المعاد، ٥١٣/٣

المبحث الثاني

حج أبي بكر الصديق ﷺ

أولاً: تاريخ حج أبي بكر ﷺ في:

قال ابن اسحق: "ثم أقام رسول الله ﷺ بقية رمضان وشوال وذو القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين"[١]. وقد ذكر ابن سعد في طبقاته بإسناد صحيح عن مجاهد، أن حج أبي بكر كان في شهر ذي القعدة، ووافقه على ذلك عكرمة بن خالد، وبعض المفسرين؛ كالرماني والثعلبي والماوردي.[٢] والجمع بينهما ليس صعباً؛ وذلك: أن الأمر بالخروج للحجة، والإعداد لها كان في نهاية ذي القعدة، وأن المسير إلى الحج كان في بداية ذي الحجة، وهي مدة تسمح بوصول الركب في سبعة أيام ؛ فإن أبا بكرﷺ قد خطب في المسلمين في اليوم السابع من ذي الحجة، أي قبل يوم التروية– وهو اليوم الثامن من ذي الحجة– بيوم واحد.

ثانياً: مسير رحلة حج أبي بكرﷺ:

خرج ثلاثمائة من المسلمين بإمارة أبي بكر إلى الحج، ومعه كبار الصحابة وفيهم عبد الرحمن بن عوف. ولما كان في الطريق لحق به علي بن أبي طالب راكباً ناقة رسول الله ﷺ القصواء حيث نزلت سورة براءة بعد خروج أبي بكر بالمسلمين، وفي بدايتها أحكام تتعلق بإنهاء العهود مع المشركين إلى مدة عقودهم، وإنهاء دخول المشركين إلى مكة اعتباراً من السنةالعاشرة، وصفاء موسم الحج القادم من المشركين ومن عباداتهم الشركية؛ فلا يحج بعد ذلك العام الى البيت الحرام مشرك، ولا يطوف بالبيت بعد هذا العام عراة،كما كان

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٨٩/٤

(٢) انظر ابن حجر، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ٨٢/٨ ، وانظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د.ت) ، ١٦٨/٢

يفعل المشركون في الجاهلية اعتقاداً منهم الاّ يطوفوا بملابس عصوا الله وهي عليهم. وبدو أن تلك الأوامر والأحكام كانت تهيئة للحج الأكبر وهو حج رسول الله ﷺ ، فيكون حجه ﷺ صافياً، لا يشاركه فيه مشرك، ولا يوجد فيه مظهر من مظاهر الشرك، ويكون البيت الحرام قد تحرر من الشرك والمشركين، وعاد كما كان أول بيت بني للتوحيد ؛ عقيدة وعبادة، وإلى الأبد بأمر الله تعالى وبحمده. يروى البخاري بسنده أن أبا هريرة رضي الله عنه "أخبره أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر في رهطٍ يُؤَذِّنون ألا: لا يَحُجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان."(١).

ولما وصل علي رضي الله عنه ركب الحجيج سأله أبو بكر رضي الله عنه حين رآه على ناقة رسول الله ﷺ: "استعملك رسول الله ﷺ على الحج؟ فأجاب: لا، ولكن بعثني لأقرأ سورة براءة على الناس، وأَنْبِذَ إلى كل ذي عهدٍ عهدَه."(٢)

وقد أحرم المسلمون بالحج مُفْردين.-أي ليسوا متمتعين بالمرة الى الحج، ولا قارنين المرة بالحج-

ولما وصلوا مكة خطب أبو بكر رضي الله عنه في الحجيج في اليوم السابع من ذي الحجة ، ثم لما جاء يوم التَّرْوِيَة – وهو اليوم الثامن من ذي الحجة– حين زاغت الشمس– أي قبل وقت الظهر بقليل– طافوا بالبيت سبعة أشواط، ثم ركبوا متوجهين إلى مِنى، فصلّوا فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وفجر يوم التاسع من ذي الحجة، وهو يوم عرفة. ثم لما طلعت الشمس نزلوا إلى عرفة، وصلوا فيها الظهر والعصر جمع تقديم، وخطب فيهم أمير الحج، أبو بكر رضي الله عنه خطبة الحج يوم عرفة. ثم نفروا بعد غروب الشمس مباشرة بإتجاه

(١) البخاري في صحيحه، كتاب الحج ، باب لا يطوف بالبيت عريان، رقم ١٦٢٢

(٢)انظر الواقدي، المغازي،١٠٧٧/٣ وابن هشام السيرة النبوية ١٨٧/٤٠ وانظر تخريجات الروايات في العلي، صحيح السيرة، ص ٤٩٨ ــ ٤٩٩

مُزْدَلِفة وصلى بهم أبو بكر ﵁ صلاة المغرب والعشاء جمع تأخير وباتوا فيها حتى صلوا فجر يوم العيد، ثم دفعوا قبل طلوع الشمس إلى منى لرمي جمرة العقبة الكبرى سبع حصيات، ثم نحروا بُدُنهم،–أي ذبائحهم، من هدي الحج وأضحياتهم– وحلقوا وتحللوا التحلل الأول أو الأصغر، وقرأ علي بن أبي طالب ﵁ على الناس سورة براءة وفي أوائلها أحكام المشركين بعد هذا الموسم للحج، حيث لا يحج بعد هذا العام البيت الحرام مشركٌ ولا يطوف به عُريان ، وأقاموا بمنى يرمون الجمرات إلى آخر أيام التشريق يرمون الجمرات الثلاث الكبرى والوسطى والصغرى، حتى إذا كان اليوم الثالث من أيام التشريق، واليوم الرابع من أيام النحر صدروا إلى مكة للطواف، وصلوا في الطريق صلاة الظهر، وصلوا بمكة المغرب والعشاء ثم خرجوا من ليلتهم قافلين إلى المدينةز[1]

ثالثاً: آثار حج أبي بكر ﵁ في المسلمين:

أ- كان حج أبي بكر بالمسلمين في السنة التاسعة للهجرة نهاية للشرك على مستوى مكة والحج إليها، إذ لا يقبل بعد تلك السنة حاج مشرك، وقد أنهى إعلان سورة براءة في هذا الموسم للحج كل معاهدات رسول الله ﷺ مع المشركين ذات المدة المنصوص عليها إلى نهايتها، وأمهلت المشركين ممن له عهد إلى أجل محدود أو إلى أجل غير محدود أربعةَ أشهر من بدء الاعلان، وهو يوم العاشر من ذي الحجة، أي نهاية العاشر من ربيع الآخر من السنة العاشرة. وأما من ليس له مع رسول الله ﷺ عهد فقد أمهله إلى انتهاء الأشهر الحرم من تلك السنة أي خمسين يوماً فقط تنتهي بنهاية محرم من السنة العاشرة للهجرة؛ قال تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ

(١) انظر الواقدي، المغازي، ١٠٧٧/٣ -١٠٧٨ وابن هشام. السيرة النبوية، (مع الروض)، ١٨٧/٤-١٨٨

وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١ – ٥ .

ب– أعلن الإسلام مفاصلة الشرك وأتباعه؛ حيث منعت (أي سورة براءة) حج المشركين بعد العام التاسع،[١] كما أعلن تطهير الجزيرة العربية من الشرك والمشركين حيث سبق أن جاءت الوفود، وبعث النبي ﷺ إليهم كتبه ورسائله إلى جميع قبائل العرب لدخول الإسلام، وأعطت سورة براءة المهلة الكافية لإنهاء الشرك، وأوجب الله تعالى بعد ذلك قتال كل من بقي مشركاً من العرب. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ٥، **وما يلي هذه الآية آيات كثيرة تبين تفاصيل قتال المشركين وأحكام معاملتهم.**

ت– كما بعث النبي ﷺ سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلى اليمن، وأعطاه تفاصيل دعوتهم إلى الإسلام، وألا يبدأهم بقتال، وألا يُسْتَفَزَّ لقتالهم،؛ لأن المقصود من الإسلام هو دعوتهم إلى الخير، وإقامة الحجة عليهم، وليس قتلهم. وطلب منه أن يدعوهم إلى الإيمان والإسلام والصلاة ودفع الزكاة. وقد حصل اشتباك محدود مع بعضهم ثم دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم، وامتدح النبي ﷺ أهل اليمن ودخولهم في الإسلام.[٢]وكان النبي ﷺ قد بعث

---

(١) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة ، ٥٤٦/٢

(٢) انظر الواقدي،المغازي١٠٧٩/٣ - ١٠٨٣

خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الاسلام. فمكث فيهم ستة أشهر وهو يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فأرسل النبي ﷺ بعثاً بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمر خالداً أن يرجع. ثم تقدم علي بن أبي طالب وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلَمت همَدَان جميعاً، فكتب عليٌّ رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: السلام على همَدَان. السلام على همدان."(١) " قال ابن إسحق:" سمعت البراء رضي الله عنه: بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن. قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، فقال: مُرْ أصحابك: من شاء منهم أن يُعَقّب معك فليُعَقَّب، ومن شاء فليُقْبِل، فكنت فيمن عَقَّب معه.قال: فغَنِمْتُ أواقٍ ذات عدَد."(٢) وعن أبي بريدة – أيضاً– قال:"بعث النبي ﷺ علياً إلى خالد ليقبض الخُمُس،"(٣) (أي نصيبه من الغنائم)كما بعث النبي ﷺ أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل يُعَلِّمان أهل اليمن الإسلام ويقضيان بينهم، فعن أبي بريدة قال: قال: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن(...) ثم قال: يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وَبِّشرا ولا تُنَفِّرا.(...) وفي رواية أخرى عن بريدة عن أبيه زيادة: وتطاوعا."(٤) وفي رواية لمسلم: بَشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا– ورواية: يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا."(٥)

ث–وقد تتابعت وفودٌ لقبائل لم تكن أسلمت بعدُ تعلنُ إسلامها. وعقد النبي ﷺ سرايا لتنجز مهمة الدعوة بعد إعلان تطهير البيت الحرام من حج الشرك والمشركين. وما جاءت نهاية السنة التاسعة من الهجرة إلا وكان أهل الجزيرة العربية قد دخلوا في دين الله أفواجاً. وانتهى الشرك من الجزيرة العربية، وإلى الأبد إن شاء الله، وبفضله تعالى وكرمه ومَنِّه. .

(١) المرجع السابق.

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع ، رقم ٤٣٤٩

(٣) المرجع السابق، رقم ٤٣٥٠

(٤) المرجع السابق، رقم ٤٣٤١ ، ٤٣٤٤

(٥) مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمر على البعوث وتوصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، ١٧٣٢/٦ ، ١٧٣٣/٧ ، ١٧٣٤/٨ .

وهكذا تمّ للإسلام بعد اثنين وعشرين عاماً من الدعوة إلى الإسلام منذ بعثته عليه الصلاة والسلام بمكة بكل ما كان في الثلاثة عشر عاماً فيها من المعاناة والأذى والاضطهاد، والثبات والصبر، ثم الهجرة وما تلاها من؛ إقامة الدولة المسلمة، وخوض معركة التربية للنفوس ، والبناء للمؤسسات، والصهر للقبائل العربية التى أسلمت، ومن الدعوة إلى الله تعالى، والاتصال بالناس عبر كتب النبي ﷺ ورسائله إلى زعماء القبائل العربية، وإلى أمرائها، وإلى ملوك الدول الكبرى في زمانه، ومن جهادٍ وصراع وقتال شرس ومرير لقوى البغي والشرك من مشركي مكة، وأحزاب القبائل العربية المشركة في الجزيرة العربية ،والتي لم تقبل الدعوة إلى الإسلام، وحالت دون وصول كلمة الله إلى خلْق الله، ومن تأديبٍ للقبائل العربية، الأذناب وحرس الحدود للدول الكبرى يومها على أطراف بلاد فارس والروم، ومن معاناة مكر يهود ومؤامراتهم وخيانتهم للعهود والمواثيق، ومن قتالهم ومطاردتهم، ومن الصراع في الجبهة الداخلية مع القوة العميقة، والمرض المُباطِن الذي لا انفكاك منه، مما عرف بظاهرة النفاق والمنافقين في المدينة. بعد كل هذه المسيرة من سنوات الدعوة والعمل والتربية والجهاد تَمَّ نصر الله تعالى لدينه ولرسوله ﷺ ولأُمة الإسلام بحمد الله تعالى؛ فعلت راية التوحيد خفاقة في جميع أنحاء الجزيرة العربية وجَنَباتها، وسمائها وأرضها، وانمحت نهائياً راية الشرك ومظاهره وأوهامه، وخرافاته وأصنامه، وأُعلن تطهير بيت الله الحرام من المشركين ومن الشرك بكل مظاهره ولله الحمد. وُيعْلِم الله تعالى بعد ذلك كله لنبيه ﷺ وللمسلمين وللناس كافة اكتمال الدين وإتمام النعمة في السنة العاشرة القادمة، وفي والوداع، حَجَّةً وإيذاناً؛ بوداع رسول الله ﷺ أمته، ووداع نزول الوحي رسالته .

المبحث الثالث

حَجة الوَداع– اكتمال الدين وإتمام النعمة–

أولاً:بين يدي حجة الوداع وسبب تسميتها:

أ- بين يدي حجة الوداع: كان أبو بكر ﵁ قد حج بالناس في موسم الحج السابق لحجة الوداع، حيث أمره النبي ﷺ أن يكون أمير الحج في السنة التاسعة للهجرة، وقد نزلت أوائل سورة براءة بعد خروج المسلمين للحج، وقد بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ينادي في الناس يوم الحج الأكبر والحجيج يجتمعون من مسلمين ومشركين، أن اللّهَ تعالى بريء من المشركين ورسولُه، وأنه نبذ إلى كل ذي عهد منهم عهده، وأجّل لهم أربعة أشهر، وأن من لم يكن له عهد فمدته كذلك أربعة أشهر، وأما الذين لم ينقضوا عهودهم مع المسلمين فعهودهم تنتهي بانتهاء مدهّا المتفق عليها.وأنه بعد هذا الحج لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

وكان هذا الخطاب إعلاماً عاماً بانتهاء الوثنية والشرك في جزيرة العرب ثم توالت الوفود-كما رأينا- لتعلن إسلامها، وما أن جاء موسم الحج في نهاية السنة العاشرة للهجرة حتى تمت أعمال الدعوة. وقد فرض الله تعالى فريضة الحج -على اختلاف في الروايات- في السنة السادسة أو التاسعة أو العاشرة للهجرة.[١] ولم يحج النبي ﷺ بعد الإسلام بعدُ، وإن كان قد حج قبل الإسلام حجة أو حجتين.[٢]

عزم رسول الله ﷺ على داء الفريضة. ولعله شعر عليه الصلاة والسلام بدنو الأجل وقد أكمل مهمته بدخول أهل الجزيرة في الإسلام ، وفتح الله عليه بالفتح الأعظم، وقد

---

(١) انظر العمري،السيرة النبوية الصحيحة، ٥٤٩/٢

(٢) انظر الواقدي،المغازي، ١٠٨٩/٣

قال لمعاذ بن جبل ﷺ حين ولّاه على اليمن:" يا معاذ! عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا. ولعل أن تمر بمسجدي هذا وقبري."[1]فبكى معاذٌ خوفاً من فراق رسول الله ﷺ.

ب-سبب تسميتها: لعل سبب تسميتها بحَجة الوداع ظاهر لدى كثير من العلماء؛ من حيث إنها كانت آخر حجة لرسول الله ﷺ مع المسلمين، وأنه ﷺ بعدها بفترة وجيزة فارقهم وانتقل إلى الرفيق الأعلى. وقد ودّع النبي ﷺ الناس فيها بصريح العبارة بعرفة، فقال:" أيها! الناس لعَلّي لا ألقاكم بمكاني هذا بعد يومكم هذا."[2]ولقد ظهر ذلك من خُطَبه في الحج ووصاياه وأمره لهم بأن يبلغ الشاهد الغائب، وألا يرجعوا من بعده كفاراً. كل ذلك واضحٌ فيه أنه يودعهم، بل لقد ذكرها الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بهذه التسمية. كما أخرج ابن ماجة كذلك تسميتها بحجة الوداع، وبالحج الأكبر بهذا الإسم نصاً.[3] وقد جاء الاسم أيضاً في البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: " خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع."[4]وقد علل ابراهيم العلي هذه التسمية بقوله: "لأنه عليه السلام بلَّغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيَّنه عليه السلام فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عز وجل-هو واقف بعرفة- [5]: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ

(١) حديث صحيح،أخرجه أحمد في سنده ، ٢٣٥/٥

(٢) الواقدي،المغازي١١٠٣/٣ وابن هشام السيرة النبوية ٢٣١/٤

(٣) انظر ابن ماجة في سننه، كتاب المناسب، باب الخطبة يوم النحر حديث، ٣٠٥٨ ، وعلقه البخاري،صحيح البخاري، فتح الباري، ٤٥٩/٣ وقال الحافظ ابن حجر: وأخرجه الطبراني عن أحمد بن المحلى والإسماعيلي... ومن هذا الوجه أخرجه أبو داود في سننه، رقم ١٩٤٥ وإسناده صحيح ، انظر العلي، صحيح السيرة ، ص ٥٤٣

(٤) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، ٤٣٩٥ ، ٤٤٠٢ ، ٤٤٠٥

(٥) العلي، صحيح السيرة، ص ٥٢٥

كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ المائدة: ٣ . **ولعل من سماها صريحاً من الصحابة بهذا الاسم أرادوا جميع هذه المعاني وهذه الأسباب.**

ثانياً:الخروج لحجة الوداع:

لما دخل ذو القعدة من السنة العاشرة أعلن النبي ﷺ للمسلمين جميعاً أنه سيخرج للحج، وندب المسلمين للخروج معه لأداء الفريضة، واشترى البُدْن والهَدْي،- ذبائح الحج- فتجهز ناس كثير يريدون أن يشهدوا الحج مع رسول الله ﷺ، وأقبلت الوفود من كل صوب، حتى كان الحجيج آلافاً مؤلفة، قدّرهم أبو زرعة بأربعين ألفاً.[١] وخرج الرسول ﷺ بالمسلمين في آخر السنة العاشرة قبل نهاية شهر ذي القعدة بخمسة أيام. وكانت أول حجة لرسول الله ﷺ بعد الهجرة واستخلف على المسلمين بالمدينة أبا دجانة الساعدي[٢].

ولما وصل المسلمون ذا الحُلَيْفة،- وهو ميقات الإحرام لأهل المدينة وأهل الشام قريب منهه في بداية الطريق إلى مكة- صلى رسول الله ﷺ ركعتين وأحرم بالحج والعمرة قارناً، وأحرم معه المسلمون ممن ساق الهدي، وأما من لم يسق الهدي فأمرهم أن يحرموا بعمرة،أي متمتعين، وعلّم المسلمين تلبية دين التوحيد،-خلافاً لتلبية المشركين-وأنها هي الصحيحة التي كان يلبيها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهي: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا

(١ انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، **٥٤٩/٢** نسبة إلى ابن كثير، اختصار علوم الحديث ص١٨٥

(٢) انظر ابن هشام،السيرة النبوية عن ابن إسحق بصيغة التحديث، **٢٣٠/٤**

شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. وسارت الجموع الكبيرة يقودها رسول الله ﷺ حتى وصلوا مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة.

وقد التحق بالحجيج علي بن أبي طالب رضي الله عنه قادماً من اليمن من بعث كان كلَّفه بإمارته رسول الله ﷺ إليها بعد حجه مع أبي بكر رضي الله عنه.[1] كما التحق به كذلك أبو موسى الأشعري وقد عاد من اليمن أيضاً حيث يروي هو نفسه ذلك فيقول: "قدمت على النبي ﷺ بالبطحاء فقال: أحججتَ؟ (يقصد: هلنويت الحج؟) قلت: نعم. قال: كيف أهللت...الخ الحديث."[2].

ثالثاً:أفعال الحج[3]:

دخل رسول الله ﷺ البيت الحرام، وتبعه المسلمون؛ فطاف سبعة أشواط حول الكعبة مبتدئاً بتقبيل الحجر الأسود، رمَلَ–أسرع– في الثلاثة الأولى منها، ثم صلى في مقام إبراهيم ركعتين، ثم رجع إلى الملْتزَم فاستلمه، ثم صعَد إلى الصفا وقرأ قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ١٥٨ وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط؛ يسرع في كل شوط منها بين الميلين، وكان في بداية كل شوط يتجه إلى الكعبة، ويقول "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل قدير، لا إله الا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده." ثم يدعو وهو يسعى.

وبهذا أنهى الرسول أعمال العمرة وبقي محُرماً لأنه ساق الهدي، وكان حجه قارناً. – أي جامعاً بين العمرة والحج في إحرام واحد– وأمر مَن لم يَسُق الهدي بالتحلل من الإحرام

(١) انظر المرجع السابق.

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم ٤٣٩٧

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، (مع الروض)، ٢٣٠/٤ – ٢٣٢ والواقدي ، المغازي ، ١٠٨٩/٣ - ١١٠٢

ليكونوا متمتعين، وقال: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أسق الهدي وجعلتُها عمرة. وفي هذه الفترة قدم عليٌّ ﷺ من اليمن، وكان قد نوى أن يُهِلَّ كما أهل رسول الله ﷺ، فأصبح قارناً مثله.

وفي يوم التروية– في الثامن من ذي الحجة– توجه رسول الله والحجيج_ وقد أحرم المتمتعون منهم بالحج– إلى منى فباتوا فيها. وبعد طلوع الشمس ساروا إلى جبل عرفات. وقد ضُرِبت للرسول قُبَّة –أي خيمة صغيرة أشبه بالمظلة لتقيه من حر الشمس– بنَمِرَة — وهي المنطقة المعروفة الآن بمسجد نمرة– خطبَ في المسلمين خُطبة عَرَفة، وصلى بهم الظهر والعصر جمع تقديم، وصعد إلى الموقف واستقبل القبلة يدعو الله تعالى، حتى غربت الشمس وركب ناقته، وأفاض إلى المزدلفة والمسلمون يتْبَعونه، فصلى فيها بالمسلمين المغرب والعشاء جمع تأخير، وبات فيها إلى الفجر، فصلى الفجر، وأتى المشعر الحرام حتى أسفر الصبح قبيل طلوع الشمس بقليل، واتجه إلى منى، فأتى جمرة العقبة الكبرى فرماها بسبع حصيات يُكَبِر مع كل حصاة منها، ثم نَحر هديه، ونادى الحلاق فحلق شعره، وتحلل التحلل الأصغر، ثم نزل إلى مكّة فطاف طواف الإفاضة، وعاد إلى منى يبيت فيها ويرمي كل يوم من أيام التشريق الجمرات الثلاث، وفي آخر يوم ذهب إلى مكة فطاف طواف الوداع. وكانت عائشة رضي الله عنها قد حاضت قبل دخول مكة، فلم تُهِلَّ بعمرة، فأمر رسول الله ﷺ أخاها عبدَ الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أن يأخذها لتُحرِم من الحِلِّ بالتنعيم –أول حدود الحرم على مدخل مكة، وهو ميقات أهل مكة– لتؤدي عمرتها، ثم عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة. وبهذا يكون ﷺ قد أتم الحج، وأتم المسلمون معه حجهم.(1).

(1) انظر تفصيل وصف حج رسول الله ﷺ في صحيح مسل، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ، رقم ١٢١٨ وانظر التفاصيل في سائر أحاديث الكتاب،وانظر البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، رقم ٤٣٩٥ - ٤٤٠١

رابعاً: خطبة النبي ﷺ بعرفة في حجة الوداع:

نظر رسول الله ﷺ إلى ما يزيد على أربعين ألفاً من الحجيج في عرفة، يُلَبّون ويدعون، واستشعر نعمة الله الغامرة باستعادة عقيدة التوحيد تملأ قلوب الناس في عرفة، بعد أن لوثَت هذا الموقف صيحات الشرك سنوات طويلة، فقام عليه الصلاة والسلام خطيباً يُعلِّم الناس أصول الأحكام، يعلنها صفحة بيضاء نقية، ويُنهي بها صفحة سوداء من الجاهلية والشرك والوثنية والزيغ والانحراف.

وكانت خطبته :" أيها الناس! اسمعوا قولي هذا، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى تلقَوْا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستَلْقَوْن ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤُدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا ربا. وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أول دماءكم أضع دم ربيعة ابن الحارث ابن عبد المطلب، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس!إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رضي به؛ مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. أيا الناس: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ التوبة: ٣٧ وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم؛ ثلاثة متوالية ورجب– الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس! فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً؛ لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن ذلك فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عَوان (أي أسيرات بحكم قوامة الرجل)لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس فإني قد بَلَّغت.

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمراً بينا، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس! اسمعوا وأطيعوا؛ وإن أمر عليكم عبد حبشي ما أقام فيكم كتاب الله تعالى.

أيها الناس! اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامريء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلِمُنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ فقال الناس : نعم. وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب. فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغتَ وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد. اللهم اشهد. اللهم اشهد

وكان ربيعة بن أمية بن خلف يبلغ المسلمين الذي لا يسمعون فيصرخ بأعلى صوته ،يكرر ما يقوله رسول الله ﷺ.

وقد خطب النبي ﷺ خطبة أخرى أحد أيام النحر بمنى ، فيها تكرار لبعض ما قاله يوم عرفة وفيها وصايا أخرى للمسلمين وقد أوردها الواقدي وهذا نصها:[١]

"عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَا: خَطَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الْغَدِ مِنْ يَوْمِ النّحْرِ بَعْدَ الظّهْرِ عَلَى نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ. وَزَادَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ فِي الْقِصّةِ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

أَيّهَا النّاس، اسْمَعُوا مِنْ قَوْلِي فَاعْقِلُوهُ، فَإِنّي لَا أَدْرِي، لَعَلّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ! أَيّهَا النّاس، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالَ: فَسَكَتُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا شهرٌ حرام! فأيُّ بلد هذا؟ فسكتوا، فَقَالَ: بَلَدٌ حَرَامٌ. ثُمّ قَالَ: أَيّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَتُوا، فَقَالَ: يَوْمٌ حَرَامٌ. ثُمّ قَالَ رسول الله ﷺ: إن اللهَ قَدْ حَرّمَ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، كَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي يَوْمِكُمْ هَذَا، إلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلّغْت؟قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: اللهُمّ، اشْهَدْ! ثُمّ قَالَ: إنّكُمْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ رَبّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا هَلْ بَلّغْت؟ قَالُوا: نَعَمْ! قَالَ: اللهُمّ اشْهَدْ. أَلَا وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدّهَا إلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، أَلَا وَإِنّ كُلّ رِبًا فِي الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنّ كُلّ دَمٍ فِي الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوّلُ دِمَاءِكُمْ أَضَعُ، دم إياس بن ربيعة بن الحارث– كان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد ابن لَيْث، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ– أَلَا هَلْ بَلّغْت؟ قَالُوا: اللهُمّ، نَعَمْ! قَالَ:اللهُمّ اشْهَدْ! فَلْيُبَلّغْ الشّاهِدُ الْغَائِبَ! أَلَا إنّ كُلّ مُسْلِمٍ مُحَرّمٌ عَلَى كُلّ مُسْلِمٍ، وَلَا يَحِلّ مَالُ مُسْلِمٍ إلّا مَا أَعْطَى عَنْ طِيبِ نَفْسٍ.فَقَالَ عَمْرُو بْنُ يَثْرِبِيّ، فَقُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْت إن لقيت غنم ابْنِ عَمّي، أَجْزُرُ مِنْهَا شَاةً؟ قَالَ: وَعَرَفَنِي، فَقَالَ: إنْ لَقِيتهَا نَعْجَةً تَحْمِلُ شَفْرَةً وَزِنَادًا بِخَبْتِ الْجَمِيشِ –الْجَمِيشُ وَادٍ قَدْ عَرَفَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسّاحِلِ كَثِيرُ الْحَطَبِ، وَهُوَ وَادٍ لِبَنِي ضَمْرَةَ، وَهُوَ مَنْزِلُ عَمْرِو بْنِ يَثْرِبِيّ ، وَيُقَالُ: خَبْتُ الْجَمِيشِ مَوْضِعُ صَحْرَاءَ، يُقَالُ جَنْبَ كَدَاءٍ– فَلَا تَهِجْهَا! ثُمّ قال

(١) الواقدي،المغازي، ١١١١/٣ -١١١٣

رسول الله ﷺ: يَا أَيّهَا النّاسُ إنَّمَا النَّسيءُ زيادَةٌ في الْكُفْرِ يُضَلُّ به الَّذينَ كَفَرُوا يُحلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً ليُواطؤُا عدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. أَلَا وإنّ الزّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَته يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السّمَوَات وَالْأَرْضَ، وإنّ عدّةَ الشّهُور اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا في كتَاب الله، منْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ؛ ثَلَاثَةٌ مُتَوَاليَةٌ: ذُو الْقعْدَة، وَذُو الْحجّة، وَالْمُحَرّمُ، وَرَجَبٌ الّذي يُدْعَى شَهْرَ مُضَرٍ، الّذي بَيْنَ جُمَادَى الْآخرَة وَشَعْبَانَ، وَالشّهْرُ تسْعَةٌ وَعشْرُونَ يَوْمًا، وَثَلَاثُونَ، أَلَا هَلْ بَلّغْتُ؟ فَقَالَ النّاسُ: نَعَمْ! فَقَالَ: اللهُمّ اشْهَدْ! ثُمّ قَالَ: أَيّهَا النّاسُ، إنّ للنّسَاء عَلَيْكُمْ حَقّا، وَإنّ لَكُمْ عَلَيْهنّ حَقّا، فَعَلَيْهنّ أَلّا يُوطئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا، وَلَا يُدْخلْنَ بيُوتَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ إلّا بإذْنكُمْ، فَإنْ فَعَلْنَ فَإنّ اللهَ قَدْ أَذنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنّ في الْمَضَاجع، وَأَنْ تَضْربُوهُنّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرّحٍ، فَإنْ انْتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فَلَهُنّ رزْقُهُنّ وَكسْوَتُهُنّ بالْمَعْرُوف، وَإنّمَا النّسَاءُ عنْدَكُمْ عَوَانٍ لَا يَمْلكْنَ لأَنْفُسهنّ شَيْئًا، وَإنّمَا أَخَذْتُمُوهُنّ بأَمَانَة الله، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنّ بكَلمَة الله، اللهَ في النّسَاء وَاسْتَوْصُوا بهنّ خَيْرًا، أَلَا هَلْ بَلّغْتُ؟ قَالَ النّاسُ: نَعَمْ! قَالَ: اللهُمّ، اشْهَدْ! أَيّهَا النّاسُ، إنّ الشّيْطَانَ قَدْ يَئسَ أَنْ يُعْبَدَ بأَرْضكُمْ هَذه، وَلَكنّهُ قَدْ رَضيَ أَنْ يُطَاعَ فيمَا سوَى ذَلكَ ممّا تَحْقرُونَهُ، فَقَدْ رَضيَ به.

إنّ كُلّ مُسْلمٍ أَخُو الْمُسْلم، وَإنّمَا الْمُسْلمُونَ إخْوَةٌ، وَلَا يَحلّ لامْرئ مُسْلمٍ دَمُ أَخيه وَلَا مَالُهُ، إلّا بطيب نَفْسٍ منْهُ، وَإنّمَا أُمرت أَنْ أُقَاتلَ النّاسَ حَتّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلّا اللهُ، فَإذَا قَالُوهَا عَصَمُوا دمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَحسَابُهُمْ عَلَى الله. وَلَا تَظْلمُوا أَنْفُسَكُمْ، وَلَا تَرْجعُوا بَعْدي كُفّارًا، يَضْربُ بَعْضُكُمْ رقَابَ بَعْضٍ. إنّي قَدْ تَرَكْت فيكُمْ مَا لَا تَضلّونَ به، كتَابُ الله، أَلَا هَلْ بَلّغْت؟

قَالَ النّاسُ: نَعَمْ! قَالَ: اللهُمّ، اشْهَدْ! ثُمّ انْصَرَفَ إلَى مَنْزله.

خامساً: دروس حجة الوداع وعبرها:

أ- تطهير مكة من الشك بين يدَيْ حج رسول الله ﷺ : جعل الله حجة أبي بكر بين يدي حجة الوداع، لأن المشركين كانوا ما يزالون يحجون، وبعضهم كان معاهداً وبعضهم الآخر كان بلا عهد؛ ولهذا رسول الله ﷺ أجل حجَّه حتى لا يطوف بالبيت مشرك ولا عريان، وليكون حجُّه الأكبر علامة النصر الأكبر لدينه واحتفاله الأعظم بتطهير الجزيرة العربية من الشرك.

ب- حرص الصحابة على ملازمة رسةل الله ﷺ :حرَص المسلمون من كل حدب وصوب عل أن يحجوا مع رسول الله ﷺ ليتعلموا منه أحكام الحج، ولينالوا بركة الحج معه عليه الصلاة والسلام.

ت- ضرورة الاستخلاف: كان من عادة رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة لغزو أو عمرة أن يستخلف على المدينة واحداً من أصحابه يقيم أمر الناس، ويصلي بهم؛ وقد استخلف في حجه الأكبر أبا دجانة الساعدي.

ث- حب أصحابه له ﷺ: كان حب أصحاب النبي ﷺ لنبيهم حباً عظيماً؛ فمعاذ بن جبل يبكي ورسول الله ﷺ يودِّعه، وعمر يبكي حين تنزل آية:﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ المائدة: ٣ وكيف لا يحبون أعظم نعمة أنعمها الله عليهم بالنبوة والرسالة؟!

ج- إكرام رسول الله ﷺ المرأة: فمواساة النبي ﷺ لعائشة حين حزنت بسبب حيضها وأنها سوف لا تؤدي عمرة، فيهدّئ النبي ﷺ من روْعها ويقول لها: "عسى الله أن يرزقكيها، إنما أنتِ من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن."[1] ثم يأمر أخاها عبد الرحمن أن

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج ، باب حجة الوداع رقم، ١٥١٨ ، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الإحرام ، رقم ١١٩ /١٢١١ ، ١٣٦ / ١٢٣

يأخذها إلى الميقات لتُحرِم وتؤدي عمرتها، إن هذه المواساة وهذا اللطف ليدل دلالة أكيدة واضحة على إكرام رسول الله ﷺ للزوجة خاصة، وللمرأة عامة. وهي دعوة صريحة لإحسان معاملتها والرفق بها.

ح- مبادئ عامة ووصايا هامة: اختار النبي ﷺ في حجة وداعه مجموعة من المباديء العامة وجعلها وصايا للمسلمين إلى قيام الساعة، مع أن حياته كلها كانت مليئة بتعليم المسلمين مبادئ كلها خير، ووصايا كلها نافع، وذلك لأهمية هذه المبادئ والوصايا، وأهمها:

١- احترام نفس المؤمن ودمه وماله وعرضه: فالأصل في هذه الأمور دون غيرها الحرمة إلا ما أحله الله منها.

٢- حرمة مال المسلم وحفظ أمانته: ولهذا نهى النبي ﷺ المسلم عن أن يأكل مال أخيه المسلم عن غير طيب نفس منه، كماطلب النبي ﷺ أن ترد الأمانة إلى أهلها محفوظة سالمة.

٣- التأكيد حرمة مال المسلم وحرمة الربا : ولهذا فقد أهدر النبي ﷺ ربا الجاهلية وعدّ ربا الجاهلية موضوعاً أسقط حق الملكية التي كانت له في الجاهلية؛ فإن الحرام ليس وسيلة مشروعة للتملك.

٤- عصمة الدماء والأعراض: ولذا فقد أهدر رسول الله ﷺ دماء الجاهلية وثاراتها؛ حتى لا تستباح دماء المسلمين بالثأر لدماء الجاهلية؛ فإنه لا يُحطِم الأمة وضعفها مثلُ اقتتالها واستحلالها الفواحش.

٥- الحيْطة من وسوسة الشيطان وعدم التجاوب معه؛ لأنه يفسد اعتقاد العباد وعبادتهم، ويُحَرِّش بينهم بإفساد ذات بينهم.

٦- مراعاة حرمات الله وحرمة الأشهر الحرم، وعدم التلاعب بشرع الله.

٧- إكرام المرأة: فقد وصّى النبي ﷺ بالنساء خيراً بإعطائهن حقوقهن، وإعانتهن على القيام بواجباتهن، وذلك لأن الأسرة المسلمة إذا صلحت صلح المجتمع، واستقامت الأمة.

٨- الرحمة بالزوجة: وذلك بمواساتها والإشفاق عليها، والعمل على مساعدتها لتحقيق رغبتها، وخصوصاً إذا كانت حاجتها طاعة لله عز وجل؛ وذلك كما واسى رسول الله ﷺ عائشة ببيانه لها طبيعة المرأة، وإرساله أخاها معها لتؤدي عمرتها.

٩- بيان أهم حقوق الزوج على زوجته: وذلك بعدم إدخال الأجنبي بيت الزوج من غير إذنه، لما فيه من المفسدة والإساءة لسمعة الزوجين والأُسرة.

١٠- جواز تأديب الزوجة: وذلك بحكم القوامة، حين يلزم الأمر، وبالمعروف ودون قسوة.

١١- الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ: هو الحافظ للأمة من الزلل والانحراف، وبهذا يُوَحِّدُ النبي ﷺ المرجعية العليا للأمة المسلمة، والمصدر الرباني الذي تأخذ منه دينها وشريعتها ومنهاج حياتها.

١٢- الإشهاد على وظيفة الأُمة المسلمة: أشهد النبي ﷺ على هذه الوصايا الشاهدين للحج، وطلب منهم أن يبلغوها للغائبين مِن بعدهم، وهذه أمانة التبليغ للرسالة وحملها للأجال القادمة، هي التي أشهد النبيﷺ ربه علينا، وهي الضمان لتنفيذ هذه الوصايا وتبليغها إلى قيام الساعة، طبقاً لعالمية هذه الرسالة وخاتميتها؛ فشهادة الأمة المسلمة على الناس تُعَدُّ من أهم ضمانات عالمية رسالة الإسلام، وحملُ الرسالة والدعوة إلى الله عز وجل هي السياج الذي يحفظ الأجيال مسلمة جيلاً بعد جيل إلى قيام الساعة.

خ- إكمال الدين وإتمام النعمة إيذان بقرب وفاة رسول الله ﷺ : وهكذا اكمل الله الدين وأتم النعمة على رسوله ﷺوعلى المؤمنين، فقد أسلمت الجزيرة العربية، وأُعلِنت عالمية الإسلام لكبرى دول العالم، وأتم الله للمسلمين فرائضهم وآخرها فرض الحج، ومكّن لرسوله ﷺولجماهير المسلمين من أداء الفريضة، وأنزل على رسوله ﷺ بعرفة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ المائدة: ٣

وقد قد بكى أبو بكر ﷺ حين سمع الآية؛ لأنه فهم منها أن وظيفة الرسول ﷺ قد تمت على الأرض، وأنها تَشي بقرب وفاته ﷺ . وهي آية عظيمة، عظَّمها اليهود مع أنهم لا يؤمنون بالإسلام؛ "فعن طارق بن شهاب أن أناساً من اليهود قالوا: لو نزلت هذه الآية فينا لأتَّخَذْنا ذلك عيداً. فقال عمر:أية آية؟ فقالوا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ المائدة: ٣ فقال عمر : إني لأعلم أيّ مكان أُنزلت، أُنزلت ورسول الله ﷺ بعرفة."[١].

د- وثمة دروس وعبر فقهية كثيرة بينت أحكام الحج والعمرة بالتفصيل، يصعب الحديث عنها هنا، لأن مجالها فقه الحج في العبادات.

---

(١)البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع رقم ٤٤٠٧

الفصل الثامن

في الرفيق الأعلى

المبحث الأول: مرض النبي ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى.

المبحث الثاني: ضميمة من صحيح البخاري في مرض النبي ﷺ وموته.

المبحث الأول

مرض النبي ﷺوالتحاقه بالرفيق الأعلى

أولاً:بين يدي المبحث:

اعذرني أيها القاريء الكريم، فإن ما أضعه في هذا الكتاب من عرض لهذا المبحث قد كتبته سابقاً، ووجدت نفسي حين وصلت الى الكتابة في مبحث وفاة رسول الله ﷺ أن نفسي لا تطاوعني، وأن قلبي يملؤه الحزن، وأن فكري يشرد ، ولم أتمالك نفسي من البكاء، علماً بأنه مضى علي وأنا أُدرس مادة السيرة النبوية ما يزيد عن ثلاث وأربعين سنة في كلية الشريعة وفي المراكز العلمية ، وكنت أتجنب أن أنهي المادة بوفاة رسول الله ﷺ ؛ حيث كان شعاري لطلابي رسولنا حبيبنا، وحبيبنا رسولنا، كلما بدأنا محاضراتنا ،وكما انتهينا منها ، نشيداً تعلو بها أصواتنا جميعاً ، وتنتعش به قلوبنا، وتنشرح به صدورنا. وكنت لا أحب، بل لا أطيق الحديث في موت رسول الله ﷺ؛ إذ كلما أردت تحضير هذا الموضوع لا أملك نفسي من البكاء– ولست وحدي الذي يحصل له هذا، فجرب واجلس خالياً، واستحضر حب رسولنا ﷺ، وحاول أن تقرأ مرضه ووفاته– و مع تسليمي بقدر الله في موته ﷺ ،وإيماني بأنه بشر يجري عليه ما يجري على البشر من حياة وموت، وقد قال الله تعالى له، وأنزل عليه، وقرأنا كتاب ربنا وصدقنا به وآمنا:(إنك ميت وإنهم ميتون) إلا أن الله تعالى لم يمنعنا من الحزن على أحبابنا إذا ماتوا. وقد حزن قدوتنا وحبيبنا ﷺ على موت أحبابه مع تسليمه بقدر الله تعالى ورضائه بقضائه. فكيف بنا وهو الحبيب؟!، بل والأحب إلينا من أنفسنا وأولادنا ووالدينا، ومن كل ما نحب ومن نحب ومن الناس أجمعين ، أليس هو القائل: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من

والده ووالده والناس أجمعين"[1]؟ ثم؛ ألم يحزن أصحاب رسولنا ﷺ لموته؟ ألم يحزن عمر ﷺ لموته؟ ولم يصدق خبر الوفاة!! وألم يهبط عثمان ﷺ على الأرض ولم يملك أن يقف على رجليه حين سمع بخبر وفاته ﷺ فحمله الصحابة بين أيديهم؟!! ألم تجهش أم أيمن في البكاء عليه؟ وألم...؟ وألم..؟!؟! إذ؛ كيف تطيق قرأءة موت أحب الناس إليك؟! ولذا؛ فلم يطاوعني قلمي ،ولم يتحمل قلبي أن أدخل في تفاصيل وفاته عليه الصلاة والسلام، وأكتفي بما كنت كتبته فبل ما يزيد عن عشرين عاماً، وأكتفي بضميمة من روايات صحيح البخاري في مرضه ووفاته ﷺ في المبحث الثاني من هذا الفصل إن شاء الله.

ثانياً: علامات التوديع:

بدأت علامات قرب وفاة النبي ﷺ تتوالى في السنة العاشرة للهجرة، والسنة الثالثة والعشرين لبَعثته ﷺ، وهي السنة الأخيرة من حياته، فعند وداعه معاذَ بن جبل وقد بعثه الى اليمن قال له: إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا. وفي حجة الوداع يودع المسلمين في خُطبته فيقول: فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. وقد اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً على غير عادته، إذ كان يعتكف في آخر سنواته العشر الأواخر فقط، وعرض عليه جبريل عليه السلام القرآن مرتين في تلك السنة، على غير عادته معه، وقد أنزل الله عليه سورة العصر:﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾ النصر: ١ - ٣وكانت إيذاناً برحيل رسول الله ﷺ كما فهم عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما ذلك فعن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ يدني ابن عباس، فقال له عبد الرحمن بن عوف: إن لنا أبناء مثله! فقال: إنه من حيث تعلم. (أي قربه من النبي ﷺ وفطنته وذكاءه وفقهه في آيات القرآن

(١) البخاري في صحيحه، كتب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم ١٥

لدعاء النبي ﷺ له أن يفقهه في الدين). فسأل عمرُ بن الخطاب ابنَ عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ النصر: ١ فقال: أجلُ رسوله الله ﷺ أعلمه إياه. فقال: ما أعلم منها إلا ما تَعْلَمُ."[١] وقد أنزل الله كذلك قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ المائدة: ٣ أوائل صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة؛ خرج، فصلى على شهداء أحد، فكأنه يودع الأموات والأحياء،ثم صعد المنبر وخطب، فقال :"إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها."[٢] –أي في الدنيا– وعن عقبة بن عامر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ على قتلى أحد، ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات فقال:" إني فرطكم على الحوض، وإن عرضه كما بين أيلة(أي العقبة في الأردن) إلى الجُحفة• (في الحجاز بين المدينة ومكة، وهي إلى مكة أقرب) إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم."[٣]

ثالثاً:شكوى رسول الله ﷺوتمربضه:

وفي آخر ليلة من صفر في السنة العاشرة للهجرة اشتكى رسول الله ﷺ من وجع في رأسه حيث كان عائداً من جنازة، وكان قبلها بليلة قد خرج إلى البقيع في منتصف الليل ومعه مولاه أبو مويهبة، فلما أتى أهل البقيع قال:"السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ

(١) البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم ٤٤٣٠

(٢) مسلم في صحيحه،كتاب الفضائل، باب اثبات حوض نبينا ﷺ ، رقم ٢٢٩٦/٣

(٣) المرجع السابق، رقم، ٣ / ٢٢٩٦

لكم ما أصبحتم فيما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أخرها أولها؛ الآخرة أشرّ من الأولى. ثم أقبل على أبي مويهبة، فقال:إني أُعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، فَخُيِّرْتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فقال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي. فخذ مفاتيح خزائن الدنيا وتخلد فيها ثم، الجنة.فقال: لا والله يا أبا مويهبة: قد اخترت لقاء ربي والجنة، ثم استغفرَ لأهل البقيع."[1]

وكان أول وجعه ﷺ صداعاً شديداً، وكانت عائشة تَرقيه فتقرأ عليه المعوذات، وتمسح بيده على جسمه. وشعر ﷺ بتعب شديد، وشعرت نساؤه أنه يرغب أن يُمَرَّض في بيت عائشة؛ لأن صحته ما عادت تساعده على التنقل بين بيوت أزواجه، فأَذِنَّ له. وكان يطلب أن يُصَبَّ عليه ماء بارد لتخفيف الحرارة، وكان يخرج بصعوبة فيصلي بالناس، حتى صلى بهم أحد عشر يوماً وهو على هذا الحال.

ولما ثقل عليه المرض عَهِد إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فخافت عائشة من أن يتشاءم الناس من أبيها، وأشفقت عليه من تبعات ذلك، ولكن رسول الله ﷺ أصر على ذلك، وقال لعائشة غاضباً :" إنكن صواحب يوسف، مُروا أبا بكر فلْيُصَلِّ بالناس"[2]. وقد خرج رسول الله ﷺ مرة فوجدهم يصلون، فطلب ممن معه أن يجلسوه على يسار أبي بكر فأخذ يؤم المسلمين بإمامة أبي بكر، فهو يؤم أبا بكر، وأبو بكر يؤم المسلمين.

رابعاً:من وصايا النبي ﷺ في مرض موته:

أ- خرج رسول الله ﷺ وهو يشتكي، فصعد المنبر فقال: "عبدٌ خَيَّرَهُ الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر ﷺ وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا!

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٥٥/٣ -٥٦ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وانظر سائر تخريجاته في العلي، صحيح السيرة، ص٥٥٣

(٢) البخاري في صحيحه ، كتاب المرض، باب ما يرخص للمريض، رقم ٥٦٦٦ ، وكتاب الأحكام، باب الاستخلاف، رقم، ٧٢١٢ ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل أبي بكر، ٣٢٨٧

إذ فهم أن هذا الذي خُيِّر هو رسول الله ﷺ، وأنه اختار الموت. واستغرب بعض الصحابة بكاء أبي بكر رضي الله عنه، فلما عرفوا بعد ذلك قالوا: كان أعلمنا وأفهمنا، فلما رأى النبيُّ ﷺ أبا بكر يبكي قال: على رَسْلِك يا أبا بكر، أيها الناس، إنَّ آمنَ الناس عليّ أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الاسلام، لا يبقين في المسجد خوخة(باب صغير) إلا سدّ إلا باب أبي بكر".

ب- كما حذر النبي ﷺ من اتخاذ قبره مسجداً، فقال للمسلمين على المنبر:" لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ لا تتخذوا قبري وثناً يُعبد".

ت- كما أوصى النبي ﷺ المسلمين بالأنصار، وقدّر لهم فضلهم في نصرة دين الله تعالى فقال:" أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشى وعَيْبَتى، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم".

ث- كما اوصى النبي ﷺ بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وبالاعتصام بالكتاب والسنة. وإنفاذ جيش أسامة وبالنساء خيراً، وكان آخر كلمة وصى به المسلمين"الصلاة الصلاة وكررها مرارا"(١).

خامساً:الالتحاق بالرفيق الأعلى:

اشتد الألم على رسول الله ﷺ، وفي صلاة فجر يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وكان أبو بكر يصلي بالمسلمين، فاجأ رسول الله ﷺ المسلمين فكشف الساتر بينهم وبينه من بيت عائشة، فنظر إليهم ثم تبسم يضحك، فتأخر أبو بكر ليفتح المجال للنبي ﷺ ليخرج فيؤم الناس، وفرح المسلمون ظناً منهم أن رسول الله مُعافى، ولكنه عليه الصلاة والسلام أشار لأبي بكر أن يكمل إمامته، ودخل الحجرة وأرخى الساتر، وأسند رأسه إلى صدر عائشة رضي الله عنها وبدأت ساعة

---

(١) انظر توثيق هذه القضايا في الضميمة التفضيلية لمرض النبي ﷺ ووفاته المرفقة بهذا الفصل من صحيح مسلم ومجموع الروايات في ذلك من كتاب ابراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية.

الاحتضار، وجاءت فاطمة رضي الله عنها، وكلما اشتدت به سكَرات الموت تصيح: واأبتاه، واكرب أبتاه، فيفيق، ويقول لها يا فاطمة: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، ولم يهديء من رَوْعها وبكائها إلا حين أسر لها، فقال لها: إنه سينتقل إلى ربه فبكت، فسّارها مرة أخرى بأنها ستكون أول من يلحق به من أهله، ففرحت. ثم رأى في يد عبد الرحمن بن أبي بكر سواكاً، ففهمتْ عائشة أنه يريد السواك، فَلَّيَّنْته بريقها فتسوَّك، وما إن رفع يده حتى شخص بصرُه، وتحركت شفتاه يشهد: أن لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويقول: مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم اغفر لي وارحمني وأَلحِقْني بالرفيق الأعلى. اللهم الرفيق الأعلى. اللهم الرفيق الأعلى. اللهم الرفيق الأعلى، وفاضت روحه الطاهرة ﷺ إلى ربها، راضية مرضية.

سادساً: هول الفاجعة:

خرج خبر الوفاة، ونعى المسلمون رسولهم، وتسرب النبأ المحزن، وأصبحت المدينة يخيم عليها حزن شديد، ووجوم عجيب، ومُصاب جلل، حتى قال أنس بن مالك: ما رأيت يوماً قط كان أحسن، ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يوماً أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ. (١).

وأقبل أبو بكر فدخل على رسول الله ﷺ فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبَّله، وبكى وقال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كتب عليك فقد متها. ثم خرج إلى الناس رابط الجأش ثابت الأعصاب، فوجد عمر في حالة شديدة من الحزن، يتوعد بالقتل من يدعي أن رسول الله ﷺ قد مات، فقال له: على رسلك يا عمر، اجلِس وأَنصِت. واجتمع الناس على أبي بكر فقال: "أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ

(١)رواه الدارمي:مشكاة المصابيح ٥٤٧/٢

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٤. فتلقاها منه الناس كلهم فأخذوا يتلونها فقال عمر ﷺ: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعَقِرْتُ حتى ما تُقلُّني رجلايَ، وحتى أهويت على الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات.

وأما عثمان ﷺ فقد أهوى على الأرض، ولم تعد رجلاه تحملانه من حزنه وفجيعته برسول الله ﷺ. وأما علي والعباس وآل بيت النبي ﷺ فقد انشغلوا بتجهيزه ﷺ. وقد صلى عليه المسلمون صلاة الجنازة أفواجاً أفواجاً. وفي ليلة الأربعاء دفنوه عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة مكان موته. وبهذا يكون عليه الصلاة والسلام قد انتقل إلى رحمة ربه بعد ثلاثة وستين عاماً.

سابعاً: دروس وعبر من وفاته ﷺ:

أ- المؤمن يشتاق إلى لقاء ربه بالموت ولا يفزع؛ إذ لما خُيِّر رسول الله ﷺ بين خير الدنيا إلى آخر يوم فيها وبين لقاء ربه بالموت اختار لقاء ربه سبحانه، وقال: في الرفيق الأعلى، وكررها مراراً؛ فإن من اشتاق إلى لقاء الله اشتاق الله تعالى إلى لقائه.

ب-زيارة أهل القبور مشروعة لما فيها من العظة والاعتبار وتذكر الموت. والدعاء للأموات سنة.

ت-الرُّقية بقراءة القرآن والمسح على جسد المريض جائزة، وفيهما بركة بإذن الله تعالى.

ث-لقد كان حب أصحاب رسول الله ﷺ له عظيماً، فأبو بكر ﷺ يبكي حين سمع أن عبداً خُيِّر بين الدنيا ولقاء الله، ويبكي حين موت النبي ﷺ، كما أن عمر ﷺ كاد يفقد وعيه، وأخذ يهدد ويتوعد من يدعي أن الرسول قد مات بأنه سيضرب عنقه، وقد هوى هو وعثمان على الأرض من هول المصيبة.

ج- إن تماسك أبي بكر ﷺ في تهدئة المسلمين كان له أثر كبير في وقف الفتنة التي ربما كانت ستحصل بسبب الحزن والإحباط الذي شعر به المسلمون حين سمعوا خبر موت النبي ﷺ.

ح- حرص النبي ﷺ في وصاياه على التأكيد على عقيدة التوحيد وعلى التميز عن اليهود والنصارى؛ فنهى ﷺ المسلمين عن اتخاذ القبور مساجد، وعن تأليه الأنبياء والرسل. كما حرص على تطهير الجزيرة من كل العقائد الوثنية والمنحرفة؛ فأوصى بإخراج اليهود والنصارى من الجزيرة العربية، حتى لا يجتمع فيها دينان.

خ- كما تظهر أهمية عبادة الصلاة فهي عمود الدين، وشعار الأمة المسلمة المعلن، ولذا فقد فاضت روح رسول الله ﷺ إلى بارئها وهو يكرر وصيته للمسلمين بالصلاة.

د- إن استخلاف رسول الله ﷺ لأبي بكر بالصلاة، وحرصه وتأكيده على ذلك ليدل على منزلة عظيمة لأبي بكر، وأنه إيماء للمسلمين بان يكون أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ من بعده فيهم. ولقد أدرك المسلمون هذه الملاحظة فعملوا بها.

المبحث الثاني

ضميمة من صحيح البخاري في مرض رسول الله ﷺ وموته:[1]

بالإشارة إلى ما ذكرت بين يديْ هذا الفصل؛ أحببت أن أذكر روايات أحداث وفاته ﷺ من صحيج البخاري؛ ليقرأها القارئ مباشرة دون تعليق ولا تفيصل ولا تدخل من الباحث ؛ فإنها أبلغ في التأثير، وأدق في التعبير.

٨٥- باب مَرَضِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَوَفَاتِهِ، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ٣١ ﴾ الزمر: ٣٠ - ٣١

٤٤٢٨ – وَقَالَ يُونُسُ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، كَانَ النَّبِيُّ عليهﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: "يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ."

٤٤٢٩– حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ ، عَنْ عُقَيْلٍ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِ: {الْمُرْسَلاَتِ عُرْفًا} ثُمَّ مَا صَلَّى لَنَا بَعْدَهَا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ.

٤٤٣٠– حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَرْعَرَةَ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ إِنَّ لَنَا أَبْنَاءً مِثْلَهُ فَقَالَ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ

---

(١) البخاري،ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم،صحيح البخاري ط١،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ =١٩٩٢م ١٦١/٥ -١٧٠ أحاديث كتاب المغازي ،باب مرض النبي ﷺ ووفاته رقم ٤٤٢٨ - ٤٤٦٧

الآيَة {إِذَا جَاءَ نَصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} فَقَالَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ فَقَالَ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ.

٤٤٣١- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ ، حَدَّثَنا سُفْيَانُ ، عَنْ سُلَيْمَانَ الأَحْوَلِ ، عَنْ سَعيد بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يوْمُ الْخَمِيسِ وَمَا يوْمُ الْخَميسِ اشْتَدَّ بِرَسُولِ الله ﷺ وَجَعُهُ فَقَالَ ائْتُوني أَكْتُبْ لَكُمْ كتَابًا لَنْ تَضلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا فَتَنَازَعُوا ، وَلاَ يَنْبَغي عنْدَ نَبيٍّ تَنَازُعٌ فَقَالُوا مَا شَأْنُهُ أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ فَذَهَبُوا يرُدُّونَ عَلَيْه فَقَالَ دَعُوني فَالَّذي أَنَا فيه خَيْرٌ ممَّا تَدْعُوني إِلَيْه وَأَوْصَاهُمْ بثَلاَث قَالَ أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ وَسَكَتَ ، عَنِ الثَّالِثَة ، أَوْ قَالَ فَنَسِيتُهَا.

٤٤٣٢- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْد الله ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاق ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْد الله بْنِ عَبْد الله بْنِ عُتْبَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : لَمَّا حُضرَ رَسُولُ الله ﷺ وَفي الْبَيْت رجَالٌ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كتَابًا لاَ تَضلُّوا بَعْدَهُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعنْدَكُمُ الْقُرْآنُ حَسْبُنَا كتَابُ الله فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْت وَاخْتَصَمُوا فَمنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَرِّبُوا يكْتُبْ لَكُمْ كتَابًا لاَ تَضلُّوا بَعْدَهُ وَمنْهُمْ مَنْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلكَ فَلَمَّاأَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالاخْتلاَفَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : قُومُوا قَالَ عُبَيْدُ الله فَكَانَ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّة مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلكَ الْكتَابَ لاخْتلاَفِهِمْ وَلَغَطِهِمْ.

٤٤٣٣- حَدَّثَنَا يَسَرَةُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ جَميلٍ اللَّخْميُّ ، حَدَّثَنا إِبْرَاهيمُ بْنُ سَعْد ، عَنْ أَبيه ، عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائشَةَ ، رَضيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ دَعَا النَّبيُّ ﷺ فَاطمَةَ – عَلَيْهَا السَّلاَمُ – في شَكْوَاهُ الَّذي قُبِضَ فيه فَسَارَّهَا بِشَيْءٍ فَبَكَتْ ثُمَّ دَعَاهَا فَسَارَّهَا بِشَيْءٍ فَضَحِكَتْ فَسَأَلْنَا عَنْ ذَلكَ.

٤٤٣٤ – فَقَالَتْ سَارَّنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يُقْبَضُ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَبَكَيْتُ ثُمَّ سَارَّنِي فَأَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِهِ يَتْبَعُهُ فَضَحِكْتُ.

٤٤٣٥– حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ سَعْدٍ ، عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ يَقُولُ {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} الآيَةَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ.

٤٤٣٦– حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ سَعْدٍ ، عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : لَمَّا مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺالْمَرَضَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى.

٤٤٣٧– حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ إِنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهْوَ صَحِيحٌ يَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُحَيَّا ، أَوْ يُخَيَّرَ فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى فَقُلْتُ إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهْوَ صَحِيحٌ.

٤٤٣٨– حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ حَدَّثَنَا عَفَّانُ عَنْ صَخْرِ بْنِ جُوَيْرِيَةَ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ فَأَبَدَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَصَرَهُ فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَصَمْتُهُ وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَاسْتَنَّ بِهِ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَفَعَ يَدَهُ ، أَوْ إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ثَلاَثًا ثُمَّ قَضَى وَكَانَتْ تَقُولُ مَاتَ بَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي.

٤٤٣٩- حَدَّثَنِي حبَّانُ ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَنْهُ.

٤٤٤٠- حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُخْتَارٍ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهْوَ مُسْنِدٌ إِلَيَّ ظَهْرَهُ يَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ.

٤٤٤١- حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ هِلاَلٍ الْوَزَّانِ ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ قَالَتْ عَائِشَةُ لَوْلاَ ذَلِكَ. لأُبْرِزَ قَبْرُهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

٤٤٤٢- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي اللَّيْثُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ الله بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَّ لَهُ فَخَرَجَ وَهْوَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلاَهُ فِي ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ عَنْ صَخْرِ بْنِ جُوَيْرِيَةَ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ فَأَبَدَّهُ رَسُولُ الله ﷺ بَصَرَهُ فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَصَمْتُهُ وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَاسْتَنَّ بِهِ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ رَفَعَ يَدَهُ ، أَوْ إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى ثَلاَثًا ثُمَّ قَضَى وَكَانَتْ تَقُولُ مَاتَ بَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي.

٤٤٣٩- حَدَّثَنِي حِبَّانُ ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ.

٤٤٤٠- حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُخْتَارٍ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهْوَ مُسْنِدٌ إِلَيَّ ظَهْرَهُ يَقُولُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ.

٤٤٤١- حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ هِلاَلٍ الْوَزَّانِ ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ قَالَتْ عَائِشَةُ لَوْلاَ ذَلِكَ. لأُبْرِزَ قَبْرُهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

٤٤٤٢- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي اللَّيْثُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَّ لَهُ فَخَرَجَ وَهْوَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ تَخُطُّ رِجْلاَهُ الأَرْضَ بَيْنَ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ قَالَ عُبَيْدُ اللهِ فَأَخْبَرْتُ عَبْدَ اللهِ بِالَّذِي قَالَتْ عَائِشَةُ فَقَالَ لِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ هَلْ تَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ الآخَرُ الَّذِي لَمْ تُسَمِّ عَائِشَةُ ، قَالَ : قُلْتُ : لاَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ عَلِيٌّ وَكَانَتْ عَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا دَخَلَ بَيْتِي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ قَالَ هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ

الْقرَب حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ قَالَتْ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى لَهُمْ وَخَطَبَهُمْ.

٤٤٤٣ و٤٤٤٤ – وَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضى الله عنهم قَالاَ لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ وَهْوَ كَذَلِكَ يَقُولُ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا.

٤٤٤٥ ، أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ وَمَا حَمَلَنِي عَلَى كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلاً قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا ، وَلاَ كُنْتُ أُرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مَقَامَهُ إِلاَّ تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ.

رَوَاهُ ابْنُ عُمَرَ ، وَأَبُو مُوسَى ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

٤٤٤٦– حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي ابْنُ الْهَادِ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي فَلاَ أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ.

٤٤٤٧– حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ ، أَخْبَرَنَا بِشْرُ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ ، وَكَانَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَحَدَ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، رضي الله عنه، خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَقَالَ النَّاسُ يَا أَبَا حَسَنٍ كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللهِ بَارِئًا فَأَخَذَ بِيَدِهِ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ وَاللَّهِ بَعْدَ ثَلاَثٍ عَبْدُ الْعَصَا وَإِنِّي وَاللَّهِ لأُرَى رَسُولَ اللهِ ﷺ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ

هَذَا إِنِّي لأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ اذْهَبْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلْنَسْأَلْهُ فِيمَنْ هَذَا الأَمْرُ إِنْ كَانَ فِينَا عَلِمْنَا ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِنَا عَلِمْنَاهُ فَأَوْصَى بِنَا فَقَالَ عَلِيٌّ إِنَّا وَاللَّهِ لَئِنْ سَأَلْنَاهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَمَنَعَنَاهَا لاَ يُعْطِينَاهَا النَّاسُ بَعْدَهُ وَإِنِّي وَاللَّهِ لاَ أَسْأَلُهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ.

٤٤٤٨- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي اللَّيْثُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَا هُمْ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ ، وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي لَهُمْ لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلاَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُفُوفِ الصَّلاَةِ ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّلاَةِ فَقَالَ أَنَسٌ وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلاَتِهِمْ فَرَحًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ وَأَرْخَى السِّتْرَ.

٤٤٤٩- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو ذَكْوَانَ مَوْلَى عَائِشَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَقُولُ إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي ، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ فَقُلْتُ آخُذُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ وَقُلْتُ أُلَيِّنُهُ لَكَ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ فَلَيَّنْتُهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ ، أَوْ عُلْبَةٌ -يَشُكُّ عُمَرُ- فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ.

٤٤٥٠– حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ بِلاَلٍ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ ، أَخْبَرَنِي أَبِي ، عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَسْأَلُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ يَقُولُ: أَيْنَ أَنَا غَداً؟ أَيْنَ أَنَا غَداً؟ يُرِيدُ يَوْمَ عَائِشَةَ فَأَذِنَ لَهُ أَزْوَاجُهُ يَكُونُ حَيْثُ شَاءَ فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ حَتَّى مَاتَ عِنْدَهَا قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَاتَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ يَدُورُ عَلَيَّ فِيهِ فِي بَيْتِي فَقَبَضَهُ اللَّهُ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَبَيْنَ نَحْرِي وَسَحْرِي وَخَالَطَ رِيقُهُ رِيقِي، ثُمَّ قَالَتْ – دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَمَعَهُ سِوَاكٌ يَسْتَنُّ بِهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ أَعْطِنِي هَذَا السِّوَاكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَأَعْطَانِيهِ فَقَضِمْتُهُ ثُمَّ مَضَغْتُهُ فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَاسْتَنَّ بِهِ وَهْوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى صَدْرِي.

٤٤٥١– حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ، عَنْ أَيُّوبَ ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي وَكَانَتْ إِحْدَانَا تُعَوِّذُهُ بِدُعَاءٍ إِذَا مَرِضَ فَذَهَبْتُ أُعَوِّذُهُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى. وَمَرَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَفِي يَدِهِ جَرِيدَةٌ رَطْبَةٌ فَنَظَرَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَظَنَنْتُ أَنَّ لَهُ بِهَا حَاجَةً فَأَخَذْتُهَا فَمَضَغْتُ رَأْسَهَا وَنَفَضْتُهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ فَاسْتَنَّ بِهَا كَأَحْسَنِ مَا كَانَ مُسْتَنًّا ثُمَّ نَاوَلَنِيهَا فَسَقَطَتْ يَدُهُ ، –أَوْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ – فَجَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الآخِرَةِ.

٤٤٥٢– حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ ، عَنْ عُقَيْلٍ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ، رضي الله عنه ، أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهْوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى.

٤٤٥٣ ، ثُمَّ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَاللَّهِ لاَ يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا.

٤٤٥٤- قَالَ الزُّهْرِيُّ وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ يَا عُمَرُ فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَّا بَعْدُ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ قَالَ اللَّهُ : {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} إِلَى قَوْلِهِ {الشَّاكِرِينَ} وَقَالَ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَراً مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَتْلُوهَا فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَيَ وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ.

٤٤٥٥ و٤٤٥٦ و٤٤٥٧- حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ ، عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَبَّلَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ.

٤٤٥٨- حَدَّثَنَا عَلِيٌّ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى وَزَادَ قَالَتْ عَائِشَةُ لَدَدْنَاهُ فِي مَرَضِهِ فَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْنَا أَنْ لاَ تَلُدُّونِي، فَقُلْنَا: كَرَاهِيَةُ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ. فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: أَلَمْ أَنْهَكُمْ أَنْ تَلُدُّونِي؟ قُلْنَا :كَرَاهِيَةَ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ. فَقَالَ : لاَ يَبْقَى أَحَدٌ فِي الْبَيْتِ إِلاَّ لُدَّ – وَأَنَا أَنْظُرُ – إِلاَّ الْعَبَّاسَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ هِشَامٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

٤٤٥٩- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ ، أَخْبَرَنَا أَزْهَرُ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، عَنِ الأَسْوَدِ قَالَ ذُكِرَ عِنْدَ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى إِلَى عَلِيٍّ فَقَالَتْ: مَنْ قَالَهُ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ

النَّبِيَّ ﷺ وَإِنِّي لَمُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي فَدَعَا بِالطَّسْتِ، فَانْخَنَثَ فَمَاتَ فَمَا شَعَرْتُ فَكَيْفَ أَوْصَى إِلَى عَلِيٍّ.

٤٤٦٠- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم ، حَدَّثَنا مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ عَنْ طَلْحَةَ ، قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ .فَقَال: لاَ فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الْوَصِيَّةُ، أَوْ أُمِرُوا بِهَا؟ قَالَ: أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ.

٤٤٦١- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ ، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَصِ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِث قَالَ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دِينَارًا ، وَلاَ دِرْهَمًا ، وَلاَ عَبْدًا ، وَلاَ أَمَةً إِلاَّ بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا وَسِلاَحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا لاِبْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً.

٤٤٦٢- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْب ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ ثَابت ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ : لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ – عَلَيْهَا السَّلاَمُ – وَاكَرْبَ أَبَاهُ فَقَالَ لَهَا لَيْسَ عَلَى أَبِيك كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ يَا أَبَتَاهْ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ – عَلَيْهَا السَّلاَمُ – يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ.

٨٦- باب آخرِ مَا تَكَلَّمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم.

٤٤٦٣- حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُحَمَّد ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله قَالَ يُونُسُ قَالَ الزُّهْرِيُّ ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّب فِي رِجَال مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ وَهْوَ صَحِيحٌ إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّة ثُمَّ يُخَيَّرَ فَلَمَّا نَزَلَ بِه وَرَأْسُهُ عَلَى فَخذي غُشِيَ عَلَيْه ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْف الْبَيْت ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى فَقُلْتُ إِذًا لاَ يَخْتَارُنَا وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهْوَ صَحِيحٌ قَالَتْ فَكَانَتْ آخرَ كَلِمَة تَكَلَّمَ بِهَا: (اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى).

٨٧- باب وَفَاةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤٤٦٤ و٤٤٦٥- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ ، عَنْ يَحْيَى ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهم أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا.

٤٤٦٦- حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يُوسُفَ ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ ، عَنْ عُقَيْلٍ ، عَنِ ابْنِ شِهَاب ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ تُوُفِّيَ وَهْوَ ابْنُ ثَلاَثٍ وَسِتِّينَ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّب مِثْلَهُ.

٨٨ - بَابٌ. ٤٤٦٧- حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ ، عَنِ الأَعْمَشِ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، عَنِ الأَسْوَد ، عَنْ عَائِشَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلاَثِينَ (يَعْنِي صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ).

وبعد

فقد أتم الله تعالى –وله الحمد والفضل والمنَّة– على عبدِه الفقير إلى عون الله ورحمته ومغفرته، والمُحبِّ لحبيبِ ربنا سبحانه ،وحبيبِ المؤمنين الصادقين، وحبييبِ ملائكته، وحبيبِ أنبيائه ورسله؛ صاحب السيرة النبوية العطرة محمد ﷺ نعمةَ إخراج الكتاب الثاني من سلسلة–رسولنا في حياتنا–"شعاع من السيرة النبوية في العهد المدني: الدعوة والدولةوالجهاد؛" وذلك مساء يوم الجمعة المباركة لستة وعشرين خلت من شهر الله المحرم لعام خمسة وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة (٢٦/١/ ١٤٣٥هـ)، الموافق للتاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني لعام ثلاثة عشر وألفين للميلاد (٢٩/١١/٢٠١٣م).

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأُمّي

وعلى آله وصحبه وسلَّم

راجح بن عبد الحميد بن سعيد الكردي

أستاذ العقيدة والفلسفة والدعوة والسيرة

بكلية الشريعة في الجامعة الأردنية

عمان/ الأردن

المراجع

١- **البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن اسـماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزَة البخاري الجعفي ، (ت٢٥٦هـ)، صحيح البخاري بشرح فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، الطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.**

٢- **البخـاري، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسـماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن برْدزَة البخاري الجعفي، (ت٢٥٦ه)، صـحيح البخاري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ه-١٩٩٢م.**

٣- **البرهان فوري، علاء الدين علي المتقي بن حسـام الدين الهندي ،(ت٩٧٥)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبعة مؤسسة الرسالة.**

٤- **الترمذي، أبو عيسـى محمد بن عيسـى بن سـورة ، (ت٢٧٩ه)، الجامع الصـحيح، (تحقيق إبراهيم عطوة)، طبعة١، مصـطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م.**

٥- **ابن حجر العسقلاني، الحافظ بن علي بن حجر، (ت٨٥٢ ه)ـ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الطبعة السلفية،القاهرة ١٣٨٠هـ.**

٦- **حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٤، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٣ه- ١٩٨٣م،**

٧- **الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام،(ت٢٥٥هـ)، سنن الدارمي،(د.ط)، نشر دار إحياء السنة النبوية، بيروت،(د.ت).**

٨- **دروزة، محمد عزة، سـيرة الرسـول ﷺ ، (د.ط)، منشورات المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، قطر، ١٤٠٠ه.**

٩- **ابن الديبع الشـيباني، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد العبدري الزبيدي (ت٩٤٤هـ)، حدائق الأنوار، ومطالع الأسرار، (تحقيق الشيخ عبد الله الأنصاري) ، طبعة قطر، (د.ت).**

١٠- الرازي، فخر الـدين أبو عبـد الله محمـد بن عمر بن حسـين القرشـي الطبرستاني، (ت٦٠٦هــ)، التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)،طبعة ١، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٩٣٨م.

١١-أبو زهرة، الشـيخ محمـد، خاتم النبيين، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٣م.

١٢-سالم، إبراهيم علي، النفاق والمنافقون، (ط.ط)، دار الشعب، القاهرة، (د.ت).

١٣-ابن سـعـد، محمد بن سـعد، الطبقات الكبرى،طبعة دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٨.

١٤-سـليمان الندوي،الرسـالة المحمدية، طبعة٢، مكتبة دار الفتح، دمشـق، ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.

١٥-السـهيلي، ابو القاسـم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسـن الخثعمي، (ت٥٨١هــ)، الروض الأنُف في تفسـير السيرة النبوية،ومع السيرة النبوية لابن هشام، طبعة الحاج عبد السلام شقرون، القاهرة١٩٧٢م.

١٦-سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم،طبعة ٤، الدار العربية، بيروت، (د.ت).

١٧-السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هــ، الجامع الصغير في أحاديث البشـير، طبعة ٤، مصـطفى البابي الحلبي، القاهرة، (د.ت).الصلّابي، محمـد علي، السـيرة النبوية - عرض حقائق وتحليل أحداث- ط١،دار النشـر للجامعات، القاهرة، ١٤٢٨ه- ٢٠٠٧م،

١٨-الطبري، أبو جعفر بن جرير ت٣١٠هــ، تاريخ الملوك والرسـل(تاريخ الطبري) ،(ت محمد أبو الفضل إبراهيم)، طبعة٢، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٧م.

١٩-عرجون، محمد الصادق، محمدٌ رسول الله، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م،

٢٠-د.علي سامي النشار، شهداء الإسلام، دار الكتب العربي ، القاهرة.

٢١- العلي، إبراهيم محمد العلي، صـــحيح الســـيرة النبوية،الطبعة الأولى، دار النفائس، الأردن، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٢٢-د.عماد الدين خليل، دراســة في الســيرة النبوية، مؤســسة الرسالة، بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
٢٣- العمري، أكرم ضــياء الدين، الســيرة النبوية الصحيحة، ط٥، مكتبة العلوم والحِكَم، المدينة المنورة، ١٤١٣ه- ١٩٩٣م.
٢٤-الغزالي، محمد ، فقة الســـيرة، الطبعة الرابعة، دار الكتب الحديثة ، القاهرة، (١٣٨٤ه-١٩٦٤) م.
٢٥-الفيروزآبادي، مجد محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، طبعة ٢، مصـــطفى البابي الحلبي، القاهرة،١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
٢٦-القاضي عياض، أبو الفضل القاضي عياض اليحصبي ت٥٤٢هـــ ، الشفاء مطبوع مع شــرح الشفا في شمائل المصطفى ، لنور الدين القاري، (تقيق حسنين محمد مخلوف)، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت).
٢٧- ابن قيم الجوزيــة، شـــمس الــدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، (٦٩٧-٧٥١هــــ)، زاد المعاد في هدى خير العباد، (د.ط)، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤١٩ه-١٩٩٨.
٢٨-ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ت٧٧٤هـ ، البداية والنهاية، (طبعة مصورة عن الطبعة الأولى)، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٦م.
٢٩-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (د.ت).
٣٠-المباركفوري، صــفي الدين ،الرحيق المختوم، طبعة١، رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
٣١-مســلم،الإمام مســلم بن الحجاج بن مســلم القشيري النيسابوري، (٢٠٦-٢٦١هـ) ،صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية، القاهرة.
٣٢-مسلم، صحيح مسلم، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٦ه-١٩٩٥م.

٣٣-المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الاسماع ، طبعة٢، (تحقيق محمد شاكر)، نشر الشؤون الدينية بدولة قطر،(د.ت).
٣٤-المنصـــورفوري، محمد ســـليمان سلمان، رحمةً للعالمين، ط١،الدار السلفية، الهند، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
٣٥-ابن منظور، لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د.ت).
٣٦-ابن هشـــام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت٢١٣هـــــ)، السيرة النبوية (وبهامشـــها الروض الأنف للســـهلي)، طبعة الحاج عبد الســـلام شقرون ، القاهرة، ١٩٧٢م.
٣٧-الهيثمي، أبو بكر نور الدين (ت٨٠٧ه)، مَجْمَع الزوائد ومنبع الفوائد، (د.ط)، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٦ه- ١٩٨٦م.
٣٨-الواقـــدي،محمـــدبن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ه)،المغازي، (تحقيق مارســـــدن جونس)، ط٣، عالم الكنب، بيروت، ١٤٠٤ه- ١٩٨٦م.